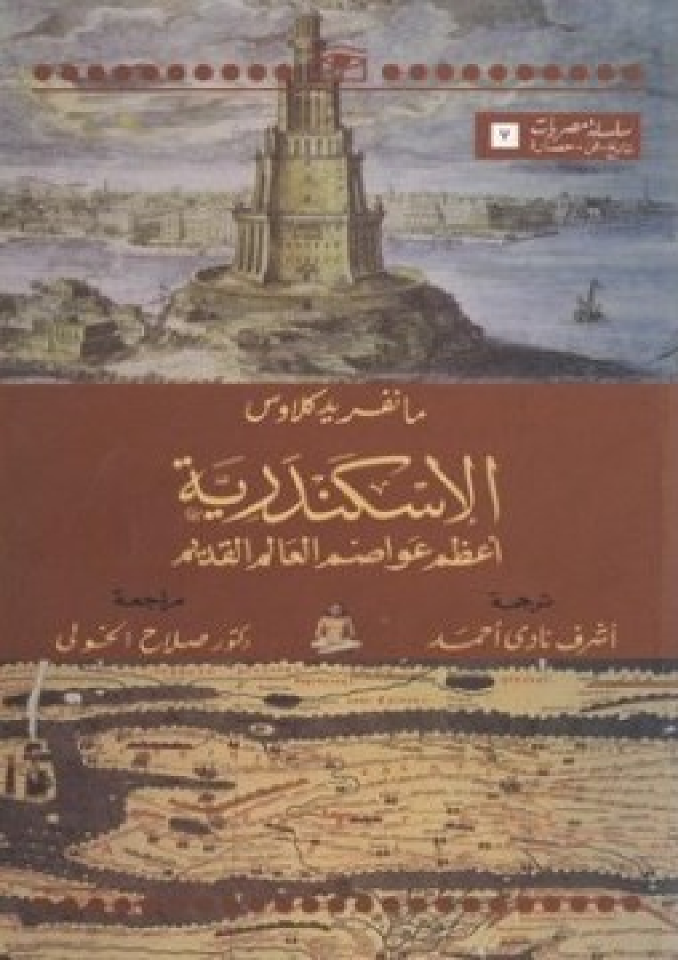


سلسلة مصريات
مانفريد كلاوس
الإسكندرية
أعظم عواصم العالم القديم
ترجمة
أشرف نادي أحمد
مراجعة
دكتور صلاح الخولي

# الإسكندرية

## أعظم عواصم العالم القديم

- الكتاب: الإسكندرية (أعظم عواصم العالم القديم)

ALEXANDRIA (Eine antike Weltstadt)

- الكاتب: مانفريد كلاوس

MANFRED CLAUSS

- الكتاب الأصلى صادر باللغة الألمانية ويصدر باللغة العربية بإذن خاص



- الطبعة الأولى باللغة العربية ٢٠٠٩
- الغلاف: تصميم جرافيك: د. مدحت متولى
- اللوحة إلى اليمين: سشات إلهة الكتابة ودور الوثائق عند قدماء المصريين.
- طبع فى مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب


كورنيش النيل، رملة بولاق، القاهرة. ت:٢٥٧٧٥٠٠٠/٢٥٧٧٥٢٢٨

فاكس: ٢٥٧٥٤٢١٣ (٠٠٢٠٢) ص.ب:٢٣٥ ـ الرقم البريدى: ١١٧٩٤ رمسيس

WWW.gebo.gov.eg

Email: info@gebo.gov.eg



- كلاوس، مانفريد

الإسكندرية: أعظم عواصم العالم القديم/ مانفريد كلاوس؛

ترجمة: أشرف نادى أحمد؛ مراجعة: صلاح الخولى.-

القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٩.

٣٧٦ ص؛ ٢٤ سم. ـ (سلسلة مصريات)

تدمك ٩٧٨ ٩٧٧ ٤٢٠ ٩١٦ ٠

١- الإسكندرية ـ تاريخ قديم

( أ) أحمد ، أشرف نادى (مترجم)

(ب) الخولى، صلاح (مراجع)

(ج) العنوان

رقم الإيداع بدار الكتب ١٣٣٨٤/ ٢٠٠٩

-----------------------

I.S.B.N 978-977-420-916-0

ديوى ٩٣٢

مانفريد كلاوس

# الإسكندرية

## أعظم عواصم العالم القديم

ترجمة

أشرف نادى أحمد

مراجعة

دكتور صلاح الخولى

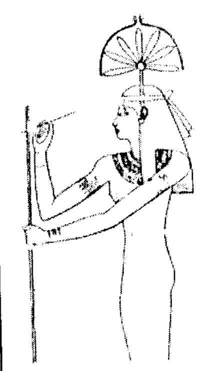


الهيئة المصرية العامة للكتاب
٢٠٠٩

# مصريـــات

تــاريـخ ـ فـن ـ حـضـارة





# الفهرس

## الفصل الثانى

## الولاية الرومانية والعاصمة منذ ٣٠ ق.م. وحتى ٢٨٤ ميلادية

### رأس مصر، والتغييرات التى أحدثها أغسطس بها (١٣٥ــ٢٣٩)



## الفصل الثالث

### مقر البطريرك: ٢٨٤ــ٦٤١م (٢٤٠ــ٣٥٣)



# مقدمة المراجع

لقد سرنى كثيرًا أن عُهد إلىَّ مراجعة ترجمة هـذا الكتـاب الهـام عـن الإسكندرية من الألمانية إلى العربية. فالكتاب هو فى الواقع واحد من أهم الكتب التى صدرت مؤخرًا عن مدينة الإسكندرية القديمة، من حيث تفرُّده فى أسلوبه ومنهاجه وتنوع عناصره وموضوعيته. فقد استطاع مؤلفه الألمـانى الأسـتاذ "مانفرد كلاوس" أن يقدم لنا وصفًا كاملاً لمدينة الإسكندرية من حيث عمارتهـا وآثارها وتاريخها وسكانها بأجناسهم وطبائعهم المختلفة، وذلك منذ إنشائها على يد الإسكندر المقدونى فى عام ٣٣١ ق.م. وحتى الفتح العربى عام ٦٤١م.

واعتمد المؤلف فى دراسته على المادة الوثائقية المكتوبة من محفوظـات ومؤلَّفات لكُتّاب مصريين وإغريق ورومان وحتى العرب، إلى جانب ما تبقَّـى من آثار وعمائر من الإسكندرية القديمة. واستطاع أن يقدم تصورًا شبه متكامل عن تلك المدينة العظيمة وما مر بها من أحداث. والأهم من ذلك أنه اسـتطاع أيضًا أن يقدم صورة قوية عن سكان مدينة الإسكندرية وأجناسهم وطـوائفهم، وما كان بينهم من علاقات وصراعات وما وقع لهم ولمدينة الإسـكندرية مـن أحداث ومِحَن بلورت تاريخ مدينة الإسكندرية. ثم ما تحقق لتلك المدينـة مـن ازدهار ونمو ورخاء كبير وتقدم علمى وثقافى جعلها تتصدر حواضـر العـالم القديم، بل وجعلها حاضرة العالم الهلِّينستى الأولى متفوقةً فى ذلك علـى أثينـا وروما فى بعض فتراتها.

من أهم ما قدمه المؤلف فى كتابه وصفه لمدينة الإسكندرية وتخطيطها وشوارعها الشهيرة من خلال الوثائق، ثم استعراضه لسياسة الملوك البطالمة الأوائل وجهودهم المتواصلة فى تطوير اقتصاد مصر ورفع معدله، حتى استطاعوا أن يجعلوا من مصر أكبر قوة اقتصادية وعسكرية فى العالم القديم آنذاك، وإن صبَّ كل ما تحقق من رخاء وازدهار فى خزائن البيت الحاكم البطلمى، وتبدد معظمه فى لهوهم وترفهم وصراعاتهم التى أدت فى النهاية إلى وقوع مصر تحت حكم الرومان، ولتصبح مصر ـ لأول مرة فى تاريخها ـ ولاية رومانية تابعة.

ثم يتطرق فى إطار الحديث عما حققته الإسكندرية من ازدهار ورخاء إلى الحديث عن التقدم العلمى المذهل بفضل علمائها وجامعتها ومكتبة الإسكندرية الشهيرة، وهو ما جعلها قبلة الباحثين والعلماء من كل أنحاء العالم وكافة التخصصات، حتى غطت فى ذلك على أثينا نفسها. أما الجزء الأهم فى الكتاب، فهو تلك الدراسة الرائعة التى قدمها المؤلف عن شعب الإسكندرية بمختلف طوائفه وأجناسه وتركيبة سكانه الفريدة، لطبائعهم وعاداتهم وتقاليدهم وما كان بينهم من علاقات متشابكة وخلافات وصراعات مختلفة، فقد تشكل شعبها من كل الأجناس والألوان: ما بين مصريين وإغريق ورومان ويهود تباينت أوضاعهم الاجتماعية والاقتصادية، وكان أصحاب الأرض للأسف هم الأسوأ حالاً. وتعددت أسباب الصراع والخلاف ما بين أسباب سياسية وأسباب اقتصادية وأسباب دينية.

ولقد لعب اليهود الذين استقدمهم البطالمة إلى مصر وتغلغلوا فيها وفى الإسكندرية على وجه الخصوص، الدور الأكبر فى تلك الصراعات وتحولوا تدريجيًا من مجرد مهاجرين إلى أن أصبحوا أغنى أغنياء العالم. وسعوا إلى الحصول على المُواطَنة الإغريقية والرومانية، والتى ما كان أصحاب الأرض يجرؤون على المطالبة بها. وكانوا فى كثير من الأوقات السند للرومان وجيوشهم ضد المصريين فوقع الصراع بينهم وبين اليونانيين والمصريين، وهو ما سجله المؤلف فى ثوراتهم المتصلة فى أعوام ٣٨م، ٦٦م، ٧٣م والتى كان

يؤججها المتطرفون اليهود من السيكاريين. وأخيرًا فى ثورتهم الكبرى عام ١١٥، والتى قاموا فيها بأعمال غاية فى الوحشية وانتهت بالقضاء عليهم. ومع انتشار المسيحية وتحول عدد كبير من أهل مصر إلى الدخول فيها، وقعت صورة أخرى للصراع بدأ يتعرض أتباعها إلى الكثير من صور القهر والقتل والمطاردة بلغت ذروتها فى عهد دقلديانوس. وأبلغ صورة على ذلك سجلها المؤلف فى حادثة مقتل الراهبين: كيروس ويوحنا والسيدة أثناسيا مع بناتها بصورة بشعة.

ولكن ما إن استقر الأمر للمسيحية وأتباعها واضطرت روما للاعتراف بها، حتى تحول بعض أساقفة كنيسة الإسكندرية ممن بعدوا عن طبيعة المسيحية السمحة إلى الانتقام من كل من عاداهم وخالفهم فى الرأى، ومن بينهم كان أثناسيوس وفيلوس وكيريل الذين استخدموا فى ذلك كل صور العنف والشدة. فسجل المؤلف بداية صراعهم مع من خالفهم الرأى من أتباع المذاهب المسيحية الأخرى، مثل الآريين والمينوتيين، ثم صراعهم مع أصحاب الطبيعة المزدوجة (الديوفيزيقيين) الذين كان يساندهم القيصر.

ثم صراعهم ومطاردتهم لمن تبقَّى من الوثنيين وتدميرهم للسرابيوم وكل صور عبادتهم الوثنية، وبلغ ذلك ذروته فى حادثة قتل الفيلسوفة هيباتيا بطريقة بشعة كما صورها المؤلف. وأخيرًا بالصراع مع اليهود الذين كانوا فى واقع الأمر هم من بدأ بالاستقرار، وانتهى الأمر بالقضاء عليهم فى هجوم عام ٤١٥م. ويتواصل الصراع بين أصحاب المذهب المونوفيزيقى (الطبيعة الواحدة) الذى ينتمى إليه معظم سكان الإسكندرية ومذهب الطبيعة المزدوجة الذى سانده القيصر الذى ظل يضيِّق عليهم الخناق. ولا يتوقف ذلك إلا بعد الفتح العربى عام ٦٤١م، والذى ينهى المؤلف به هذا الوصف الدقيق والدراسة الثرية مُؤلَّفه عن مدينة الإسكندرية وشعبها على مدار تسعة قرون متصلة فى جهد طيب يُحسب له ويُشكر له. مع كل الشكر والتقدير لمترجم الكتاب الأستاذ أشرف نادى على ما بذله من جهد فى ترجمة هذا الكتاب الكبير والهام، وكل الشكر والتقدير للهيئة المصرية العامة للكتاب على تبنِّيها وتشجيعها على ترجمة هذا الكتاب وتقديمه على هذه الصورة للقارئ العربى.

# مقدمة المترجم

"الإسكندرية أعظم عواصم العالم القديم" إنها بحق مقولة رائعة لعالم آثار ألمانى أوروبى، وإننا نعلم علم اليقين مدى مصداقية وعظمة مدرسة الآثار الألمانية. هذا الأستاذ العالم العظيم، دكتور مانفريد كلاوس، كتب العديد من الكتب عن المدن المصرية، وكذلك عن الآثار المصرية والشخصية المصرية. هذا العالم وأمثاله، قالوا كلمة عظيمة فى حق شعب عظيم. لقد قال هو ورفاقه من العلماء الأفذاذ الذين تخصصوا فى علم المصريات: "إن الشخصية المصرية هى التى وضعت اللبنة الأولى فى بناء الحضارة الإنسانية التى نعيش فى ظلالها اليوم، سواء أكانت فى الغرب أم فى الشرق"، لقد قال هذا العالم بالأدلة القاطعة المادية والنظرية بأن المصريين هم أصحاب كل العلوم التى يتعلمها العالم بأسره حتى يومنا هذا، سواء أكان ذلك فى أوروبا أم فى أمريكا أو آسيا أو أفريقيا. لقد كانت البداية من مصر والانطلاقة الأولى أيضًا من مصر أوجدت مسميات العلوم من العدم قبل أن توجد مسميات. ولأن يجند هذا العالم وأمثاله كل طاقاته وحياته للكتابة عن فضل الحضارة المصرية القديمة على سائر الحضارات الزائلة والباقية، ليُعتبر كل شىء جميل، ودعاية طيبة للحضارة المصرية والشخصية المصرية المعاصرة. لقد قام هذا العالم العظيم بتأليف كتابه هذا الذى لا يُعتبر الأول ولا الأخير عن الحضارة المصرية فيما يقرب من أربعمائة صفحة من القطع المتوسط.

إن الدور الذى يقوم به نشر هذه النوعية من الكتب لا يقل أهمية عن الدور الذى تقوم به مكاتب هيئة تنشيط السياحة فى جميع أنحاء العالم؛ وذلك بالنظر إلى كَمِّ اللغات التى تُرجم إليها هذا الكتاب الذى أتاحته هيئة الكتاب المصرية للقارئ العربى لكى يقرأه بالعربية، ويدرك شيئًا عن عظمة ماضيه ومساهمة أجداده فى تراث الإنسانية القديم الحديث. إننى أرى فى هذا الكتاب خير سفير للشخصية المصرية صاحبة هذه الحضارة فى جميع أنحاء العالم.

يتناول الكتاب نشأة مدينة الإسكندرية منذ أن كانت حُلْمًا فى وجدان الفتى اليافع الإسكندر الأكبر، مرورًا بتأسيسها وإنشاء جامعتها ومركز أبحاثها، الذى خرجت منه جميع الاختراعات والمبتكرات العلمية التى بهرت العالم آنذاك. كما يتناول الكتاب الأحداث التاريخية التى مرت بها مدينة الإسكندرية منذ نشأتها عام ٣٣١ ق.م. وحتى الفتح العربى عام ٦٤١ بعد الميلاد.

وإننى إذ أقدم لهذا الكتاب لا أنسب الفضل فيه لنفسى، ولكننى أنسب الفضل لأهله ممن ساعدوا وعاونوا على إخراج هذا العمل إلى ما هو عليه حتى يصل إلى يد القارئ العربى، وأول أهل الفضل والعلم الذين أود أن أوجه إليهم الشكر بأسمائكم وبالإنابة عنكم جميعًا، أستاذنا العالم الجليل أ.د/ حسان عامر، أستاذ الآثار البطلمية والرومانية بكلية الآثار جامعة القاهرة، كذلك أستاذنا العالم الجليل أ.د/ أبو اليسر فرح، أستاذ التاريخ البطلمى والرومانى بجامعة عين شمس، وكذلك أوجه شكرى إلى الدكتور/ خالد غريب، المدرس بكلية الآثار بجامعة القاهرة. كما أتوجه بالشكر لابن مصر المثقف الواعى الذى يداوم على قراءة ومتابعة كل ما هو جديد عن آثار مصر وتاريخها وهو السيد المستشار/ محمد السعدنى. كما أوجه شكرى إلى السيدة/ دوريس حسن جاس، لدورها الرائد فى شرح وتبسيط المصطلحات الألمانية القديمة إلى اللغة العربية. كما أدعو من كل أعماقى بالخير والبركة لكل يد مصرية مخلصة تقوم بوضع لبنة نافعة لأمتنا العظيمة مصر صاحبة الفضل الأزلى التليد، كما أدعو لكل يد مصرية وطنية تقدم النفع لهذا البلد المبارك من الله فى جميع كتبه السماوية.

والله من وراء القصد وهو يهدى السبيل،،

# مقدمة المؤلف

فى عام ٦٠ ق.م.، زار المؤرخ ديودور مدينة الإسكندرية ووصفها قائلاً: هى أكبر مدن البحر المتوسط قاطبة، أما من حيث الثراء والجمال والنعيم فهى الأولى على مستوى العالم بلا منازع![١].

لقد كانت رؤية مدينة الإسكندرية أو زيارتها حلمًا كبيرًا عند الكثيرين، وليس هناك أبلغ تعبيرًا على أوصافنا هذه من خطاب كتبه صبى إلى والده الذى زار مدينة الإسكندرية دون أن يأخذه معه، والخطاب هنا ملىء بالأخطاء اللغوية والنحوية، ولكن يستطيع المرء أن يدرك بسهولة كم كان الصبى حانقًا على والده، وكم كان غاضبًا عليه، إذ يقول الصبى فى الخطاب: " لقد ذهبتَ إلى الإسكندرية ولم تأخذنى معك! إنك إذا كررت ذلك مرة أخرى فلن أكتب لك خطابًا ولن أتحدث معك، ولن أدعو لك بالصحة! ولن أعطيك يدى مرة أخرى! ولن أسلم عليك مرة أخرى!"[٢].

إن اسم مدينة الإسكندرية قد ارتبط بمؤسسها العظيم والأشهر على مستوى التاريخ القديم، ولم تحظ مدينة على مستوى العالم بهذا الإعجاب والثناء بعد روما مثل مدينة الإسكندرية، كذلك لم تحظَ مدينة بالذكْر فى كتب التراث القديم (الكتابات الأدبية القديمة) بقدر ما حظيت الإسكندرية. وقد تبدو الكتابة عن تاريخ مدينة عالمية كالإسكندرية أمرًا يسيرًا، بناء على غزارة مصادر المادة العلمية حولها، إلا أن الكتابة عن تاريخ مواطنى هذه المدينة أمر صعب، فقد تعاقب فيها ثلاثون جيلاً على مدى ٩٠٠ عام. إنه لمن الصعب تناول كل جنس

على حدة، حيث إن هذه الأجناس تشابكت مصالحها بعضها مع البعض الآخر حتى لتبدو للناظر مثل أكوام النمل دائم الحركة والنشاط، ولو أنهم لم يلعبوا دورًا مهمًا فى مجريات الأمور.

وبالرغم من أننا مهتمون بحياة الناس الصغار البسطاء، إلا أننا لا نعلم عنهم سوى القليل، ما رأيهم فى أن مدينتهم تُعتبر على رأس المدن العالمية الكبيرة، ما رأيهم عن الصراعات التى كانت تحدث فى القصر الملكى بين الأخت وأخوتها الآخرين. كيف رأوا تحوّل الإسكندرية من مدينة عالمية كبيرة إلى مقاطعة صغيرة فى عصر الرومان. ما موقفهم إزاء الأباطرة الرومان كل على حدة، وبخاصة الذين زاروا الإسكندرية. ما موقفهم من تيار الديانة المسيحية المتزايد فى مدينتهم، ثم ما موقفهم من الصراعات بين أهل الديانة الواحدة من المسيحيين[٣].

كل هذه الأسئلة لا أستطيع تناولها سوى بخطوط عريضة حذرة ومتأنية. وبقدر ما كانت مدينة الإسكندرية شهيرة وذائعة الصيت، كان السكندريون أيضًا مشهورين، وكانت تدور حولهم الكثير من الشائعات والأقاويل أيضًا. وهذه الناحية بصفة خاصة تنافس فيها كُتّاب التاريخ، فكل منهم أراد أن يحدد شخصية هذه المدينة القائمة على النيل من خلال وجهة نظره هو وليس الآخر، ولكنهم اتفقوا جميعًا على نقطة واحدة: لم ير معظمهم فى أهلها حسنة واحدة تُذكر. لقد كانت الإسكندرية مغناطيسًا جذب جميع أنواع البشر من شتى بقاع الدنيا. ولهذا السبب كانت تكمن العداوة بين هذه الجموع البشرية بهذه المدينة التى حوت اليونانيين واليهود والمصريين، والكثير من الأجانب الآخرين من شتى بقاع الأرض. بهذا الخليط من البشر كانت الإسكندرية دائمًا برميل البارود القابل للانفجار فى أية لحظة، ربما لأقل الأسباب، حتى وإن كان السبب وفاة قطة، أو وضع تمثال فى مكان خطأ، أو كلمة صغيرة مغلوطة عن المسيح.

الفصل الأول

# عاصمة مملكة البطالمة منذ عام ٣٣١ ق.م. وحتى عام ٣٠ ق.م.

## حلم الإسكندر وتأسيس مدينة الإسكندرية

بعد النصر المؤزر العظيم الذى أحرزه الإسكندر عام ٣٣٣ ق. م. فى منطقة أسوس، والذى ظل لعشرات السنين يُتغنّى به فى المدارس وفى كل مكان، تحرك الإسكندر نحو الجنوب ليس فقط من أجل أن يستولى على السواحل السورية، ولكن أيضًا من أجل أن يصل إلى مصر البلد العظيمة التى طالما سمع عنها الكثير، والتى كانت هدفه منذ أن تحرك فى البداية من بلاده، وكان من الممكن آنذاك تبرير ذلك بأنه لأسباب استراتيجية، فمن الأفضل قبل التحرك شرقًا، أن يؤمّن ظهره فى الغرب عند مصر. هكذا كان المؤرخ إريان يفسر مسلك المقدونى الكبير كما لو أنه كان يقول له: "لو أننا استولينا على مصر، فليس هناك من بعد ذلك ما نخشاه، سواء فى بلاد اليونان أو وطننا، وسوف نتحرك صوب بابل بكل ثقة واطمئنان ونحن واثقون بأننا أغلقنا أمام الفرس البحر المتوسط، وكذلك بلاد الرافدين"[١].

إن الاستيلاء على جزيرة صُور قد استغرق من الإسكندر شهورًا طويلة أبلى الإسكندر فيها بلاء حسنًا، وأظهر جَلَدًا ورباطة جأش كان حَرِيًا بها، ثم اتجه صوب الجنوب ناحية غزة، المدينة الحدودية المصرية، وقد حاصرها الإسكندر ثم استولى عليها بعد أن استمر الحصار شهرين فقط، وهى فترة تُعد

قصيرة بالمقارنة بفترة الأشهر التسعة التى قضاها الإسكندر فى حصار صور. وبسقوط غزة، يُعتبر الحصن الفارسى الحامى لحدود مصر قد سقط، وعلى إثر ذلك انسحب الحاكم الفارسى مازاكيس إلى منف. وانطلق الإسكندر نحو العاصمة المصرية، وفى طريقه أخذ القوم يحيونه باعتباره محررًا وقد كان هو بالفعل كذلك فى تلك اللحظة، ولكن كان عليه أن يسارع بأن يصبح هو الحاكم الجديد لمصر.

فى نهاية عام ٣٣٢ ق.م.، وصل الإسكندر إلى مدينة منف، واستسلم الحاكم الفارسى، وقد أعطى الإسكندر ثمانية آلاف تالنت من الفضة، وكذلك محتويات قصره الملكى، معلنًا بذلك تسليم البلاد إلى الإسكندر الأكبر. بعد فترة وجيزة، تم تتويج الإسكندر الأكبر ملكًا على البلاد من قبَل الكاهن الأكبر لمعبد بتاح، وذلك على الطريقة الفرعونية، ومنحه الكهنة ألقاب: "محبوب رع، والمختار من آمون ". وبذلك غدا الإسكندر فرعونًا للبلاد فى مصر، ولأنه قد أصبح الآن فرعونًا كان لزامًا عليه ــ كفرعون وليس كحاكم أجنبى ــ أن يزور المعابد المصرية، ويقدم القرابين للآلهة المختلفة، تمامًا مثلما كان يفعل الفراعنة منذ آلاف السنين. وقد روجت الأساطير لمقولة مؤداها أن الإسكندر هو أحد أبناء آخر الفراعنة نكتانبو الثانى، والذى فر إلى الصحراء منذ عشرة أعوام. بعد ذلك اتجه الإسكندر إلى معبد سيوه الشهير بالنبوءات المهمة على مستوى العالم. كان الإسكندر معتقدًا بأن أصله إلهى، وإنه مثل هرقل هو ابن زيوس، وهذا يتفق تمامًا مع العقيدة المصرية التى كانت تعتقد أن الفرعون هو ابن الآلهة. وبمجرد أن وصل الإسكندر معبد آمون فى سيوه حيَّاه كبير الكهنة قائلاً:" مرحبًا بابن الإله زيوس آمون".

فى عام ٣٣١ ق.م.، اتجه الفرعون الجديد ومعه عدد قليل من الجنود صوب فرع النيل الكانوبى، وعند منطقة تجمعت فيها ١٦ قرية، أعطى أوامره بإنشاء مدينة جديدة. بلوتارخ المؤرخ اليونانى يتحدث فى هذا الشأن بأن هذه المدينة كانت نتاج حلم داعب خيال الإسكندر الأكبر، فقد كان يحلم دائمًا ببناء مدينة يونانية فى مصر، بعد الاستيلاء عليها، تحمل اسمه، وهى تقع فى مكان متسع وفسيح لم يسبق لها مثيل، خططها وبناها المهندسون. عند ذلك وفى

إحدى الليالى حلم الإسكندر بوجه رجل جميل ذى شعر أبيض مهيب الطلعة بهى الشكل، وقال الرجل للإسكندر فى الحلم: "هاهنا توجد جزيرة بين أمواج البحر اسمها فاروس، تقع أمام سواحل مصر بها ميناء يصلح مرسى للسفن"(٢). عند ذلك استيقظ الإسكندر من نومه وراح ينظر إلى فاروس، والتى كانت قديمًا جزيرة فى منطقة كانوب. والآن هى متصلة باليابسة عن طريق سد، وعندها رأى الإسكندر ما لهذا الموقع من مزايا طبيعية رائعة، حيث إن هذا السد يشبه الكوبرى العريض فى وسط البحر ما بين بحيرة تُسمى مريوط والبحر من الناحية الأخرى. يقول الشاعر اليونانى هومير(٣): إن هذا الموقع لم يكن فقط مبهرًا للعين من الناحية الجمالية فحسب؛ بل ومن الناحية الهندسية الفنية أيضًا. ولأن شاعر اليونان الأشهر قد امتدح المكان وأبدى إعجابه به، فإن الإسكندر قد تأكد له صدق حلمه وازداد اقتناعًا باختياره لمكان مدينته المفضلة. كما أن التجار والبحارة الذين كانوا على دراية بالمكان قد أيدوا الإسكندر فى مقصده هذا أيضًا.

على اليابسة من هذا المكان كانت توجد ست عشرة قرية صغيرة كانت تمثل حماية للميناء. وفى أقصى الناحية الجنوبية الغربية من الشريط الساحلى الذى يمر بين البحر المتوسط وبحيرة مريوط، كانت هناك قرية أُطلق عليها اسم راقودة. كانت بقية القرى تحتوى على اثنتى عشرة قناة تصب جميعها فى البحر المتوسط(٤)، قد تم ردمها ما عدا اثنتين تم تحويلهما إلى شوارع رئيسية فى المدينة. ويرى المؤرخون من أمثال فيتروفون وسترابون وديودور وبلوتارخ بأن قرار الإسكندر واختياره للمكان هو قرار عبقرى، كما أن الطريق الحجرى الذى يربط بين البحر المتوسط وبحيرة مريوط والذى يبلغ عرضه ٢ كيلومتر ثبت أن موقعه نموذجى.

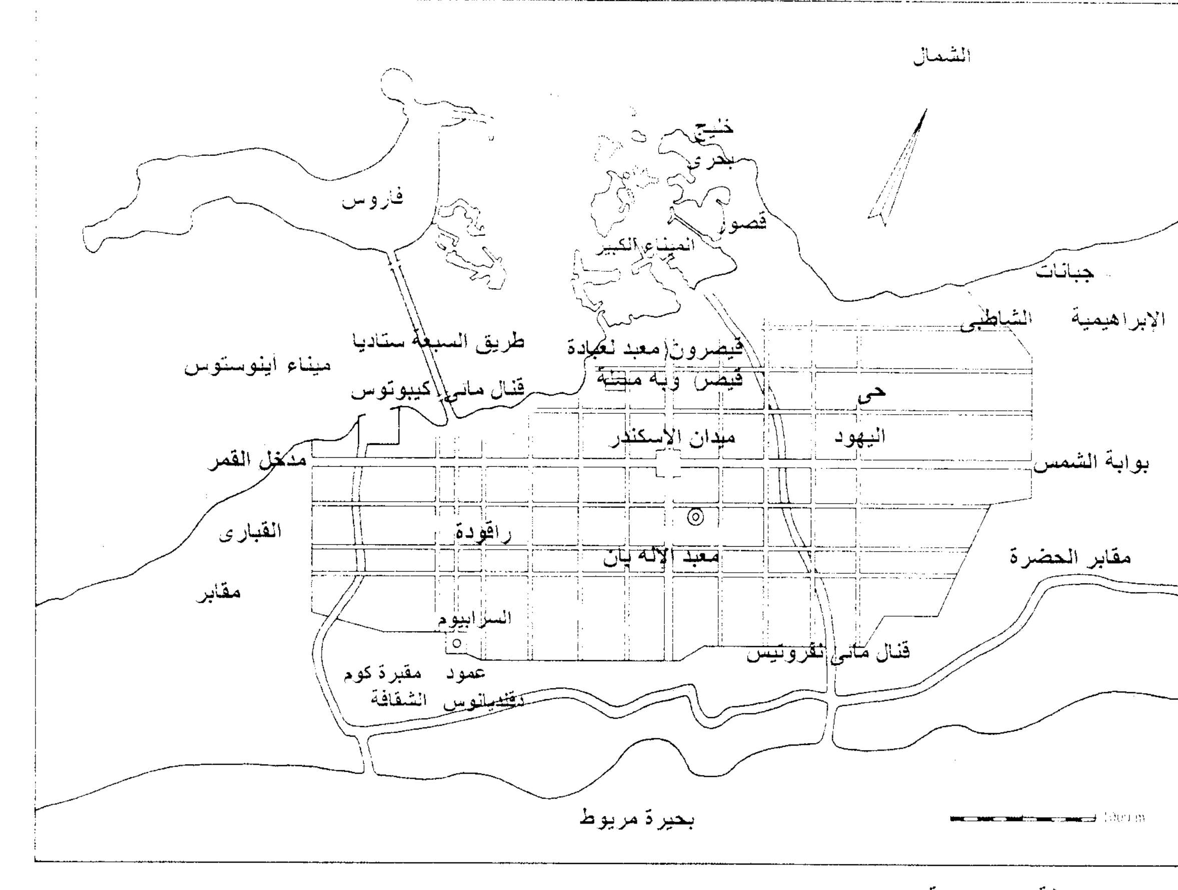
ولكى نقف على مدى براعة الإسكندر فى اختيار المكان والدقة فى تنفيذ هذا المشروع الكبير، فنرى الجميع يمدحون خطط وتفكير الإسكندر على أنه الفرعون الذى أرسى قواعد المدينة الجديدة بيديه بعد أن قام بتصميمها، حيث إنه وضع فى التصميم الشوارع الرئيسية وكذلك السوق الرئيسية فى المدينة. وحدد مسار واتجاه الأسوار المحيطة التى تحددها من جميع الجهات، كما حدد

الإسكندر الصورة النهائية التى يجب أن تبدو عليها المدينة، كما أنه حدد عـــدد المعابد التى يجب أن تحتوى عليها المدينة، ومن بين هذه المعابد كـــان هنـــاك معبد إيزيس. كما أن الإسكندر حدد الآلهة التى سوف تُعبد فى المدينة، وجعـــل تاريخ تأسيس المدينة هو السابع من أبريل. وقد قام ببناء مدينـــة الإســـكندرية وتنفيذها المهندس اليونانى داينوقراطيس من جزيرة رودس. إن ســـر النجـــاح الضخم والمستمر فى تأسيس الإسكندرية، والتى تُعد واحدة من بين مـــا يزيـــد على سبعين مدينة أسسها الإسكندر الأكبر، ليقبع بين صفحات هذا الكتاب.

### كيف كانت تبدو مدينة الإسكندرية

وعن الشكل الأقدم للإسكندريـــة عند تأسيسها، والتى أصبحت بعد ذلـــك عاصمة دولة البطالمة، فإننا لا نكاد نعلم شيئًا، ذلك أن الرومان قد غيروا الكثير من معالمها، ولم يتبقّ من مدينة الإسكندرية سوى المنطقة التى يقع بها المينـــاء القديم، والتى تأكد الأثريون مؤخرًا من تحديد التخطيط الدقيق لها، وذلك استنادًا إلى ما عُثر عليه من آثار بصفة خاصة فى الجبانـــات، والتـــى كـــشفت عـــن التوسعات التى حدثت بمدينة الإسكندرية، وكذلك اتجاه أسوارها؛ هذه الأســـوار تم الانتهاء من تشييدها فى عصر بطلميوس الأول (٣٠٦ ــ ٢٨٣ ق.م.)، وقد أخبرنا بذلك المدعو تاس توس. كما أن هذا الملك قد شيد العديد من المعابد فى هذه المدينة(٥)، كما أن أول قصر شُيد فى مدينة الإسكندرية يرجع إلى عـــصره أيضًا، حيث إن الإسكندر لم يكن لديه من الأسباب ما يجعله يقوم ببناء قصر فى الإسكندرية، كما إن بطلميوس الأول هو الذى شيد قبر الإسكندر فى الإسكندرية أيضًا.

ويرى المؤرخون أن الإسكندرية تشبه المعطف المقـــدونى، ولكـــن هـــذه الجزئية يختلف حولها المؤرخون والباحثون المُحْـــدَثون. ويـــرى الـــبعض أن المعطف يكون عادة ضيقًا فى منطقة الكتفين ويتسع كلما هـــبط إلـــى أســـفل، ويتساءل المرء عمّا إذا كان الجزء الضيق من المدينة، أم الجزء الطويل هـــو الذى يقـــع عند شاطئ البحر المتوسط، ولكنـــه من الأفضل ترك الحكم فى ذلك



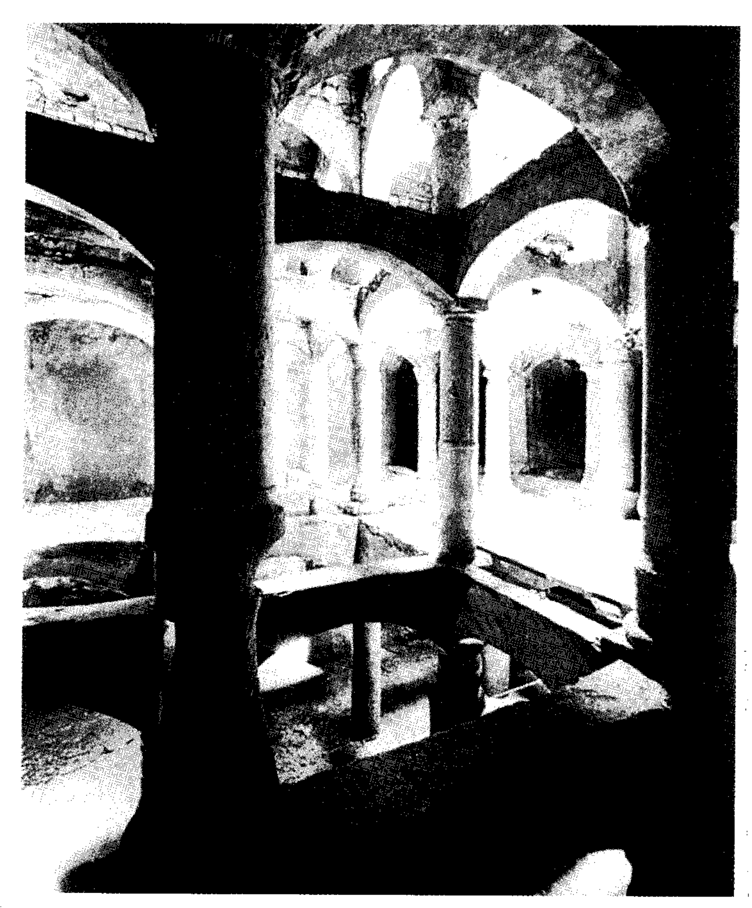

خريطة الإسكندرية

للخريطة الجغرافيـــة (شكل رقم ١). أما عن سُبل توفير مياه الشرب، فى تلك الهضبة الصخرية التى تخلو من الآبار، فقد كان هناك مصدران لمياه الـــشرب يزودان المدينة بالماء الوفير بلا عناء. أولهما كان بحيرة مريوط والتـــى كـــان يغذيها فرع من فروع النيل، والتى كانت مياهه آنذاك عذبة صالحة للشرب على خلاف اليوم. ولقد كانت مياه النـــيل ذات طعم سائـــغ محبب، حتى إن قائــــد إحدى الحاميات المصرية فى العصر الرومانى قد وبخ الجنود عنـــدما طلبـــوا نبيذاً، قائلاً لهم[٦]: "لديكم ماء النيل، وتريدون أن تشربوا نبيذاً ؟".

أما عن المصدر الثانى للمياه، فقد كانت هناك شبكة من آبار المياه العذبـــة سجل المؤرخون سبعمائة عينٍ منها كانت موجودة فى عام ١٨٧٠ بعد الميلاد، وقد تم عمل رسوم لها وتسجيلها. وقد تحدث السيد م.دى سانت جينس، عـــضو بعثة نابليون فى مطلع القرن التاسع عشر، عن وجود مدينة إســـكندرية ثانيـــة تحت الأرض بنفس امتداد الأولى، وقد شرح بإسهاب عيون المياه العذبة والتى لا تبعد كثيرًا عن الجامع ذى الألف عمود، وهذا الجامع قـــد أُخـــذت أعمدتـــه الكثيرة هذه من منطقة أثرية رومانية تقع بالقرب منه. هذه العيون المائية تقـــع فى الجزء الغربى من الإسكندرية، وتصميمها فى غايـــة الروعـــة والجمـــال. تحتوى هذه العيون على ٤٧ عمودًا من المرمر بحالة جيدة، والأرضية أســـفل هذه الأعمدة هى أرضية من المرمر أيضًا، تلك الأعمدة قد صُنفت بانتظام فـــى خمس مجموعات، أما تيجانها فقد اتخذت أشكالاً مختلفة[٧].

تلك العيون المائية كانت مرتبطة بقنوات مائية تأتى فى الأصل من بحيرة مريوط، بالإضافة إلى ذلك كان هناك الكثير من الأمطار، حيث إن الإسكندرية هى أكثر مدن مصر أمطارًا. والصورة التالية (شكل رقم٢) توضح لنـــا عـــين المياه ذات الأعمدة التى تتكون من ثلاثة أدوار. والخطأ الكبير الذى كان يعيب نظام المياه هذا هو أنه ينشر الكثير من الأمراض بين الناس فى وقت قـــصير، كما أن العيب الآخر فى هذا النظام كان يكمن فى حالات الحروب مثـــل مـــا حدث فى عصر كليوباترا، أوعندما كانت تحدث الاضـــطرابات إبـــان الحكـــم الرومانى، حيث إنه من السهل على الغازى أن يغلق قنوات المياه هذه ويحـــرم

الشعب من مياه الشرب. ومن المشاكل الكثيرة التى واجهها القياصرة الرومان فى الإسكندرية توفير مياه الشرب لجنودهم. وقد كانت كل هذه المشاكل بلا شك معروفة لدى معاصرى الإسكندر. إن ذلك جعلنا نتفهم تفكير المهندسين القدماء عند إنشائهم المدن، حيث كانوا ينشئون مدنهم دائمًا بالقرب من النيل، مثل مدينة نقراطيس، وهيراكليون وبيلوزيوم، ولكن الإسكندر الذى كان بطبعه محبًا للمغامرة لم تَعُقْه تلك الأفكار التقليدية المتوارثة عن إنشاء مدينته هذه.



(شكل٢): بئر مياه النبية.

إن الإسكندرية هى من بنات أفكار ملك مقدونى يونانى، وهى كذلك من إنشائه، ولذلك فهى ذات طابع إنشائى معمارى يونانى. ولأن الإسكندرية مدينة

يونانية، فإنها تمتعت بالنظام الديموقراطى اليونانى، وتمتع الإسكندريون بحق المُواطَنة فى مدينة الإسكندرية[٨]. ونستطيع أن نجزم بأن الإسكندرية كانت تحتوى على ما يشبه البرلمان فى وقتنا الحالى، وكان من أدوار هذا البرلمان مناقشة كل الموضوعات التى تهم المدينة والشعب، وبالطبع كان فى هذا البرلمان موظفون قاموا على شئونه الإدارية، كما أننا نعلم علم اليقين بأنه فى القرن الثالث قبل الميلاد، كانت هناك محكمة أكدت الوثائق وجودها فى الإسكندرية.

وبمجرد أن خطط المعمارى مدينة الإسكندرية على الورق، تم كذلك تحديد من الذى سوف يسكن هذه المدينة، حيث إنه جاء إلى هذه المدينة سبعمائة وعشرون مجموعة بشرية من اليونان إلى الإسكندرية فور إنشائها، وسكنت المدينة وبذلك صارت مدينة الإسكندرية كبيرة بالأعداد الغفيرة من اليونانيين الذين استحوذوا على كل شارع بها. كل اثنتى عشرة منظمة من هذه المنظمات التى سكنت الإسكندرية كونت إدارة خاصة بها، فى نفس الوقت الذى كونت فيه كل اثنتى عشرة إدارة من هذه الإدارات حيًا من المدينة. ومن خلال هذه المنظمات الصغيرة والإدارات الأكبر ثم الأحياء الأكبر تَشكّل الكيان الكبير المسمى بالإسكندرية. هذا الكيان يشبه التقويم المصرى القديم الذى يقسم السنة (بدون أيام النسىء) إلى ٣٦٠ يومًا: ١٢×١٢×٥=٣٦٠×٢. وقد سُميت الأحياء الخمسة الرئيسية بالإسكندرية تبعًا للحروف الخمسة التالية من اللغة اليونانية A,B,T,Δ,E. أما التجمعات والأحياء الأصغر، فقد أُشير إليها بالأعداد أو الترتيب الرقمى المنظم، أما الأحياء الرئيسية الكبيرة، فقد أخذت فيما بعد أسماء إما آلهة أو ملوك، وبالتالى أصبح المواطن السكندرى يكتب عنوانه هكذا: "حى برنيكى، ليون بن ليون بن آجا ـ الإدارة الثالثة ـ شارع أوسيتوى كاربوفوروس"[٩].

مع مرور الوقت، اجتذبت مدينة الإسكندرية أعدادًا غفيرة من الأجانب بخلاف السكان اليونانيين، وقد استطاع هؤلاء الأجانب مع مرور القرون التالية وفى مَواطن مختلفة، تكوين كيانات سياسية صغيرة مستقلة (ذات إدارة مستقلة جزئيًا)، ومن أشهر هذه الجماعات اليهود. أما من حيث تعداد السكان، فكان

المصريون أكثر الأجناس من غير الإغريق عددًا، بالإضافة إلى ذلك كان العبيد من كل جنس ولون يدخلون ضمن المواطنين الأحرار.

لقد تمتع الإسكندر فى حياته بالتأليه، بسبب مشروعه المعمارى الناجح واعتُبر إلهًا مؤسسًا (مستبدًا). وقد أُلّه الإسكندر أيضًا فى كثير من المدن التى أنشأها، ولكن بعد وفاته،أما الإسكندرية فقد أُلّه فيها أثناء حياته، وذلك يرجع إلى إن الإسكندر فى مصر تُوّج منذ البداية على أنه فرعون، أو ابن أمون والفرعون فى مصر كان إلهًا ابن إله، لذلك لم تكن هناك مشكلة أمام الإسكندر أن يصير إلهًا فى مصر أثناء حياته. إن الإسكندر لم يهمل مدينة الإسكندرية أو يتشاغل عنها حتى بعد رحيله عن مصر، وذلك أنه أمر ببناء معبد لصديقه الحميم هيفايستيون على اليابسة (شاطئ الإسكندرية)، وكذلك على جزيرة فاروس بعد وفاته عام ٣٢٤.

لقد كانت الإسكندرية مدينة يونانية بمعنى الكلمة، ولكنها لم تكن أبدًا منفصلة عن إدارة الملك. ومن المعروف أن التاريخ كان دائمًا يرتبط بسنوات حكم الملوك وليس تبعًا للموظفين الذين تُطلق أسماؤهم على تلك المدن. حتى حق ضرب العملة لم يكن متاحًا للمدينة، فكانت عملتها تحمل باللغة اليونانية النص التالى: "عملة بطلميوس المسكوكة بالإسكندرية". وهذه الطريقة فى سك عملة الإسكندرية استمرت كذلك بدون تغيير حتى فى عصر القياصرة الرومان، وبهذا لم تكن عملة الإسكندرية عملة حتى ولو كان سكانها يرون غير ذلك، بالرغم من ذلك كانت تبدو مدينة الإسكندرية كما لو كانت مدينة مستقلة. على أية حال ، يرى المؤرخون أن إنشاء مدينة الإسكندرية كان فكرة عبقرية من الإسكندر الذى اختار هذا الموقع بذلك المَعْبر الذى يبلغ عرضه ٢ كيلومتر، والذى يقع بين بحيرة مريوط والبحر المتوسط .

لقد نمت مدينة الإسكندرية بسرعة مذهلة، حيث إنه مع بداية القرن الثالث ق.م. أصبح تعداد سكان الإسكندرية ما يزيد على مائة ألف نسمة، وفى مطلع القرن الثانى ق.م. غدت الإسكندرية أكبر مدينة فى العالم المعروف آنذاك، وعند مطلع القرن الأول قبل الميلاد، ذكر ديودور أن تعداد الإسكندرية قد بلغ ما يزيد على نصف مليون نسمة بمن فيهم العبيد أيضًا(١٠). هذه الأعداد بالطبع

لم تكن بالدقة الكافيـــة مثل الإحصاء فى الوقت الحالى، حيث إننا نعتمد فى ذلك على ما تركه لنا المؤرخون[١١] والكُتّاب، أما المصدر الأكثر دقة فى هذا الشأن فهو C.Haas الذى اعتمد على الكثير من المصادر الأثرية، ولم يكتف بمـــصدر واحد، ويرى أن تعداد مدينة الإسكندرية كان يتراوح ما بين ١٨٠ ألف و٢٠٠ ألف نسمة[١٢].

## الجولة الأولى عبر الإسكندرية، جولة فوق لوحة شطرنج

لم يكن من السهل الاهتداء إلى تخطـــيط مدينـــة الإســـكندرية، حيـــث إن المخطط كان يهتدى اليوم إلى تخطيط ما وفى الغد يقوم بشطب ما اهتدى إليـــه اليوم، وهكذا. بذلك أراد المخطط لمدينة الإسكندرية أن يأتى بعمل دقيق محكـــم لا يشوبه أى عيب أو خطأ. ومن خلال هذه الأطاريح لتخطيط مدينة الإسكندرية أود أن أبدأ؛ حتى يتضح للقارئ شكل التخطيط النهائى للمدينة، ولكى أكون أميناً فى ذلك لا بد أن ألجأ إلى المؤرخ والجغرافى اليونانى ســـترابو[١٣] الـــذى زار مدينة الإسكندرية فى عام ٢٥/ ٢٤ ق.م. إبان ولاية الحاكم المسمى أورليـــوس جاللوس، وبقى سترابو بالإسكندرية حتى عام ٢٠ ق.م. إن تخطيط الـــشوارع الرئيسية فى الإسكندرية بقى كما كان عليه لمئات الأعوام.

فى القرن التاسع عشر، تم عمل حفريات، واكتشف المـــرء مـــن خلالهـــا الشوارع السبعة الرئيسية فى مدينة الإسكندرية، والتى كانت تتجه من الغـــرب إلى الشرق. وقد اتضح أن كلاً منها كان يبلغ عرضه ٧ أمتار، أمـــا الـــشارع الأوسط فكان عرضه ١٤٠ مترًا، كما كانت المسافة بين الشارع والآخر تبلـــغ نحو ٢٨٠ مترًا، وعُثر على أحد عشر شارعًا رئيسيًا كانت تمتد من الشمال إلى الجنوب، والمسافة بين كل شارع والآخر كانت ٣٣٠ متـــرًا وعرضـــها مثـــل عرض الشوارع التى كانت تمتد من الغرب إلى الشرق، أى سبعة أمتار. ومن بين الشوارع الأحد عشر كان هناك شارع يتجه من رأس لوكياس إلى الجنوب عرضه ضعف عرض الشوارع الأخرى، أى ١٤ مترًا، وبذلك كانت شـــوارع المدينة تتمتع بالتطابق الهندسى المنظم الذى جعل الشاعر العربى "أبـــو الفـــدا" يمتدح مدينة الإسكندرية عندما زارها فى القرن الرابع عشر، قائلاً:

"الإسكندرية مدينة منظمة جميلة، وهى تشبه لوحة الشطرنج، وشوارعها المنسقة تجعلها غاية فى الروعة، حتى إن الغريب يمكن أن يتوه فيها !"(١٤).

إن الخريطة العلمية الموثوق بها لمدينة الإسكندرية هى التى عثر عليها القيصر الفرنسى نابليون الثالث (١٨٥٢ـ١٨٧٣)، الذى كان متخصصًا فى أبحاثه ودراساته عن فترة يوليوس قيصر، حيث إنه طلب من الخديوِ إسماعيل باشا (١٨٦٣ـ١٨٧٩)، والذى افتتح قناة السويس عام ١٨٦٩، أن يحصل على خريطة لمدينة الإسكندرية القديمة، وأقنع الخديو بأن هذه الخريطة سوف تساعده فى دراساته التاريخية عن يوليوس قيصر. لهذا كلف الخديو إسماعيل عالم الفلك المصرى محمود بيه تيسير طلب العالم الفرنسى فى الحصول على هذه الخريطة. من خلال هذه الخريطة، والتى تم الحصول عليها عام ١٨٦٦، يبدو سور المدينة القديمة، والذى أُزيل تمامًا فى عام ١٨٨٢. من خلال الحفريات التى قام بها محمود بيه، تم العثور على بعض اللقى الأثرية المهمة، ولكنها كانت قليلة. بالرغم من ذلك، فإنها أعطتنا فكرة صحيحة عن تخطيط شوارع الإسكندرية فى هذا الوقت البعيد من الزمن الهلّينستى، كما أنها أعطتنا فكرة عن عرض الشوارع وشكلها بما تطابق مع المدن الهلّينستية الأخرى من هذه الفترة الزمنية. وكما فعل سترابو، فقد اقتربنا من الإسكندرية بالسفينة.

وأول ما يراه المرء من هذه المدينة هو فنار الإسكندرية، والذى يُعد من عجائب الدنيا السبع، حيث كان يُرى على بعد ٥٠ كيلومترًا فى البحر. وكان ارتفاعه يزيد على ١٣٠ مترًا، وكان الفنار يبعث شعلة مرتفعة من اللهب بصورة تقنية كبيرة تهتدى بها السفن ليلاً ونهارًا. كان هذا الفنار مبنيًا من الحجر الجيرى، ويتكون من ثلاثة طوابق. هذا الفنار كان رمزًا لما وصلت إليه مدينة الإسكندرية من قوة اقتصادية ومجد سياسى. فى الطرف الشرقى منطقة كاب لوخياس، كان هناك فنار آخر ولكنه كان صغيرًا بالنسبة للفنار العملاق سابق الذكر فوق جزيرة فاروس، وقد أطلق عليه اليونانيون اسم فاريلون، بمعنى القَزَم الذى يقف بجوار العملاق. وبالتحديد عندما ندخل ميناء الإسكندرية من جهة الغرب، فإن هذا الفنار القزم كان على الناحية الجنوبية،أما فى الناحية الشمالية فكانت هناك مناظر خلابة للعقول، حيث يرى المرء قصورًا من الحجر

الجيرى متراصة بجوار بعضها البعض، يحيط بكل قصر صالات الأعمدة والتماثيل الجميلة ذات الألوان والنقوش البديعة، فوق شبه جزيرة كوخياس الواقعة فى الناحية الشرقية من الميناء كان هناك معبد إيزيس، وعلى حافة الجزيرة كان هناك ميناء صغير مغلق لا يُسمح إلا للسفن الملكية أن ترسو به (انظر شكل ٢٠).

عند الدخول فى المدينة، يرى المرء منازل جميلة وبهية الشكل فى صف واحد وهى منازل ملكية. كل ملك بطلمى قد شيد له قصرًا ملكيًا يحتوى على حديقة لا تقل جمالاً وبذخًا عن القصر نفسه. مع مرور الوقت، اتسعت رقعة القصور هذه على حساب الأجزاء المخصصة للمدينة بعد أن كانت الرقعة المخصصة للقصور فقط خُمس المدينة عند إنشائها، وفى نهاية عصر البطالمة، احتلت مساحة القصور ثلث مساحة مدينة الإسكندرية. فى النهاية الشرقية من المدينة حول القصور الملكية كانت هناك الجيوش والكتائب البطلمية حامية وحارسة لهذه القصور. عند زيارة هذه المساحة المخصصة للقصور الملكية نجد بداخلها قلعة يحيط بها سور بداخله العديد من المبانى، ومن بين هذه المبانى كان هناك سجن ، وكذلك مبنى خاص للحراسة الشخصية للملك. وقد حدث عام ٢١٩ ق.م. أن حاول ملك أسبرطة المدعو كليومنيس تحريض أهل الإسكندرية على الثورة ضد ملكهم على تلك القلعة بهدف تحرير المساجين بالسجون البطلمية ، ولما باء هجومه هذا بالفشل، انتحر كليومنيس الذى كانت محاولته المخلصة قد باءت بالفشل فى موطنه .

ولقد وصلتنا بعض التفاصيل عن منطقة القصور هذه من عصر بطلميوس الرابع (٢٢٢ــ٢٠٤ ق.م.)، والتى وردت إلينا عن طريق الكاتب اليونانى بوليبيوس، فى إطار وصفه للأحوال التى طرأت بعد وفاة زوجة الملك المذكور أرسينوى[١٥] عام ٢٠٥/٢٠٤ ق.م. يقول الكاتب: "القصر كان يحتوى على مكان كبير مخصص لإلقاء الخطب والاجتماعات وتكريم الرياضيين. حول منطقة القصور هذه كانت هناك أماكن أخرى يلتقى فيها الشعب، مثل الاستاد وكذلك الشوارع وحول مسرح ديونيسيوس. وكان بالقصر ممر يصعد المرء عبره حتى يصل إلى مدخل المسرح ، يفتح عليه بوابات منغلقة ذات مربعات

ومصبعات يستطيع المرء النظر من خلالها . بجوار هذه الأبواب سابقة الــذكر كانت هناك دخلات يستطيع المرء من خلالها الدخول ، ولكنها صغيرة، بحيث تسمح فقط بدخول شخص تلو الآخر. كما كان هناك بابٌ رئيــسى هــو بــاب القصر كان مخصصًا فقط لدخول الزائرين منه. أما بطلميوس الثامن (١٤٥ ــ ١١٦ ق.م.)، فقد وصف لنا فى مذكراته الخاصة حديقة الحيوان التى كان قــد شيدها أول الملوك البطالمة[١٦].

كما كانت هناك جزيرة مقابلة للميناء، وهى تتبع للقصر الملكى، وتُــسمى بالمقابلة لجزيرة رودس وهى شبيهة لجزيرة فاروس، ويُحتمــل أنهــا كانــت مرتبطة باتفاق مع جزيرة رودس لحماية منطقة الميناء[١٧].

بالقرب من الشاطئ، كان يوجد مسرح كبير مخصص للإله ديونيــسيوس أبى البطالمة. هذا المسرح استخدمه يوليوس قيصر كحصن أكثر منه مــسرحًا، وبصفة خاصة إبان حربه الأهلية فى الإسكندرية. وكان لهذا المبنــى مــداخل توصل للميناء والترسانات الملكية [١٨].

بالقرب من هذا المسرح المذكور، كانت هناك السوق الكبيرة التى تعــج بالزوار من كل مكان، والتى كانت ممتدة من منطقة جزيرة بوسايدون وحتــى معبد قيصر. هذه السوق تمتد بطول الشاطئ وكان يُطلق عليها أحيانًــا ســوق الأجانب؛ حيث كانت السفن من كل حَدَبٍ وصَوب تأتى إليها[١٩]. وفى مكــان ليس ببعيد من منطقة السوق؛ كانت هناك المنطقة التى كانت مخصصة ليقــوم عليها معبد أرسينوى. وعن ذلك البناء أخبرنا بلينيوس العجوز أن المعمــارى المشيّد له أراد أن تكون أرضية المعبد من المغناطيس، وأن يلتصق بها تمثــال من الحديد لأرسينوى، إلا أن وفاته (المعمارى) قد عطلت بناء هذا المعبــد[٢٠]. وبقى المعبد غير مكتمل البناء، كما وصف لنا تفصيلاً تلك المسلة التى كانــت تزين المعبد، وطريقة نقلها المعقدة ، ولكن المسلة كان منظرها غيــر جميــل، وبدت تمامًا مثل المنظر الخطأ فى المكان الخطأ أيضًا. فى عهد الإمبراطــور الرومانى أغسطس (١٢ــ١١ ق.م.)، أرسل الموظف الكبير ماكسيموس لكــى يزيل هذه المسلة، حيث كانت تقف عائقًا فى منطقة إصلاح وبنــاء ترســانات السفن. ويبدو أنها قد سقطت بالفعل قبل ذلك.

وبجوار منطقة السوق أيضًا، كانت هناك منازل ومخازن التجار، البعض منها كان ملكًا للدولة، والبعض الآخر كان يمتلكه الأفراد. وقد تعرض الجـــزء الأكبر من تلك المنازل والمخازن للحريق إبان حرب قيصر فى الإسكندرية، ثم أُعيد بناؤها لاحقًا بعد استقرار البلاد.

فى داخل الميناء الكبير، كانت هناك شبه جزيرة مشيد فوقها معبـد الإلـه بوسايدون وحصن دفاعى، أما الشاطئ فقد احتوى على الكثيـر مـن ورش إصلاح السفن، وكذلك المراسى الخاصة بها، وقد امتد ذلك الشاطئ حتى الـسد الذى يحمل اسم الهيبتاستاديا، لأن طوله يصل إلى سـبعة سـتاديا، أى بطـول ١٢٤٠ مترًا. هذا الطريق كان مزدوج الأهمية، حيث إنه ربط مدينة الإسكندرية بالناحية الغربية لجزيرة فاروس، وفى الوقت نفسه كان حماية للميناء. كمـا أن ميناء كيبوتوس[٢١] (العلبة) كان قطعة منه وتم فصله. فى العـصر البطلمـى، اشتمل السد على مجرى مائى كان يقوم بتزويد سكان جزيرة فـاروس بالميـاه العذبة من النيل. وفى وصف قيصر لجزيرة فاروس يقول إن الجزيرة ضـمت بيوتًا للمصريين بالإضافة إلى حى كان فى حجم مدينة صغيرة، وكان هو الذى قام بهدم تلك المستعمرة الصغيرة[٢٢].

هنا ترسو سفينتنا بين غابة من صوارى وأعلام السفن الأخرى على حافة الميناء. هذا الميناء ذو المياه العميقة متلاطم الأمواج ملىء بورش تصليح وبناء السفن، كذلك المراسى المخصصة لجميع أنواع السفن: الصغير منها والكبيـر. هاهنا فى هذا الميناء الفسيح تطل مصر على العالم عن طريق البحر المتوسط، هنا فى هذا الميناء تصب خيرات جميع البلدان الأفريقية وجميع البلدان العربية والهند وحتى الصين من جميع أنواع البضائع الغالية النفيسة، مثل العاج وأجود أنواع الأخشاب والفواكه النادرة والأحجار الكريمة والمواد الغذائيـة وأنـواع النبيذ.

وبالطبع، جاء مع هذه البضائع والمنتجات أصحابها من التجار الذين كان فى طليعتهم المصريون أصحاب الأرض، ثم اليونانيون، ثم تبعهم ــ من حيث التعداد ــ اليهود ثم الأرمنيون ثم الفرس، يليهم العرب ثم السوريون والنوبيون. بل كان المرء يرى هناك جماعات من التروجلودنين (كـانوا يعيـشون علـى

شواطئ بحر العرب) ومن الصين وجنودًا مرتزقة من جميع أنحاء العالم، مثل الجنود اليونانيين والرومان والأوروبيين والأتراك والبلقانيين. وكل شعب من هذه الشعوب السابقة الذّكْر اندمج مع بنى جلدته مكونًا مجتمعًا خاصًا به. في وسط هذه التجمعات البشرية لا يجب علينا أن ننسى الشحاذين الذين عثرنا لهم على مجموعة من التماثيل الفَخّارية، والتى وضحت أشكال هؤلاء الشحاذين الذين كانت لديهم إعاقات مختلفة، وتبدو صحتهم معتلة. هذه التماثيل بها واقعية شديدة، وضحت الحالة المُزرية التى كان عليها هؤلاء الشحاذون في الإسكندرية.

ومن أطرف هذه التماثيل تمثال لرجل شحاذ ضعيف ونحيل لا يكاد يستطيع الوقوف على قدميه، ولكنه يضع ذراعه بكل حب وحنان حول كتف زوجته متكئًا عليها (شكل ٣).



(شكل٣): زوج من الشحاذين.

ثم نواصل شق طريقنا خلال هذه الحشود البشرية المتزاحمة والمتصارعة والعاملة والانفعالية. ولو أن هناك مرشدًا سوف يرشدنا فى مدينة الإسكندرية، فإنه سوف يقودنا فى البداية فى الشارع الرئيسى بالإسكندرية، والذى يمتد من الشمال إلى الجنوب عابرًا مدينة الإسكندرية بأكملها. كذلك هناك شارع آخر ممتد من الشرق إلى الغرب بنفس الطريقة السابقة، وهو متقاطع مع الشارع سابق الذكر. وفى ذلك تتميز شوارع الإسكندرية عن شوارع روما على أيام سترابو، والتى كانت متعرجة ومعوجة وغير ممهدة. لقد كانت شوارع الإسكندرية فسيحة والسير فيها سهل، وهى مناسبة للراكب والماشى على قدميه أيضًا، معظمها مُمهَّد. وعلى أرض هذين الشارعين (وكلاهما بعرض ١٤ مترًا ) تسير جميع أنواع الحناطير والمركبات الأخرى التى تجرها الدواب.



(شكل٤): أحد تماثيل التناجرا.

وفى إحدى المقطوعات الكوميدية التى كتبها الشاعر تيوكريت من سيراكوسا، والذى كان معاصرًا للشاعر اليونانى كاليماخوس ــ وكان قد استدعاه بطلميوس الثانى فيلادلفوس إلى مدينة الإسكندرية ــ يروى لنا فى تلك المقطوعة الكوميدية حوارًا بين سيدتين نبيلتين أرادتا حضور حفل الإله أدونيس فى قصر الملك والتمتع برؤية القصر الملكى بما

يحويه من زخارف وعظمة. وعندما أُتيحت الفرصة لهما تأخرتا، وقالت إحداهما مبررة تأخرها: "إن الشوارع كانت مليئة بالبشر الذين كانوا كالنمل، لا يستطيع المرء إحصاءه أو عَدَّه". أما زميلتها الأخرى فقالت: "إن الناس تتزاحم فى الشارع وتتدافع مثل الخنازير"[٢٣].

ونستطيع تصور حديث السيدتين الجميلتين إذا ما استحضرناهما أمام أعيننا عن طريق تماثيل التناجرا، والتى أُطلق عليها لفظ التناجرا نسبة إلى المدينة اليونانية تناجرا، والتى نشأت بها صناعة هذه التماثيل لأول مرة فى القرن الرابع قبل الميلاد، ومنها انتشرت فى كل المنطقة الإغريقية. وفى القرن الثالث قبل الميلاد، اقتبس السكندريون هذه التماثيل من اليونانيين وزينوا بها مقابرهم بالإسكندرية، ونراها بكثرة بصفة خاصة فى منطقة الحضرة الحالية بالإسكندرية. وقد صُوّرت السيدتان ترتديان الثياب الفضفاضة وفوق منها معطف. أحد التمثالين يصور السيدة فى حالة دخولها القصر، وهى تضع قبعتها ذات الحواف على رأسها (شكل ٥)، فى حين أن الثانية قد دخلت القصر بالفعل وخلعت قبعتها وأظهرت شعرها الجميل الذى زُيّن على شكل تاج دائرى فوق رأسها (كعكة) (شكل ٤).



(شكل ٥): أحد تماثيل التناجرا.

فى الشارع الذى يقطع مدينة الإسكندرية من الشمال إلى الجنوب ترى أيضًا خليطًا من الشعوب المختلفة تمامًا مثل منطقة الميناء، ولكن طبقة البشر هنا أرقى من طبقة البشر سابقة الذكر، حيث إن الشارع هذا محفوف من الجانبين بالمبانى الحكومية وقصور كبار الموظفين والمعابد واللوحات الخاصة بالآلهة المصرية واليونانية، والتى كانت تُزين بألوان مختلفة، وبجانب المبانى العامة تظهر بعض المنازل التقليدية للأفراد العاديين؛ وكذلك توجد الحدائق التى شملت مختلف الورود، وفى كل حديقة كانت هناك نافورة مياه خاصة بها. إن بعض هذه البنايات كان يخص محظيات بطلميوس(٢٤) الثانى، واللاتى كانت منازلهن وقصورهن هى الأجمل فى الإسكندرية على الإطلاق. هؤلاء المحظيات نرى فيما دلت عليه تماثيلهن فى معابد الإسكندرية أنهن اعتُبرن إلهات.

إن رسم صورة الإسكندرية المعمارية فى عصر البطالمة يعتمد بشكل كبير على المصادر الأدبية، حيث إن ما وصلنا منها أكثر بكثير مما وصلنا من الآثار والتخطيطات الهندسية عن المدينة. على سبيل المثال، لا الحصر، عثرنا على قصيدة شعر كُتبت بمناسبة إهداء نافورة مياه لمعبد أرسينوى الثالثة فى الإسكندرية (٢٢٠ ٢٠٥ ق.م.)، حيث يصف الشاعر النافورة وصفًا دقيقًا مفصلاً، مبينًا أن النافورة كانت بها أحواض نصف دائرية وأخرى خارج الجدران وداخلها، ومن كل الأحواض كان يسيل الماء، وكانت جدران هذه النافورة من المرمر المجلوب من جزيرة فاروس محلاّة بأعمدة على الطراز الأيونى. وجسم النافورة كان أيضًا من المرمر المجلوب من منطقة بأثينا اليونانية. لقد وصف الشعر هذه النافورة بصورة دقيقة تبين غرام الشاعر نفسه بها. يقول الشاعر فيما معناه: "خذ بكل سرور هدية الروح هذه، والتى جُلبت من عروق فاروس وصنعت منها هذا الشكل نصف الدائرى الجميل. هذا الشكل نصف الدائرى تزينه الأعمدة الأيونية، والحوائط والأرضيات الجرانيتية تتلألأ بالأضواء العاكسة من خلال المياه الجارية".

ثم يتحول الشاعر من وصفه إلى إلهات البحار وتماثيلهن عند اليونان، رابطًا بينهن وبين أرسينوى: "ومنظرك البديع صاغه النحات فى كل التماثيل

المرمرية الفاخرة، وفى الوسط تقف أرسينوى الجميلة، والتى ارتبطت كل عام بإلهات البحار"[٢٥]. وبالطبع، زُين هذا المبنى اليونانى الفاخر بالكتابات الهيروغليفية التى اتخذت العديد من الألوان، كالأبيض والأصفر والأحمر والأزرق.

والآن نصل إلى تقاطع الشارعين الرئيسيين، واللذين كانا يزدانان بمدخل عظيم يمثل قلب (مركز) ميدان الإسكندرية، حسبما كان يُعرف به هذا التقاطع. وهنا كان يوجد قبر مؤسس المدينة الإسكندر الأكبر، ولقد جاورت مقابر الملوك البطالمة قبر الإسكندر هذا، مما جعل ذكراه ومحبته ــ كحاكم أوحد للعالم القديم ــ حيَّة دائمًا فى قلوبهم، والذى يُفترض أنه كان يقع داخل أسوار المدينة والذى كان يذكّر الملوك البطالمة بمجدهم العظيم، حيث إنه كان الحاكم الأوحد للعالم القديم. لاحقًا، قام بطلميوس الثامن بنقل قبر الإسكندر وكذلك قبور آبائه إلى منطقة القصور الملكية، وكانت تلك المقابر بناء علويًا بشكل هرمى[٢٦]. ولقد قام الإمبراطور كاراكلاً بزيارة تلك المنطقة (٢١٧ ــ ٢١١ م) وتقديم القرابين لأمواتها من الإسكندر وتابعيه، وهكذا ظلت هذه المنطقة مزارًا ومكانًا عظيمًا حتى جاء عهد أوريليوس، والذى حدثت به اضطرابات كثيرة أدت إلى تهدُّم هذا المكان وتحطُّمه (٢٧٥ ــ ٢٧٠م).

الآن سوف نتجه نحو الغرب قليلاً، حيث الشارع الممتد بمدينة الإسكندرية من الغرب إلى الشرق قاطعًا المدينة بطولها إلى نصفين، هذا الشارع قد غدا فى عام ٢٦١م حدًا فاصلاً يفصل بين اليونانيين الذين كانوا يسكنون فى الشمال الشرقى من المدينة، والذين أرادوا الانفصال عن المصريين وعدم التعامل معهم، والمصريين الذين كانوا يسكنون فى الجنوب الغربى. لقد بلغ عرض هذا الشارع الذى كان يُطلق عليه اسم الشارع العريض ٣٠ ستاديا، وطوله أكثر من خمسة كيلومترات، تحف هذا الشارع من الجانبين الأعمدة والقصور والمنازل الفخمة أيضًا. فى وسط الشارع هذا وجدت السوق ولكنها لم تكن السوق الوحيدة فى المدينة، كما وجد معبد الآجاث دايمون، وهو الإله الحامى للمدينة، والذى كان يحمل قرص الشمس فوق رأسه دائمًا. بجوار هذا المعبد وجد معبد الإلهة إيزيس نيتايون، والتى سُميت تايكة عند اليونانيين، وهى الإلهة الأنثى الحامية

لمدينة الإسكندرية. لقد وصل إلينا نقش على قطعة من العاج ترجع إلى القرن السادس الميلادى من مدينة الإسكندرية نرى فيه الإلهة إيزيس وهى تحمل مكيالاً للحبوب بغطاء رأس، وهذا دليل على الدور الذى كانت تلعبه مصر آنذاك، حيث إنها كانت تزود العالم بالغلال (شكل٦).



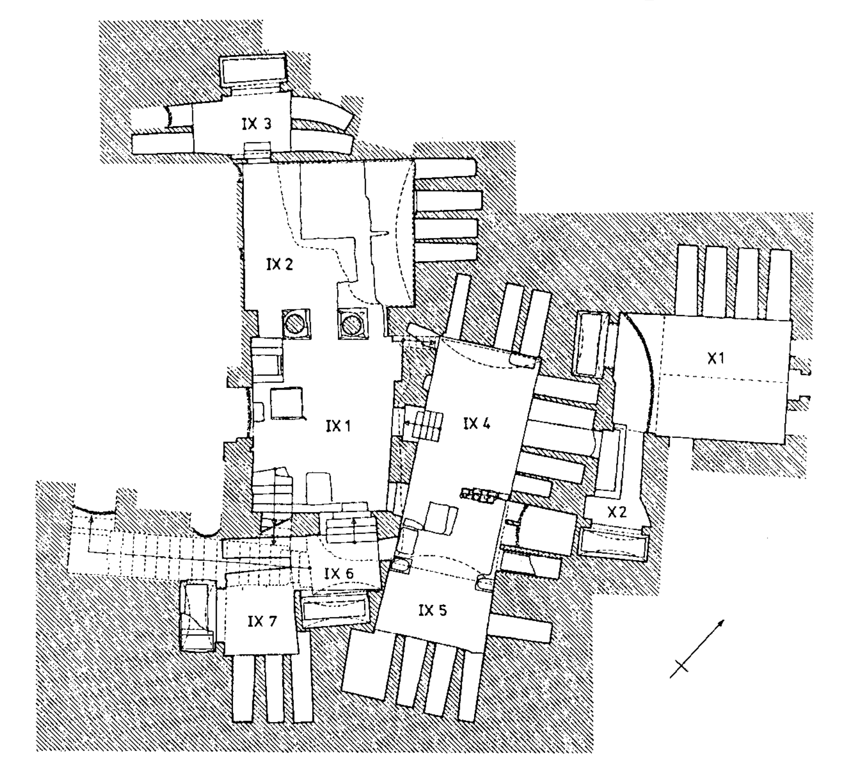
(شكل ٦): الإلهة إيزيس فى شكل الإلهة تائكة.

فى يدها اليسرى تحمل وعاءً مخروطى الشكل، يرمز إلى الحظ السعيد والخصوبة، وهو من معبد صغير للإله حورس ابن إيزيس. وفى يدها اليمنى، تحمل سفينة يعرف الجميع مغزاها. حول تمثال الإلهة نرى تماثيل صغيرة لعازفين وراقصات وعازف ناى وتمثالاً صغيرًا للإله بان. والذى كان ذا شعبية كبيرة، حيث إنه حامى قطعان الماشية، كما أنه سيد الغابات وحارسها، ثم إنه غدا عند اليونانيين فيما بعد رمزًا للطبيعة الهادئة.

وقد كان معبد الإله بان مبنيًا فوق هضبة مرتفعة يؤدى إليه طريق متعرج يطل على المدينة كلها. ونعلم تمامًا بأن فى وسط مدينة الإسكندرية كانت هناك مدرسة، ولكننا لا نعرف مكانها بالتحديد ونعلم أن بجوار هذه المدرسة كانت توجد محكمة وحدائق أشجار ممنوع العبث بها أو قطعها. وعندما نبعد عن هذه المناطق سابقة الذكر، نرى مناطق

ومنازل شعبية كانت مسكونة فقط بالمصريين، حيث بدا على المنازل التواضع والفقر، وذلك على النقيض من المناطق التى سكنها اليونانيون.

وفى النهاية، نصل إلى الجبّانة الكبيرة (مدينة الموتى) الخاصة بمدينة الإسكندرية، وشأنها شأن مثيلاتها فى بلاد اليونان، تكون دائمًا متصلة بالمدينة. وقد استُخدم تعبير نيكروبوليس (جبّانة) تحديدًا على جبانة الإسكندرية، ثم أُطلق بعد ذلك على ما شابهها فى غير الإسكندرية. وتوجد الجبانة عامة فى الغرب[٢٧] وإن وجدت معها جبانات أخرى فى الشرق وقد تكون من عدة طوابق تحت الأرض، وفى كل طابق عدد لا يمكن حصره من الفجوات، كانت تُخصص للدفن، أما فوق الأرض فكانت توضع علامات توضح بأن هذا المكان هو مدفن. ومع كثرة الموتى، بدأت تُنشأ تحت الأرض ممرات وطرق وتكثر فجوات الدفن، حتى غدت المقبرة تحت الأرض تشبه اللابيرنت. وحسب

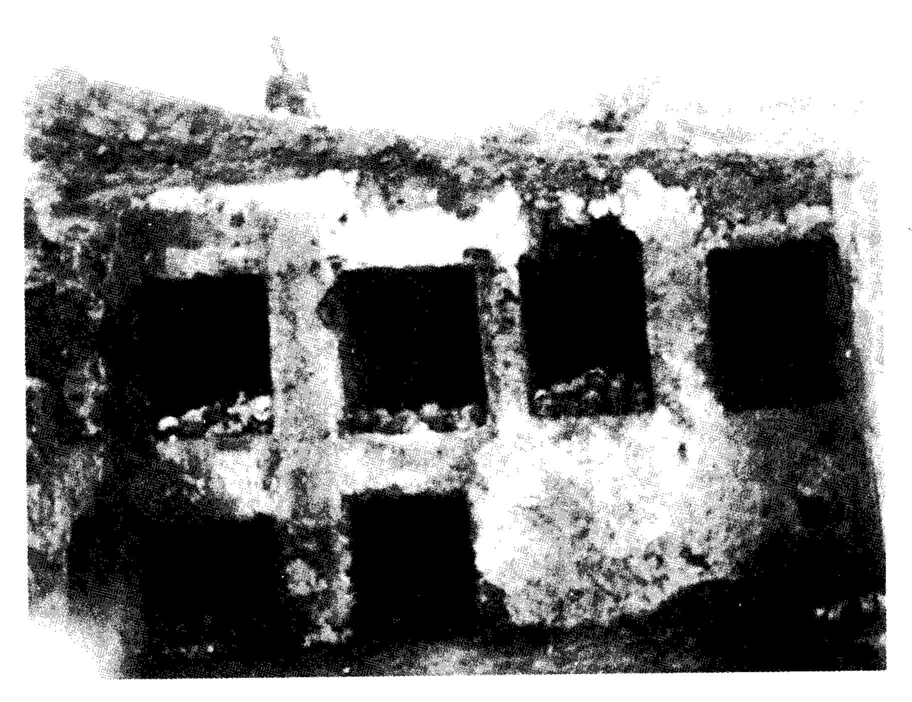



(شكل ٧): تخطيط إحدى الجبانات.

الخرائط التى لدينا، والتى ترجع إلى القرن التاسع عشر، فإن مبانى الإسكندرية الحديثة تقوم على تلك المقابر القديمة.

كانت تلك المقابر سابقة الذكر تحتوى على الفجوات التى كان المتوفى يُدفن بها، أما الصالات والطرقات التى أمام تلك الفجوات، فقد كانت تُستخدم للأحياء من أهل المُتوفّى، حيث إنهم استخدموها لتأدية صلواتهم والطقوس الجنائزية الخاصة بهم إبان ذلك الوقت. وقد اتفقت جميع هذه المقابر فى تخطيطها المشترك، حيث إن القاسم المشترك بينها وجود فناء مكشوف مضىء وفجوات وصالات وطرقات أمام هذه الفجوات. أما مقابر منطقة القبّارى، فهى لا تختلف كثيرًا عن الوصف السابق ( شكل٧).

وقد اتسعت هذه المقابر مع الوقت، حيث ازداد عدد الموتى، واضطُر أصحاب هذه المقابر إلى حفر فجوات إضافية فى المقبرة الرئيسية، ثم إنهم كانوا يغلقون هذه الفجوة بلوح من الحجر بعد دفن الموتى بها. وقد حدث كثيرًا



(شكل ٨): فتحات مقبرة القبارى.

أن الفجوة الواحدة قد ضمت العديد من الجثث، حيث عثرت حفائر القرن التاسع عشر على عشرة هياكل فى فجوة واحدة (شكل ٨).

ويجب علينا أن نرى الموضوع هنا من زاوية أخرى، وهى أن كِبَر حجم المساحة المخصصة للمقابر دليل على كبر حجم التعداد السكانى فى هذه المدينة الكبيرة (انظر شكل ١). ويدل على أنه كانت هناك جبانات أخرى كبيرة حول الإسكندرية.

وقد اعتمد سكان الجبانة فى معيشتهم على حرفة دفن الموتى، وبالطبع تحنيطهم قبل دفنهم، وعاشوا بذلك فى وسط كريه الرائحة. وقد دل الارتباط بين كل من عادات الدفن المصرية واليونانية على انصهار كلتا الحضارتين على الأقل فى بناء المقابر والطقوس الجنزية، فيما عدا أنه كان للإغريق أحكام مسبقة (تحفظوا) بها على التحنيط . ويقول المؤرخ اليونانى سترابو إن المناطق التى سكنها اليونانيون لم يسمحوا فيها ببناء المقابر فى حدائقها أو حقولها.

والآن نتجه إلى الجنوب، فى اتجاه مريوط. ففى خارج سور المدينة العظيم، الذى تفوق على نظيره فى أثينا وسيراكوسا يلفت انتباهنا معبد السيرابيوم العظيم، والذى نصعد إليه عبر مائة درجة سُلّم حتى نستطيع زيارته، وهو على تل يشرف على الناحية الجنوبية من الإسكندرية، ويماثل فى ذلك الأكروبوليس (المشرف على أثينا)، تمامًا كما وصفه كل من اليونانيين ريتور أفتيوس فى القرن ٤/٥ ق.م. وأميانوس مارسيلينوس الذى وصفه وصفًا جميلاً قائلاً[٢٨]: "إن معبد السيرابيوم والمخصص لعبادة الإله سيرابيس فى الإسكندرية، لا يضاهيه مبنى آخر على وجه الأرض سوى الكابيتول رمز مدينة روما الخالد بإيطاليا. وهذا الإله سيرابيس لهو نتاج لاندماج العقيدتين: المصرية والإغريقية مع بعض العناصر المصرية. سيرابيس عند الإغريق ما هو إلا زيوس أو بلوتو. وهو عند الرومان يُسمى جوبيتر، وعند الفرس يُسمى إله الشمس، وهو فى الوقت ذاته إله الشفاء من الأمراض. هذا السرابيوم، كان مليئًا دائمًا بالزوار الذين كانوا يزورونه بغرض الشفاء، كذلك لاستقبال النبوءات السارة من الإله". بجوار هذا المعبد، كان هناك الاستاد الرياضى،

والذى شُيد أيضًا على الطراز اليونانى، وفى هذا الاستاد كان الرياضيون يتدربون على الجرى ورمى الرُمْح ورمى القرص، وهنا كان المصارعون يتدربون على المصارعة.

فى النهاية يطالعنا الميناء الداخلى على بحيرة مريوط، حيث تظهر فى هذا الميناء الشخصية المصرية، فنرى السفن القادمة من النيل، محملة بالغلال والبردى، والذى كان الكثير منه يتم تصنيعه وتحويله إلى ورق فى هذه المدينة.

والآن نترك بحيرة مريوط ونتجه إلى الشمال الشرقى من المدينة، حيث نرى المكتبة وبجوارها مجمع الفلاسفة والعلماء. هاتان المؤسستان العلميتان قد أنشأهما بطلميوس الأول لليونانيين المقيمين بالإسكندرية؛ حتى يخلق لهم الجو العلمى الذى اعتادوا عليه باليونان اقتداء بأرسطو فى أثينا. ولعل هذا ما دعا سترابو(٢٩) إلى الادعاء بأن أرسطو قد علَّم ملوك مصر فكرة إنشاء المكتبات. لقد كانت هذه المكتبة فى المقام الأول مخصصة للملك ومكانها فى أحد أجنحة القصر، ولكنها كانت أيضًا فى خدمة المتعلمين من سكان المدينة.

وقد كان مجمع الفلاسفة والعلماء اتباعًا لتقاليد أفلاطون مكانًا مهمًا لتلاقى الفلاسفة والعلماء، حيث كانوا يبحثون فيه كل قضاياهم الفلسفية والعلمية، ويرى الأديب اليونانى ليبانتوس فى القرن الرابع الميلادى، أن مجمع الفلاسفة هذا كان بجوار معبد إيزيس فى الحى المرقم بحرف B، وحيث كانت توجد هنا إضافة إلى ذلك مدرسة للفلسفة ضمت العديد من الأجهزة العلمية الفلكية(٣٠). أما مجمع الفلاسفة والعلماء هذا، فقد انبثقت عنه جامعة الإسكندرية التى حفظت للعالم الكثير من العلوم والآداب اليونانية القديمة، وقد ازدهرت وأضاءت للعالم على مدى عقود طويلة.

من خلال هذه الجامعة، لمعت أسماء علمية كبيرة، على سبيل المثال، إيوكليد الذى أسس علم الرياضيات الأساسية، وأريستراش الذى اكتشف أن الأرض هى التى تدور حول الشمس، ثم كيتسيبوس الذى قام بدراسة الضغط الجوى واخترع لذلك عدة أجهزة؛ وهيروفيلوس الذى قام بتشريح الجثث ودراسة الجهاز العصبى من خلالها، وكذلك إيراتوستونيس الذى قام بقياس

محيط الأرض لأول مرة. فى مدينة الإسكندرية، تم جمع أعمال هومير وترجمة الإنجيل (العهد القديم) إلى اللغة اليونانية القديمة.

فى طريقنا إلى الشرق، نمر على حى اليهود، والذى كان يحمل الحرف اليونانى Δ (دلتا). وهو يقع بالتحديد شرقًا من منطقة كاب لوخياس، ولا يوجد فيه أى من الموانئ أو المرافئ وينتهى عند سور المدينة القديمة. وفى النهاية، نصل إلى مدخل المدينة الشرقى. وكان سترابو قد وصف الجبانات ذات الحدائق فى الغرب؛ ولكنه أغفل الحديث عن ثلاث مجموعات أخرى من المقابر تم الكشف عنها أثريًا فى شرق الإسكندرية تنحصر فى مناطق ثلاث تُسمى فى الوقت الحالى بمنطقة الشاطبى، والإبراهيمية، والحاضرة.

وتوجد أقدم هذه المقابر فى منطقة الشاطبى، التى تضم مقابر ترجع إلى القرنين الرابع والثالث قبل الميلاد طرازها من نوع حجرة الدفن ذات الأسرّة، أما المنطقتان الأخريان، فإنهما ترجعان إلى منتصف القرن الثالث قبل الميلاد. وتقع جبانة الإبراهيمية إلى الشرق من الشاطبى بنحو كيلومتر. وفى منطقة الإبراهيمية، عثر الأثريون على مقابر يهودية، وهذا شيء طبيعى، حيث إن اليهود سكنوا بجوار هذه المقابر. أما جبانة الحاضرة، فقد تميزت بشيء مهم، وهو وجود ما يُسمى بالأورن بها، وهى فجوات صغيرة وضعت بها الأوانى الفخّارية التى احتوت على رماد جثة بعد حرقها. وهذه الطريقة فى الدفن ـ أى حرق الجثة ـ هى عادة اعتاد عليها الإغريق بالدرجة الأولى.

أمام المدخل الشرقى لمدينة الإسكندرية، والذى كان يُطلق عليه بوابة الشمس، وجد هناك مضمار لسباق الخيل، وفى نهايته كانت توجد ضاحية أليوسيس وهى مكان مخصص للقمامة، وهو عبارة عن مرتفع عالٍ وكبير. فى الوقت ذاته، كانت هذه المنطقة سابقة الذكر تحتوى على الكثير من بيوت البغاء وأماكن المتعة. وهذا يشبه بعض الشيء ما تقدمه مدينة كانوب أيضًا. بعد منطقة كانوب(٣١)، تأتى مدينة هيراكليون، والتى كانت تحتوى على معبد هرقل، ثم بعد ذلك نرى مصب فرع كانوب ثم بداية الدلتا. وكانوب لا تقع مباشرة على الفرع الكانوبى(٣٢)، والذى سُمى لذلك أحيانًا على اسم مدينة هيراكليون.

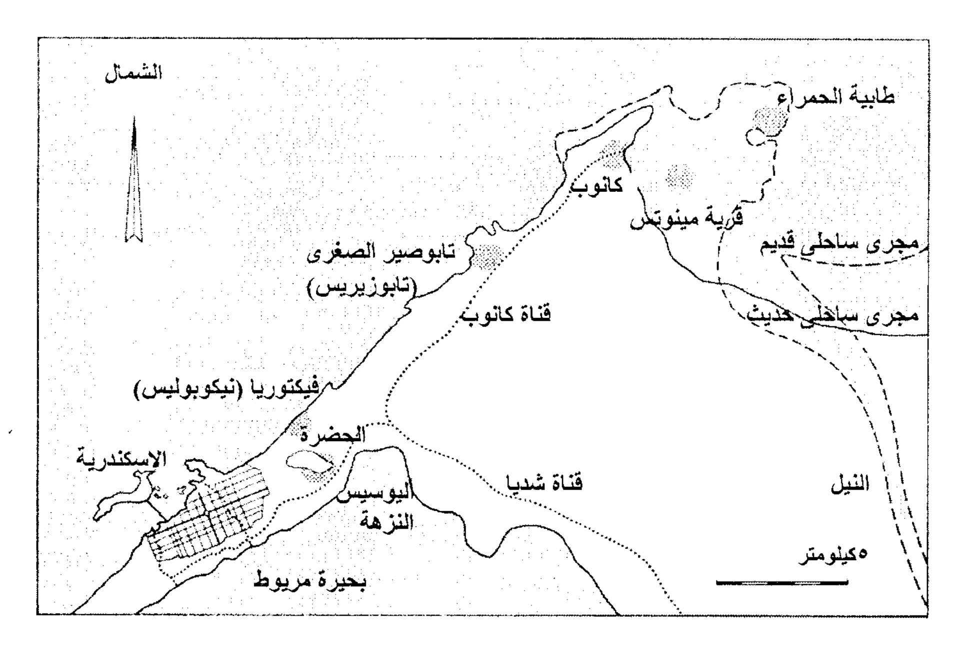
وهنا يقول كلايتسوفون، بطل إحدى الروايات التى كتبها الأديب السكندرى تاتيوس فى القرن الثانى الميلادى: "عندما دخلت مدينة الإسكندرية من المدخل الشرقى والمسمى بوابة الشمس، فاجأنى جمالها وروعتها واجتاحنى شعور طيب بالمرح والسعادة وبهرت بجمالها عينىَّ، فعلى اليمين والشمال كانت تقف الأعمدة فى صفوف طويلة ومستقيمة، بداية من المدخل الشرقى: بوابة الشمس وحتى المدخل الغربى المسمى ببوابة القمر والشمس والقمر هنا كانا من الآلهة الحارسة للمدينة. ومن بين هذه الأعمدة كانت تتفرع الشوارع الجانبية ممتدة يمينًا ويسارًا بلا نهاية. وبعد أن قطعت مسافة غير طويلة، وصلت إلى ميدان يُسمى بميدان الإسكندر، وهنا رأيت مدينة أخرى أكثر روعة وجمالاً، والأعمدة التى تحفُّ الشوارع هنا أكثر رونقًا وزخرفًا وسحرًا.

والآن، فإننى زائغ البصر أوزع نظراتى فى كل اتجاه أتفحص جمال تلك المدينة التى تقبع على النيل، ولكن لا أستطيع أن أشبع من جمالها وطريقة تنسيق شوارعها. إن طاقتى لا تتحمل هذا الجمال ولا تستطيع أن تستوعبه دفعة واحدة. إن كل نظرة ألقيها هنا أو هناك تستوقف أعينى وتأملاتى لحظات ولحظات، ولا يجذبنى من تأملى هذا سوى نظرة أخرى إلى مكان يجاوره أكثر جمالاً وتأثيرًا، وعندما تعبت من طول النظر والتأمل قلت لنفسى يا إلهى، إننى لن أستطيع رؤية كل هذا الجمال لقد فُتنت! "(٣٣).

## مدينة تغلفها الأساطير

لقد زار سترابو أيضًا الأجزاء الغربية الواقعة أمام مدينة الإسكندرية، (انظر الخريطة: شكل٩)، حيث تتفرع القناة خلف أليوسيس، والتى تتجه نحو شديا، بعد هذه التفريعة تتجه بنا السفينة نحو كانوب، وهى فى سيرها موازية لشاطئ البحر المتوسط هذا الممتد من فاروس وحتى منطقة كانوب. ما بين البحر والقناة كان شريط ساحلى ضيق يوجد به منطقة تابوزيريس الصغيرة، وبجوارها لسان ناتئ فى البحر يُسمى سفيريوم، وقد بُنى فوقه معبد للإلهة أفروديت. ثم تجيء منطقة هيراكليون بعد منطقة كانوبوس، ومنطقة هيراكليون سُميت بذلك لأنها كانت تحتوى على معبد الإله هرقل. وتقع كانوبوس سابقة

الذكر على بعد ١٢٠ ستاديا من مدينة الإسكندرية، ثم يلى ذلك كانوب، وبداية الدلتا. ومصب كانوب يبعد مسافة ١٥٠ ستاديا عن جزيرة فاروس[٣٤].




(شكل ٩): تخطيط الجزء الشرقى من الإسكندرية.

ومن مدينة أليوسيس الكائنة إلى الشرق من مدينة الإسكندرية تمتد هنـــاك قناة تجرى موازية لشاطئ البحر، كانت تغذيها مياه النيل وتربط فى الوقت ذاته بين كانوبوس والإسكندرية. وتبعد أليوسيس مسافة ٢٢ كيلـــومترًا مـــن مدينـــة الإسكندرية، وقد سُميت هذه المدينة على اسم قائد دفة مركب مينالوس، والـــذى لقى حتفه قرب الإسكندرية فى طريق عودته من طروادة.

أما عن موقع أليوسيس ومعبد السيرابيوم الـــشهير بهـــا والتـــى شـــيدها البطالسة الأوائل، فيقول سترابو: "إن منطقة كانوبوس احتوت على معبد عظيم للإله سيرابيس، حظى بكل تقديس واحترام حتى إن علية القوم كانوا يقدســـونه ويطيب لهم أن يبيتوا فى هذا المعبد، أو أن يؤجروا من يقوم لهم بهذه المهمـــة فهو معبد للشفاء وتلقّى الرؤيا الطيبة والنبوءات، وكان المعبد مليئًا بالزوار من الرجال والنساء ليلاً ونهارًا، والبعض الذى لم يستطع الحصول على مكان فـــى

المعبد بقى فى قاربه مع رفاقه يرقص ويعزف على الناى، ومنهم من كان يستلقى بحرية على ضفاف القناة أو يقوم بزيارة الحانات والملاهى التى كانت تنتشر فى منطقة كانوب".

لقد كانت كانوب مركزًا للعبادة لكل المنطقة، فضمت أيضًا الكثير من دُور العبادة والمعابد؛ حيث إن سيرابيس لم يكن المعبد الوحيد بها، بل كان هناك مركز لعبادة أوزوريس وإيزيس أنشأه بطلميوس الثالث (٢٤٦ ــ ٢٢٢ ق.م.)، كما أنه أنشأ مركزًا لعبادة أنوبيس أيضًا، تلك المعابد جلبت الحجاج إليها من جميع أنحاء العالم. ويرى الأديب المسيحى رفيتوس أن معابد منطقة كانوب كانت أكثر جذبًا للحجاج من معابد مدينة الإسكندرية ذاتها.

كما أن هناك الكثير من الحكايات والأساطير التى حُكيت عن كانوب، منها أن حاكم المدينة المدعو جايوس بالبيلوس (٥٥ ميلادية)، أراد أن يرى شيئًا غير مألوفٍ ملفتًا للأنظار. عن هذا الشيء الغريب أخبرنا الفيلسوف سيينا فيقول: "لقد جُمعت له أسماك الدولفين من البحر المتوسط، وجمعت له أيضًا تماسيح من النيل، ووضعت معًا فى حوض كبير وأُشعل الصراع بينها![٣٥] والمتفرجون ينظرون، ويتصارخون مستمتعين بما يرون. ومن عجيب الأمر أن انتصرت الدلافين على التماسيح!". ومثل هذه الأشياء الغريبة والأفكار المجنونة كانت تشد الرومان بصفة خاصة وتعطى مصر رونقًا مميزًا، وبالتحديد منطقة كانوب.

إن كانوب كانت معقل الديانة المشتركة للآلهة المختلطة بين مصر واليونان، ولكنها فى الوقت نفسه أكبر مدينة على مستوى هذا العالم القديم فى المتعة واللهو والمجون. يقول المؤرخ اليونانى سترابو[٣٦]: "بقدر ما كانت مصر مركزًا للمعابد والديانات، فإن الإسكندرية كانت قلعة من المتع والثراء الفاحش واللهو بكل أشكاله". ولكن الشاعر الرومانى بروبيرز يقول مهينًا ومحقرًا لآخر الملوك البطالمة، وهى الملكة كليوباترا[٣٧]: "إن كانوب معقل الفسق لأن حاكمة البلاد فاسقة." ولا أستطيع إدراج آراء كل المؤرخين اليونان والرومان عن مدينة الإسكندرية وكانوب، حيث إن القائمة طويلة جدًا، ولكن أكتفى بمقولة المؤرخ الرومانى مارسيلينوس أميانوس[٣٨] بالقرن الرابع

الميلادى، والتى يصف فيها حياة الترف والنعيم بمدينة الإسكندرية بقولـه: "إن أدوات التجميل من الدهون والزيوت المعطرة، كانت من أهم صادرات مدينتَى الإسكندرية وكانوب".

هنا كانت الإسكندرية مكانًا لطالبى المتعة واللهو والهوى، وعلى سطح مياه البحر منها كانت تطفو السفن المليئـة بالـشاربين والراقـصين والراقـصات والمستمتعين بكل أنواع المتع الحسية، حتى إن الإمبراطور الرومانى هادريـان (١١٧ ــ ١٣٨ ميلادية) قد أمر بإنشاء نموذج لقناة كانوب فى مدينـة تيفـولى الإيطالية (انظر شكل ٤٢). وقد حفت تلك القناةَ المنازلُ والفنادقُ من الناحيتين، وخُصصت أيضًا لجميع أنواع المتع مثل كانوب المصرية.

ولقد وصل إلى أيدينا خطاب من أب إلى ابنه الـذى سـافر إلـى مدينـة الإسكندرية من إيطاليا. هذا الخطاب يدل على شىء وهو السمعة التـى كانـت تشتهر بها مدينة الإسكندرية. يقول الأب لابنه فى الخطاب: "هل تعيش الآن مع محظية من الإسكندرية؟ ولذلك لا ترغب فى العودة إلينا؟"، فيرد الابـن علـى والده بخطاب: "إذا كنت تعلم أن لى محبوبة فى الإسكندرية فأخبرنى باسـمها؟" ثم يختم رسالته بشىء من الود متمنيًا لأبيه الصحة والسلامة (٣٩). لقـد كـان بوسع كل راغب متعة أن يدخل هذه البيوت ويمتع نفسه حسبما شـاء. بـل إن قيصر لم يكتف بزيارة هذه الأماكن، وإنما كان يشترى من الإسكندرية الفتيات الجميلات والغلمان الصغار لإمتاعه.

وفى هذا السياق، ورد إلينا أن أحد وزرائه طالبه بعمل وزارة يُعـين لهـا وزير لكى يقوم بجلب الغلمان والفتيات له من الإسكندرية، ويُخـصص لهـذه الوزارة ميزانية خاصة بها كباقى الوزارات، وذلك نظرًا لما كان يكلـف ذلـك القصر الرومانى من أعباء مالية باهظة أكبر من أية وزارة أخرى، ولكن قيصر رفض هذا الطلب. فى كانوب انتشر الرقص والمـسرح بكـل صـوره، مـن المسرح الكبير وحتى المسارح الرخيصة. من لم يعرف كانوب لم يعرف طعم الحياة (٤٠).

ويُعتبر ميناء الإسكندرية مكانًا زادت فيه شهرته لارتباطه بحادثة كبيرة، هى حرب طروادة، والتى تسببت فيها قصة حب تُعتبر هى الأشهر فـى كـل

العصور، حيث إن المرأة الجميلة المسماة هلينة قد وقعت فى غرام شاب جميل اسمه باريس، ومن أجل هذا العشيق تركت زوجها مينيلاوس.

ولسوء الحظ، لم تكن هلينة متزوجة بشخص من عامة الشعب، بل كان زوجها هو مينيلاوس ملك أسبرطة. وذات يوم وقعت هلينة فى غرام باريس وفرت معه إلى بلده طروادة، وقد مرًّا فى طريقهما إليها بمصر. يقول هيرودوت(٤١): عند وصولهما إلى مصر اختبآ فى مدينة هيراكليون. فى تلك المدينة رفض أهلها إيواءهما نظرًا لأن علاقتهما ــ حسب رأى السلطات المصرية ــ علاقة غير مشروعة، لهذا كان لزامًا عليهما الرحيل إلى طروادة.

فى الوقت ذاته اتجه الزوج الجريح مينيلاوس إلى طروادة أيضًا لاستعادة زوجته، وقد نجح الملك الأسبرطى مينيلاوس فى ذلك، ولكن فى طريق العودة تعرضت سفينته التى كان يستقلها هو وهلينة مع رُبَّانه (قائد دفة السفينة) المدعو كانوبوس وزوجة الأخير مينوتس، إلى عاصفة قوية حطمت السفينة عند شاطئ الإسكندرية. وفى أثناء إصلاح العطب الذى أصاب السفينة لدغت إحدى الحيّات كانوبوس فأردته قتيلاً وأصبح بذلك إلهًا، وأصبح هو وزوجته من المخلدين بعد أن أُطلق أسماهما على مدينتين قرب مصب النيل إلى الشرق من الإسكندرية، هما: مدينة كانوب، ومدينة مينوتيس. ويرى المؤرخون أن اسم كانوب كان موجودًا قبل وجود اليونانيين، ويتحدث المؤرخون عن وجود كانوب قبل اليونان بنحو ١٠ آلاف سنة، وكلمة كانوب تعنى: أرض الذهب(*)(٤٢).

ما يهم فى هذه القصة أيًا كان صدقها، هو أنها ربطت الإسكندرية وما حولها بأحد الأحداث التاريخية المهمة من خلال ربطها بحرب طروادة، وجعلت أيضًا دلتا النيل مرتبطة باليونان.

وتدعيمًا لهذا الرأى، أن الموقع الذى أُنشئت به مدينة الإسكندرية كان يحتوى منذ مئات السنين على كثير من القرى، والتى كانت مرتبطة بشكل أو آخر باليونانيين قبل مجىء الإسكندر، ومن بينها ميناء هيراكليون وذلك حسب

---

(*) هذا التفسير مشكوك فيه حيث إن كلمة أرض فى المصرية القديمة هى ta وليس ka وأرض الذهب تكون ta – n – nbw . ومن ناحية أخرى إذا ما افترضنا أن اسم مدينة كانوب قد سمى على اسم ربان سفينة مينيلاوس، فإن اسم هذا الربان هو فى الغالب اسم يونانى وليس مصريًا. (المراجع).

آراء كل من هيكاتيوس الجغرافى المشهور(٤٣)، وهوميرالشاعر اليونانى الشهير، وكذلك الشاعر أخيلوس(٤٤) والذى زاره هيرودوت عام ٤٥٠ ق.م. ومنه بدأ زيارته لمصر.

هذا الميناء كان به على ما يبدو العديد من المشاكل، أهمها العمل الكثير الذى كان يتطلبه حوض هذا الميناء، كما يؤكد الجغرافى المدعو بطلميوس، والذى عاش بالإسكندرية فى النصف الأول من القرن الثانى قبل الميلاد(٤٥). وبعد أن تم إنشاء مدينة الإسكندرية عام ٣٣١ ق.م.، فقد ميناء هيراكليون أهميته وحل محله ميناء الإسكندرية الجديد(٤٦).

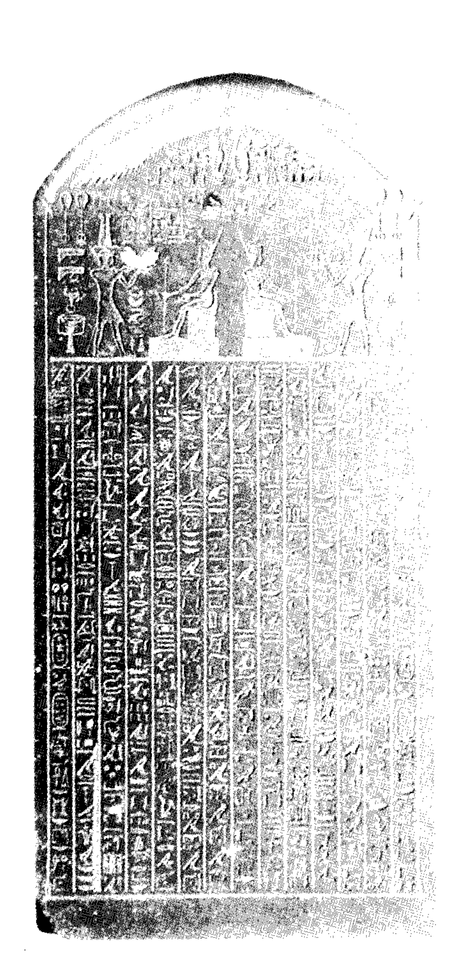
ويرى المؤلف أن استمرار هيراكليون مستخدمة كميناء حتى فترة متأخرة يؤكده العثور على بقايا سفن يمكن استخدامها فى عبور مصب النيل آنذاك. أما الكاتب الروائى السكندرى الذى عاش فى الإسكندرية فى القرن الثانى الميلادى والمسمى أخيلاس تاتيوس، فيقول فى جزء مهم من روايته إن بطلَىْ روايته لوى كيبه وكلايتفون " قد جاءا إلى الإسكندرية عن طريق سفينة كانت تسير فى أحد فروع النيل، وكل ما أحضراه معهما قاما بتثبيته فى ميناء هيراكليون". كذلك الإمبراطور جرمانيكوس(٤٧) الذى قام برحلة إلى طيبة، بدأ رحلته من ميناء هيراكليون، أما فيتوس الذى كان يرافق ابنه فسبسيان واستراح بعض الوقت فى الإسكندرية(٤٨)، فقد ذكر أنه عندما انطلق منها إلى ميدان القتال فى يهوذا قام بعبور الدلتا متحركًا من ميناء هيراكليون، كى يتخذ بعد ذلك الطريق البرى ثم يعبر الفرع البلوزى متجهًا نحو الشرق(٤٩).

حسب خرائط سترابو يتبين لنا أن ميناء هيراكليون هذا كان يقع فى منطقة أبى قير الحالية. فى تلك المنطقة، عثر الأثريون عام ٢٠٠٦ على حجر جرانيتى أسود من عهد الفرعون المصرى نختانبو الأول(*) (٣٨٠ ــ ٣٦٢ ق.م.)، وكان قد عُثر على نسخة أخرى له من عهد نفس الملك فى عام ١٨٩٩ عند مدينة نقراطيس فى الدلتا، وقد وجد على اللوح الحجرى نص هيروغليفى يتكون من ١٤ سطرًا رأسيًا. ولوحظ فى هذا النص أن كاتبه حاول أن يكتب كل

(*) هو الملك (نخت ــ نب ــ إف) مؤسس الأسرة الثلاثين الأخيرة. (المراجع).

صوت على حدة ، واستخدم ما هو متاح له فقط من حروف ساكنة. ويبدو أن الكاتب كان يحاول تقليد الأسلوب البسيط الذى كانت تُكتب به الأبجدية اليونانية.

يقول النص فيما معناه إن نختانبو قد وهب معبد الإلهة نيت الأموال التى حصل عليها من رسوم الضرائب، هذا المعبد كان موجودًا فى مدينة سايس. الجزء العلوى من اللوح يكشف عن منظرين متماثلين تعلوهما السماء ومن أسفلها قرص الشمس المجنح رمز الحماية. وفوق النقش من اليمين يقف الملك مرتديًا تاج الشمال، وهو يقدم قربانًا للإلهة نيت عبارة عن لوح فوقه خبز وأوانٍ مليئة بالمياه والنبيذ. فى الجهة اليسرى من اللوح المذكور والتى ترمز لمصر العليا، نرى الملك بتاج مختلف عن تاج الجنوب يقدم قربانًا للإلهة نيت عبارة عن قلادة ذهبية (شكل ١٠).



(شكل ١٠): لوحة هيراقليون.

الإلهة نيت فى هذا اللوح كانت تحمل الألقاب: إلهة سايس، سيدة السماء، وسيدة البحر الأخضر العظيم. ولأن هذه الإلهة كانت سيدة حامية للبحار كان لها نصيب من الرسوم التى كانت تُجبى عن طريق تجارة البحر المتوسط ، حيث حصل معبدها على العُشْر من الذهب والفضة والأخشاب النفيسة، بالإضافة إلى كل الأشياء التى تدخل منه إلى القصر الملكى[٥٠]. كما حصل المعبد على نسبة ١٠% من خيرات مدينة نقراطيس أيضًا. ثم يأمر الفرعون فى النهاية أن تُثبت

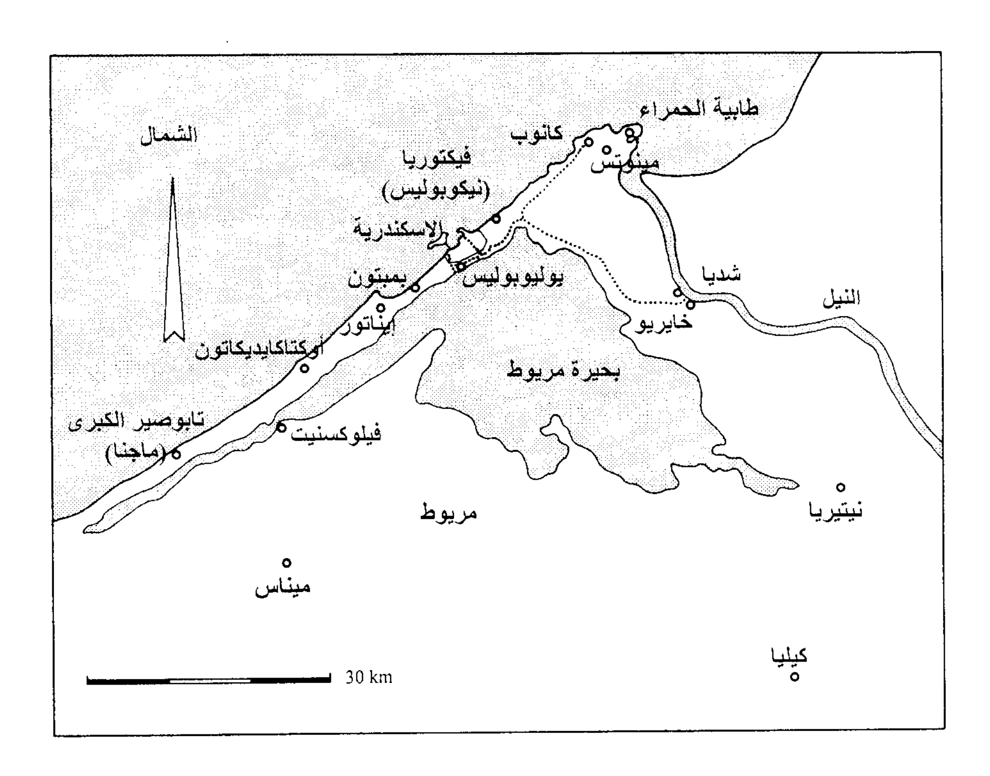
كل هذه الخيرات والمزايا التى كان يحصل عليها معبد الإلهة نيت على هذا اللوح، وأن توضع فى مدينة حوتى. ويرى المؤرخون أن هذا اللوح الحجرى كان يقف فى الأصل فى منطقة نقراطيس ونُقل إلى منطقة حوتى .

وتذكّرنا مدينة حوتى مع إضافة أداة التعريف المصرية للمؤنث التاء قبلها، "تحوتى" بالمدينة الإغريقية سوتيس. وقد رُويت حول هذه المدينة ــ تحوتى ــ تانيس الأساطير والحكايات، حيث إن البطل الأسطورى هرقل اليونانى كان عليه أن يسافر إلى جميع أقطار البحر المتوسط لكى يجمع تشريعاته الاثنى عشر والتى صارت قوانين يُعمل بها، وبالطبع كان عليه المجىء إلى مصر. وعندما جاء هرقل إلى مصر ثار نهر النيل وهاج وماج، وكاد أن يحطم البلاد والعباد عند ذلك قام هرقل بدوره المعهود، حيث إنه سيطر على نهر النيل الثائر ورمم الكبارى والسدود وهدّأ من ثورة النيل وأنقذ البلاد من الغرق؛ لذلك كافأ الشعب المصرى هرقل، بأن بنوا معبدًا باسمه وأطلقوا عليه اسم هيراكليون على اسم هذه البلدة نسبة إلى معبد هرقل. وكما سبق الذكر إن العاشقيْن هلينة وباريس قد هبطا إلى مصر فى طريقهما إلى طروادة، وكان مجيئهما عن طريق ميناء هيراكليون. هناك قام الخدم التابعون لباريس باللجوء سرًا إلى معبد هيراكليون وأخبروا كهنة المعبد هناك عن قصة سيدهم باريس مع معشوقته انتقامًا منه ووشوا بهما، ولذلك رفض ثونيس حارس مصب النيل الكانوبى استقبالهما كما سبق الذكر. ونخلص من كل هذه القصص بأنه كانت هناك مدينة تُسمى هيراكليون قد غمرتها المياه لمدة ألف عام، والآن نعلم عنها بعض الشيء، كما أن هناك مدينة أخرى كانت قد غطتها المياه أيضًا تُسمى مينوتيس وموقعها اليوم ١,٦ كيلومترًا فى البحر بمنطقة أبى قير.

لم يذكر سترابو مدينة مينوتيس هذه ، حيث إنها كانت فى عصره غير مشهورة، وبدأت تشتهر هذه المدينة بعد أن بُنى فوقها معبد الإلهة إيزيس. وقد عثرنا على نقش يرجع إما إلى القرن الثانى أو الثالث الميلادى، يخبرنا بأن شخصًا قام بإهداء معبد إيزيس فاريا الكائن فوق مدينة مينوتيس تمثالاً بمناسبة نجاة القيصر أنطونيوس بيوس (١٣٨ـ ١٦١ميلادية) أو إنقاذ كاراكالا (٢١١ـ ٢١٧ ميلادية)(٥١). فى القرن الرابع الميلادى، جذب معبد إيزيس العديد من الحجاج، وكانت النساء معجبات بعقيدة إيزيس ومعبدها المشيد فوق هذه المدينة.

وقد حاول القساوسة النصارى آنذاك إثناء النساء عن عقيدة إيزيس ولفت أنظارهن إلى عقيدتهم المسيحية، ولكن النساء لم يعرنهم أى اهتمام. ولذلك قام المسيحيون بهدم معبد إيزيس وتدميره تمامًا بعد فشل القساوسة فى قمعهن، ولم يبق منه أى شىء الآن(٥٢).

وحول منطقة الإسكندرية، كان هناك ميناءان هما: ميناء شديا وميناء خايريو(٥٣). فى هذا الميناء الأخير، تأتى السفن المحملة بالغلال وتفرغ حمولتها فى مخازن غلال الإسكندرية. وقد أكد هذا المؤرخ اليونانى بروكوب الذى كتب عن مبانى الإسكندرية فى القرن السادس الميلادى، حيث قال: "لم يكن النيل يصل حتى الإسكندرية، لذلك قام الإمبراطور الرومانى جوستنيان (٥٢٧ــ ٥٦٥ ميلادية) بشق قناة تصل منطقة خايريو(٥٤) بمنطقة مخازن الغلال بالإسكندرية، ولكن هذه القناة لم تكن كبيرة بحيث تمر بها السفن. لهذا




(شكل ١١): أماكن بالقرب من الإسكندرية.

كانت السفن تفرغ حمولتها في منطقة عند ملتقى القناة بخايريو، ويتم شحن الغلال فوق مراكب صغيرة تُعرف باسم دياريماتا داخل المدينة حتى تصل مخازن غلال الإسكندرية، تلك المخازن قد كانت معرضة لهجوم الثوار فى كثير من الثورات؛ لذلك أمر الإمبراطور جوستنيان ببناء سور حول منطقة الغلال هذه. كما أن خايريو كان ميناء مهمًا بالنسبة للمسافرين، حيث إنهم كانوا يشترون كل ما يحتاجونه من طعام وهدايا من هذا الميناء.

أما المنطقة المحيطة بالإسكندرية، فقد كانت مقسّمة إلى منطقتين: الأولى كانت منطقة بحيرة مريوط والتى كانت أكبر من حجمها فى يومنا هذا (شكل ١١). ويقول الكاتب والمؤرخ اليونانى بالاديوس إنه احتاج إلى يوم ونصف اليوم كى يعبر بحيرة مريوط بالمركب، وذلك كى يصل إلى الأديرة التى تقع فى منطقة نيتيريا، والتى كانت تقع فى أقصى الجنوب[٥٥]. ويقول إن البحيرة كانت غنية بأسماكها كما أنها كانت غنية بنبات البردى، والذى كان يُصنع منه الورق، تلك الصناعة كانت هى الأهم فى البلاد. ولم يكن سكان البحيرة ومنطقة الأحراش والمستنقعات من المحبوبين فى الإسكندرية، وقد وصفت مريوط بأنها من ضواحى الإسكندرية تضم قرى عديدة والكثير من السكان[٥٦]. كما أن منطقة مريوط أمدت هذه البلاد باللحوم والخضراوات، كما اشتهرت منطقة مريوط بإنتاج النبيذ ذى الجودة العالية، أما الجزء الثانى فهو عبارة عن فرع مائى ييسّر نقل منتجات المنطقة إلى بقية الأجزاء من المدينة.

### السادة المُنْعِمون، ذوو البطون والرقاب الغليظة

### عازف المزمار، البطالمة وعاصمتهم

تطورت الإسكندرية تطورًا سريعًا كى تصبح عاصمة المملكة الجديدة وارتبط بها قدر حكامها وقاسمها أقدار حكامها إيجابًا وسلبًا. على سبيل المثال، استفادت البلاد بصورة عظيمة خلال فترة حكم البطالمة الأوائل، كما عانت البلاد من حكام آخرين جاءوا إلى الحكم فيما بعد، وتعاقب البطالمة على حكم مصر حتى وصل عددهم إلى خمسة عشرًا "بطلميوس"[٥٧]. نظرة إلى الوراء، عندما جاء الإسكندر إلى مصر ترك بها عند رحيله مشرفًا على جباية

الضرائب من البلاد، والذى سرعان ما تحول إلى حاكم البلاد الفعلى، هذا الشخص يدعى كليومنيس من مدينة نقراطيس(٥٨). هذا الرجل استخدم أموال الضرائب لتوسيع مدينة الإسكندرية.

كما أن موت الإسكندر الفجائى وغير المتوقع فى سن الثالثة والثلاثين قد سبب الكثير من الإرباك والتخبط لأتباعه، خاصة وأن الإسكندر ذاته لم يكن يتوقع ذلك، ولم يكن قد أعد خليفة له فى حال غيابه. لذلك فإنه عند وفاة الإسكندر، اجتمع قواد الجيش وأجمعوا على أنه لا بد من تقسيم مُلْك الإسكندر فيما بينهم وبين أخى الإسكندر وابنه الجنين فى بطن أمه إن ولدته ولدًا. وبعد هذا التقسيم كان مُلْك مصر من نصيب بطلميوس الأول، والذى كان واضعًا مصر نُصْب عينيه منذ البداية. ولكن حقيقة الأمور تقول إن القادة عندما اجتمعوا فإنهم أعطوا ملك مصر لكل من فيليبوس الثالث (٣٢٣ ــ ٣١٦ ق.م.) وهو أخ للإسكندر، وابنه الذى لم يكن ولد بعد والذى أطلقوا عليه اسم الإسكندر الرابع (٣١٦ ــ ٣٠٤ ق.م.). ولكن كلا الشخصين المذكورين لم يطأ أرض مصر؛ وبالتالى لم يتم تتويجهما بها.

لقد ولد بطلميوس الأول عام ٣٦٧ ق.م. من أب يُدعى لاجوس، ولهذا أسمى أتباعه أيضًا اللاجيديين، وكانت عائلة بطلميوس الأول عائلة كبيرة ذات شأن عظيم، أمه كانت تدعى أرسينوى، وكانت من البيت المالك باليونان، أما بطلميوس الأول ذاته فقد كان من قواد الجيش المغاوير الشجعان، ونظرًا لشجاعته فقد قربه الإسكندر وجعل منه حارسه الشخصى، بل كان من الفئة القليلة التى اختارها الإسكندر لكى تسافر معه إلى واحة سيوه. ويرى المؤرخون أن بطلميوس كان مسئولاً عن تفتيت مُلْك الإسكندر بعد وفاة الأخير واستقلال كل حاكم بدولته عن سيطرة اليونان وسيادتها. وأول الخطوات التى اتخذها بطلميوس الأول فى سبيل استقلاله بملك مصر وعدم تبعيتها لليونان هى إبعاده لكليومنيس النقراطيسى الرجل المهم فى مصر وجابى الضرائب. وبإقصائه كليومنيس وضع بطلميوس الأول يده على خزينة الدولة التى حوت آنذاك ٨٠٠٠ تالنت ، والتى استخدمها فى بناء جيش قوى من المرتزقة.

أما السياسة الخارجية أثناء ذلك، فقد أُتيح لبطلميوس التدخل عام ٣٢٢ ق.م. فى شئون كيرينه وغدت له الكلمة العليا، حيث إنه أصبح بعد هذا التدخل القائد الأعلى للجيش ورئيس المحكمة العليا وترك بها حامية من جيشه كانت تسيّر كل الأمور لصالحه. ثم حدث نصر آخر فى السياسة الخارجية لبطلميوس الأول؛ وذلك أنه أصر على دفن الإسكندر فى واحة سيوة المصرية حسب رغبة الملك المقدونى. وأصر أيضًا على تحنيط جثة الإسكندر فى مصر، كما أمر بعمل التابوت المناسب لها فى مصر أيضًا، وقد استغرق كل ذلك عامين. فى هذا الشأن يروى المؤرخون أن بطلميوس الأول قد تحدى برديكاياس الوصىَّ على الأملاك اليونانية، حيث أمر الأخير بدفن جثمان الإسكندر فى المقبرة الملكية بمقدونيا مسقط رأسه. عند تحرك الركب من سوريا حاملاً نعش الإسكندر إلى مقدونيا، هجم عليه بطلميوس الأول واستولى منهم بالقوة على جثمان الإسكندر عام ٣٢١ ق.م. وقد دارت هذه الأحداث على الأراضى السورية، وبمجرد أن جاء بجثمان الإسكندر إلى مصر أمر بدفنه فى بادئ الأمر بالعاصمة المصرية القديمة ممفيس.

فى عام ٣١١ ق.م.، أمر بطلميوس الأول بنقل رفات الإسكندر من مدينة ممفيس إلى الإسكندرية عاصمة مصر ومركز العالم الاقتصادى والحضارى آنذاك. ولقد كان هذا العمل من بطلميوس الأول رسالة واضحة منه إلى نظرائه القواد والحكام الآخرين عن رغبته فى استقلاليته بملك مصر وانفصاله بها عن اليونان. وهكذا بقى جثمان الإسكندر فى مدينته الإسكندرية وغدت تُقام لها العبادات والصلوات بها،على أنه إله لهذه المدينة وغيرها من المدن الكثيرة التى أسَّسها.

ولكن القواد اليونانيين لم يغفروا ولم ينسوا لرفيقهم القديم بطلميوس الأول اختطافه لجثمان الإسكندر ودفنه فى الإسكندرية، بل راحوا يقودون ضده الحرب تلو الأخرى. وكان من هذه الحروب تلك التى كانت عام ٣٠٦ ق.م.، والتى حصل بعدها بطلميوس الأول على لقب ملك بصورة رسمية. عند ذلك رأت الإسكندرية ملكًا يحكم على أرضها، وقد شُيد له قصر ملكى فى مدينة الإسكندرية، تلك العاصمة التى استغرق بناؤها ربع قرن. نتيجة لكل أعمال

بطلميوس الطموحة هذه، أزمع القائدان أنتيجوس وديمتريوس الهجوم على الإسكندرية والاستيلاء عليها، مستخدمين فى ذلك الأسطول البحرى والجيش البرى، ولكن هذه المحاولة باءت بالفشل.

ومن هنا بدا واضحًا أن مصر وعاصمتها الإسكندرية تتمتع باقتصاد قوى وجيش عظيم، وعم الرخاء والسلام البلاد. ولم يكن شىء يدعو للقلق سوى الزيجات الكثيرة للملك البطلمى وأبنائه من تلك الزيجات ( شكل ١٢).

فى بادئ الأمر تزوج بطلميوس الأول من ابنة الوصى على أملاك الإسكندر والمدعو أنتى بطرس وذلك عام ٣٢٢ ق.م.، ولم تكن هذه أول زيجاته بل الثانية. وقد نتج عن هذا الزواج ثلاثة أولاد وابنتان أو ربما ثلاثة. من أولاده حكم اثنان لفترة قصيرة فى مقدونيا. إن زوجة بطلميوس المذكورة هذه كانت تُسمى أيروديكى والتى جاءت إلى مصر وفى رفقتها امرأة أخرى أرملة تُسمى برنيكى. هذه الأخيرة غدت عشيقة للملك ثم مع مرور الوقت احتلت برنيكى مكان زوجة الملك الشرعية، وغدت هى زوجة الملك. وبهذا الزواج يُعتبر الملك قد تزوج للمرة الثالثة. وقد رُزق من هذه الزوجة الثالثة بابنة اسمها أرسينوى، والتى ولدت عام ٣١٦ ق.م. وبطلميوس الثانى المولود عام ٣٠٨ ق.م.، فى جزيرة كوش، ولما كانت برنيكى الزوجة الثالثة للملك قوية الشخصية فقد أرغمته على عدم إعطاء أبنائه الذكور من الزوجات السابقات حق تولّى الملك من بعده وأن يكون خلفاؤه فقط من أبنائها هى. لما علمت زوجته السابقة أيروديكى بهذا القرار ما كان منها سوى أن أخذت أولادها معها وتركت مصر عائدة مرة أخرى إلى وطنها اليونان، وكان ذلك فى عام ٢٨٧ ق.م.

فى عام ٢٨٥/٢٨٤، جلس بطلميوس الثانى على العرش مشاركًا والده بطلميوس الأول الحكم. أما أرسينوى ابنة بطلميوس الأول، فقد زوَّجها لرجل يُدعى ليسماخوس يبلغ من العمر الستين عامًا، فى حين كانت الفتاة فى السادسة عشرة من عمرها. بهذا فإن هذا الرجل المسمى ليسماخوس قام بتزويج ابنته لبطلميوس الثانى والتى كانت تُسمى أيضًا أرسينوى. وبهذا فقد غدت أرسينوى زوجة بطلميوس الثانى تُلقب بأرسينوى الأولى وأرسينوى ابنة بطلميوس الأول

تُلقب بأرسينوى الثانية. وبهذا يُعتبر بطلميوس الأول مؤسس أسـرة البطالمـة وواضع ركائزها وابنه بطلميوس الثـانى هو موسِّعُها وباسط حدودها وسلطانها (٢٨٣ ــ ٢٤٦ ق.م.).

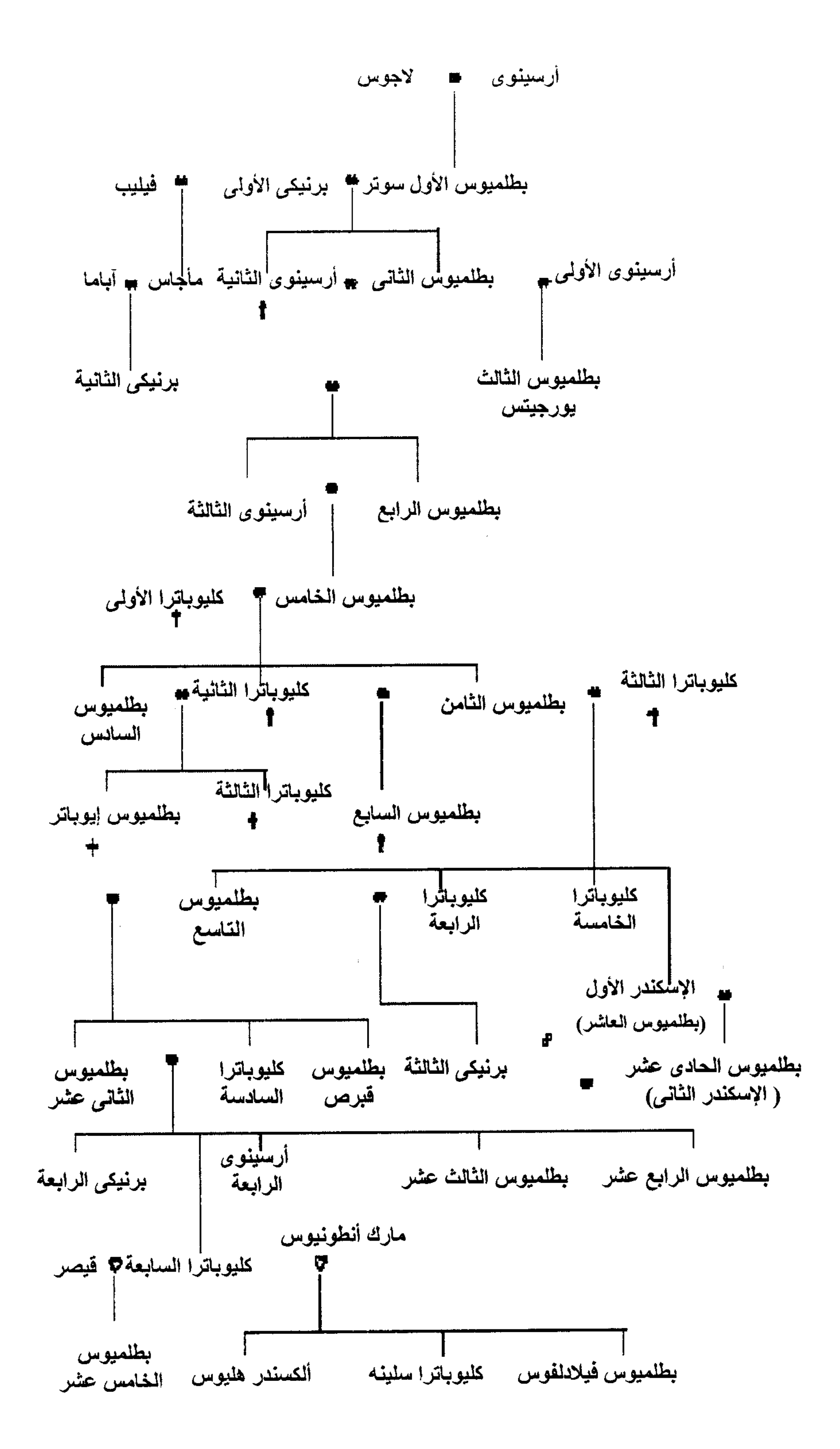
أما اللقب الذى تلقّب به وهو "المحب لأخته"، فكان إنذارًا بأن بطلميـوس سوف يتزوج أخته الشرعية أرسينوى الثانية، وقد حدث، حيث إنه فيمـا بعـد تزوج منها. ولم يكن ذلك بمشكلة بالنسبة للشعب المصرى الذى اعتـاد زواج الإخوة(*). أما الشاعر اليونانى سوتاديز، فقد هجا هذا الزواج ولعنـه ووصـفه بأنـه زواج محرم. وعلى النقيض منـه كان الشاعر تيوكريت الذى قـال(٥٩): "لا توجد للملك زوجة أفضل منها (أرسينوى) هى التى تحتضنه بين ذراعيهـا؛ لأنه أخوها وحبيبها وزوجها"(٦٠).

فى عصر يورجتيس، وهو بطلميوس الثالث والملقـب بـالخيّر (٢٤٦ ــ ٢٢٢ ق.م.)، وصلت حدود الإمبراطورية المصرية أقصى اتـساعها، حيـث ترامت مملكتها فى جميع الجهات. أما الجهات والبلدان التى أحكمـت مـصر سيطرتها عليها لفترات طويلة فكانت قبرص وقورينة، قورينائية التـى كانـت مستودع الحبوب فى منطقة البحر المتوسط، كذلك سوريا وفلسطين، أيضًا لبنان ذا الأشجار القيمة وميناء كارين الشهير بأهميته التجاريـة ومـزارع الكـروم والمناحل المهمة. كما كانت هناك مناطق أخرى خضعت للحكم المصرى، مثل مليت وإفسوس وبعض الجزر الإغريقية، مثل ساموس، ليسبوس وأجزاء مـن كريت وتيرا ومناطق أخرى فى بليبونيس.

ويرى الأديب اليونانى بوليبيوس أن البطالمة قد وضعوا الملوك السوريين دائمًا تحت سيطرتهم، كما أنهم أخضعوا ملوك آسيا الصغرى لرغبـاتهم. كمـا أنهم سيطروا على الجزر أيضًا، ولا عجب فى ذلك حيث إنهم امتلكوا الحصون والموانى المهمة والشواطئ الحيوية من منطقة طاروس فى تركيا الحالية وحتى شواطئها على نهر الدردنيل. كما أنهم سيطروا علـى منـاطق نفـوذ القائـد ليسيماخيا، بل لقد شكل البطالمـة خطرًا على مقدونيا ذاتها ومناطق من البلقان؛

---

(*) تعقيب: زواج الإخوة لم يكن شائعًا بين طبقات الشعب المصرى، وإنما كان واردًا فى داخل بيـت الملك وفى حالات الضرورة. ( المراجع).




(شكل ١٢) شجرة عائلة البطالمة

حيث إنهم سيطروا على مدن مهمة بعينها مثل آينوس ومارينويا. ونظرًا لاتساع المُلْك البطلمى وامتداد أذرعه فى كل اتجاه، لم يعد الملك البطلمى يخشى على ملكه من أحد(٦١).

فى عام ٢٥٣ ق.م.، أرسل بطلميوس الثانى بعثة إلى روما مؤداها أن مصر سوف تلتزم موقف الحياد فى الحرب الدائرة بين الرومان والقرطاجيين، وبذلك جنّب فيلادلفوس شعب الإسكندرية ويلات هذه الحرب. وقد كان ذلك فى عام ٢٤١ ق.م. وفى عام ٢٣٨ ق.م.، اجتمع الكهنة المصريون وأصحاب الرأى من البيت المالك البطلمى فى مدينة كانوب، وذلك لتتويج بطلميوس الثالث كملك للبلاد، وفى الوقت ذاته الاحتفال بعيد ميلاده. وقد حوت وثيقة كانوب هذه على الكثير من أعمال بطلميوس الثالث ومآثره، والتى كان جزء كبير منها يرجع فيه الفضل إلى زوجته برنيكى؛ تلك الزوجة الوفية التى نذرت أن تقص ضفيرة من شعرها وتهبها كقربان فى معبد أرسينوى إذا عاد الملك بطلميوس الثالث من حربه سليمًا معافى. وبالفعل عاد الملك سالمًا غانمًا من حربه، وقامت برنيكى بقص هذه الضفيرة من شعرها ووضعتها فى معبد أرسينوى كقربان، ولكن الضفيرة اختفت من المعبد فى اليوم التالى ولم يستطع أحد العثور عليها حتى جاء عالم الميكانيكا والفلك المشهور المدعو كونون من بلدة ساموس، وهو من تلاميذ أرشميدس المقربين، حيث إنه اكتشف صورة هذه الضفيرة على شكل نجم فى السماء(٦٢).

من مآثر وأعمال بطلميوس الثالث تخبرنا وثيقة كانوب المذكورة أنه استولى على أجزاء كثيرة من سوريا وذلك إبان الحرب السورية الثالثة (٢٤٦ـ٢٤١ ق.م.)، بل إن ممتلكاته من هذه الحرب امتدت حتى منطقة تراقيا على ساحل البحر المتوسط، كما أن هذا الملك استرد الكثير من تماثيل الآلهة المصرية ولوحاتهم التى كان قد نهبها الفرس من المعابد المصرية والتى بلغ عددها ٢٥٠٠ قطعة أثرية وأرجعها إلى مصر، ومن هنا جاء لقبه الذى اشتهر به فى التاريخ: الخيّر أو المُنْعم. ولهذه الأعمال والصنائع فقد عُبد بطلميوس الثالث وزوجته كإلهين فى حياتهما. كما رأى الكهنة تغيير التقويم الحالى المعمول به وعمل تقويم جديد يقوم على أساس إضافة يوم إلى شهر فبراير كل

أربعة أعوام، ليصبح شهر فبراير ٢٩ يومًا بدلاً من ٢٨ يومًا كل أربعة أعوام، ولكن هذا التقويم لم يتم العمل به، وكان هذا اليوم مرهون إضافته من عدمها بظهور نجم الشِّعْرَى فى السماء.

فى عام ٢٢٢ ق.م.، اعتلى بطلميوس الرابع عرش البلاد وتزوج هو الآخر من أخته ولُقِّب بفيلوباتور ومعناه: المحب لأبيه، هذه الأخت كانت تُسمى أرسينوى الثالثة. وبمجرد اعتلاء بطلميوس الرابع العرش قام بقتل عمه وأخيه الشقيق، وكذلك قام بقتل أمه برنيكى الثانية؟ وقد برّأ بعض المؤرخين بطلميوس الرابع من هذا القتل واتهموا رجل القصر الذى كان من أصل سكندرى، وكان من عهد حكم بطلميوس الثالث ويُدعى سوسيبيس، بقتلهم جميعًا. ونظرًا لتعطش بطلميوس الرابع للدماء وقتله الكثير من الأفراد، فقد ضُرب به المثل وحيكت حوله الإشاعات والأمثال التى تناقلتها الألسنة، مثل قولهم: "الموت راحة"، "الميت لا يضيره شىء"(٦٣). فى عام ٢١٩ ق.م.، أى فى عهد بطلميوس الرابع حدثت الحرب السورية الرابعة، وفيها استطاع السلوقيون بقيادة أنطيوخس الثالث الانتصار على القوات المصرية والاستيلاء على جزء كبير من فلسطين التى كانت تحت سيطرة المصريين. وفى عام ٢١٧ ق.م.، هاجم الملك السلوقى مصر ذاتها وتم إيقاف زحف الجيوش السلوقية فى منطقة رفح. لقد سُميت هذه الحرب عام ٢١٧ ق.م. بموقعة رفح، وهى مهمة بالنسبة للمصريين، حيث إن المصريين سُمح لهم لأول مرة الانضمام للجيش وخوض هذه الحرب جنبًا إلى جنب مع اليونانيين، وقد لعبوا دورًا حاسمًا فى إنهاء المعركة لصالح المصريين.

فى عام ٢٠٥ ق.م.، ضج الشعب المصرى من البطالمة واستغلالهم للمصريين اقتصاديًا وتجاريًا وراح المصريون يقومون بالثورة تلو الأخرى ضدهم. فى عام ٢٠٤ ق.م.، تُوفِّى بطلميوس الرابع ثم اغتيلت زوجته أرسينوى الثالثة. تولى الحكم بعد ذلك بطلميوس الخامس الذى كان فى الخامسة من عمره، وكان الأوصياء عليه آنذاك سوسيبيس وأجاثوكليس، ونظرًا لصِغَر سن بطلميوس الخامس، قام السلوقيون بإثارة الكثير من الاضطرابات، وراحوا يشنون الهجوم تلو الآخر على الممتلكات المصرية خارج البلاد حتى فقدت

مصر كل ممتلكاتها خارج حدودها. ومع مرور الوقت، بدأت الخريطة السياسية تتبدل وتتغير وتندثر قوى وتظهر على الساحة قوى أخرى، حيث نرى بـــزوغ نجم الرومان وتحكمهم فى منطقة البحر المتوسط. فى عام ١٩٧ ق. م.، انتهت كل سيطرة مصر على ممتلكاتها خارج حدودها ولم يعد لمصر كلمة تُطاع فى الخارج. فى عام ١٩٩ ق.م.، تم تنصيب كانوفربس ملكًا للبلاد حتى يبلغ الطفل سن الرشد.

فى عام ١٩٦ ق. م.، تم تتويـــج بطلميوس الخـــامس بـــصورة رســـمية كملك للبلاد، ولو أنه فى الواقع قد سُمى ملكًا للبلاد منذ وفاة أبيه. فى عام ١٩٤ ق.م.، تزوج بطلميوس الخامس ابنة الملك السلوقى أنطيوخس الثالث، والتـــى تُسمى كليوباترا الأولى. وبهذا الزواج ساد السلام بين العدوين اللـــدودين فـــى الشرق. فى عام ١٨٦ ق. م.، حدثت ثورة ضد الملك ومن حسن حظه أن كان هناك عدد كبير من الجنود اليونانيين قاموا بالدفاع عنه وإخماد هذه الثورة. أما أثناء الحرب الأهلية الطويلة، فقد هرب عدد كبير من الأهالى والفلاحين إلـــى قرى الدلتا المحصنة للاختباء بها. ثم إن بطلميوس الخامس قام بإصدار عفـــو عام عن كل الثائرين والذين قاموا بارتكاب جرائم ضد الدولة، والذين لم يدفعوا ضرائبهم للدولة، وبهذا العفو العام استطاع بطلميوس الخامس تهدئة الأوضاع فى البلاد بعض الشىء.

ولكن فترة حكم بطلميوس الخامس كانت فترة ساد فيها الصراع الـــداخلى بين أفراد البيت المالك ذاته، وبالتالى انعدمت السياسة الخارجية المصرية ولـــم يعد لها وجود خارج حدودها، كما أن بطلميوس الخامس قد ارتمى فى أحضان القوة الجديدة الناشئة وهى روما. فى عام ١٧٠ ق.م.[٦٤]، تولى حكـــم مـــصر الإخوة البطالمة الثلاثة، وهم: بطلميوس السادس، وكليوباترا الثانية وبطلميوس الثامن. فى أثناء ذلك التخبط السياسى فى مصر هاجم السلوقيون مصر بقيـــادة أنطيوخس الرابع وهزم الجيش المصرى الضعيف، وبدا كل من الإخوة الثلاثة ذا رأى منفصل عن الآخـــر. وبينما كان بطلميوس السادس يتفاوض مع الملك السلوقى، وقع اختيار الشعب السكندرى فى الإسكندرية على بطلميوس الثـــامن

ليكون حاكمًا على الإسكندرية ومصر دون بقية إخوته. عند ذلك هاجم أنطيوخس الرابع مدينة البحر المتوسط العظمى، مدينة الإسكندرية.

وهنا ظهرت عظمة وقوة ومناعة أسوار مدينة الإسكندرية التى حمت شعبها، ولكن ذلك لم يمنع القول بأن شعب الإسكندرية هوجم للمرة الأولى فى تاريخه وعلى أرضه وهو الآن مهدد ولا يقيه من اجتياح السلوقيين لأرضه سوى تلك الأسوار المنيعة. فى أثناء ذلك أرسل السكندريون بعثة إلى روما تطلب الغوث والنجدة ولكن بلا نتيجة. والحق يُقال، فإن الشعب السكندرى آنذاك قد وقف وقفة رجل واحد خلف بطلميوس الثامن وراحوا يقاومون المُحاصِرين. لما طال وقت الحصار لمدينة الإسكندرية أمام أنطيوخس الرابع أمر بشن هجوم شامل على الإسكندرية للاستيلاء عليها ولكن هذا الهجوم باء بالفشل؛ وذلك لأن مياه النيل قد ارتفعت وسببت الكثير من المشاكل لجنوده، وهكذا أُنقذت الإسكندرية وكان على أنطيوخس أن يرجع إلى سوريا بعد أن علم بأن الرومان يحاولون التدخل فى شئون سوريا.

وفى عام ١٦٨ ق. م.، عاود الملك السلوقى الهجوم مرة أخرى وبشراسة أكبر وأعلن نفسه ملكًا على مصر، واتجه مجددًا إلى الإسكندرية واضطر الشعب السكندرى مرة أخرى إلى الاختباء والتحصن خلف أسوار المدينة المنيعة، وبدأ سيناريو حصار مدينة الإسكندرية من جديد، واتجهت أنظار السكندريين مجددًا إلى روما طالبة النجدة. عند ذلك هبت روما لمساعدة مصر، وفى الوقت نفسه أرادت أن يكون لها باع كبير وسيطرة فى منطقة البحر المتوسط، حيث إن الرومان أرسلوا رجلهم القوى بوبليوس لاينوس إلى أنطيوخس الرابع بمصر، حيث تقابل بوبليوس لاينوس والملك أنطيوخس الرابع فى منطقة أليوسيس خارج منطقة الإسكندرية، وعندما رأى بوبليوس أنطيوخس لم يُحيّه ولم يمد له يده بالسلام، بل تحدث معه بكبرياء وعجرفة وعامله وكأنه شخص لا قيمة له لا كملك للبلاد. ثم إن بوبليوس قد أملى عليه تعليمات روما التى تلخصت فى أمر واحد وهو الانسحاب الفورى من الإسكندرية، فقال الملك السورى للنبيل الرومانى: أعطنى وقتًا للتفكير. فأجاب بوبليوس بأن قام بعمل دائرة حول الملك السورى بعصاه على الأرض، وقال له: بل أريد إجابة

واضحة قبل أن تخرج من هذه الدائـــرة. وما كان من الملك الـــسلوقى ســـوى الانصياع لأوامر الرومان والخروج بجيوشه من الإسكندرية، وبـــذلك أُنقـــذت مدينة الإسكندرية مرة أخرى من السلوقيين(٦٥).

بعد أن غادر السلوقيون مصر، تفرغ الإخوة الثلاثة مرة أخرى لصراعهم الداخلى على تولّى عرش البلاد. وفى عام ١٦٥ ق. م.، قـــام موظـــف كبيـــر بالقصر بشَنٍّ ثورة كبيرة ضد القصر الملكى؛ رغبة منه فى الحـــصول علـــى مكاسب مادية لشخصه هو. هذه الثورة شلت الحركة فى جميع مرافـــق مدينـــة الإسكندرية، وفى النهاية تمت السيطرة على هذه الثـــورة، ونـــتج عـــن هـــذه الصراعات اتفاق بين الملوك الثلاثة الإخوة المتصارعين، وذلك فى عام ١٦٣ ق.م.، حيث اتفقوا على تقسيم أملاك الدولة البطلمية فيما بينهم، ونتج عن هـــذا التقسيم أن بطلميوس الثامن تولّى الحكم فى ليبيا واســـتقل بهـــا لنفـــسه، أمـــا بطلميوس السادس فقد تزوج من كليوباترا الثانية أخته، وبذلك بقى معها يحكمان معًا بالإسكندرية وبقية أملاك القصر الأخرى.

فى عام ١٤٥ ق. م.، تُوفِّى بطلميوس السادس، عند ذلك تزوج بطلميوس الثامن أرملته كليوباترا الثانية أخته. ثم إنه بعد ثلاثة أعوام أخرى تزوج أيـــضًا ابنتها من أخيه المتوفّى، والتى كانت تُسمى كليوبـــاترا الثالثـــة. نتيجـــة لهـــذه الزيجات المعقدة نتج كثير من الصراعات التى اكتوى بها فـــى المقـــام الأول الشعب السكندرى، حيث إنه فى عام ١٣٢ ق.م. اندلعت حرب أهلية شرسة فى مدينة الإسكندرية وشب الحريق فى قصر الملك، واجتمع قواد الجيش وقـــرروا خلع الملك بطلميوس الثامن(*) من المُلْك وطردوه خارج المدينة وجعلـــوا مـــن كليوباترا الثانية ملكة للبلاد. وردًا على هذا العمل قام بطلميوس هذا بقتل ابـــن كليوباترا الثانية وقطع يديه ورجليه ورأسه، وأرسل أجزاء الابن إلى أمه الملكة كليوباترا الثانية كهدية فى يوم احتفالها بعيد ميلادها. عندما وصـــلتها الهديـــة وفتحتها نادت شعب الإسكندرية بأكمله وفتحت أمامهم الهدية التى أرسلها إليها بطلميوس الثامن، وعرضت عليهم أجزاء ابنهـــا وأوغـــرت صـــدورهم ضـــد بطلميوس وصنيعه هذا. فى عام ١٢٦ ق.م.، هاجم بطلميوس الثامن الإسكندرية

---

(*) ذُكر فى الأصل خطأ على أنه بطلميوس السادس والذى كان قد توفّى عام ١٤٥ ق.م. (المترجم).

انتقامًا من كليوباترا الثانية والشعب السكندرى وأحرق أعدادًا مهولة من شعب الإسكندرية. لتلك الأحداث لم يفرح سوى التجار الرومان الذين أقاموا تمثالاً للملك البطلمى تكريمًا وشكرًا له على أعماله البشعة هذه. فى عام ١١٦ق.م.،[٦٦] تُوفيت كليوباترا الثانية بعد أن كانت تصالحت مع كليوباترا الثالثة ابنتها، وبعد وفاة كليوباترا الثانية تولت كليوباترا الثالثة حكم البلاد مشاركة مع ابنها بطلميوس التاسع ، والذى لُقِّب بالمحب لأمه. لم يستمر الوئام طويلاً بين كليوباترا الثالثة وابنها بطلميوس التاسع، حيث إنها اتهمته بأنه قد خطط مؤامرة لقتلها، وثار شعب الإسكندرية مرة أخرى ضد بطلميوس التاسع وطردوه من المدينة، عند ذلك اختارت كليوباترا ابنها الأصغر بطلميوس العاشر ليجلس معها على العرش. هذا الأخير كان ملقبًا بالإسكندر، وقد قام بقتل أمه الملكة كليوباترا الثالثة فى عام ١٠١ ق.م .

فى عام ٨٨ ق. م.، كتب بطلميوس العاشر وصيته التى جاء فيها أنه فى حالة وفاته فإن ملكية مصر تئول إلى الرومان. ولم يبق بطلميوس العاشر طويلاً فى الحكم، حيث انتفض ضده الشعب السكندرى والجيش نظرًا لمحاباته الشديدة لليهود، وقاموا بطرده من مصر وأرجعوا أخاه بطلميوس التاسع إلى الحكم مرة أخرى. بعد ذلك تُوفِّى بطلميوس العاشر، ورأى الرومان أن يتركوا أفراد البيت المالك البطلمى يقضون على أنفسهم بأنفسهم كالنار التى تأكل بعضها بدلاً من أن يتدخلوا هم ويقوموا بذلك. وقد استغرقت هذه السياسة خمسين عامًا أخرى حتى انتهى حكم البطالمة.

ثم جاء على العرش بعد ذلك بطلميوس الحادى عشر، والملقب بالإسكندر الثانى، والذى تزوج هو الآخر أخته الملكة كليوباترا الرابعة، ولكنه قتلها بعد ثمانية عشر يومًا من زواجها، فثار الشعب السكندرى ضده وهجموا على القصر وسحبوه على الأرض وسحلوه فى الشارع قتيلاً. بعد ذلك جاء بطلميوس الثانى عشر إلى الحكم وحكم مصر والإسكندرية منفردًا لفترات متقطعة (٨٠ــ٥٨، ٥٥ــ٥١ ق. م.)، حيث إنه فى عام ٥٩ ق.م. هرب من مصر نظرًا للاضطرابات التى حدثت بها ولم يستطع العودة إليها سوى عن طريق الجنود الرومان الذين أعادوه إلى مصر تحت حمايتهم. ولم يقدم الرومان

مساعدتهم له دون مقابل، بل تقاضوا منه أجرًا عظيمًا حصل عليه بالتحديد كل من قيصر وبومبى. هذان الأخيران دب بينهما الخلاف حتى وصل إلى الصراع، عندما قرر قيصر عدم الاستيلاء على مصر ومنح بطلميوس الثانى عشر لقب حليف الرومان وصديقهم.

وعودة إلى الوراء، حيث إنه عندما غادر بطلميوس الثانى عشر مصر هاربًا منها، تمنى الشعب المصرى أن يكون قد مات، ولكنهم علموا بعد ذلك أنه فى روما؛ لذلك أرسل الشعب المصرى مائة شخص لكى يمثلوه وينوبوا عنه لدى الرومان، وفى الوقت نفسه يشكوا الملك لديهم. عند ذلك راح المصريون المائة يلتفون حول بطلميوس الثانى عشر، فرشا بعضًا منهم وقتل البعض الآخر، وأما البقية الباقية فإنه استطاع أن يرهبهم وبذلك تخلص من هذه المشكلة. واجتمع السناتو الرومانى لبحث المسألة المصرية وراح بطلميوس الثانى عشر مرة أخرى يبعث بالرِّشا هنا وهناك إلى أعضاء السناتو، وفى النهاية تدخلت السماء عندما وقع برق على تمثال الإله جوبتر من فوق جبال الألب، واعتبر أعضاء البرلمان ذلك على أنه علامة على عدم رضا الآلهة على ما فعله الملك المصرى من قتل وترهيب.

فى تلك الأثناء انتهزت برنيكى ابنة بطلميوس غياب والدها عن الإسكندرية وأعلنت نفسها ملكة هناك، وراحت تبحث لها عن زوج مناسب لكى يجلس معها على عرش البلاد. وكان من الذين وقع الاختيار عليهم رجل من العائلة البطلمية مقيم فى روما منذ عام ٧٥ ق.م. وهو ابن عم أبيها، ولكن هذا الرجل قد تُوفِّى قبل أن يتم عقد قرانها. أما الرجل الثانى الذى وقع عليه الاختيار فهو فيليب الثانى من العائلة السلوقية وهو ابن الملك السلوقى فيليب، وهذا الأخير لم يرغب فيه الرومان، واتفق كل من بومبى والقائد الرومانى جابينيوس على إبعاد هذا السلوقى عن الجلوس على عرش مصر. أما الاختيار الثالث، فقد وقع على رجل آخر أيضًا ذى نسب عريق من العائلة السلوقية، ولكن السكندريين أطلقوا عليه ألسنتهم وأسموه بتاجر السردين (أى السمك المملح)، ولم تمضِ عدة أيام على زواج برنيكى به حتى قتلته.

في عام ٥٥ ق. م.، قادت برنيكي ثورة كبيرة ضد القائد الروماني جابينيوس الذى كان حاكمًا على سوريا، حيث جاء مُعضدًا ومعاونًا لبطلميوس الثانى عشر، وبذلك احتل جابينيوس مدينة الإسكندرية، وأعاد بطلميوس إلى العرش مرة أخرى. عند ذلك أمر بطلميوس الثانى عشر بقتل ابنته برنيكى، كما أمر بقتل الكثيرين من أغنياء تجار الإسكندرية، حيث إنه كان فى ضائقة مالية، كما أراد أن يرد الجميل للقائد الرومانى جابينيوس. ونظرًا لأنه كان مَدِينًا لشخص رومانى يُدعى رابريوس، فإنه قام بتعيينه وزيرًا للمالية فى البلاد وحكم بطلميوس الثانى لمدة أربعة أعوام قادمة. وبعد كثير من المؤامرات والدسائس التى حيكت جميعها فى القصر مع تدخل الرومان، خلفته على عرش البلاد ابنته كليوباترا السابعة، وهى كليوباترا المعروفة والشهيرة فى تاريخ مصر والعالم، وكانت هى الأخيرة فى سلسلة الملكات القويات على مصر.

لقد كان الملوك البطالمة أذكياء عندما تشبثوا بالعادات والتقاليد المصرية القديمة، مثل تأليه أنفسهم تمامًا كما فعل الفراعنة منذ آلاف السنين، والاحتفاظ بالنظام الكهنوتى المصرى القديم وتدعيمه حتى يتمكنوا من استمرارية النظام الفرعونى القديم فيما بينهم. وهنا نرى قائمة بأسماء الملوك البطالمة مكتوبة بالديموطيقية ونرى فيها أسماء الذين ألّهوا أنفسهم فى حياتهم. هذه الوثيقة ترجع إلى عام ١٣٥ ق.م.، [٦٧] ويبدؤها الكهنة هكذا: "العام الـ ٣٦، الشهر الرابع من الشتاء، اليوم الرابع عشر، من حكم الملك بطلميوس الثامن الإله الخيّر ابن بطلميوس الخامس وكليوباترا الأولى، وهم الآلهة المشرقون، وأخته كليوباترا الثانية الملكة وكذا كليوباترا الثالثة زوجته، وهم: الآلهة الخيّرون، وكاهن الإسكندر الأكبر والآلهة المنقذون: بطلميوس الأول وبرنيكى الأولى الآلهة الإخوة. كذلك بطلميوس الثانى وأرسينوى الثانية، والآلهة الخيرون بطلميوس الثالث وبرنيكى الثانية وبطلميوس الرابع وأرسينوى الثالثة الإلهان المشرقان؛ كذلك بطلميوس الخامس وكليوباترا الأولى الإلهان؛ والمحب لأمه بطلميوس السادس، الذى رفع والده لمصاف الآلهة "بطلميوس أيوباتر، الابن الأكبر لبطلميوس السادس، كذلك الإله الخير بطلميوس الثامن نفسه" [٦٨].

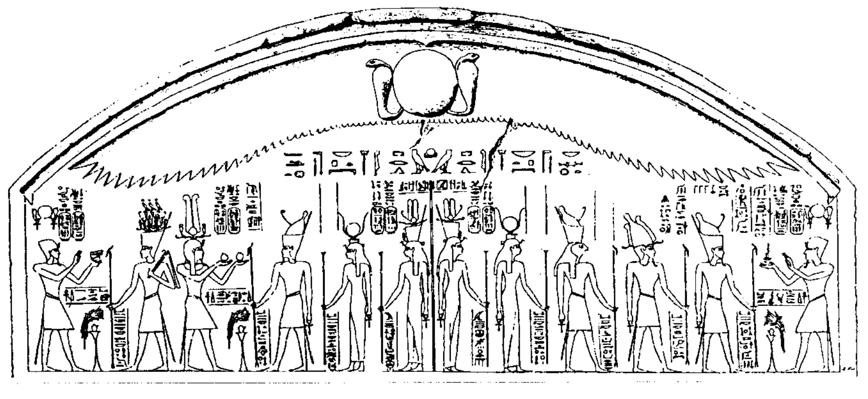
وقد بدأ هذا التقليد عند البطالمة بعبادة الإسكندر، فمن الثابت أن عبادة الإسكندر كانت عبادة ثابتة ومنتشرة فى جميع البلاد، وقد كان ذلك فى عام ٢٩٠ ق. م. ثم جاء بعد الإسكندر بطلميوس الثانى الذى جعل من والده بطلميوس الأول إلهًا منقذًا، وجعل لذلك عيدًا بهيًا يُحتفل به كل أربعة أعوام فى البلاد بأسرها، أطلق عليه "بتوليمايا" وكان هذا الحفل يُدعى له المشاهير من جميع أنحاء العالم. ولقد كانت الاحتفالات الدينية البطلمية تتشابه بل تتفوق على أولمبياد أثينا فى مدى جذبها للجمهور العالمى، وشد أنظاره إلى مدينتهم الإسكندرية.



(شكل ١٣): أرسينوى الثانية على أنها إلهة.

عندما تُوفِّيت برنيكى الأولى عام ٢٧٩ ق.م.، تم ضمها إلى عبادة زوجها لكى تُعبد معه فى المعبد الذى خُصص للآلهة المنقذة بمدينة الإسكندرية. كما وجدت فى الإسكندرية عبادات ومراكز عبادة أخرى، مثل معبد برنيكى الذى كان يُطلق عليه برنيكيون نسبة إلى اسمها. ثم إن بطلميوس الثانى قد قام بخطوة غير مسبوقة وذلك عندما قام بتأليه نفسه وأخته، زوجته الملكة أرسينوى الثانية تحت اسم الآلهة الإخوة وهكذا أدخل عبادة الملوك الأحياء. بالنسبة لأرسينوى الثانية ابنة بطلميوس الأول وبرنيكى، فقد أسهمت هذه الملكة مساهمة فعالة فى توسعة الإمبراطورية البطلمية وتوحيدها، كما لعبت دورًا كبيرًا فى نشر عبادة وتأليه الملوك البطالمة. بعد وفاتها عام ٢٧٠ ق. م.، عُبدت تحت اسم الإلهة المحبة لأخيها وقُدست وشُبهت دومًا بالإلهة إيزيس. كما أن بطلميوس الثانى أمر بعمل تماثيل لها ووضعها فى كثير من المعابد المصرية وربط عبادتها بعبادة الإلهة

المحبة فى أرض النيل. ومنذ عام ٢٧٦ ق.م. ثبت وجود وظيفة كاهنة الإلهة أرسينوى وكانت تحمل لقب حاملة السلة للإلهة أرسينوى فيلاديلفوس (المحبة لأخيها)، ورتبة حاملة السلة هذه تأتى فى التسلسل الكهنوتى وفى مرتبة تالية مباشرة لمرتبة كاهن الإسكندر فى المدينة. أما المعبد الذى كان مخططًا لبنائه لها عند القصر فلم يكتمل أبدًا. وقد استمرت عبادتها طويلاً وكان يُحتفل بعيدها سنويًا فى موكب تتقدمه حاملة السلة يطوف فى شوارع الإسكندرية فى مناسبات معينة، بينما يقوم الشعب بتقديم القرابين والهدايا لتمثالها. فى منتصف القرن الثالث قبل الميلاد، كان هناك احتفال كبير بالإلهة أرسينوى، وقام الشعب السكندرى بإقامة مذابح للإلهة وموائد قرابين على جوانب الطرقات وفوق أسطح المنازل، كل على قدر طاقته المادية؛ البعض صنع هذه الموائد من الخشب والبعض الآخر صنعها من الحجارة أو أوراق الشجر أو الفخّار.



(شكل ١٤): الجزء العلوى من لوحة عُثر عليها بالدلتا.

كما أن هناك الكثير من الشوارع التى أخذت أسماءها من اسم أرسينوى وأعيادها. فى (شكل ١٤)، نرى صورة جديدة لأرسينوى وهى لوحة عُثر عليها فى منطقة بنيوم إلى الشرق من مدينة صفط بالدلتا، ونرى فى أعلى اللوحة قرص الشمس يخرج منه على اليسار واليمين ثعبانا الكوبرا. هذه اللوحة ترجع إلى عام ٢٧٤ ق.م.، ثم إننا نرى ثلاثة مناظر لتقدمة القرابين: الأول من اليمين بطلميوس الثانى يقدم رمز الماعت للآلهة: أتوم وأوزوريس وحورس وإيزيس، ثم أرسينوى، وفى منتصف الناحية اليسرى نرى بطلميوس الثانى مرة أخرى

يقدم إناءى الخمر كقربان لكل من أتوم وإيزيس وأرسينوى الثانية[٦٩]. ثم أقصى اليسار نرى الملك المذكور يحمل فى يده عين الحماية أوجات ويقدمها قربانًا لأبيه بطلميوس الأول. فى الوقت نفسه، تقول الآلهة الكبار: نحن نمنحك... (غير مكتمل)، بينما تقول أرسينوى: إنى أرجو لك العديد من أعياد التتويج فى حضرة الآلهة [٧٠].

ولقد تغلغلت عبادة الملوك البطالمة فى طقوس الخدمة الدينية بالمعابد المصرية حتى إنه فى عام ١٩٦، حسبما أخبر حجر رشيد الشهير، كان كهنة منف قد قرروا قبل عام وضع تمثال لبطلميوس الخامس، فى مكان الصدارة فى المعبد بمدينة منف، وذلك شكرًا وعرفانًا له على ما قام به من أعمال جليلة لمصر والكهنة وقمعه للثورة[٧١]. كما توطدت العلاقة بين الشعب المصرى والقصر الملكى من خلال تلك العبادة التى كان السبيل إليها هو المعبد.

وبالرغم من تأليه المصريين لملوكهم البطالمة، إلا أن الشعب السكندرى دائمًا ما كان يخترع أسماء جديدة للملوك البطالمة، وعادة ما كانت هذه الأسماء ذات معنى لاذع لهؤلاء الملوك. والحق يُقال، أن أسماء الشهرة هذه قام بطلميوس الثالث باختراعها لأول مرة، عندما أسمى نفسه "باللامع" أو "البرّاق". وصار يُعرف لدى الشعب بهذا اللقب.

أما بطلميوس الثامن، فقد كان سمينًا غليظاً، لهذا أطلق عليه شعب الإسكندرية لقب "جُوَال الدّهْن" و"التخين". ثم إن السكندريين بدّلوا لقب الخيّر أو المنعم التقليدى إلى لقب المقزز والمزعج. وكان السبب الرئيس لانتشار هذه الأسماء والمسماة بأسماء الشهرة، هو أن الملوك البطالمة طردوا الكثيرين من اليونانيين الأغنياء من الإسكندرية، والذين قاموا بدورهم فى نشر هذه الأسماء فى بلادهم اليونان والبلاد الأخرى التى ذهبوا إليها. ولقد ورث بطلميوس التاسع أيضًا ألقاب أبيه، مثل "جوال الدهن" و"التخين" وأعطاه السكندريون لقبًا جديدًا وهو (حبّة الحمص)؛ نظرًا لالتصاقه الشديد بوالدته كليوباترا الثالثة. أما بطلميوس الثانى عشر، فقد كانت عنده هواية تصل حد الهوس، وهى هواية النفخ فى المزمار، حتى إنه رافق بعض الفرق الموسيقية عازفًا على المزمار؛ مما حدا بشعب الإسكندرية أن يطلق عليه لقب "بطلميوس الزمّار".

يقول المؤرخ اليهودى فيلو، إن مدينة الإسكندرية التى كان يعيش فيها[٧٢] كانت فى عصر القياصرة مدينة مليئة بالأجناس المختلفة من البشر؛ هؤلاء البشر ذوى الأعراق المختلفة كانت لهم أيضًا عادات مختلفة ولغات مختلفة، وبقدر اختلاف لغات هؤلاء البشر، اختلفت عاداتهم وتقاليدهم أيضًا.

وللأسف، لا نملك الأدلة الأثرية القوية التى تفصل لنا هذه الجنسيات المختلفة وعاداتها ومعتقداتها، وهنا نشكر سترابو الذى قدم لنا بعضًا من أعمال الأديب اليونانى بوليبيوس، والذى زار مدينة الإسكندرية إبان عصر حكم بطلميوس الثامن (١٤٥ــ١١٦ ق.م.). يقول الأديب: " نظرًا لسوء الحكام البطالمة، فإنه سادت فى البلاد الفوضى وعدم سيادة القانون، وأثر ذلك على المستوى المعيشى الذى كانت تتمتع به مدينة الإسكندرية". ويقول بوليبيوس إن شعب الإسكندرية كانت به ثلاث جنسيات تمثل الأغلبية الطاغية عليه من حيث العدد: أولهم المصريون المولودون فى مصر ويغلب عليهم الطابع العصبى والمزاج الحاد وسرعة الغضب، ثم تلاهم الجنود وهم جنود مرتزقة كثيرو العدد اشتهروا بعدم النظام وبأنهم مزعجون للشعب. الصنف الثالث من البشر، كان عبارة عن شعب الإسكندرية ذاته وهم أفضل نوعًا ما عن سابقيهم. تلك النوعيات الثلاث من البشر سوف تلحظها عين أى زائر للمدينة من الوهلة الأولى، من خلال جولته فى شوارعها ، ثم أصبحت الأحوال أكثر سوءًا فى مصر والإسكندرية. ولم تتحسن صورة المدينة سوى بعد أن احتلها الرومان لاحقًا. [٧٣]

وكان غالبية سكان المدينة من المصريين، الذين كانوا يُعدون بالملايين[*]، ثم تلاهم اليونانيون، الذين كانوا يعدون بالآلاف. ومما كان فى غاية الأهمية بالنسبة للمصريين هى المعابد بكهنتها وتقاليدها العريقة التى ترجع إلى آلاف السنين. وهكذا مثلت المعابد وكهنتها القوة الأكبر فى مصر، وكان الآلهة هم الأسياد الحقيقيين لمصر واعترف كل الحكام بذلك. كان المصريون دائمًا هم

---

[*] عدد مبالغ جدًا فيه. (المراجع).

الطبقة الأدنى والأقل شأنًا فى البلاد، حيث كان منهم الفلاحون والعمال والجند. ولم تكن هناك مشكلة أمام أى حاكم لمدينة الإسكندرية أكبر من مشكلة الجمع والتوفيق بين هذه الجنسيات الكثيرة ذات الأعراق والمذاهب المختلفة.

أما اللافت للنظر، فهو أن اليونانيين تمتعوا منذ البداية بحقوق أكثر من غيرهم فى البلاد، وقد دلت مقابرهم الجماعية "الكتاكومب" على مَواطِنهم الأصلية وطبقاتهم الاجتماعية، ففى المرتبة الأولى يأتى الجندى اليونانى القادم من كريت، وكذلك اليونانى القادم من أثينا ثم الجندى القادم من آسيا الصغرى. وقد ظهرت هذه الفروق فى مدينة الإسكندرية منذ البداية مع احتلالها من قبَل اليونانيين أواخر القرن الرابع قبل الميلاد. ومع مرور الزمن، أصبح من المعتاد والطبيعى للمواطن السكندرى أن يرى الأجانب يجيئون ويروحون فى البلاد بل قبل بفكرة أنهم الأفضل والأرقى؛ تلك الفكرة التى استغلها اليونانيون الغزاة وبنوا فوقها وعمقوها فى نفوس الشعب المصرى جيلاً بعد جيل وسمحت باستيطانهم فى أى مكان فى مصر.

وبداخل المدن التى كانت مخصصة لسكنى اليونانيين مثل نقراطيس تخللتها جاليات يهودية كانت دائمًا قوية الصلة ببعضها البعض، كما أنهم جعلوا من منطقة ألفنتين فى جنوب مصر مستعمرة يهودية. وبالرغم من قلة عدد اليونانيين فى البلاد، إلا أنهم كانوا المسيطرين على الجيش والاقتصاد والإدارة. ثم إنهم صبغوا مدينة الإسكندرية بصبغة يونانية، حتى إن المؤرخ اليونانى ديمتريوس إكسيون (منتصف القرن الثانى قبل الميلاد) يقول إن اليونانيين قد تحدثوا اليونانية فى الإسكندرية بلهجة عامية، وكتب عنها بحثًا غير أنه للأسف قد فُقد[٧٤]. ويقول المؤرخ اليونانى منيكليس عندما كتب عن الثورات والاضطرابات التى حدثت فى مدينة الإسكندرية فى عصر بطلميوس الثامن، والذى قام بقمعها بالقوة والعنف إن: "شعب الإسكندرية أصبح معلمًا لكل الشعوب التى كانت حوله نظرًا لهجرة الكثير منه إلى البلاد المجاورة، فكانوا ينشرون فى تلك البلاد ما يتقنون من حرف وصناعات"[٧٥]. بل إنه يرى أن الجزر المحيطة بالإسكندرية قد امتلأت بالأطباء والمهندسين وعلماء النحو والفلاسفة والفيزيائيين والكيميائيين والموسيقيين والنابهين فى كل العلوم من

الفارّين من الإسكندرية واضطراباتها بصفة خاصة؛ فى عهد كل من بطلميوس السادس المحب لأمه والثامن[٧٦].

بخلاف كل ذلك بقى فى الإسكندرية خطران يتهددان المدينة: الأول وهو صراع العائلة الحاكمة ذاتها على العرش، والثانى وهو نسبة الجريمة المرتفعة بين طبقات الشعب العادى ذاتــه[٧٧]. وفى هذه الناحية بالذات ــ ارتفاع نـسبة الجريمة لدى الشعب المصرى ــ عثرنا على بردية طبية من عــصر الأســرة الثامنة عشرة (١٥٤٠ــ ١٢٩٥ ق. م.) هى بردية إيبــرس، وتتحــدث هــذه البردية عن علاج ناجع ضد عض البشر. وهذا يوضح لنا ما وصل إليه الشعب المصرى آنذاك من عدوانية[*]، ولو أن المؤرخين يرون أن العدوانيــة آنــذاك كانت فى المقام الأول ضد اليونانيين ثم اللاجئين الآخرين الذين ازداد عــددهم فى مصر من الرومان.

وهنا نرى مشهدًا يوضح لنا مدى الفوضى والانفلات الأمنى الذى حــدث فى البلاد عام ٢٠٥ ق. م.، عندما قُتل أجاثوكليس[٧٨] وعائلته، حيث اقتادوه فى استاد المدينة الكبير ودعوا الشعب إلــى الاســتاد، وقبــل أن يبــدءوا بقتــل أجاثوكليس، قاموا باقتياد أحد عبيد الملك فى الاستاد الذى كانت مدرجاته مَلأى بالمتفرجين. وراح الشعب والجنود يطعنون بالحراب فى جسد العبد حتى فارق الحياة. ثم جاء دور أجاثوكليس الذى اقتادوه داخل الاســتاد مكــبلاً وراحــوا يطعنونه بالحراب حتى قُتل. وقد كانت طريقة مأساوية وبربرية لمعاقبة المذنبين كما يرى المؤرخ بوليبيوس. وبعد قتل أجاثوكليس اقتادوا أخته داخل الاستاد ــ وكانت تُدعى أجاثوكليتا ــ وهى عاريــة تمامًا وبصحبتها أمها وهــى عاريــة أيضًا، وقد كانت أجاثوكليتا هذه كما ذكرنا أخت أجاثوكليس وفى الوقت نفــسه عشيقة الملك. ووضعوا كلتا السيدتين على حصانين وهما عاريتــان مكبلتــان وأدخلوهما الاستاد، وهجم عليهما الشعب وفقأ أعينهما وانهالوا عليهمــا طعنًــا بالحراب وتقطيعًا فى أجسادهما حتى فارقتا الحياة.

---

[*] هذا حكم وتعميم غير منصف من قبل المؤلف، يصف فيه جانبًا من سكان الإسكندرية فى العــصر البطلمى استنادًا على بردية إيبرس الطبية من عصر الأسرة ١٨، وحتى آنذاك لا يمكــن أن نحكــم على أهل مصر من خلال وصفة طبية، بل ولم يكن أهل مصر كذلك أبدًا. (المراجع).

هذه العدوانية عند شعب الإسكندرية ربما كان لها ما يبررها، حيث يرى المؤرخ اليونانى بوليبيوس أن شعب الإسكندرية كان عليه أن يكافح من أجل لقمة العيش فى بلده ضد مائتين من الجنسيات الأجنبية التى أغرقت مدينة الإسكندرية معظمها من مختلف الأقطار الهلّينستية. بل إن الكثيرين من الذين عملوا بالقصر من مختلف الجنسيات قد ساعدوا أقرباءهم وأصدقاءهم فى المجيء إلى مصر، وفى إيجاد فرصة عمل لهم. من ذلك مثلاً أن حراس المدينة كانوا يومًا من أهل كريت، كذلك التجار الأجانب دائمًا ما كانوا يحضرون عمالة أجنبية معهم إلى الإسكندرية. كذلك جامعة الإسكندرية والمدارس التى كانت تابعة لها قد جذبت أيضًا طلابًا من جميع أنحاء الدنيا. المعابد والمستشفيات بالإسكندرية جلبت أيضًا بشرًا من جميع أنحاء الدنيا، سواء للعبادة أو العلاج، فيما يماثل نفس الدور الذى قامت به الكنائس والأديرة المسيحية فيما بعد. وفى جميع العصور، كانت الإسكندرية دائمًا مقصدًا لجميع الأجانب والأجناس التى بحثت فيها عن رزقها.

منذ منتصف القرن الثانى قبل الميلاد، لاحظنا كمؤرخين ازدياد عدد الإيطاليين فى مدينة الإسكندرية بصفة خاصة التجار، والذين ناصَبهم أهل الإسكندرية أيضًا العداء. هذه الجالية الإيطالية قد ازدادت قوة فيما بعد مع قدوم قيصر إلى مصر وتوطينه لحامية عسكرية تتكون من أربع فرق بهدف إحكام السيطرة على الإسكندرية وعلى كليوباترا. لقد ازداد كره الإسكندريين وتنامى للرومان؛ حتى أدى ذلك إلى قتلهم للقائد الرومانى بومبى ثم الحرب ضد القيصر نفسه. ويذكر ديودور فى هذا الصدد حادثة حدثت عندما قتل بطل رومانى(٧٩) قطة بطريق الخطأ، وهنا لم يفلح الخوف من الجند الرومان ومن رجال الملك فى إنقاذ حياته. ولقد ظلت الاضطرابات فى مدينة الإسكندرية حتى مجيء كليوباترا السابعة التى خلقت جوًا من الهدوء نوعًا ما، بالرغم من اندلاع بعض الاضطرابات من وقت لآخر هنا وهناك(٨٠).

فى منتصف القرن الثانى قبل الميلاد، لاحظ المؤرخون أن هناك اندماجًا فى بعض المجالات بين المصريين واليونانيين، وهنا نرى أمامنا مثالاً واضحًا على لوحة حجرية بلغتين كانت مكرسة للملك بطلميوس المنقذ، باليونانية

وأُشير فيها فى النسخة الديموطية المقابلة إلى الفرعون بطلميوس الإله. كما أن المقابر اليونانية ظهرت بها الآن آلهة مصرية[٨١]، بل إن بعض اليونانيين قاموا بتحنيط موتاهم مثل المصريين. هذا الاندماج المصرى اليونانى كان واضحًا أكثر فى الديانة، حيث إنه حدث اندماج بين الآلهة المصرية واليونانية بصفة خاصة إيزيس وسيرابيس ونظيراتهما من الآلهة الأولمبية. ظل التقويم الفلكى القديم هو التقويم الأساسى المعمول به، بل وأصبح هو الأساس للتقويم الأوروبى فيما بعد.

منذ العصر اليونانى الرومانى فى مصر كانت النزعة المصرية فى المجتمع السكندرى آخذة فى الازدياد؛ حتى إن اليهود أنفسهم لم يستطيعوا السيطرة على تنامى هذه النزعة عند المصريين. وبالرغم من الدور المصرى الممثل فى الإسكندرية ودورها العلمى إلا أن اليونانيين كانوا مقتنعين بتفوقهم العلمى والحضارى؛ إلا أنهم لم يُظْهروا ذلك سياسيًا بصفة خاصة ضد الرومان الذين كانوا أقوى من الناحية السياسية والعسكرية. وهنا لدينا مخطوط يرجع إلى القرن الثانى بعد الميلاد، وهو لشاب يدرس الطب والأدب بالإسكندرية ويُسمى جالين، وكان عمره ستة عشر عامًا. عندما بدأ دراسته فى الإسكندرية. هنا ينصح هذا الطبيب والأديب قائلاً: الأعمال الأدبية لا يجب على المرء كتابتها سوى باللغة اليونانية، حيث إنها اللغة الإنسانية الوحيدة وما عداها من لغات فهى تشبه أصوات الخنازير والضفادع والغربان والحدآن[٨٢].

لقد اصطبغ البلاط والإدارات بكل أطياف البشر من مصريين وأجانب وحتى اليهود. وإذا رجعنا إلى الوراء بعض الشىء، أى حتى عصر بطلميوس الأول ٣٢٠ ق. م.، فإنه قام بغزوات كثيرة على فلسطين، وأحضر من هناك دائمًا الكثير من الأسرى، كما أخبرنا بذلك أرستياس. ويرى هذا الأخير أنه مع مرور الوقت جاء إلى مصر خمسة آلاف يهودى. وهكذا احتلت مصرُ فلسطين وجعلتها من ممتلكاتها لمدة مائة عام تقريبًا. وكانت مصر والإسكندرية محببة لليهود، حيث إنها بالنسبة إليهم أرض غنية ومتحضرة. وتواجد اليهود هنا بكثرة فى العاصمة الإسكندرية وكانوا مهتمين بالعلم، وقاموا بترجمة العهد القديم لأول

مرة إلى اللغة اليونانية. ومنذ أن تولى بطلميوس الرابع الحكم (٢٢٢ ــ ٢٠٤ ق.م.)، بدأت تظهر الأخبار على الآثار التى عثرنا عليها عن موقف عدائى من الملك ضد اليهود لا نعلم أساسه التاريخى، ربما كان دافعه مجاراة الإحساس العام وتمشيًا مع شعور المصريين بقوميتهم وكرههم للأجانب.

ومن اللافت للنظر آنذاك أن بطلميوس الرابع أكره اليهود وأمرهم أن يدقوا وشمًا على أجسادهم. هذا الوشم عبارة عن رمز الإله ديونيسيوس اليونانى الذى تشابه آنذاك مع إلههم يهوا [٨٣].

أما فى عصر بطلميوس السادس (١٨٠ــ ١٤٥ ق.م.)، فإن اليهود قد حظوا بتعاطفه معهم ومودته لهم، حيث إنه كان على النقيض من بطلميوس الرابع، وأحضر منهم أعدادًا كبيرة إلى البلاد. مع بداية القرن الثانى قبل الميلاد، حين سقطت فلسطين تحت الاحتلال السلوقى، حدثت الثورات والاضطرابات فى البلاد وهاجر معها الكثير من اليهود إلى مصر. وكان هؤلاء المهاجرون اليهود يمثلون الطبقة العليا؛ ومن أمثلة هذه العائلات اليهودية التى هاجرت إلى مصر شخص مهم هو ابن آنيوس الثالث ويُعرف باسم آنيوس الرابع، وكان كاهنًا يهوديًا وله صداقة بالبيت المالك البطلمى فى الإسكندرية. وعلى يديه وصل نفوذ اليهود فى البلاط الملكى ذروته، بل وأصبح له هو وصديق يهودى آخر له يُدعى دوستيوس الكلمة العليا فى الجيش البطلمى.

وبعد وفاة دوستيوس هذا صعد نجم آنيوس اليهودى هذا فى مصر أكثر، حيث إنه ساند حزب كليوباترا الثانية ضد بطلميوس السابع، عند ذلك أصدرت الملكة قرارًا منحت فيه اليهود حقوقًا ومزايا لم تكن لهم من قبل. فى أثناء ذلك، ازداد عدد اليهود فى مصر بصفة خاصة فى الإسكندرية واستطاعوا أن يحصلوا على حق البناء لمنطقة خاصة بهم لا يسكنها سواهم، وذلك فى عهد بطلميوس السادس، الذى سمح لهم بتكوين جالية رسمية " بوليتوما "، وكان ذلك شرفًا وفخرًا كبيرًا لهم. ولهذا الصنيع من الملك البطلمى، فقد كافأه اليهود بالهدايا والعطايا حتى إن فيلسوفًا يهوديًا يُدعى أريستوبولس قام بإهداء الجزء الأول من العهد القديم مشروحًا إلى الملك البطلمى.

وبهذا الامتياز العظيم الذى حصل عليه اليهود فى الإسكندرية، أصبح لهم الحق فى أن تكون لهم جالية خاصة بهم يتحدثون فيها لغتهم ويقيمون فيها شعائر ديانتهم وكل ما يتعلق بحضارة اليهود هم فيه أحرار؛ خصوصًا فى العقيدة والحياة الاجتماعية فيما عدا تكوين كيان سياسى منفصل. ولم يكن لليهود جالية واحدة فى الإسكندرية بل كانت لهم جاليات أخرى متعددة فى مصر، ولكن أشهرها وأكبرها كانت جالية الإسكندرية. وللمرة الأولى يرد ذكر الجالية اليهودية فى خطاب أريستياس المؤرخ فى القرن الثانى قبل الميلاد، وهذا يعنى أنه فى تلك الأثناء كانت لليهود جاليات فى مصر والتى كان يُطلق عليها لقب بوليتوما. كما أن جاليات اليهود هذه كانت ذات نظام أرستقراطى مستقل. ويُخبرنا سترابو فيما نقله عن فلافيوس يوسيفوس بأن مشرفًا إداريًا كبيرًا كان يُطلق عليه "إثنارش" كان مسئولاً عن إدارة شئون الجاليات اليهودية، والتى كان لها استقلالٌ كاملٌ فيما يتعلق بشئون اليهود الخاصة. وكانت توجد هناك محكمة وأرشيف وإدارة خاصة. ومنذ عهد أغسطس ظهر مجلس الجيروزيا أو مجلس الشيوخ وكان يساند هذا الإثنارش.

ثم إنه فى عصر بطلميوس الثامن (١٤٥ ـ ١١٦ ق. م.)، حدثت صراعات بين زوجاته الملكات. أثناء هذا الصراع قرر اليهود الوقوف إلى جانب كليوباترا الثانية التى تصالحت فيما بعد مع غريمتها، وعلى أثر ذلك أصبح اليهود على عداء مع الملك البطلمى الزوج بطلميوس الثامن، كما وضح ذلك المؤرخ يوسيفوس [٨٤].

وعلى ذلك يُحكى أن الملك سقى الأفيال خمرًا حتى يثيرها ويدفعها إلى مهاجمة اليهود، فما كان من الأفيال إلا أن هاجمت جنوده هو. وقد استغل اليهود هذه القصة وروجوا لها ونشروها بصفة خاصة بعد مجيء الرومان إلى مصر. وأصبح اليهود بعد ذلك يحتفلون كل عام بهذه المناسبة جاعلين من هذه المعجزة عيدًا لهم. وانعكست سياسته ضد اليهود أو معهم على البيت الملكى، وظهرت فى الخلافات الداخلية بين أفراده. فقد ساعد بطلميوس التاسع (١١٦ـ١٠٧ ق. م.)، الملك السلوقى فى حربه ضد اليهود. أما بطلميوس

العاشر (١٠١ــ٨٨ ق. م.)، فقد وقف فى صالح اليهود ضد أعدائهم، مما أدى إلى ثورة الشعب ضده وطرده من الإسكندرية عام ٨٨ ق. م.

مع بداية القرن الثانى قبل الميلاد، ومرة أخرى زادت الأوضاع تــوترًا، وذلك عندما ظهر الرومان على الساحة العالمية كقوة عظمى تدخلت وتوغلــت فى الممتلكات الشرقية اليونانية، وفى الوقت ذاته أعلنوا حمايتهم ودعمهم الكامل لليهود، حتى إنه استمرت علاقات اليهود بالرومان طيبة، وكانت لهــم ســفارة خاصة بهم فى روما حتى عصر كلاوديوس، الإمبراطور الرومانى الذى كــان متحفظًا ضد اليهود ورفض أن تكون لهم سفارة فى روما وقام بطردهــا مــن هناك. لقد قام مؤلف يهودى قديم بتأليف كتاب عن أتباع يهوذا، وفى كتابه هذا امتدح الرومان وباركهم ووصفهم بالخيّرين المُنْعمين(٨٥). ولقد حــدثت بعــض الحوادث التى صبغت العلاقة بين الرومان واليهود، ومن أشهر تلك الحــوادث حادثتان:

الأولى، فى عام ٥٥ ق. م.، كلّف القائد الرومانى جابينيوس، والذى كــان حاكمًا على سوريــا إعادة بطلميوس الثــانى عشر إلى الحكم فى مصر، وكان لا بد أن يصطحب معه بعضًا من جيشه إلى الإسكندرية للحماية. وعند مجيء جابينيوس ووصوله إلى بلوزيوم التى وقفت بها قوات يهودية للحماية، تركــوه يدخل المدينة دون أية معارضة أو مقاومة. أما الحادثة الثانيــة، فعنــدما كــان قيصر ينتظر عونًا ومددًا يأتيه من سوريا؛ وهنا أبدى الجنود اليهود تعاونًا تامًا بسماحهم بمرور الإمدادات. ولهذا فإن الرومان قد قدروا هذه المواقف لليهــود وأعطوهم الحق والمكاسب، سواء أكانوا فى روما أم فى الإسكندريـــــة؛ تلــك المكاسب استغلها اليهود بصورة جيدة ودعموها، حتى إنه صار فيما بعد مــن يعادى اليهود كأنه عادَى الرومان. أما الشعب المصرى ورأيه فى اليهود آنذاك، فنستطيع أن نسوقه على لسان أحد علمائها وكاهنها وأديبها مانيتون الذى أوضح رأيه فى اليهود قائلاً: "إن اليهود ليسوا بمصريين، بل أغراب، ديانتهم ليست لها معنى، عاداتهم وتقاليدهم لا تُفهم، وفى الوقت نفسه همجية وبربرية، كما أنهــم يحتقرون ويتعالون على بقية البشر والأديان".

لقد أضحت الإسكندرية مركزًا لليهود، وامتد تأثيرها على كل طوائف المصريين، بل وانتشر خارجها حتى وصل إلى فلسطين المجاورة. وغدا فى الإسكندرية تعداد اليهود أكثر منه فى فلسطين وفى أى قطر آخر. وأصبحت لهم متطلبات روحية ودينية أكثر مما كان لهم فى فلسطين. وحال وصول اليهود إلى مصر والإسكندرية كانوا يتقنون اللغة اليونانية ويتحدثون بها بسرعة مذهلة، وترجموا كتابهم المقدس إليها، والذى يطلق عليه المسيحيون العهد القديم، حتى إنه لم يكد ينتهى منتصف القرن الثالث قبل الميلاد حتى كان اليهود قد ترجموا الأجزاء الخمسة الأولى من كتابهم المقدس إلى اليونانية ــ ثم تلاهم فى الأعوام التالية ترجمة بقية أجزاء الكتاب المقدس. ولقد كان هذا العمل بالنسبة ليهود الإسكندرية ــ وهو ترجمة كتابهم المقدس إلى اليونانية ــ عملاً خارقًا عظيمًا. [٨٦] ويرى المؤرخ اليهودى فيلو أن هذا العمل قد صار يحتفل به اليهود كل عام. وقد كان فيلو هذا يجيد العبرية واليونانية فى وقت واحد. ثم إنه بترجمة كتاب اليهود المقدس إلى اليونانية، غدا هناك تقارب فى التفكير الفلسفى عند اليونانيين واليهود، كما غدا هناك تفهُّم من اليونانيين لليهود وعقيدتهم، لدرجة أن خطاب أريستياس يقول إن ترجمة الكتاب المقدس إلى اليونانية قد قربت كل ما كان بعيدًا بين اليهود واليونانيين، وراح اليهود يدعمون فكرة مؤداها أن عقيدتهم تتشابه تمامًا مع فكر الفلاسفة اليونان ولا اختلاف بين ديانة اليهود وفلسفة اليونان[٨٧].

ثم جاء الأديب اليهودى أرتابانوس وقال مؤكدًا بأن موسى هو أول من اخترع عبادة الحيوانات فى مصر، وذلك لكى يستطيع التقرب إليهم واستقطابهم إلى ديانته من خلال هذه الناحية. ثم تلاه الكاتب اليهودى إيزيشيل الذى يُعتبر من أشهر كُتّاب التراجيديا[٨٨] بعد الكاتب اليونانى يوريبيدس، الذى كتب رواية مأساوية ممتازة صور فيها خروج اليهود من مصر. وها هو مقطع منها كالآتى: "منذ أن جاء يعقوب إلى أرض مصر هاربًا من بلاد كنعان وفى صحبته سبعون رجلاً، تزاوجوا وأنجبوا الكثير من الشعب العبرى؛ هذا الشعب العبرى فى مصر كانت حالته سيئة واضطهده الفراعنة الذين استخدموا هذا الشعب العبرى كعبيد يشيدون القصور الفخمة ذات الأبراج العالية. مستخدمين

فى ذلك أقسى أنواع العذاب، ثم يأمر الطاغية بإلقاء أطفالنا من الذكور فى النهر العميق"[٨٩].

وبالطبع، استطاع الباحثون استخلاص العبرة والنتيجة التى أراد اليهود إعطاءها وتوصيلها للعالم من حيث إنهم الشعب المختار، وقد أفلحوا فى إيصال هذه الفكرة من خلال الأدب والتراجيديا غير المباشرة، بحيث يدرك المرء هذا دون أن يخطب فيه شخص لَحُوح بهذه الفكرة. كما جعل اليهود من قصة هروبهم من مصر قبل مجيء ملكهم داود بمئات السنين على أنها قصة بطولة عظيمة انتصروا فيها على الفرعون المصرى وشعبه. ولم يقف الخيال اليهودى عند ذلك الحد، بل إنهم استمروا فى تفخيم وتعظيم هذا النصر على الفرعون وجيشه، وفى الوقت نفسه تشويه صورة مصر وكل ما هو مصرى.

وبينما كان المؤرخ اليونانى هيرودوت يمتدح مصر ووصفها بأنها هبة النيل، راح اليهود يصفون مصر بأنها صحراء لا نبات فيها، والنيل ما هو إلا مستنقع قذر مليء بالضفادع وملوث بالناموس القارص للبشر والحشرات القارضة للحيوانات؛ إن مصر هى أرض الجراد، والمصريون وقعوا فريسة للطاعون، كل منهم به أورام متقرحة ومتقيحة. هذه الصورة التى روّجها اليهود عن مصر وأسموها الابتلاءات السبعة أو العقوبات السبع على شعب مصر وملكها من إله اليهود، قد صارت منتشرة فى كل عمل أدبى عند اليهود، سواء أكان شعرًا أم رواية أم مسرحية. يقول مقطع من هذه المسرحيات: (فليحى الإله الذى هو أعلى من الكل، فليحى الإله الذى ألقى بكل فارس على حصانه فى البحر)[٩٠].

ولم يكتف اليهود بترويج هذا عن مصر والشعب المصرى باللغة العبرية فقط ، وذلك لأنها لم تكن لغة دولية مشهورة، بل روجوا ذلك وأشهروه فى اللغة اليونانية التى كانت لغة العالم آنذاك. ومع ترجمة العهد القديم إلى اليونانية أخذت هنا الصور عن مصر والمصريين تُنشر وأصبح رأى اليونانيين مطابقًا لرأى اليهود عن مصر، وبذلك كسب اليهود رأى اليونانيين الأقوياء لصالحهم. يقول الفيلسوف والأديب اليهودى فيلو[٩١]: "إن الشعب المصرى لهو شعب

عبارة عن قاذورات وفضلات وروحه الداخلية ما هى إلا سموم من ترياق الثعابين والتماسيح التى تعج بها بلادهم مصر".

ولم يعجب المصريون من هذه الإشاعات وآراء اليهود فيهم ، فلقد كان لهم رأيهم الخاص بهم أيضًا، فكما رأى اليهود أن خروجهم من مصر كان نصرًا لهم، رأى المصريون أنهم هم الذين طردوا اليهود من مصر لأنهم نشروا الطاعون. كما أكد عالم لغة وأديب مصرى آنذاك يُدعى أبيون، حيث يقول: "كان اليهود مليئين بالأمراض المُعدية والطواعين الفتاكة ولهذا طردهم المصريون من مصر. بل إن كلمة "سبت" اليهودية التى هى يوم راحة عند اليهود، تعنى: ورم قد أصاب اليهود فى أسفل أجنابهم. وهذه الكلمة "سبت" هى مشتقة من الكلمة المصرية القديمة سباتوس، وتعنى: ورم[*]. ولقد ظل هذا الورم ملازمًا لليهود طوال ستة أيام، وفى اليوم السابع ازداد عليهم الألم حتى إنهم لم يستطيعوا السير واضطروا إلى الضغط على هذا الورم ومكثوا فى هذا اليوم ساكنين دون حركة، ولهذا جعلوا من يوم السبت هذا يوم راحة لهم". ويرى الأديب اليهودى فلافيوس يوسيفيوس إن آبيون هو نموذج للأشخاص المعروفين بعدائهم لليهود، ولقد كان عالمًا نحويًا ويُعتقد أنه كان مديرًا لمعهد الآداب بالإسكندرية فى النصف الأول من القرن الأول الميلادى. ويروى المؤرخ الرومانى تاكتيوس قصة تقول إن الكتّاب المصريين ردوا على شائعات اليهود بقولهم: "إنهم معوقون انحدروا من نسل ذوى العاهات الذين طُردوا فى عصر الفرعون بوخوريس[**] (٧١٧ــ٧١١ ق. م.) وقادهم موسى خارجًا من مصر إلى وطنهم القديم.

كما أن الكاتب المصرى آبيون قال لليهود إن إلههم الحمار وما يعبدون سواه[٩٢]. ولأنه فى ذلك الوقت كان ممنوعًا على غير اليهود دخول المعبد

---

(*) هذه الكلمة بنطقها الإغريقى غير موجودة، فقط هناك كلمة sbw بمعنى قذارة وكلمة sbyt بمعنى شيء ضار أو فاسد، أو كلمة sb بمعنى حالة مرضية أو التهاب. (المراجع).

(**) تحديد بوخوريس من الأسرة ٢٦ بأنه هو فرعون الخروج وأنه المعاصر لسيدنا موسى، هو أمر مستبعد ذلك أن وجودهم واستقرارهم فى فلسطين يرجع إلى بدايات الألف الأولى ق.م. وقد عاصرت الأسرة الحادية والعشرون المصرية مملكة سليمان فى فلسطين. (المراجع).

اليهودى، فإن عامة الناس راحوا يتكهنون ويروجون الإشاعات بأنــه بــداخل المعبد كان هناك رأس حمار كان اليهود يعبدونه ويقدسونه تقديسًا عظيمًا. ويبدو أن هذا التصور كان شائعًا فى أوساط السكندريين المعادين لليهــود. وينــسب يوسيفوس لآبيــون قصة سيئــة أخرى ضد اليهود، وهى: أن الملك الــسلوقى أنطيوخس قد زار ذات مرة معبد اليهود فى القدس فوجد رجلاً حكــى لــه أن إغريقيًا قد اختطفه اليهود عندما كان يسعى على رزقه ووضعوه فــى المعبــد، وأخبروه بأنهم سوف يقدمون له لذيذ الطعام والشراب وأنه سوف يعــيش فــى المعبد هانئًا سعيدًا. ولكنه علم مع الوقت أن هناك قانونًا يهوديًا يقول إن اليهود عليهم ذبح رجل يونانى كل عام وتقديم لحمه كقربان للكهنة يأكلونه فى المعبد؟! ولهذا كانوا يطعمون الرجل اليونانى أفضل طعام حتى إذا غلظ وســمن قــاموا بذبحه وأكله. وقبل أن يذبح اليهود هذا الرجل اليونــانى ، قام الملك الــسلوقى بإخراجه من المعبد وبذلك نجا اليونانى من الذبح(٩٣). ولقد روّج آبيــون هــذه القصة لكى يثير اليونانيين على اليهود.

وعلى أى الأحوال، سواء كان آبيون مؤلفًا لهذه القصة أم شخص آخر هو مؤلفها، فإن الهدف منها هو إثارة القلاقــل بــين كــلا الــشعبين فــى مدينــة الإسكندرية: اليهودى واليونانى. وعلى نسق آبيون سار الفيلــسوف والكــاهن المصرى خايرومون الذى يُحتمل إنه هو ذلك الموفد السكندرى الذى سافر إلى روما فى عام ٤١ ميلادية لكى يهنئ الإمبراطور الرومانى كلوديوس على تولّيه العرش بروما. وقد نقل لنا المؤرخ اليهودى يوسيفوس من بين القصص التــى رواها ذلك الكاهن خايرومون أنه كتب يقول(٩٤): "إن الإلهة إيزيس ظهرت ذات مرة للملك أمنحوتب وشكت له تهدُّم أحد المعابد، لذلك أراد الملك استرضاءها، عند ذلك جمع مائتين وخمسين ألفًا من المصابين بعدوى الطاعون وكان قائدهم كل من موسى ويوسف، وقام بطردهم من البلاد حتى تطهــر مــن الأوجــاع والأمراض. مثل هذه الحكايات والقصص هى التى كانت شائعة ضد اليهود فى مدينة الإسكندرية.

ولو نظرنا فى كتب التاريخ لرأينا أن كل شعب من الشعوب القديمة كان هناك من يسبه ويلعنــه، ولم يســلم شعب من الشعوب القديمة من ذلك الــسب

واللعن حتى الرومان أنفسهم، فالمصريون هم شعب من الأنــذال والمنحطّــين، وشعب كريت شعب من الكذابين، وشعب مدينة بوت اليونانية لهو شــعب مــن السكارى، واليونانيون لَهُمْ مهرجون وبهلوانات. كما رأى الرومان أن السوريين قد خُلقوا ليكونوا عبيدًا مُنْحنِى الظهور، ورَأىُ اليونانيين فى مستوى الرومــان فى الثقافة يوازى رأى هؤلاء فى قدرات الإغريق فى الــسياسة وأن الرومــان ذوو رؤوس فارغة. ولكن اللافت للنظر هنا هى وجهة نظر اليهود فى كل هذا الخليط من الشعوب. لقد رأى اليهود واقتنعوا اقتناعًا كاملاً بأنهم أفضل شعوب الأرض وأنهم مميزون عن بقية البشر، لهذا عزلوا أنفسهم عن بقية الأجنــاس فيما حولهم خوفًا على أنفسهم وهويتهم أن تختلط بالأجنــاس الأخــرى. وقــد ساعدهم على هذا المسلك قوانين ديانتهم التى كانت تحض على ذلك، ممــا أدى إلى أن بقية الشعوب قد نظرت إليهم على أنهم متعصبون ومغرورون .

**الدقة والنظام والثراء الفاحش عند البطالمة**

إن مرشدنا فى مدينة الإسكندرية هــو المــؤرخ والجغرافــى اليونــانى سترابون، وقد بدأ معنا جولته من ميناء مدينة الإسكندرية، وتعرفنا من خلالــه على قصور الملوك ومقبرة الإسكندر وبيوت الآلهة خاصة معبد الإله بانِ إلــه الرعى والصيد، كذلك المدارس والاستاد، وميدان السباق ومعبد سيرابيس، كما عرفنا أن المدينة حوت مئات من عيون المياه والكثير من مراكز التحنيط. كذلك تعرفنا على المقابر، كذلك تعرفنا على الشارعين الكبيرين اللذين بلغ طول كــل منهما كيلومترًا واحدًا وبعرض ١٤مترًا. هذه المدينة العالمية الــساحرة كانــت مسرح الأحداث بالنسبة للبطالمة، فاستعرضوا مظاهر ثرائهم الفاحش وقدراتهم المادية والعسكرية. إن ملك مصر البطلمى آنذاك كان أغنى أغنياء العالم، ولــم يكن هو الوحيد الذى استفاد من ثرائه بل استفاد القصر أيضًا كما استفادت مدينة الإسكندرية كذلك. ولقد قام الشاعر اليونانى تيوكريت برحلة فى مصر، وقــال فى قصيدة فى مدح بطلميوس الثانى لقرائه: "إن الثراء الذى تمتع به ملك مصر قد فاق كل ملك آخر فى الدنيا"[٩٥].

إن كل هذا الثراء الذى نعمت به مصر كان مصدره النيل الذى يفيض كل عام ويغمر الحقول على الجانبين بطميه الخصب، فى نظام ثابت ثم يترك الحقول مَلأى بالخيرات والثراء. إن النيل هو روح مصر. لقد ذُكر أن القيصر قد حصل ــ حسب قوله ــ على أربعة ملايين سيسترن من بلاد الغال (فرنسا) فى صورة ضرائب كل عام، ونحن نعلم أن مصر قد قدمت فى عهد بطلميوس الثانى عشر ما يوازى ثمانية أضعاف المبلغ السابق. كل هذه الخيرات كان وراءها مع فضل النيل ــ ذلك الجَهْد والعمل الشاق للشعب المصرى العامل. أما السلطات التى استند إليها البطالمة فى بسط نفوذهم وسيطرتهم على الشعب المصرى فقد تعددت، منها أنهم خلفاء الإسكندر الذى ورّثهم هذه الأرض من بعده. كما أنهم استندوا إلى الشرعية الدينية وأنهم الخلف الشرعى للفراعنة واعترف الكهنة بهم تبعًا لذلك.

وقد تُوّج البطالمة على أنهم فراعنة، أى أبناء الإله المصرى آمون رع. وكانوا يحكمون باسمه على الأرض، ولما كانت أرض مصر وشعبها من حق الإله فقد غدا هذا الحق للملوك أيضًا، وعلى نفس المنوال ادعى البطالمة هذا الحق لأنفسهم؛ وبالمثل اعترف اليونانيون كشعب بالبطالمة على أنهم أبناء الآلهة؛ ولا بد من بناء المعابد لهم فى البلاد وعبادتهم جنبًا إلى جنب مع الآلهة المصرية. ولقد تشابهت فى تلك الجزئية القوانين المقدونية مع القوانين المصرية، حيث كان الملك المقدونى يملك البلاد بثرواتها وعبادها وكنوزها، تمامًا مثل ملك مصر الذى كان من حقه امتلاك البلاد والعباد.

لقد كان أساس الثروة الاقتصادية فى مصر كغيرها من بلدان العالم القديم هو الزراعة[٩٦]. ولأن المناخ فى مصر كان مثاليًا طوال العام، وماء الرى كان أيضًا متوافرًا طوال العام، والتربة المصرية هى الأحسن على مستوى العالم ــ كان الفلاح المصرى يجنى من خيرات أرضه أكثر من مرة فى العام الواحد. كما امتازت أرض مصر بزراعة كل شيء من حبوب وغلال وخضراوات وفواكه وأعناب النبيذ وأشجار الزيتون التى عصروا منها الزيوت. لقد نظر العالم القديم إلى مصر على أنها جنة الدنيا والنعيم المقيم على الأرض وهبة النيل العظيم إلى شعبه. ومن هذا المنطلق ومن كل هذه المعطيات انطلق

بطلميوس الثانى (٢٨٣ــ٢٤٦ ق. م.) ينمى ثـروات الـبلاد واقتـصادياتها؛ مستخدمًا فى ذلك العقلية اليونانية الحديثة فى التخطيط والإمكانات الحديثة. وقد كانت ثروات البلاد تخدم أغراض الملك فى المقام الأول، بل إن المؤرخين رأوا بأن الملك أنفق جزءًا كبيرًا من ثروات البلاد فقط مـن أجـل الإنفـاق علـى العاهرات وشراء الهدايا والملابس الثمينة لهن! (٩٧).

بجانب مختلف المحاصيل الزراعية التى اهتم الملك بزراعتها مثل نبيـذ العنب والفواكه الأخرى المختلفة والغلال والخـضراوات، فـرض البطالمـة الضرائب على كل أنواع المراعى ومزارع تربية الحيوانات والطيور. وأخص هنا بالذكر نوعًا معينًا من الطيور اهتم المصريون بتربيته اهتمامًا خاصًا، هـو الحمام، حيث كان على مائدة كل منزل فى مصر كطعام شهى، فى الوقت ذاته اهتم المصريون بتربية الحمام لأنه كان يعطى سمادًا ممتازًا عالى الجودة. وكان ثُلث ما يُنتج فى البلاد من الحمام يُقدم إلى قصر الملك، سواء من الحمام الكبير أو الأفراخ الصغيرة التى كانت تفقس من البيض. وهذا بالطبع بخلاف ما كان يدفعه الشعب من ضرائب مادية كل عام. هذه الضرائب كان الـشعب يـدفعها على كل ما يمتلكه من حيوانات وطيور وحتى على فضلاتها (سـمادها) فـى المنزل. هذه الحيوانات والطيور كانت مسجلة لدى إدارة خاصة تُسمى بـإدارة الضرائب. لقد برع البطالمة فى إحصاء هذه الممتلكات لدى الـشعب حتـى لا يفلت أحد من دفع الضريبة. وكانوا يقومون بإحصاء الحيوانات لدى الشعب عند فيضان النيل حيث تضطر الحيوانات للخروج من النهر إلى اليابسة.

وإذا أراد أحد الصيد فى الصحراء لا بد له من الحصول علـى إذن مـن القصر الملكى، كذلك إذا أراد أحد الصيد من النيل أو البحر وجب عليه أيـضًا أن يحصل على إذن من القصر. وقد سيطر القصر الملكـى علـى المحـاجر والجبال وكذلك ثروات الأرض المعدنية. كما سيطر على الأشجار التى نمـت على ضفاف النهر والقنوات، ولم يكن مسموحًا لأحد اقتطاعهـا دون إذن مـن القصر الملكى.

كل هذه الخيرات سابقة الذكر كانت مصادر دخل للقصر الملكى آنـذاك. كما ازدهرت الصناعات فى عهد البطالمة أيضًا مثل عصر الزيوت من الكثير

من البذور، كما ازدهرت صناعة البيرة التى اعتصروها من حبوب الشعير، كما صنعوا الجُبْن من الألبان، وقاموا بدباغة الجلود وصنعوا الملابس من الكتّان والصوف وصنعوا السلب والحبال من القِنَّب. كما صنعوا الورق والسلال والحُصْر من نبات البردى، واستخرجوا الحديد الخام، والأملاح خاصة ملح النطرون الذى استُخدم جزء منه فى صناعة الصابون. كما برعوا أيضًا فى الصناعات القائمة على الأخشاب. كل تلك الصناعات كانت مزدهرة بصورة رئيسية فى العاصمة الإسكندرية.

فى الوقت الذى تمتعت فيه اليونان بالاقتصاد الحر، أى أن الأرض وخيراتها من صناعة وزراعة كانت ملكًا للشعب، فإن مصر وما جاورها من بلاد شرقية كان كل ما فيها ملكًا للحاكم ومنفعته، مئات المصانع والحقول وحظائر المواشى كانت تخص القصر جميعها ومن يعملون فيها من عشرات الآلاف من العمال كانوا ملكًا للحاكم. لقد كنز ملوك البطالمة الكثير من المواد الخام وثروات الأرض فى مخازنهم وجنّدوا الأيدى العاملة المدربة على تصنيع هذه المواد الخام. ثم إنهم أصبحوا هم المالكين والمسيطرين على الاقتصاد فى البلاد، وبذلك كانوا هم من دعم سياسة الاحتكار وقَوَّاها. وأكثر الأشياء التى اهتم الملوك البطالمة باحتكارها هى صناعة الزيوت، ويُعتبر بطلميوس الثانى أول من فكر فى احتكار صناعة الزيوت هذه منذ ٢٥٩ ق. م. ومن أشهر الزيوت التى احتكر البطالمة تجارتها كان زيت السمسم وزيت بذرة الخروع وزيت بذرة القرطم وزيت بذرة القرع وزيت بذرة الكتّان. وكان الفلاحون هم الذين يقدمون بذورها.

أما عن طريقة إدارة البطالمة للبلاد، فإنهم استخدموا النظام الفرعونى القديم، حيث إنهم قسموا البلاد مثلما فعل الفراعنة إلى أربعين إقليمًا، والأقاليم قسموها إلى كيانات أصغر تُسمى مقاطعة، والمقاطعات تم تقسيمها إلى كيانات أصغر تُسمى قرى، كما أنهم أخذوا نظام توزيع الأراضى الزراعية على الفلاحين من النظام الفرعونى القديم. كما أن نظام تمليك الأراضى والعقارات للمواطنين قد تابعوه بدقة وحرصوا على تطبيقه بكل نظام وحزم، وكان يقوم به

الموظف البطلمى الأعلى، حيث قام هذا الموظف بقياس كل قطعة أرض وتحديدها للمواطن وتسجيل اسمه ومساحة قطعة الأرض التى حصل عليها، وكان الموظف الأعلى البطلمى يقوم بعمله هذا كل عام. أما المحصول الذى يجب على الفلاحين زراعته، فكان يقوم القصر الملكى بتحديده. فلم يكن للفلاح اختيار ما يجب عليه زراعته من محاصيل ، ثم إن القصر الملكى فرض كمية من هذا المحصول على كل قرية يجب أن يحصل عليها القصر، ثم تقوم إدارة القرية بجمع المحصول من فلاحيها حتى يصل المحصول فى النهاية إلى مخازن القصر(٩٨).

وكانت تقع مسئولية نقل حصة القصر على كل إدارة موجودة فى القرى؛ تلك الإدارات قامت بالاستعانة بوسائل نقل خاصة بالأفراد وليست حكومية، وذلك عندما كانت وسائل النقل الحكومية غير كافية. أما فترات الحصاد فلم تكن تتم إلا بوجود موظفين حكوميين يتابعون الفلاحين عند الحصاد، حتى لا يقوم الفلاح باقتطاع شيء من المحصول ليس من حقه. ثم يقوم هذا الموظف بكيل المحصول ويقتطع منه الربع كضريبة للدولة، ثم بعد ذلك يزن ما تبقى من محصول الفلاح الذى يريد أن يبيعه للدولة أى للملك، ثم يقوم الموظف بإعطائه ثمن هذا المحصول. هذا السعر يقوم الملك شخصيًا بتحديده كل عام حسب الأسعار المتاحة فى السوق.

وقد وجدت فى كل المدن بمصر مطاحن للغلال ومَعاصِرْ للزيوت، هذه المطاحن والزيوت كلها ملك للملك وكان ممنوعًا بصورة حازمة أن يقوم أحد من الشعب بعمل مطحن خاص أو معصرة خاصة ما عدا المعبد، فقد سُمح له بذلك. ولم يكن مسموحًا للمعبد مطلقًا بعصر ما يحلو له من كميات الزيوت، بل لقد حُدِّد للمعبد أن يعصر كمية بعينها للاستعمال الذاتى، ولم يُسمح للمعبد بعصر الزيت سوى فى شهرين فقط فى العام. أما بقية العام فكانت معاصر المعابد مغلقة وتحت رقابة موظف الملك. وإذا احتاجوا بعضًا من زيت الخروع، فإنهم لا بد وأن يطلبوا الإذن من موظف الملك فيعطيهم الكمية على قدر الحاجة.

بل إن المَعاصر الملكية ذاتها كانت تحت مراقبة رئيس كل مدينة والموظف المختص بها. وإذا تعطلت إحدى الماكينات أو الطواحين، يتم ختمها بختم ملكى يفيد بأنها خارج نطاق الخدمة ولا يُسمح باستعمالها. ولقد سجلت كل المطاحن والمعاصر فى دفاتر خاصة بها، بل سُجل أيضًا عدد الماكينات التى تعمل بها أيضًا. أما العمال الذين كانوا يعملون فى هذه المطاحن والمعاصر، فهم عمال موسميون كانوا يعملون بها فى فترات الحصاد. وكان محرمًا عليهم أثناء فترات الحصاد مغادرة أماكن عملهم ولا بد لهم فى اليوم من تحقيق كمية معينة من الإنتاج يحددها الموظف المسئول عنهم. ولقد وصلنا نص من ذلك الوقت عبارة عن نصيحة من أب موظف لابنه يقول له فيها: "إن الشخص الذى لا حرفة له يشبه الحمار الذى يحمل حملاً ثقيلاً ولا يعرف إلى أين يتجه به، وأنا موظف الدولة علىّ أن أقود هذا الحمار وأُريَه إلى أين يتجه"(٩٩). ولكى يطمئن الموظف البطلمى إلى دقة ونظام سير العمل، استخدم فى ذلك الكثير من الأساليب منها التجسس على العمال باستخدام زملاء لهم، ثم اقتحام منازلهم والبحث عما إذا كانوا أخفوا شيئًا عن الملك وموظفيه؛ وضرب الكذابين والسارقين والخائنين والمخالفين للقانون منهم.

وكما أحكم البطالمة سيطرتهم على وسائل الاقتصاد الزراعى، كما أسلفنا الذكر، فإنهم سنوا القوانين وأحكموا سيطرتهم أيضًا على صناعة وعمال المناجم والحديد، وكذلك على عمال المحاجر. كما فعلوا الشىء نفسه مع صيادى السمك وصائدى الحيوانات البرية فى الغابات والصحراء، لم يترك البطالمة أى نوع من أنواع الزراعة أو الصناعة أو الصيد أو التجارة أو أى مورد رزق آخر إلا وقد وضعوا أيديهم عليه، ووضعوا له القوانين التى تتيح للملك أن يحصل على نصيبه من هذا المنتج قبل أن يحصل صاحب المنتج نفسه على نصيبه منه. وإذا أراد أحد التجار أن يتاجر فى سلعة معينة كان لا بد وأن يكون له ترخيص بذلك من الحكومة؛ هذا الترخيص لا بد للتاجر أن يدفع له رسومًا معينة، كما أنه لم يُسمح للتاجر أن يضع السعر الذى يرغب هو فيه، بل كان السعر محددًا من الدولة لا يجب على التاجر أن يتخطاه وإلا تعرض للعقاب وسَحْب الرخصة منه. وقد وردت إلينا نصوص توضح بأن هناك رُخصًا مُنحت من الحكومة

للتجار وذلك للتجارة فى الخمور والجبن والخبز واللحم، وكذلك اللحم والسمك المملح. بل عثرنا على أدلة تقول بأن هناك تجارًا كانوا يبيعون العدس مطبوخًا ويبيعون بذور القرع المملحة (اللّب)، وتجارًا آخرين يبيعون الطوب المحروق للبناء، وآخرين يبيعون الحلى. وهنا نرى ما يوضح مدى سيطرة الملك البطلمى على الأمور، حيث كتب إلى وزير المالية يقول له: "لا بد وأن ترى بنفسك وتختبر أن التجار لا يبيعون البضاعة للشعب بسعر أعلى من السعر الذى قررناه، لا بد وأن تقوم بنفسك باختبار جودة البضائع التى لا يوجد ثمن ثابت لها. إذا ما قررت زيادة طفيفة على أسعار بعض السلع، فألزم التجار بإعلان ذلك"(١٠٠).

وبهذه النظم والقواعد التى وضعها البطالمة فى مصر استطاعوا النهوض بالزراعة والصناعة والتجارة وتضاعفت أرباح البلاد من كل هذه الأشياء، وبفضل الدقة والأنظمة التى وضعها البطالمة فى البلاد. ولقد كان البطالمة بعيدى النظر عندما أدخلوا كل هذه الأنظمة إلى مصر، وذلك لأنهم كانوا يرمون إلى هدفين غاية فى الأهمية: الأول، استقلال البلاد الاقتصادى وعدم احتياجها لأية سلعة من الخارج، وذلك يضمن للبلاد استقلالها السياسى وقوتها العسكرية. ثانيها، أن تكون لمصر كلمة كبيرة فى سوق التجارة العالمية وأن تصبح ذات دخل كبير من الذهب والفضة؛ مما يضمن للملك والبلاد ثباتًا وقوة ضد كل سوء. لهذا وجب على الفرد المصرى فى عصر البطالمة أن يكون كثير الإنتاج، وفى الوقت نفسه جيد الإنتاج بحيث يستطيع المرء تسويق السلعة المصرية بمرونة لا يستطيع شعب آخر منافستها. ولم يكن هذا ليتحقق للسلع المصرية إلا من خلال واجهة قوية لها خبرتها فى استثمار الأموال وفى تجارة البحر المتوسط؛ لكى تتحرك تحت اسمها هذه الواجهة كانت فى صورة ملكية إغريقية وميناء إغريقى. وكانت الإسكندرية هى المكان الأسهل لتحقيق هذا الهدف.

لقد استطاع البطالمة تحقيق الاستقلال الاقتصادى للبلاد وذلك عندما حدث فى مصر اكتفاء ذاتى، ولم يعودوا فى حاجة إلى بضائع من الخارج. كما أنهم استحدثوا زراعات ونباتات كثيرة لم تكن موجودة فى مصر قبل ذلك، مثل

بعض أنواع الكروم الجديـدة. إن المشروب القومى لدى المصريين قبل ذلك ــ أى فى عصور الفراعنة ــ كانت البيرة، بالرغم من أن الفراعنة عرفوا النبيـذ وصنعوه وشربوه. فى عام ٢٥٧ ق.م.، أرسل وزير الزراعة فى مصر آنـذاك والمدعو أبولونيوس رسولاً إلى شخص يونانى يُدعى ليسيماخوس يطلب منـه شتلات من بعض أنواع العنب التى تنمو فى اليونان ليزرعها فى مصر، فما كان من الأخير إلا أن أرسل له الكثير من أشجار الفاكهة من بينها أحد عـشر نوعًا من أنواع العنب.

ولأن الشعب اليونانى كان متعودًا منذ نعومة أظفاره على زيت الزيتون؛ وأكله فى كل وجباته، فإن الملك أمر باستزراع المناطق والحقول حول مدينـة الإسكندرية بأشجار الزيتون وذلك لتوفير الزيتون وزيته لليونانيين المقيمين فى مصر. أما الشىء الثانى الذى حققه البطالمة فى مصر بعد الاكتفاء الذاتى، فهو التصدير. لقد كانت مصر قبل مجىء اليونانيين إليها معروفة بأنها سلة العـالم للغلال، وكانت تُصدر الغلال إلى جميع أنحاء العالم وبصفة خاصة إلى اليونان. ولأن البطالمة أرادوا أن يضمنوا الغلال المصرية للشعب اليونانى، فإنهم زادوا من زراعتها وإنتاجها، ولكى يصلوا إلى هذا الهدف فإنهم استصلحوا الكثير من الأراضى الصحراوية وقاموا بردم الكثير من المستنقعات وزرعوها بالغلال.

والحق يُقال إن المصريين منذ آلاف السنين، منذ عصر الفراعنـة وهـم معتمدون تمامًا على النيل ومن ثَم فلم يهتموا كثيرا بتطوير طرق الرى عندهم، فإما أنهم استخدموا الشادوف للرى أو حمل المياه فى أوانٍ لنقلها إلـى مكـان آخر، لذلك لم يستطيعوا استصلاح الأراضى التى بعدت ولو قليلاً عن النيـل. وبمجىء البطالمة تحقق لهم هذا الهدف، حيث اعتمد البطالمة واستفادوا استفادة ممتازة من قاعدة أرشميدس اليونانى فى رفع المياه مـن بـاطن الأرض عـن طريق دق الطلمبات هنا وهناك، وكذلك استخدام السواقى التى تُدار بقوة دفـع الهواء والمياه. ونتيجة لاستصلاح مساحات جديدة وواسـعة مـن الأراضـى المصرية، تغيرت حياة الأفراد فى مصر إلى الأفضل واستخدموا طرقًا جديـدة فى البناء والسكن لم تكن معروفة فى مصر من قبل. ولبنـاء هـذه القنـوات

والسدود، استخدم ملوك البطالمة الشعب المصرى بالسخرة والقوة لهذه المشاريع، ولكن عمل السخرة هذا لم يكن شيئًا غريبًا أو جديدًا على المصريين، حيث إنهم اعتادوا ذلك منذ عصور لا يستطيع المرء أن يؤرخها.

ومن الأشياء المهمة جدًا التى أضافها اليونانيون إلى تاريخ تطوير الزراعة فى مصر هو أنهم استخدموا الكثير من الأدوات المصنوعة من الحديد فى الزراعة، بل إن الحديد فى عصور الفراعنة كان قليلاً ولم يكن متداول الاستعمال مثل ما فعل اليونانيون(١٠١). وبمجىء البطالمة مصر فإنهم أحضروا منه كميات كبيرة إلى مصر، والذى قام بجلب الحديد إلى مصر رجل يونانى يُدعى أبوللونيوس من مدينة فيلاديفيا اليونانية. بعد أن كانت كل أدوات العمل الزراعية فى عصر الفراعنة من الخشب، غدت الآن فى عصر البطالمة من الحديد. أصبح سلاح المحراث الآن من الحديد، الفئوس والبُلَط غدت من الحديد، عجلات العربات أصبحت من الحديد. لقد أصبح عصر البطالمة فى مصر ثورة زراعية وصناعية كبرى قامت على الحديد كما يقول م. روتستوفتسف(*).

ونظرًا للنهضة الزراعية والصناعية التى شهدتها البلاد ازداد دخل الأفراد، وتبع ذلك بالطبع ازدياد حصيلة الضرائب التى كانت تحصل عليها الدولة من الأفراد. والطريف فى الأمر أن موظفى الملك كانوا يراقبون الفلاحين أثناء زراعة المحاصيل وأثناء الحصاد أيضًا. وكما أسلفنا الذكر، فإن المحاصيل كانت تُحصد وتُقسم فى الحقل ما بين الملك والفلاح، أى فى مكان حصادها. وبعد أن يحصل الملك على حصته من الغلال أو الفاكهة أو أى منتج آخر، كان الفلاح حر التصرف فيما تبقى له من الحصاد. لقد انتشرت مخازن غلال الملك فى جميع البلاد وكان عليها حراس أشداء يكتبون كل ما يدخل إليها. وهذه الغلال المخزونة بدورها كانت تُرسل إلى مخازن الغلال الرئيسية فى الإسكندرية.

---

(*) عرف المصريون الحديد قبل ذلك بكثير وكانوا يحصلون عليه من الشهب والنيازك التى كانت تسقط من السماء؛ ومن ثَمّ أطلقوا عليه bia- n- pt أى معدن السماء . وكان مستخدمًا فى كثير من أدواتهم، هذا إلى جانب معدنَى النحاس والبرنز.(المراجع).

وبعد بضعة أعوام، أصبحت مدينة الإسكندرية عاصمة النيل هي مركز التجارة العالمى وحافظة نقوده. لقد وصل الملوك البطالمة أوج مجدهم وعظمتهم فى خلال القرن الثالث قبل الميلاد. فى بعض الأحيان نعثر على قطعة حلى من هنا أو هناك توضح لنا مدى الثراء والنعيم الذى عاش فيه أناس هذا الزمن فى تلك المدينة الثرية الإسكندرية. وقد عثرنا على كنز ثمين يرجع إلى هذه الفترة التاريخية فى منطقة بشرق الدلتا يُطلق عليها طوخ الكراموس. لقد احتوى الكنز على الكثير من الحلى الذهبية والفضية والأوانى الذهبية والفضية، كما احتوى على العديد من العملات الذهبية والفضية أيضًا. أحدثها يرجع إلى عصر بطلميوس الثانى.



(شكل ١٥): سوار على شكل ثعبان.

وفى الشكل رقم ١٥، نرى سوارًا من الذهب الخالص فى شكل ثعبان، ولكن عيون الثعبان كانت من حجر كريم، والفن البطلمى لا تخطئه العين فى أى مجال، حيث إنه قد تم تصنيعه فى الإسكندرية، ثم صُدّر إلى بقية المدن فى



(شكل ١٦): عملة معدنية ذات وجهين.

مصر، وأشهر هذه القطع الفنية التى جاءتنا من عصر البطالمة تلك التى عثرنا عليها فى صورة عملات ذهبية وفضية، تلك العملات كانت تتميز بامتلائها بالوجوه البطلمية المعهودة. وفى الصفحة السابقة نرى الشكل رقم ١٦ على اليسار لعملة ترجع إلى عصر بطلميوس الثانى وزوجته وأخته أرسينوى الثانية وهما على وجه العملة. أما تلك التى على اليمين، فهى تبين وجهَىْ أبيهما بطلميوس الأول وبرنيكى الأولى. وهنا نرى أن ما فوق أكتافهما قد يكون بالنسبة لأبيه بطلميوس الأول معطفًا، أما بطلميوس الثانى فيحمل عباءة، ونظرة بطلميوس الأول هى نظرة متسامية تدل على التقديس كإله حيث إنه ينظر إلى الشمس. وعلى وجه العملة وظهرها كُتِب اسماهما على أنهما الحكام الإخوة المؤلهون. أما تصوير الجيلين الحاكمين على وجهَى العملة، فيدل على استمرارية الحكم فى الأسرة الجديدة.

ثم إننا نلحظ مظاهر الغنى والثراء بمدينة الإسكندرية فى احتفالاتها بأعيادها، حيث وصل إلى أيدينا تقرير عن عيد شعبى فى مدينة الإسكندرية يرجع إلى عام ٢٧٥ ق. م. أو إلى ٢٧٠ ق. م.، هذا الوصف يشد انتباه القارئ ويدعوه للتفكر: "لقد جاء المشاهدون[١٠٢] والمتفرجون من جميع أنحاء العالم للنظر والمتعة، ويبدأ الاحتفال بموكب الآلهة والملوك البطالمة مثل ديونيسوس، زيوس والإسكندر الأكبر وبطلميوس الأول وبرنيكى الأولى، ويتبعهم موكب ممثلات المدن اليونانية يتقدمهن ممثلات كورينث اليونانية. ونستطيع هنا أن نحصى ستة آلاف شخص بعربات ولوحات، و٥٧ ألف جندى مشاة، و ٢٣٢٠٠ فارس يمتطون صهوات خيولهم، وآلافًا من الحيوانات عُرضت للزينة. ثم نرى ١٦٠٠ فتًى وقد لبسوا ثيابًا بيضاء، وقد حملوا أوانى نفيسة من القصر الملكى، منها ٢٥٠ إبريقًا ذهبيًا و٤٠٠ إبريق من الفضة، ثم إنه تراصت ٣٢٠ إناءً من الذهب و٦٣٠ أخرى من الفضة، ثم ٣٠٠ إناء آخر من الفَخّار الملون بمختلف الألوان وذلك لحفظ السوائل باردة للشاربين.

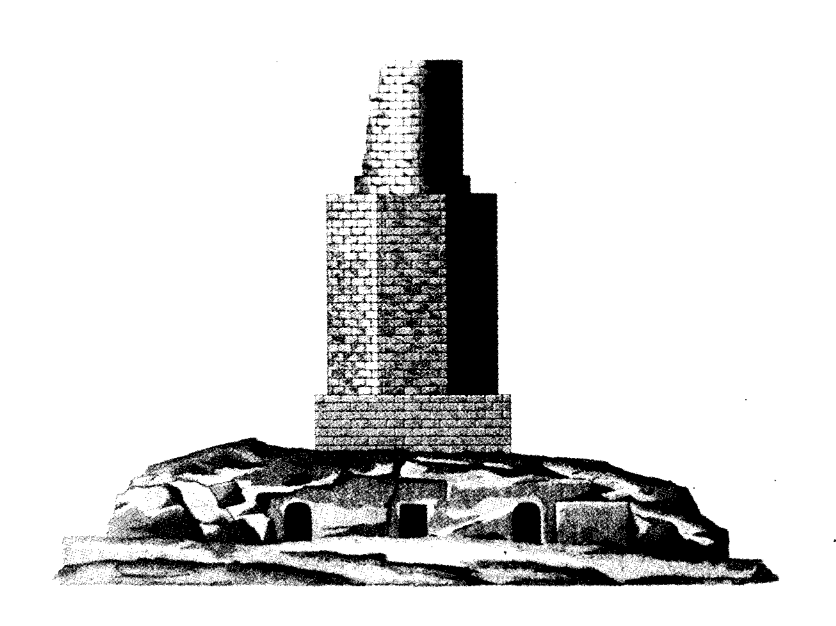
هذا العيد الكبير بمدينة الإسكندرية كان فى الأصل مكرسًا للإله ديونيسوس وذلك للاحتفال به على أنه كبير الفاتحين وغازى العالم. وقد احتشد لهذا الحفل جميع أنواع الحيوانات التى جلبها الملوك من مختلف أنحاء العالم إلى

الإسكندرية خصيصًا لهذا الحفل. فنرى هنا ٢٤ عربة تجرها الأفيال، وأنواعًا مختلفة من الغزلان، والنعام، والحمار الوحشى، والأبقار، والسباع والزراف، والخرتيت. أما أجمل ما فى الحفل وذروته العظمى بالطبع فهو تمثال الإله ديونيسيوس نفسه رب النبيذ والذى وضع على عربة طولها ٧,٧ مترًا وعرضها ٤,٤ مترًا، والتمثال بلغ ارتفاعه ٤,٥ متر، وقد أُلبس معطفًا أحمر فى لون النبيذ مرصعًا بالذهب، وحول موكبه هذا ١٨٠ رجلاً راحوا يصبون ٦٠٠ لتر من النبيذ من إناء من الذهب كهدية وهبة من الإله للمتفرجين. ومع موكب الإله ديونيسيوس عُرض عضو ذَكَرىّ مذهَّب طوله ٦٠ مترًا مرصعًا بدوائر ذهبية، وكان ذلك رمزًا للخصوبة والنماء عند البطالمة. وبصفة عامة الأرقام والأطوال المعطاة يبدو مبالغًا فيها. فى نهاية هذا الحفل قدم الملك البطلمى وجبة غذاء للمحتفلين ذُبح فيها ألفان من الثيران الثمينة، كل هذه الطقوس والمراسم قد وجدت فى شوارع الإسكندرية الفسيحة مرتعًا لها.

**ميناء الإسكندرية هو مفتاح مصر**

يخبرنا المؤرخ الرومانى سويتون أنه فى عام ٦٩ ميلادية، جاء الإمبراطور الرومانى فسباسيان إلى الإسكندرية وذلك لكى يتسلم مفاتيح مصر. وكان مفتاح مصر آنذاك عبارة عن فنار الإسكندرية، كما أن الشاعر الرومانى مارتيال رأى أن الإسكندرية هى مدينة فاروس، وقد اعتُبرت فاروس هذه على أنها من عجائب الدنيا السبع فى العالم القديم، حيث إنها كانت تتكون من ثلاثة طوابق وكان ارتفاعها ١٣٠ مترًا، وقد استُخدم المرمر فى بنائها أو على الأقل كانت مغطاة بهذا الحجر. ولقد كان هذا الفنار رمزًا عظيمًا لمُلْك البطالمة على امتداد شواطئ البحر المتوسط.

هذا الفنار كان موجودًا فى أقصى الغرب من مدينة الإسكندرية فى منطقة يُطلق عليها "أبوصير"، ومرفق رسم توضيحى عن عمل بعثة نابليون (شكل ١٧). ويبدو شكل المبنى هنا وكأنه قد اقتُبس من شكل مقبرة عظيمة، ويُعتبر من أعظم المبانى التى شُيدت فى ذلك العصر القديم قاطبة. ويُقارن دائمًا بهرم سيستيوس فى روما. ويُعتقد أن هذا الأخير قد اتخذ من فاروس قدوة يقتدى بها.



(شكل ١٧): قبر من تايوزيريس ماجنا.

كما أن الشكل الخارجى لهذا القبر المشار إليه فى البداية كان فى أساسه ثُمانى الأضلاع ويتكون من ثلاثة طوابق؛ ولهذا لا بد لنا من أن نتخيل شكل الفنار أيضًا. وقد استخدم المهندسون آنذاك المرَايا لكى تعكس شعلة الفنار وتنشرها فى كل اتجاه حتى يستطيع المرء رؤيتها من مسافات بعيدة، وبالطبع فإن أعلى الفنار كان هناك تمثال الإله زيوس سوتر اليونانى، حسبما صُوِّر على العملة وكأنه تاج لهذا الفنار. وفوق جزيرة فاروس بجوار الفنار نرى معبد الإلهة إيزيس فاريا، أى إيزيس المنتمية إلى جزيرة فاروس إلى جانب معبد آخر لها فى مينوس. وقد عُثر على كثير من العملات المعدنية صورت إيزيس دائمًا على أنها مرتبطة بجزيرة فاروس (انظر شكل ٤٦)، وفى الشمال الشرقى من جزيرة فاروس عثرنا فى الماء على بقايا تمثال للإلهة إيزيس يبلغ طوله تسعة أمتار.

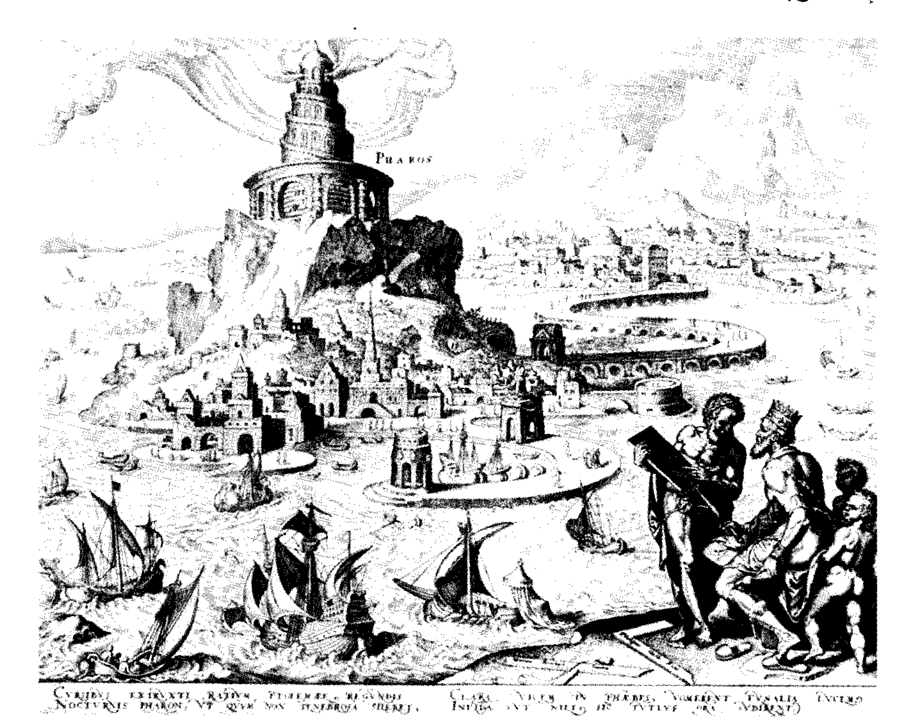
إن علماء الآثار ليتساءلون دائمًا عمَّن بنى فنار الإسكندرية هذا؟ وللإجابة عن هذا السؤال سجل لنا المؤرخ اليونانى سترابون نصًا كان قد رآه، هذا النص

حسبما ذكر أحد الكتاب العرب فى عام ١١٦٦، كان موجودًا فى الناحية الشرقية من الفنار؛ وذلك حتى يتسنَّى للبحارة والمسافرين أن يقرءوه من اتجاه يسارهم[١٠٤]. ثم إننا وجدنا دليلاً آخر فى أحد أشعار بوسيدنيوس، وربما يكون هذا الشاعر قد كتب شعره هذا بمناسبة افتتاح هذا الفنار، وهنا فإن الشاعر لم يذكر أسماء ٥٠ من الملوك ولكنه ذكر فقط اسم الإله زيوس سوتر[١٠٥]، ثم يذكر فى مقطوعات من شعره كيف كان البحارة يتجهون بمراكبهم نحو منطقة فى البحر تشبه قرن الثور، ثم نجد فى شعره كلمة بروتس، ثم كلمة زيوس سوتر، ثم جملة "أنه ليس الهدف". أما تفسيرنا لبعض الكلمات التى جاءت فى أشعاره، فهو أنه كان هناك قديمًا فى هذه المنطقة قطعة من اليابسة داخل الميناء تشبه قرن الثور، وكان البحارة يخشونها نظرًا لخطورتها على مراكبهم.

فى القرن الأول الميلادى من الحكم القيصرى وفى سياق حديثه عن فنار الإسكندرية، ذكر الشاعر والمؤرخ الرومانى بلينيوس فقال إن مهندس الفنار هو سوسيكراتيس من جزيرة كيندوس باليونان. وقد سمح له الملك أن يخلد اسمه على هذا البناء[١٠٦]. وهذا يعطينا دليلاً واضحًا على أنه فوق الفنار كان يوجد اسم شخص يُدعى سوسيكراتيس. وقد وصلتنا دلائل أخرى تقول بأن سوسيكراتيس هذا لم يكن مهندس الفنار، بل كان دبلوماسيًا ثريًا وقد تبرع بالأموال اللازمة لبناء هذا الفنار؛ ولكنه مع الوقت أصبح فى نظر الأجيال التالية هو المعمارى الذى شيده.

والآن، فقد غدا فنار الإسكندرية أحد عجائب الدنيا السبع ولكن لكى يأخذ الفنار طريقه إلى هذه المكانة فقد استغرق ذلك الكثير من الوقت، حيث إن بلينيوس قد ذكره فى القرن الأول الميلادى على أنه ذو أهمية كبيرة مثل الأهرام. ثم مرت خمسمائة عام أخرى عندما ذكر المؤرخون جريجور من طورس وكوزموس من أورشليم جزيرة فاروس مرة أخرى. ولا بد لفاروس وفنارها من أخذ مكانتهما ضمن عجائب الدنيا السبع. ومع بداية القرن الثامن، كان هناك راهب إنجليزى يُسمى بيدا فينيرابليس كتب كتابًا عن فنار الإسكندرية قال فيه: "إن الفنار لهو العجيبة الثانية من عجائب الدنيا السبع."، وقال أيضًا: "إننى أتخيل الفنار وكأنه حيوان بحرى ضخم عظيم يرتكز على أربعة أعمدة زجاجية تقع تحت مستوى سطح البحر بنحو ثلاثين مترًا. كيف استطاع المرء

أن يبنى هذه القاعدة الأسمنتية تحت الماء، وكيف تماسك الأسمنت تحت المياه أيضًا، وكيف استطاع المرء البناء تحت المياه ؟ إن كل ذلك لحرى أن يكون من أهم العجائب"[١٠٧]. وفى الحقيقة، أن كل ما جاء فى كتاب الراهب الإنجليزى ما هو إلا خيال ينافى الواقع ولكن كتابه هذا كان مهمًا، حيث إنه أبقى فنار الإسكندرية حيًا فى ذاكرة أوروبا وأثار انتباهها نحوه أيضًا. كما فى أعمال مارتن فان جيمس كرك (انظر شكل ١٨)، ثم إنه حدث زلزال فى القرن الرابع عشر ــ إما فى عام ١٣٠٣ أو عام ١٣٢٣ ميلادية ــ وقد سقط على أثره فنار الإسكندرية.

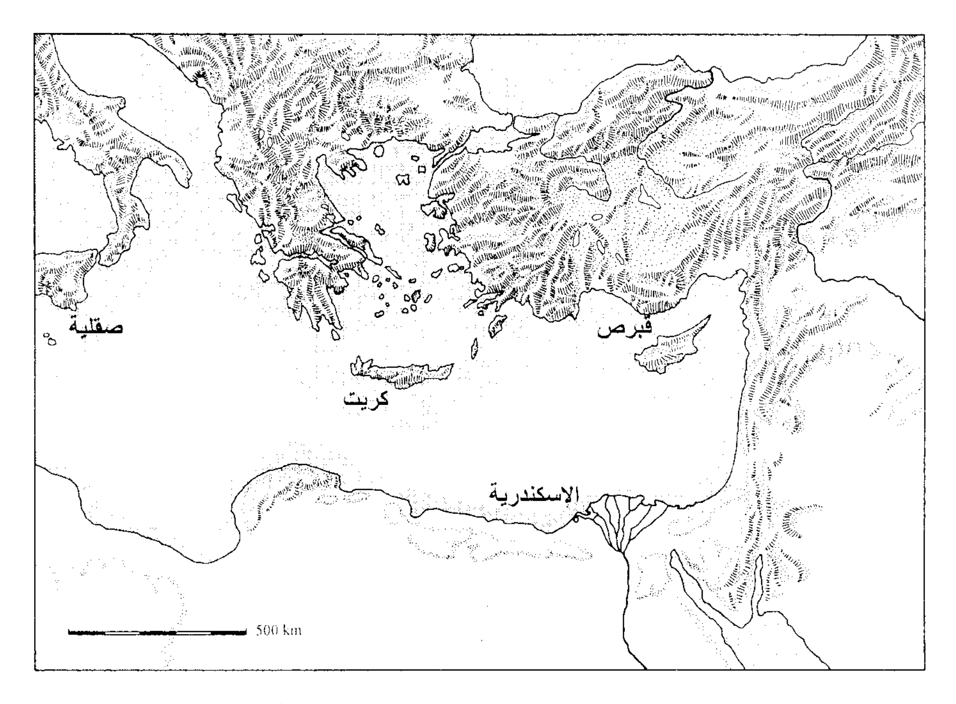



(شكل ١٨): فنار مدينة الإسكندرية.

أما الشواطئ المصرية فقد كانت خطرة جدًا على السفن والبحارة، حيث كان بها الكثير من التعاريج التى تقع تحت سطح البحر ولا يراها قائدو السفن إلا عند الاقتراب منها. وكان ذلك يشكل مخاطر كبيرة بالنسبة لهم (انظر شكل ١٩).

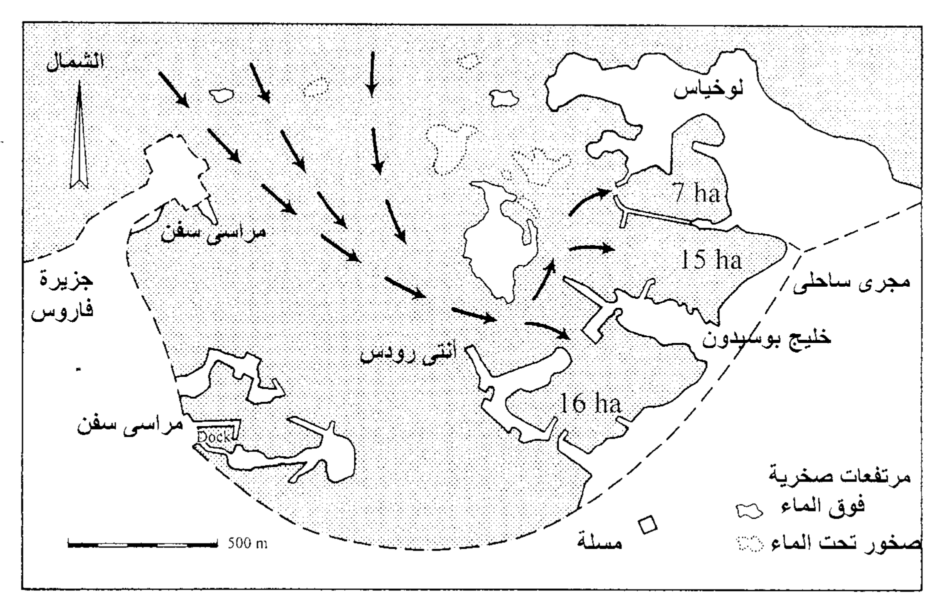
وفى هذه الجزئية بالذات يروى لنا بوليمارش من بلدة نقراطيس حادثة وقعت لهم أمام الشواطئ المصرية فى الإسكندرية فى القرن السابع ق.م.، حيث يقول: "بينما نحن فى البحر بسفينتنا إذ هبت علينا عاصفة قوية هوجاء، وتبعثرنا فوق السفينة لاجئين إلى تمثال الإلهة أفروديت نصلى لها ونسألها النجاة والسلامة، وفى الوقت ذاته راح البحارة يهتدون بأضواء فنار الإسكندرية حتى استطعنا أن نصل ناجين سالمين"(١٠٨).

لقد شكل ميناء الإسكندرية أهمية كبرى لاقتصاد مصر، وأقصد هنا ميناء الإسكندرية الشرقى والذى أُطلق عليه أيضًا الميناء الكبير، حيث كان به العديد من الأسوار وحوض كبير، هذه الأسوار والحوض قد اكتشفناها فقط منذ بدأنا التنقيب عن الآثار تحت المياه. كما كان هناك ميناء آخر يُطلق عليه الميناء الغربى(١٠٩)، وقد كان هذا الأخير متصلاً بالنيل. لقد كانت موانئ الإسكندرية نافذة مصر على العالم والباب الذى صدَّرت منه بضائعها إليه عبر البحر المتوسط.




(شكل ١٩): أمن البحر المتوسط .

ويخبرنا المؤرخ بلينيوس أن السفن كانت لها مداخل ثلاثة من وإلى البحر فى الميناء الكبير، كانت أسماؤها: ستيجانون وبوسيدون وتارون[١١٠]. ونرى أن بلينيوس هنا أحصى هذه المداخل من الغرب إلى الشرق، وبهذا يكون المدخل الشرقى كان يؤدى إلى هذا اللسان البرى الخطر والمسمى بقرن الثور، وهو موضح على الخريطة ( شكل ٢٠)، وبهذا كانت هذه الألسنة البحرية فى المياه تشكل حماية للمدينة ضد الغزاة، حيث كانت تتحطم سفنهم عليها نظرًا لعدم معرفتهم الصحيحة بالمداخل الحقيقية والسليمة للمدينة.




(شكل ٢٠): الميناء الكبير.

ويقول المؤرخ فلافيوس إن ميناء الإسكندرية بمداخله المتعددة والمليئة بالشّعاب الخطرة كان دائمًا يشكل خطرًا على السفن حتى فى أوقات السلم، ولم يكن من السهل على السفن أن تدخل المدخل السليم فى الميناء إلا بعد أن تكون قد اكتسبت الخبرة اللازمة[١١١] بذلك. وكانت الناحية الشرقية فى الميناء محمية بكثير من الأسوار الحصينة التى تقع على يمينها الجزيرة الصغيرة فاروس بفنارها العظيم الذى كان يهدى البحارة على بعد ٥٠ كيلومترًا فى البحر. ثم إن

هذه الجزيرة محمية بكثير من السدود والكبارى من جميع الجهات، وفوق كل هذه الاحتياطات الأمنية فإنهم دعموا الميناء بسلاسل حديدية[١١٢]. ويروى المؤرخ لوكان أن كليوباترا عندما هبت للقاء قيصر الشهير رَشَتْ حراس جزيرة فاروس لكى يزيلوا السلاسل الحديدية هذه ولو لفترة قصيرة. فى غرب المدينة وجد ميناء آخر أُطلق عليه ميناء كيبوت.

ويقول المؤرخ سترابون إن ميناء الإسكندرية الرئيسى ــ أى الكبير ــ كان مقسمًا إلى مراسٍ كثيرة لترسو عليها السفن. وفى هذا الشأن وردت إلينا قصة تقول، إن الملك اليونانى هيرون الثانى من بلدة سيراكوس قد أمر ببناء سفينة ضخمة مجهزة بأحدث ما وصل إليه العقل اليونانى آنذاك من أجهزة ومعدات، ثم إنه جعل تصميمها من الخارج على نظام فنار الإسكندرية. هذه السفينة كانت من نتاج نظريات أرشميدس، كما كانت عظيمة وذات غاطس عميق جدًا، ووصلت حمولة هذه السفينة إلى ٣٣١٠ أطنان. ولأن موانئ البحر المتوسط الغربية لم تكن تستوعب سفينة بهذا الحجم والضخامة، فإن الملك اليونانى هيرون قام بإهدائها إلى الملك البطلمى بطلميوس الثانى (٢٨٣ ــ ٢٦٤ ق.م.) والذى قام هو الآخر بركنها فى ميناء الإسكندرية للزينة فقط، وذلك لأن ميناء الإسكندرية أيضًا لم يكن ليستوعب سفينة مهولة كهذه.

وعن هذه السفينة الضخمة وصلنا شعر من تأليف الشاعر اليونانى أرخيمالوس يقول فيما معناه: "إنها عمل من صنع العمالقة. مَن القوى الذى جاد بها على الأرض؟ من الذى شيد جوانبها وقوّاها، بأى بلطة اقتُطعت أخشابها؟ كيف تم تفريغ جنباتها من الداخل؟ وكيف تم قياس كل أجزائها؟ هل قام كل أهل جزر الكيكلادس بالعمل فى تصنيعها؟ هل شارك أيضًا صناع جزيرة إيجا فى تصنيعها أيضًا؟ كيف يكون عرضها من الناحيتين متساويًا دقيقًا غاية فى الدقة؟ كيف تكون بهذه الدقة حتى وكأنها من صنع السماء! إن صاريها يكاد يحتك بنجوم السماء، ومقدمتها تحف الغيوم. حبالها طويلة قوية تبلغ فى طولها وقوتها ضعف تلك التى استخدمها إكسركسيس الملك الفارسى لسفينته التى قطع بها الطريق بين أبيدوس وسيستوس. على الجانب الأيمن من هذه السفينة، نرى حروفًا محفورة، هذه الحروف هى اسم العملاق القوى الذى جر هذه السفينة من

اليابسة إلى البحر. إنها حروف اسم الملك العظيم هيرون بن هرقل، هو الذى يحضر الكثير من الغلال والحبوب لكل اليونان وجُزُرها، إنه حامل صولجان صقلية وملكها، يا إلهى وإله البحّار بوسيدون احمِ هذه السفينة من الأمواج العالية الزرقاء وأوصلها إلى مرساها ساعة"(١١٣).

ومن خلال هذا الشعر الذى وصف هذه السفينة لنا أن نتخيل حجم ميناء الإسكندرية الذى كانت مصر تزود روما بالغلال عن طريقه بمقدار ١٣ مليون كيلة، أو ما يعادل ١١٣١٠٠ طن من القمح سنويًا إليها. ثم ازداد استهلاك الرومان من الغلال المصرية فيما بعد حتى غدت مصر تشحن ٣٦ مليون كيلة، أو ما يعادل ٣١٣٢٠٠ طن إلى القسطنطينية. وكان ذلك المقدار من الغلال يتم تعبئته فى خمسة ملايين ونصف المليون من الأجولة، حيث جاءت كميات الغلال من جميع المدن المصرية حتى وصلت إلى منطقة بحر مريوط(١١٤). ومنها تم نقلها إلى ميناء الإسكندرية الكبير، وذلك تحت رقابة الموظفين المسئولين الشديدة. هذه الكمية من الغلال كانت تحملها ٩٢٠ سفينة وتنقلها عبر البحر المتوسط سنويًا من مصر إلى روما. كانت هذه السفن تتحرك من الإسكندرية بمعدل ٥٠ سفينة كل أسبوع ولمدة أربعة شهور ونصف الشهر كل عام. وقد أخبر بذلك القس السكندرى ديونيسيوس، وذلك فى القرن الثالث الميلادى(١١٥).

## الإلهان المصريان: إيزيس وسيرابيس يتحولان إلى يونانيين

إنه من خلال أعمال كل من الكاتبين هوميروس وهيرودوت نرى أن اليونانيين القدماء اهتموا اهتمامًا خاصًا بمصر وولعوا بها، وقد جذبهم إلى مصر أكثر الديانة المصرية القديمة وآلهتها المتعددة. وراح اليونانيون يمزجون بين آلهتهم والآلهة المصرية القديمة، ومن أوضح الأمثلة على ذلك أخذهم الإلهة المصرية إيزيس وجعلوا منها إلهة حامية للسفن أثناء سيرها فى البحار، ثم إنهم جعلوا من الإله سيرابيس إلهًا شافيًا من الأمراض، كما إنه كان إلهًا ينبئ الناس بما سوف يأتيهم فى مستقبل أيامهم ويفسر لهم أحلامهم. وكان لكل من هذين

الإلهين العديد من المعابد فى مدينة الإسكندرية وما حولها من مدن مثل كانوب، وظلت ديانتهما تلعب دورًا مهمًا على مدى عقود طويلة من الزمن.

إن أغْرَقة إيزيس كانت قد سبقت ذلك بوقت كبير، إلا أن الأمر الآن تطلب أن يُخلع عليها مظهر بطلمى، وتغنى الناس بالعديد من الأناشيد لها والتى مازالت تعيش حتى يومنا هذا. كما أن دور الإلهة إيزيس كان متشعبًا وكبيرًا، فهى لم تكن فقط الحامية بل كانت المتسببة فى الخصب والنماء وهى نبع العدل والحكمة حامية الواقعين فى الأخطار. كما كانت المتسببة فى نمو الفاكهة، هى التى وهبت الأرض الخصب والنماء والحيوان والخصوبة للبشر والحيوان، هى الحامية للملك البطلمى. ولقد عثرنا على نص للإلهة إيزيس فى منطقة كايماى بآسيا الصغرى، يقول: "أنا إيزيس ربة الأرض، معلمى هو هيرمس، ومعه اكتشفت الكتابة، أنا التى علمت القوانين للبشر، أنا التى فصلت الأرض عن السماء. أنا التى هديت النجوم طريقها فى السماء، كما أننى أمرت الشمس والقمر أن يتحركا فى السماء، أنا التى أجريت البحار، أنا التى زوجت الرجل والمرأة، أنا التى أخرجت الجنين من رحم أمه بعد عشرة شهور، أنا التى جعلت للقسم خشية ومهابة"(١١٦).

وفى بعض الأحيان، اعتُبر سيرابيس على أنه الشق المذكر للإلهة إيزيس بالرغم من أنه لم يُعتبر زوجًا لها، وسيرابيس هو هيئة مركبة من الإلهين: أوزوريس ـ أبيس. وفى منف، عُبد الإله أبيس على أنه ثور قوى، وأحيانًا كان يظهر فى شكل جسم بشرى ورأس ثور. أما فى الإسكندرية ، فقد ظهر هذا الإله فى الشكل اليونانى، وهو عبارة عن شكل من أشكال الإله زيوس: وهو فى شكل رجل ذى لحية كثيفة (انظر شكل ٣٨). هكذا رآه المؤرخ بلوتارخ عندما زار الإسكندرية فى القرن الثانى الميلادى.



(شكل ٢١): سيرابيس.

ويردف بلوتارخ قائلاً إن الإله سيرابيس فى وقته كان له دور الإله اليونانى هادس، وهذا الأخير كان إلهًا للموتى والعالم السفلى عند اليونانيين. تمامًا مثلما قورن أوزير[١١٧] هنا بالإله ديونيسيوس أيضًا من حيث خاصية الإخصاب، وهذا يتفق أيضًا مع دور أوزير كإله للإخصاب ، ثم إن من خصائصه أنه كان إله الشفاء من الأمراض، وهنا يبين (الشكل رقم ٢١) الإله سيرابيس وهو يحمل على رأسه سلة ترمز للخصوبة، وهذا الرأس للإله سيرابيس يرجع إلى العصر الرومانى. ثم إن هذه السلة كانت لها أهمية أخرى؛ حيث إنها استُخدمت على أنها طوق حجرى يوضع فوق رؤوس المرضى للشفاء. وهنا نرى تحت رأس الإله سيرابيس كلمات مكتوبة تقول: "احمنى يا إلهى سيرابيس".

ويُعتبر الإله سيرابيس[١١٨] نموذجًا للمزج بين الديانتين: اليونانية القديمة والمصرية القديمة، وفى خصائص هذا الإله انصهرت وجهة النظر المصرية واليونانية، كما أن اليونانيين أضافوا إليه اختصاصات أخرى ومزايا جديدة. لقد أصبح أوزير بهذا إلهًا عالميًا، وفى تراجم بعض النصوص القديمة يقول أحدها: "إن رأسه لهى السماء، وقدميه لهى الأرض، الأنهار والمحيطات هى أحشاؤه، والشمس هى عيونه التى يبصر بها." واحد من أهم معابد الإله سيرابيس يوجد فى الإسكندرية، حيث يوجد ما يُسمى بالسيرابيوم فى الجنوب الغربى من وسط المدينة فى منطقة راكوتيس (راقودة) [١١٩] على تل مرتفع من الحجر الجيرى، ويبلغ ارتفاعه نحو ٢٢ مترًا. وقد كان هذا السيرابيوم قد شُيد فى عصر الرومان واعتبره المؤرخون من أعظم المعابد فى العالم آنذاك. ولم يكن السيرابيوم هو المكان الوحيد الذى عُبد به الإله سيرابيس، بل كانت هناك عدة معابد صغيرة أخرى فى الإسكندرية لعبادته، أما الآن فسوف أتحدث هنا عن المعبد الكبير فى راقودة والمسمى بالسيرابيوم.

وعن هذا السيرابيوم يخبرنا كل من المؤرخين تاكيتوس الرومانى، وبلوتارخ اليونانى ــ وقد كانا فى القرنين الأول والثانى الميلاديين مهتمين بكل ما يحيط بالإسكندرية، فيقولان إن الملك البطلمى بطلميوس الأول (٣٢٣-٢٨٣ ق.م.) قد أمر بإحضار تمثال كبير من اليونان لكى يوضع فى المعبد بالإسكندرية وربما كان هذا التمثال للإله الذى نحن بصدد الحديث عنه، ويرى

آخرون أن التمثال كان للإله اليونانى زيوس وليس سيرابيس. ويرى تاكيتوس أن هذا التمثال قد أُقيم فى معبد الإله سيرابيس فى راقودة. ثم إن المؤرخ بلوتارخ يرى هذا الجدل من زاوية أخرى، وهو أن ورود اسم سيرابيس فى هذا الزمن البعيد دليل على وجود عبادة سيرابيس منذ بداية عصور البطالمة الأولى. ويرى المؤرخ بلوتارخ أن شخصًا عظيمًا مثل الإسكندر هو الذى أمر ببناء معابد للإله سيرابيس بمدينته الإسكندرية، وذلك منذ البدء فى العمل بها وإنشائها.

وبناء على ما تقدم، فإن معبد السيرابيوم وعقيدة سيرابيس بالإسكندرية تظل بالنسبة لنا حتى الآن غامضة، ولكنه من خلال الحفريات التى قام بها الأثريون فى السيرابيوم عثروا على قطع أثرية تحمل اسم الملك بطلميوس الثالث (٢٤٦ــ٢٢٢ ق. م.) وهذه القطع الأثرية هى الأقدم من نوعها، حيث إن ما عُثر عليه فى المعبد من قطع أثرية أخرى يحمل اسم ملوك لاحقين له وليسوا سابقين، مثل بطلميوس الرابع (٢٢٢ــ٢٠٤ ق. م.) والذى أمر ببناء معبد للإله حربوقراط فى معبد السيرابيوم محل البحث.

وبغض النظر عن الناحية التأريخية فى وقت نشأة عبادة سيرابيس، فإنها تُعتبر بدون نزاع فكرى هى المرة الأولى فى تاريخ البشرية التى يتم فيها المزج بين حضارتين وديانتين وشعبين فى عبادة واحدة، وهى عبادة سيرابيس التى جمعت بين الشعبين المصرى واليونانى وبمقتضاها صارا متحدين فى العقيدة وهى عقيدة سيرابيس. بالرغم من أن الملوك البطالمة قد عزلوا وفرقوا بين الشعبين: اليونانى والمصرى وانحازوا إلى أبناء جلدتهم من اليونانيين الذين اعتبروا على أنهم هم المؤسسون للمدينة، بل إنهم قاموا فى بعض الأحيان بمنع الزيجات المختلطة. كما أن المصريين كانوا محرومين لفترات طويلة من حق المُواطَنة فى مدينة الإسكندرية، مما أدى إلى القلاقل والاضطرابات بين الشعبين، وبهذا الخصوص وصلتنا نبوءة من أحد صانعى الفخار منذ عام ١٣٠ ق.م.، وكان تفسيرها يقول إن مصر سوف تمر بمرحلة تاريخية عصيبة، حيث إن اليونانيين الذين يحكمون البلاد سوف يأتى عليهم حاكم ظالم يسومهم سوء العذاب حتى لسوف يأكل اليونانى بنى جلدته اليونانى الآخر (١٢٠).

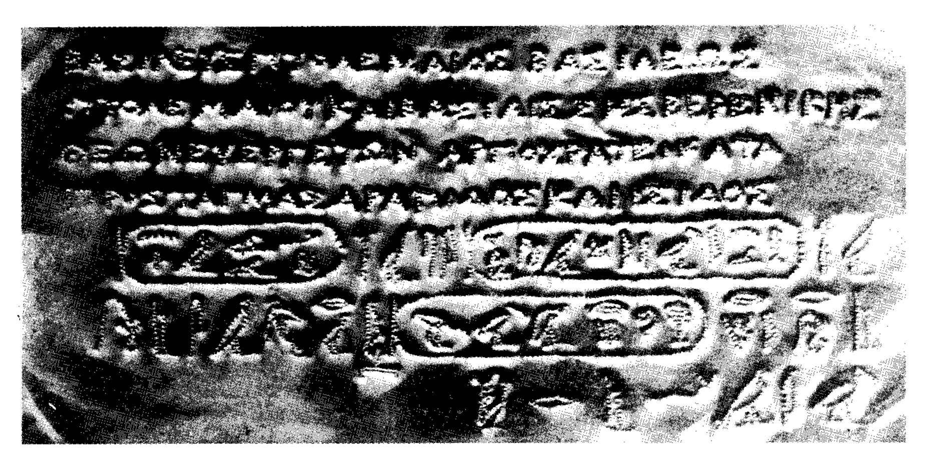
أما فى عام ١٨١٠، فاستطاع الباحثون تحديد البقايا الأثرية للسرابيوم من خلال مقارنة ما جاء فى بعض المصادر العربية وما جاء فى وصف الكُتّاب الكلاسيك له. وقد جرى فحص آخر لهذه المنطقة فى الأربعينيات من القرن العشرين. ثم إنه منذ عام ١٩٨٥، قام الكثير من البعثات[٢١] الأثرية من جميع أنحاء العالم بالتنقيب فى تلك المنطقة، وتأكد لها من خلال ما عثرت عليه فيها ما يلى:

ولقد مكنتنا نتائج الحفائر الأثرية من التعرف على ثلاث مراحل فى بناء السرابيوم، الأولى هى البطلمية المبكرة، والثانية تمثلها إضافات من عصر بطلميوس الثالث أما الثالثة فيمثلها المعبد الرومانى، وأهم دليل على المرحلة الأولى المبكرة هو مديح يحمل نقشًا يذكر: بطلميوس وأرسينوى الأخوين، وهما أبناء بطلميوس الأول وبرنيكى الملوك الآلهة المنقذين؛ ومن ثَم يمكن إرجاعه إلى عصر بطلميوس الثانى وزوجته أرسينوى الثانية (بين عامَىْ ٢٧٨ – ٢٧٠ ق. م.). على أية حال، لا يقدم هذا الأثر أى وجود له صلة بعبادة سرابيس، كما أن مظهر المعبد ككل غير معروف.

ولكننا نعلم المزيد عن الجزء الذى قام بطلميوس الثالث ببنائه فى السرابيوم، حيث إنه بنى مساحة تبلغ ١٦٠مترًا × ٧٥ مترًا بعمق ستة أمتار فى هذه الهضبة الحجرية، وقد انقسمت هذه المساحة المذكورة على مبنيين داخل المعبد. وقد عثر الأثريون على مرسوم التأسيس لهما بجانب لوحات ذهبية باليونانية والهيروغليفية. يقول مرسوم التأسيس: "الملك بطلميوس ابن بطلميوس الثانى وأرسينوى الآلهة الإخوة، أمر الابن ببناء معبد سيرابيس والجزء المقدس الخاص به". أما المرسوم الخاص بالمبنى الثانى فيقول: "الملك بطلميوس الرابع ابن بطلميوس والملكة برنيكى الإخوة الخيّرين الآلهة، أمر الابن بإنشاء هذا المعبد للإله حربوقراط تنفيذًا لأمر الإله سيرابيس والإلهة إيزيس".

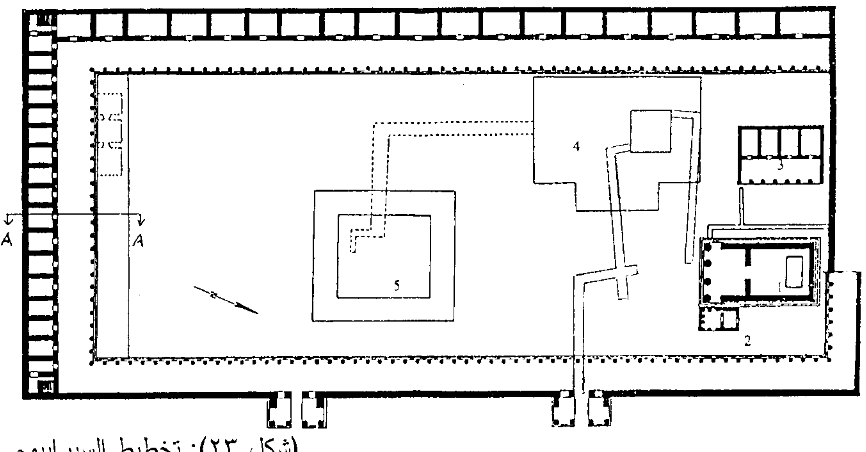
وفى (الشكل رقم ٢٢)، يستطيع المرء قراءة خراطيش الملوك الثلاثة المذكورين. ومن خلال النص الأول يتضح أن المعبد كان مخصصًا لثالوث معين وهو الثالوث المقدس: (١) سيرابيس الإله الأب، و(٢) إيزيس الإلهة الأم، (٣) وحربوقراط الإله الابن (شكل ٢٣). ثم إنه فى الصالة الكبرى من المعبد

كان هناك مبنى مخصص للطبخ والنظافة، ثم نرى مبنيين آخرين (٤ و٥) لم يستطع النص تحديد ما كان لهما من دور فى المعبد.



(شكل ٢٢): لوحة تأسيس السيرابيوم.

ولقد شُيد المعبد على الطراز الهلّينستى، بحيث نرى فيه صالة للأعمدة قد تكررت فى المعبد الواحد، وكانت صالات الأعمدة مخصصة لزوار المعبد عند تقديمهم القرابين لآلهة المعبد، كما كانت هناك غرف لإعاشة الكهنة فيها، كما وجد فى المعبد غرف طعام خُصصت لكبار الزوار، ثم إن المعبد كان مزينًا بتماثيل آلهة مصرية وملوك فراعنة من عصر الأسرة التاسعة عشرة، والتى ترجع إلى القرن الثالث عشر ق.م.




(شكل ٢٣): تخطيط السيرابيوم.

بعد عصر بطلميوس الرابع بدت عقيدة سيرابيس وكانها آخذة فى الاضمحلال والأفول، حيث لم نعثر على أدلة أخرى تفيد بتجديد هذا المعبد أو توسعته. وللحقيقة أقول، إن الشعب المصرى كان متحفظاً لهذا المزج بين الديانتين ولم يكن مقتنعا تمامًا بهذا الإله الجديد المخلَّط. لذلك لم يحظ سيرابيس عندهم بنفس الشعبية التى كانت لإلهتهم المصرية الخالصة، لدرجة أنه فى بعض الأحيان يُخيل للمرء إن سيرابيس كان خارج إطار العبادة وكأنه مُهمَل تمامًا. وفى هذا الإطار يقول سترابون الذى زار الإسكندرية فى النصف الثانى من القرن الأول الميلادى إنه رأى معبد السيرابيوم مهجورًا دون زوار، ربما لأن المبانى الحديثة بالمدينة قد خطفت الأضواء منه[١٢٢].

ثم عاد للسيرابيوم مجده القديم مرة أخرى وغدا يعيش من جديد عصرًا ذهبيًا، وذلك فى العصر الرومانى حيث تجدد الاهتمام به وبعبادة الإله سيرابيس، كما تجدد للإله لقبه القديم (الحارس والحامى).

فى فترة حامى العصر الرومانى تمت توسعة المعبد وتجديد بنيانه باستخدام الأسمنت والطوب المحروق. ثم قام الرومان بوضع الأرضية الأسمنتية فى كل منطقة السيرابيوم الكبرى، بما فيها معبد سرابيس وحربوقراط. من كل هذه التجديدات التى تمت فى القصر الرومانى لم يبق لنا حتى اليوم إلا حوض مياه كبير، وما يُسمى اليوم بعمود دولتيان أو بعمود بومبى. هذا العمود المذكور هو الأثر الوحيد من السيرابيوم الذى عاش على مر السنين دون تغيير أو إزالة ( شكل ٥٦، ٥٩).

ولم تكن إعادة بناء السيرابيوم فى العصر الرومانى عملاً اضطراريًا بقدر ما كان هذا العمل عملاً دعائيًا للرومان وإعادة بناء المعبد حسب الفكر والتصور الرومانى، حيث بدا المعبد متساوى الأضلاع وتشابه مع الأماكن العامة القيصرية، وفى الحجم فقد أصبح أكبر بكثير من المبنى الذى بناه الإمبراطور أغسطس لاجتماعاته مع رجال إمبراطوريته.

ولو تحدثنا بالتفصيل عن شكل هذا المبنى الضخم، فلا بد لنا أن نستعين بالمؤرخ رفينوز منذ القرن الرابع الميلادى: لقد بلغ ارتفاع هذا المبنى ما يزيد على مائة درجة سُلّم. هذا الارتفاع كان متساويًا فى الأضلاع الأربعة كما كان

مسقوفًا بقباب ذات فتحات للضوء والهواء، وحتى السقف هذا كانت الحوائط مغطاة بطبقة من القاشانى. هذا السقف قد ستر أسفله الكثير من غرف العبادة للعقائد المختلفة وأيضًا الكثير من الغرف التى احتوت على الأسرار الكثيرة. وفوق سقف المعبد وجدت بعض الغرف الصغيرة التى خُبئت بها التماثيل واللوحات المقدسة للمعبد. كما وجدت مبانٍ عالية حول أسوار المعبد كان يسكنها حراس المعبد والزائرون الذين أرادوا التطهر من خطاياهم فى المعبد، ولزم ذلك إقامتهم فى المعبد مدة طويلة. كما كانت فى داخل المعبد صالات أعمدة تحيط بها أسواره، كما كانت هذه الأعمدة فى شكل رباعى تمامًا مثل الأسوار الخارجية. وفى المنتصف يرتفع المعبد بأعمدته الفخمة وجدرانه الرائعة التى كانت مغطاة من الخارج بالمرمر، فى هذا المرمر كانت محفورة صورة الإله سيرابيس بحجم كبير لدرجة أن كل يد من يديه كانت تصل إلى النهاية اليسرى على الحائط واليد الأخرى تصل للنهاية اليمنى من الحائط. ومن الداخل كانت تلك الجدران مغطاة بثلاث طبقات من المعدن: أسفل الجدار نرى طبقة من الذهب وأوسط الجدار طبقة من الفضة وأعلى الجدار طبقة من البرونز.

ثم إن هناك فى أعلى المعبد كانت هناك نافذة صغيرة موجهة تمامًا إلى الجهة التى تشرق منها الشمس، بحيث ينفذ منها الشعاع الذى يبعثه الإله رع فيحيّى تمثال الإله سيرابيس(١٢٣). وقد فُتحت هذه النافذة فى أعلى جدران المعبد بصورة هندسية بديعة بحيث تنفذ الشمس منها فى وقت معين مشرقة على فم الإله سيرابيس وشفتيه؛ حتى ليبدو الإله هنا مبتسمًا ابتسامة وضاءة. وبداخل السيرابيوم الذى يبدو كما لو يُحيى إله الشمس بقبلة، كانت توجد هناك مكتبة كما أخبرنا المؤرخ الأنطاكى أفتونيوس(١٢٤).

## علوم العالم بجامعة الإسكندرية ومكتبتها

إن فتوحات الإسكندر أتاحت لليونانيين التعرف على الكثير من العادات والتقاليد الخاصة بالشعوب الأخرى، كما أتاحت لهم معرفة أنواع أخرى من النباتات والمزروعات وأجناس أخرى من البشر، كما أتاحت لهم معرفة علوم

هذه البلدان؛ كل ذلك قام اليونانيون بجمعه وتنظيمه وتنسيقه والاستفادة منه. وبالطبع كل هذه الخبرات والعلوم والمعارف التى جمعها اليونانيون من جميع أنحاء العالم كانت تصب فى مركز العالم اليونانى، وهو مدينة الإسكندرية(١٢٥). منذ بدأ بطلميوس الأول فى إنشاء جامعة الإسكندرية وضع فى حسبانه أن تكون هذه الجامعة أعظم من مثيلتها فى أثينا وذلك مع بداية القرن الثالث قبل الميلاد، وقد تحقق لبطلميوس الأول ما أراد، حيث غدت جامعة الإسكندرية هى الأعظم والأقوى مكانة فى البحث العلمى على مستوى العالمين(١٢٧): الإغريقى والرومانى.

ولم تكن جامعة الإسكندرية هى الأكبر على مستوى العالم فحسب، بل كانت الرائدة فى مجال الاختراعات والأبحاث العلمية. فى البداية اتخذت جامعة الإسكندرية من مدارس أفلاطون وأرسطو بأثينا نموذجًا لها تحتذى به ولكن سرعان ما تفوقت جامعة الإسكندرية على جامعات أثينا، وذلك أن جامعة الإسكندرية أضافت علومًا جديدة إليها مثل الفيزياء والكيمياء والبحث العلمى؛ وكذلك العلوم التكنولوجية.

إنها بحق أول جامعة فى العالم وأقدمها بمعنى كلمة جامعة والذى نفهمه نحن اليوم فى العصر المتطور الحديث. حيث إنه فى الفترة ما بين ٣٠٠ ق.م.، ١٥٠ ق. م. بزغ أسماء ٦٠ عالمًا فى المجالات الفلسفية ومثلهم كذلك فى كل علم من العلوم الأخرى. ثم إنه لا يجب أن نفكر فى العلماء فقط بل لا بد وأن نفكر أيضًا فى المبانى الإدارية والإداريين الذين كانوا يديرون كل هذه المؤسسات والمعامل، كذلك لا يجب أن نغفل المصادر المادية التى كانت تقوم بتمويل كل هذا. لقد أدرك الملوك البطالمة منذ البداية أن النهوض بالعلم هو المصدر الأول والأساسى لتقوية وتدعيم ركائز ملكهم الذاتى، أى أن النهوض بالعلم فى مصر لم يكن من أجل العلم فى حد ذاته، بل من أجل تقوية نفوذهم وسلطانهم والعلم هنا هو وسيلتهم فى ذلك. لهذا كان الملك البطلمى يدعم الجامعة والعلماء ماديًا بصورة أساسية. أما ما نسمع ونقرأ اليوم من دعم السياسيين والقادرين ماديًا لمشاريع البحث العلمى، فقد ظهرت تلك السياسة مع مطلع القرن العشرين فقط.

وفى هذه النقطة بالذات، تمويل العلم والعلماء من الملوك، يروى عالم اللغة سوسيبيوس والذى كان منشغلاً بأشعار هوميروس أنه تحدث بحديث ربما كان هذا الحديث غير لائق بأُذن الملك، عند ذلك قام الملك بقطع راتبـــه. وعنـــدما تحدث سوسيبيوس مع مسئول الخزانة قال له الأخير لا بد له وأن يخاطب الملك فيلادلفوس فى ذلك، أى الملك بطلميوس الثانى. وتحيّن سوســـيبيوس الفرصـــة وخاطب الملك فى ذلك، وبعد وقت واقتناع وافق الملك على أن يحصل عـــالم اللغة على راتبه (١٢٧).

ولا بد أن نعلم أن مثل هذه الأماكن، أى الجامعة والمكتبة كانت بالنـــسبة لليونانيين أماكن مقدسة، وكثيرًا ما كان يحدث أن تنضم أقسام الأدب والفلـــسفة بعضها مع البعض الآخر لكى تصبح قسمًا واحدًا. ورأى اليونانيون أيـــضًا أن الآلهة تقوم بحماية العلم. وفى جامعة الإسكندرية، كون بعض أعضائها جماعة دينية وجعلوا رئاستها لأحد الكهنة يختاره الملك شخصيًا، كما أن هناك شخصًا آخر تابعًا له مسئولاً عن إقامة الشعائر وتنظيمها، ثم هنـــاك موظـــف إدارى مسئول عن هذا الفريق الدينى ومصروفاته. أما العلماء والمتعلمون الذين جاءوا إلى جامعة الإسكندرية للتعلم، فقد بقى الكثير منهم بالإسكندرية ولم يرجع إلـــى بلاده، ورجع البعض منهم إلى بلاده بعد أن أنهى تعليمه. وأريد هنا أن أذكّـــر بأن نابغة ذلك العصر والعبقرى أرشميدس قد زار جامعة الإسكندرية لـــبعض الأغراض البحثية وكان من قبل يعيش ويعمـــل فـــى سيراكوســـا، ويُقـــال إن أرشميدس عالم الميكانيكا الفذّ قد اخترع الطنبور المنسوب إليه لجلـــب المـــاء وذلك أثناء إقامته بالإسكندرية، بل إنه كان مهتمًا اهتمامًا كبيـــرًا بـــأن يرســـل أبحاثه إلى علماء جامعة الإسكندرية كى يفيدهم ويستفيد أيـــضًا مـــن آرائهـــم ونقدهم.

كما أن العلماء قد تمتعوا بمكانة كبيرة عند الملك، الذى منحهم حق السكنى فى مساكن أعطاها لهم مجانًا طوال حياتهم. وللمزايا التى كان يتمتع بها العلماء فى مدينة الإسكندرية كانت هى المقصد الأول للعلماء على مستوى العالم، ولـــم تكن تنافسها فى ذلك جامعة أخرى على مستوى العالم، كما أن قصر الملك كان مجاورًا للجامعة وكلاهما كان فى منطقة بروخيون، أى الحى الملكى. وللأسف؛

فإننا لا نعلم إلا القليل جدًا عن التخطيط الداخلى لمنطقة الحى الملكى بما حوته من مكتبة وأكاديمية بحث علمى، أى الموسيون. وكل ما نعرفه أن العلماء كانوا مقيمين إقامة كاملة فى الموسيون، وكانت لهم فيه غرف إعاشة وغرف للعمل وأماكن جماعية يتناولون فيها طعامهم. كما وجدت أيضًا غرف استُعملت كمعامل، ووجدت أيضًا أجهزة ومعدات فى هذه المعامل. كما أنه من الثابت أن الموسيون احتوى أيضًا على حديقة نباتات وحديقة حيوانات للأغراض البحثية، كما احتوى أيضًا على مرصد لمراقبة النجوم، ثم إن المكتبة كانت جزءًا لا يتجزأ من هذا الموسيون، وقد كانت المكتبة فى تصنيفها وترتيبها هى الأولى والأعظم على مستوى العالم، كما أجمع المؤرخون قاطبة.

وبالطبع، فإن العلماء فى الموسيون كانت واجباتهم تنحصر فى البحث العلمى والتدريس للطلبة، كذلك عمل المناظرات العلمية. ونلحظ هنا أن جامعة الإسكندرية غدت فى وقت قصير هى المدينة الجامعة التى جذبت إليها طالبى العلم من جميع أنحاء العالم. وفى هذا الإطار، وردت إلينا بردية تحوى رسالة أرسلها طالب إلى أبيه يقول فيها: "بعد أن قررتما أن ترسلا أخى لكى يدرس معى هنا فى جامعة الإسكندرية، لا بد لى من أن أبحث عن سكن آخر يكون أكبر فى الحجم حتى يسعنا معًا. ثم إن الأساتذة هنا فى الجامعة لا يعلموننا الكثير ولا بد أن أجتهد أنا حتى أستطيع أن أتعلم بذاتى. كما أن الجامعة رفعت رسوم الدراسة، فلا بد من أن ترسلوا لى المزيد من المال"، ولعله أراد بهذه الطريقة الذكية أن يوحى لوالديه بأن وقت الدراسة سوف يطول وأنها سوف تتكلف المزيد من المال[١٢٨]. وبجانب الدعم المادى للمكتبة، كان تنظيمها وتجهيزها مثار إعجاب علماء ذلك العصر.

وللأسف، فإننا نعلم عن المكتبة أقل مما نعلمه عن الموسيون، ولكن الثابت إن المكتبة قد بُنيت مع الموسيون، وذلك أن العالم اليونانى ديمتريوس كان تلميذًا لأرسطوطاليس وكان عليه أن يغادر أثينا نظرًا لتعصبه الشديد لمقدونيا، ثم دُعى بعدها إلى الإسكندرية فى القرن الثالث ق.م. ومن الثابت أن بطلميوس الثانى الذى كان مهتمًا بالعلم والفنون قد وسع مكتبة الإسكندرية واهتم بها أكثر من والده، ولعل ارتباط الجامعة بالقصر الملكى قد تأتّى من أن مدير المكتبة كان يقوم أيضًا بدور المربى للأمراء فى ذلك العصر.

ويرى الكثير من المؤرخين أن مكتبة الإسكندرية قد حوت نحو نصف مليون لفة بردى، ولفة البردى هنا كانت تحتوى على أكثر من عمل للمؤلف. وعن حجم المكتبة، ورد إلينا مخطوط المؤرخ اليونانى وعالم اللغة تسيتيس والذى يرجع إلى القرن الثانى عشر، يقول[١٢٩]: "كانت هناك مكتبة ملحقة بالمكتبة الرئيسية وقد حوت هذه المكتبة ٤٢٨٠٠ كتاب(لفافة بردى)، أما مكتبة القصر، فقد احتوت على ٤٠٠ ألف كتاب ، كل كتاب يحتوى على أكثر من عمل للمؤلف. من خلال هذه الكتب أُحصى ٩٠ ألف كتاب كانت تحتوى على عمل واحد، وهذا يجعلنا نخمن أنه كانت هناك نسخ عديدة لأعمال معينة لبعض



(شكل ٢٤): صالة فى مكتبة الإسكندرية.

المؤلفين". وفى القرن التاسع عشر، قام الفنان ش. جول بعمل رسم تصورى لإحدى صالات المكتبة ( شكل ٢٤).

تلك المكتبة لم تكن بأية حال من الأحوال أقل شهرة من رمز مدينة الإسكندرية وهو الفنار، بل إن البطالمة قد أرادوا من بناء المكتبة تحقيق أهداف أكبر وأبعد من الأهداف العلمية. ثم إن المؤلف المسيحى أويسبيوس من القرن الرابع الميلادى يقول إن بطلميوس الأول عند بنائه للمكتبة قام بكتابة الحروف الأبجدية من كل لغات العالم آنذاك على جدران المكتبة. ولم تكن مكتبة الإسكندرية تحتوى على كتب مكتوبة باللغة اليونانية فقط بل احتوت على كتب مكتوبة بجميع اللغات، ثم إنهم قاموا بعمل تراجم لهذه الكتب إلى لغتهم[١٣٠] اليونانية.

ومن أشهر تراجم هذه الفترة هى ترجمة الكتاب اليهود المقدس (التوراة) والذى قام العلماء اليهود بترجمته إلى اليونانية، وكانوا قد دعوا من القدس لهذا الهدف وعاشوا فى الإسكندرية، حتى إن مكتبة الإسكندرية احتوت على ترجمة للكتاب المقدس الفارسى الذى كتبه تساراتوسترا الفارسى، بالرغم من أن هذه الديانة لم يهتم بها أحد. وكانت هذه الترجمةِ عملاً عظيمًا، حيث إن الكتاب المقدس اشتمل على مليونَيْ مقطوعة، وقد كان هذا الكتاب أكبر من الإلياذة والأوديسة مجتمعيْن مائة مرة.

لم يدخر الملوك البطالمة جهدًا ولا مالاً فى بناء مكتبة الإسكندرية وكذلك جلْب العلماء إليها، حيث إن ثراء مصر كان كافيًا لتمويل كل هذا البذخ ويزيد. ثم إن رجال الملك وممثليه قاموا بعد ذلك بشراء الكتب للمكتبة من كل من أسواق الكتب بأثينا ورودس وأفيسوس. ويروى القس إيفانوس من القرن الرابع الميلادى أن بطلميوس الأول بعد إنشائه المكتبة أرسل خطابات إلى جميع ملوك العالم يرجوهم أن يحصل منهم على نسخ من أهم الكتب الموجودة فى مكتباتهم فى جميع العلوم. كما يروى الطبيب والأديب جالين[١٣١] من القرن الثانى الميلادى أن بطلميوس الثالث (٢٤٦ــ٢٢٢ ق.م.) أعطى أوامره لجنوده أن يوقفوا جميع السفن المارة فى البحر ويبحثوا فيها عن الكتب، فإذا وجدوا كتابًا فى سفينة أخذوه من هذه السفينة، ثم نسخوه وأعادوا الصورة المنسوخة من

الكتاب إلى السفينة واحتفظوا هم بالأصل[١٣٢]، ثم إنـــه وجـــدت هنـــاك ورش لتصنيع الكتاب من لفائف البردى حيث كان الصانع يحدد حجم صفحة الكتاب، ثم يحدد عدد الصفحات ثم يقوم بتدبيس هذه الأوراق بأكثر من دبـــوس. كمـــا نشأت ورش أخرى بها صانعون آخرون كان كل دورهـــم زخرفـــة الغـــلاف الخارجى للكتاب وتذهيبه. إن مكتبة الإسكندرية لم تستطع النجاة من الأحـــداث التاريخية المتلاحقة على المدينة، ومن ذلك حريق الإسكندرية الذى أشعله قيصر ليدمر الأسطول المصرى، وإلى جانب ذلك كانت هناك عوامل أخرى أدت إلى تدهور مكتبة الإسكندرية وخرابها، منها الحروب الأهلية المتكررة فـــى مدينـــة الإسكندرية، كذلك الاحتلال المتكرر للمدينة من الخارج ، مثل احتلال الملكـــة السورية زنوبيا لها، كذلك احتلال الملك الرومانى دقلـــديانوس وأخيـــرًا الفـــتح العربى فى عام ٦٤١ [١٣٣].

**فى إطار العلم والفن قِيس محيط الأرض،**
**ونُشرت أعمال هوميروس وفُحص الجسم البشرى**

مع بداية القرن الثالث ق.م.، جاء إلى الإسكندرية ديمتيريوس من بلدة فليرون بدعوة من الملك بطلميوس الأول. وكان من تلاميذه ثيوفراست، وقد أصبح له ــ كرجل سياسة ومفكرــ مكانة كبيرة فى مصر، حيث جعل له الملك مقعدًا عظيمًا بالسيرابيوم فى ممفيس، ولا غرو فى ذلك، فقد كان آخر من بقى فى قيد الحياة من بين الشعراء والمفكرين العظام من بلاد اليونان، أمثال: أفلاطون، هيراكليت، طاليس، بروتاجوراس، هوميروس، هيسيود، وبندار.

كما أن بطلميوس قد حاول إغراء العالم ثيوفراست من إريسوس خليفة أرسطوطاليس بالمجىء إلى الإسكندرية وتَرْك اليونان لما له من مكانة علمية رفيعة، ولكنه رفض ترك أثينا وبالرغم من ذلك كان يجىء إلى الإسكندرية ويقيم بها فترات طويلة. أما العالم اليونانى والفيلسوف ستراتون من بلدة لمبساكوس، فقد كان هو الذى يقوم على تربية وتعليم أبناء بطلميوس الأول الأمراء فى الإسكندرية حتى وفاة ثيوفراست فى اليونان، فكان عليه أن يغادر الإسكندرية لكى يخلف هذا الأخير بأثينا.

أما أعظم المفكرين والفلاسفة، والذى أثرى الحياة الثقافية بالإسكندرية، فكان الفيلسوف اللامع ثيودور من قورينائية. هذا الرجل كان أول من رفض فكرة وجود الآلهة ، ولهذا السبب طرده اليونانيون من اليونان وتلقفته جامعة الإسكندرية واستقبله بطلميوس الأول وأكرمه وأنزله منزلة جليلة. كما أن معجبيه بالإسكندرية أطلقوا عليه لقب الإله لشدة إعجابهم به.

ونادرًا ما نسمع عن عالم قد عومل معاملة سيئة بالإسكندرية أو اضطُهد بها. ومن الأمثلة القليلة ما حدث مع العالم والفيلسوف هيجسياس من منطقة قورينة ، ذلك أنه كان دائمًا يدرس للناس ويعلمهم أن الانتحار هو أفضل طريقة يمكن للإنسان أن يتخلص بها من مشاكله. وعندما علم بطلميوس الأول بهذا عاقبه بأن منعه من إلقاء محاضراته بعد أن اعتزم معاقبته بأن ينتحر مثلما كان يعلم الناس.

وقد كتب المؤرخ كلايتارش من القرن التاسع عشر، مؤلَّفًا شهيرًا عن تاريخ الإسكندر وامتدح فيه هذا المسعى والمسلك من البطالمة الأوائل؛ حيث إنهم اهتموا كثيرًا بالنواحى العلمية والبحثية وسار على نهجهم أبناؤهم. كما أن هناك كثيرًا من مقولات علماء البطالمة والرومان امتدحت أيضًا الملوك البطالمة لما بذلوه فى سبيل العلم والعلماء.

كما أن الملك بطلميوس الأول[١٣٤] عمل على جلب أشهر الشعراء إلى الإسكندرية، مثل فيلاتس من بلدة كوس وتلميذه النجيب سينودوتس من بلدة أفيسوس. هذان الشاعران قاما بتقسيم الإلياذة والأوديسا إلى ٢٤ كتابًا، كما أنه جعلهما مربييْن للأمراء فى بيته. وعندما كان أحد العلماء أو الفلاسفة اليونان يرفض المجىء إلى الإسكندرية، كان يحتفظ الملك البطلمى معه بعلاقة مراسلة طيبة حتى يحصل منه على مؤلّفاته التى كتبها ويثرى بها مكتبة الإسكندرية. وقد حدث هذا الشىء نفسه مع الشاعر الكوميدى ميناندر.

وإذا ما نظرنا إلى النشاط العلمى فى مجال علوم الأحياء والفيزياء نتذكر الدور الذى قام به الإسكندر الأكبر، حيث إن غزواته الكثيرة واحتلاله الكثير من البلدان وحصوله منها على ما بها من كنوز وخيرات قد قدم للعلماء الكثير من المادة العلمية التى يستطيعون بها البحث وإجراء تجاربهم العلمية. ومن

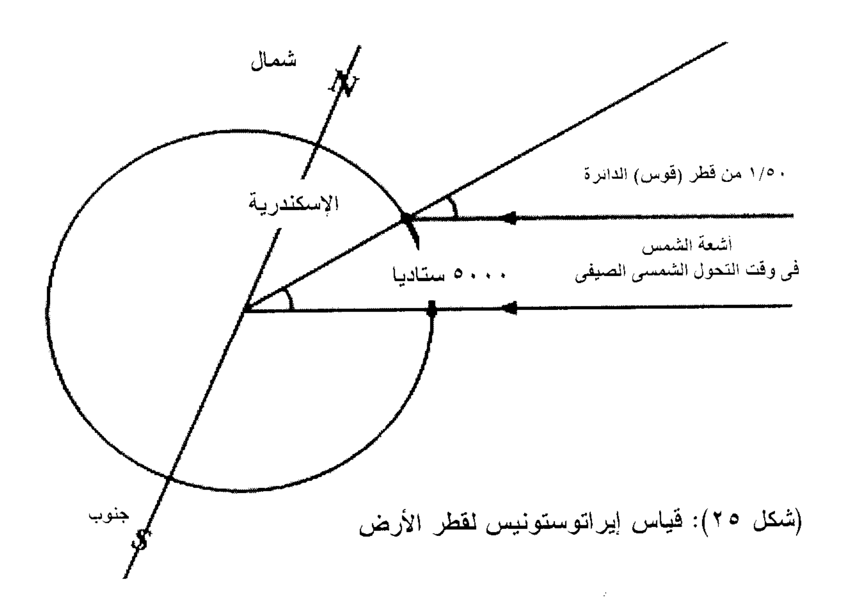
العلوم الأخرى التى شهدت نهضة عظيمة فى عصر البطالمة كانت علوم الميكانيكا والفيزياء والتكنولوجيا، كذلك علوم الجغرافيا والفلك وعلوم النباتات؛ هذه النهضة العلمية فى الإسكندرية غيرت صورة العالم ونهضت به نهضة كبيرة، حيث نرى أن العالم أرستارش من بلدة ساموس كان صاحب النظرية الأصل لنظرية كوبرنيكوس. كان هناك أفضل المؤسسات العلمية ومن بينها حديقة نباتات شملت جميع نباتات الأرض وحديقة حيوانات، وكانت كلها مراكز بحث تجذب الباحثين والعلماء. وقد لمعت أسماء كثيرة فى الإسكندرية فى مجالات الميكانيكا والفلك والفيزياء والطب والجغرافيا واللغات. وأود هنا أن أبدأ باسم إيراتوستونيس.

لقد اتسع أفق المعرفة بالجغرافيا لدى الإغريق مع الحملات الحربية المتعددة لجيش الإسكندر، وزُودوا بالعلماء المتخصصين الذين قاموا بقياس المسافات وعمل خرائط للبلاد وأوضحوا على هذه الخرائط كل ما فى البلاد. ولم يقوموا بذلك فى الإسكندرية وحدها، بل عملوا خرائط لكل البلاد التى وطئوها ورفعوا عليها الحدود الجديدة. هذه الخرائط جعلت العلماء يرون العالم واضحًا أمامهم. ونظرًا لتقدم هذه الخرائط وتطورها، فقد ساعدهم ذلك على التفوق فى علمَى الفلك والميكانيكا.

ثم إن بلاتوس وأرسطوطاليس كانا هما اللذين أثبتا أن الأرض كروية. وفى الإسكندرية بدأ العلماء بمحاولة قياس قطر الأرض، وكان من بينهم العالم ديكايركوس الذى قام بمحاولات عديدة لاكتشاف مركز الأرض. وذلك عندما راح يقيس الأرض من الشمال إلى الجنوب. وخلص بنتيجة مؤداها أن محيط الأرض يبلغ نحو ٥٠ ألف كيلومتر، ثم جاءت أبحاث لاحقة له وأثبتت أن مقاس ديكايركوس كان أكبر من الحجم الطبيعى بنحو عشرة آلاف كيلومتر. أما أبحاث إيراتوستونيس، فقد كانت أكثر دقة.

هذا العالم إيراتوستونيس كان من منطقة قورينائية (٢٨٠ ــ ١٩٦ ق.م.)، وقد درس فى أثينا وأحضره بعد ذلك بطلميوس الثالث إلى الإسكندرية، وذلك لكى يكون مربى ابن الملك البطلمى ومعلمه. ومنذ عام ٢٣٤ ق.م. وحتى وفاة هذا العالم كان هو مدير مكتبة الإسكندرية، ويُحسب لهذا العالم محاولاته العلمية

وأبحاثه الجادة فى قياس محيط الأرض، حيث إنه لم تكن قبله أو بعده محاولات علمية سليمة فى هذا المجال بل كانت تكهنات وتوقعات. ولهذا أطلق عليه العلماء والمؤرخون لقب "قيّاس العالم". هذا اللقب اشتهر به على مستوى التاريخ. ونظرًا لأبحاثه فى قياس محيط الأرض، استطاع العلماء بعد ذلك عمل خرائط للأرض أكثر دقة وإتقانًا من ذى قبل. ومن اكتشافاته أيضًا أن أشعة الشمس تسقط عمودية على الأرض وأن الإشعاع يكون مصدره من الشمس إلى الأرض فى صورة رأسية، بحيث لا يتقاطع شعاع مع الآخر، كما عرف إيراتوستنيس أن منطقة فى أسوان تحتوى على بئر ماء كانت الشمس تتعامد عليها كل يوم فى فترة الظهيرة، وكانت بيضوية بالكامل. كما أنه افترض أن الإسكندرية وأسوان تقعان على خط طول واحد.




(شكل ٢٥): قياس إيراتوستنيس لقطر الأرض

وثبت فى الواقع وجود فارق بسيط يبلغ نحو درجتين ليس أكثر. وتم قياس المسافة بين الإسكندرية وأسوان واكتشفوا أنها تبلغ نحو ٥٠٠٠ ستاديا، ثم إن إيراتوستنيس قام بعمل مزاول شمسية معدنية فى شكل كُرِّى من المعدن ووضع بها مؤشرًا معدنيًا كبيرًا حتى يستطيع العلماء قراءة زاوية ميل الشمس. هذه المزاول المعدنية دائرية الشكل قام بتثبيتها فى الإسكندرية وأسوان وقام

بقياس زوايا ميل شعاع الشمس فى كل من المدينتين فى فترة الظهيرة بالصيف، وقد اكتشف من هذه القياسات أن زاوية الميل إلى الناحية اليمنى واحدة فى كلتا المدينتين، وهى ٧,٢ درجة (شكل ٢٥).

من كل هذه النظريات السابقة فإنه يرى إن أسوان هى مركز الأرض، حيث إن زاوية الميل فى أسوان يبلغ مقدارها ١/٥٠ من مساحة الكرة الأرضية، ثم إن المسافة بين المدينتين تبلغ ٥٠٠٠ ستاديا، لذلك خلص إلى أن قطر الأرض عبارة عن ٥٠×٥٠٠٠ =٢٥٠٠٠٠ ستاديا. وتعليقنا على هذه الأرقام والنظريات هو أن القياس الذى عُمل بعد إيراتوستونيس كان فى نهاية القرن السابع عشر. وقد جاء متفقا تمامًا مع القياسات التى قام بها العالم اليونانى إيراتوستونيس، حيث إن كلاً منهما قد خلُص إلى نتيجة واحدة، وهى أن قطر الأرض يبلغ طوله ما بين ٣٩٦٠٠ كيلومتر و٤٢٠٠٠ كيلومتر. ولم تقتصر أبحاث إيراتوستونيس على علم الفلك فحسب، بل كان عالمًا فى علوم اللغة والنحو وتاريخ الأدب والحساب وحسابات التقويم كما كان الرجل المناسب لتولِّى منصب مدير مكتبة الإسكندرية، فقد كان الرجل بحق موسوعة فى كل العلوم. ولكن حدث مع إيراتوستونيس مثلما يحدث معنا جميعًا فى عصورنا الحالية، وهو أن زملاءه من العلماء الآخرين قد كنوا له الأحقاد وأطلقوا عليه الأمثلة والأقوال، مثل "المركز الثانى" (الثانوى) و"الرجل ذو المائة بال"، بمعنى آخر فى لغتنا الدراجة "أبو بالين كذاب".

ومن القياسات[١٣٥] التى قام بها إيراتوستونيس أيضًا قياساته للمسافة بين الهند وأوروبا، وخلص إلى أنها عن طريق البحر تبلغ نحو ١٧٥ألف ستاديا، قياسًا من إسبانيا حتى الهند[١٣٦]. ولكن الفيلسوف الرومانى سينيكا شكّك فى ذلك فى القرن الأول الميلادى، وقال إذا كان هناك طقس جيد فإن السفينة لن تبقى سوى أيام قلائل فوق سطح المياه وسوف تصل إلى الهند. فى مطلع القرن الخامس عشر، قرأ الرحالة كولمبوس ما كتبه سينيكا عن رحلة الهند هذه وركب سفينته واتجه إلى الهند، بالرغم من المسافة التى كان قد أخبر بها إيراتوستونيس والتى بلغت حسب تقديره بالكيلومترات ٢٨ ألف كيلومتر.

أما إيراتوستونيس، فقد استفاد فى حساباته وتقديراته من التقدم المذهل فى علم الميكانيكا آنذاك(١٣٧)، حيث إن هناك عالمًا جهبذًا آخر ساعد إيراتوستونيس فى التوصل إلى ما توصل إليه من قياساته لمحيط الأرض. هذا العـالم اسـمه إيوكليد. هذا الرجل هو المؤسس الأول لعلم الميكانيكا، وهو الذى وضع القواعد الأولى لعلم الميكانيكا والتى ظلت تُدرس وتُعلم فى جميع أنحاء العالم حتى وقتنا هذا. ومن عصر هذا العالم وردت إلينا حكاية طريفة وهى أن الملك بطلميوس الأول سأله سؤالاً مؤداه (ألا يوجد طريق سهل لفهم علم الميكانيكا غير كتـاب العناصر هذا الذى كتبته؟)، فأجاب إيوكليد: "للأسف، لا توجد حتى الآن طريقة خاصة بالملوك لفهم علم الميكانيكا"(١٣٨). وجذبت سمعته الجامعة أيضًا العـالم أبولونيوس(٢٩٥ـ١٩٠ ق.م.) من منطقة برمى باليونان إلى الإسكندرية، وكان ذلك فى عصر الملك بطلميوس الثالث (٢٤٦ـ ٢٢١ ق.م.) والذى منحه درجة ومكانة ممتازة بجامعة الإسكندرية.

أما المجال الذى نبغ فيه أبولونيوس، فهو أبحاثه فى الأشكال المخروطيـة وعمل خطوط بها وقياس الزوايا التى تنتج منها. وقد وضـع كتابًـا أسـماه (القوانين) وضع فيه كل ما يتعلق بالأشكال المخروطية من قواعد، وقسم هـذه الأشكال إلى ثلاثـة كالتـالى: ١ـ الشكل البيضوى، ٢ـ الشكل المتـساوى، ٣ـ الشكل الزائد. وقد اختلف العلماء فيما بعد عمن له أهمية أكثر فى تـاريخ العلم، هل هو أرشميدس أم أبولونيوس؟ على أى الأحوال لُقّب أبولونيوس على أنه أكبر مؤسس لعلم الهندسة فى التاريخ.

فى تلك الأثناء، انطلق العلم بصورة منظمة ودقيقة فى الهدف والوسـيلة، راغبًا فى فحص مظاهر الطبيعة التى نحيا فيها والمجتمع بهدف فهـم أسـرار الكون ذاته جذريًا، وذلك بعيدًا عن ربطها بتأثير الآلهة ودورها.

وكان من بين أدوات البحث العلمى الجديد الاعتماد على المنهج التعليمى والمحاضرات المعتمدة على البرهان، مثل ذلك يتمثل فى اسـتخلاص النتـائج والنظريات من هذه المراقبة ثم وضع قوانين وقواعد لهذه الظـواهر المرئيـة. وراحوا يفحصون الجسم البشرى، وكذلك حركات النجوم والموسيقى واللغات، كذلك راحوا يبحثون ويفحصون الإبداع الهندسـى فـى كـل شـىء طبيعـى

يشاهدونه. ومن كل هذه الملاحظات والتحليلات نشأت فى هذا العصر الهلّينستى العلوم المختلفة وتفريعاتها التى نعرفها اليوم. هذه الأبحاث العلمية والاختراعات كانت تكلف الكثير من الأموال، وكان الممولون الرئيسيون لهذه الأموال هم البطالمة من مصر واليونانيون من برجامون باليونان آنذاك؛ وكذلك ملوك البلاد الأخرى أيضًا. هذه التمويلات المادية أتاحت الفرصة للعلماء أن يبحثوا ويبتكروا دون أن يكون همهم الشاغل لقمة العيش. وأهم مثال على ذلك كان الموسيون فى مدينة الإسكندرية. أما الذين لم يحظوا بهذه المظلة والدعم المادى، فإنهم انتقدوا وسبوا الآخرين الذين حظوا بذلك. مثل الفيلسوف اليونانى تيمون[١٣٩] من فيلوس والذى يرجع إلى القرن الثالث ق.م.، والذى انتقد هذا النظام قائلاً: "إن الكثير من أنصاف الكتاب يتم إطعامهم على نفقة مصر الثرية وذاك تحت مسمى دعم العلم؛ إن ذلك لبغيض".

وكما ذكرت فى فصل سابق، فإن التقدم العلمى انعكس على النمو الزراعى والصناعى. وهذا ما كان يبغيه الملك، أى البحث العلمى الهادف الذى ينهض بالبلاد فى كل المجالات. وهنا سوف أورد مثالين لذلك.

المثال الأول هو تربية النحل عند اليونانيين، فقد كانت ذات أهمية كبرى ولعبت دورًا كبيرًا عندهم فيما يُسمى بالاقتصاد الزراعى، حيث إن عسل النحل فى هذا الوقت كان بالنسبة لهم مثل السكر فى وقتنا الحالى، كما أن شمع العسل كانت له استخدامات كثيرة ومتعددة. لهذا كانت المناحل عند اليونانيين كثيرة جدًا وكانت موجودة عند الأغنياء والفقراء على حد سواء. ونشأت هنا أبحاث خاصة لدراسة عادات وسلوك النحل. وهنا يبرز أمامنا اسم العالم اليونانى أريستوماكوس من سولوى، الذى كرس ٥٨ عامًا من حياته فى تربية النحل وعمل دراسات عنه، وكذلك قام بعمل العشرات من الأبحاث عنه، هذا الرجل عاش فى القرن الثالث ق.م .

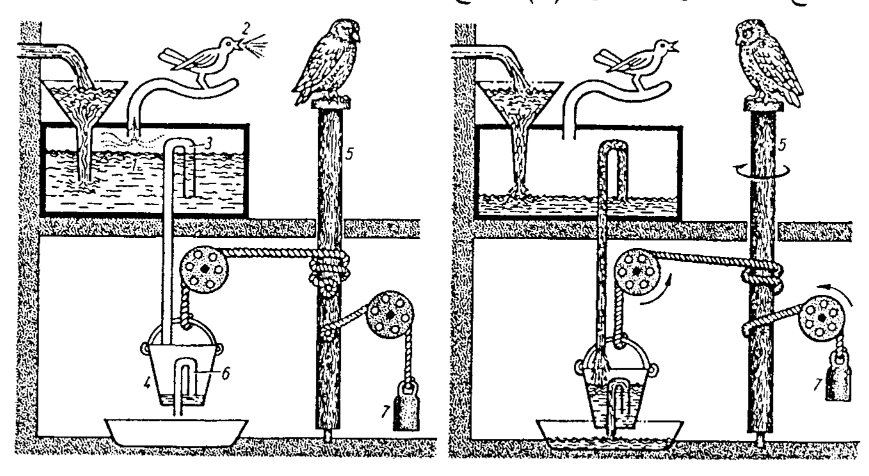
أما المثال الثانى، فهو فى مجال صناعة النسيج ومشاكل الألوان والتلوين المرتبطة بها، حيث وجهوا إليها اهتمامًا أكبر عن ذى قبل. وعندما نتحدث عن الألوان يبرز أمامنا هنا اسم عالم آخر يُدعى بولس ديموكرتيس من بلدة مندوس، وهو رجل مزدوج الجنسية أى أنه يونانى مصرى. وقد كان هذا

الرجل موسوعة متنقلة، حيث إنه كان فيلسوفًا كما كان أديبًا، ثم إنه كتب كتبًا عديدة تتحدث عن التلوين، هذا الرجل عاش فى القرن الثانى ق.م. ومؤلفات هذا الرجل تُعتبر فى غاية الأهمية فى هذا المجال، لأن الكيميائيين فى القرنين الثالث والثانى ق.م.، دائمًا ما اتخذوها مرجعًا لهم وساهمت فى تطوير علم الألوان. أيضًا يُنسب الفضل فى التجارب الخاصة بالتلوين وتطوير هذا المجال بصفة رئيسية إلى بولس، والذى كان أساس فلسفته هو محاولة إثبات وإظهار سيمفونية كونية ووجود التناغم فى الكون، ويظهر ذلك فى مقولته الشهيرة: "إن هناك ظاهرة طبيعية تسعد وتعطى الحياة لظاهرة طبيعية أخرى، وظاهرة طبيعية تقهر وتقضى على أخرى، ثم إن هناك ظاهرة طبيعية تتجاوز وتتخطى ظاهرة أخرى" (١٤٠).

واستمرت ثورة العلم والعلماء متجددة وكلما ظهر أمامنا عالم قوى يجذب انتباهنا بزغ مَنْ هو أقوى منه، حتى إن المهندس الرومانى فيتروف ليخبرنا عن عالم بارع فى الميكانيكا التطبيقية يُسمى كتسيبيوس، ويقول عنه إنه اخترع كثيرًا من الأشياء المفيدة ولكنه اخترع أيضًا الكثير من الأشياء التى كانت فقط للترفيه أو الزينة (١٤١)، من أمثلة ذلك أنه اخترع هدية للملكة أرسينوى الثانية (٢٧٨ــ٢٧٠ ق.م.) عبارة عن وعاء ذهبى للشراب يقوم بعزف الموسيقى بمجرد أن تشرب منه الملكة. كما اخترع جهازًا لغسل الأيدى يقوم فى البداية بإعطاء الضيف قطعة صغيرة من الصابون، بعد ذلك يصب له المياه على يديه. وفى الوقت نفسه اتجهت أبحاثه اتجاهًا آخر خدمة لملكه وكان ذلك فى مجال الحرب، حيث اخترع ما يحقق إصابة الهدف من أبعد مسافة وبأعلى درجة من الدقة.

كما كان هناك عالم سكندرى آخر قام بعمل اختراع كان يُستخدم فى الاحتفالات الكبيرة للتسلية والترفيه بعد الطعام، وذلك العالم يُدعى هيرون (شكل ٢٦)، حيث إنه وضع شكل طائر على صنبور المياه وبجواره شكل بومة، هذه البومة عندما تتجه بوجهها نحو الطائر يكف عن الغناء وعندما، تنظر فى الاتجاه المعاكس يبدأ الطائر فى الغناء.

ويتكون الجهاز من الأجزاء التالية: (١) حوض كبير لتخزين المياه، وتأتيه المياه من قناة مياه جارية. من هذا الحوض يخرج ما يشبه أنبوبًا على شكل فرع شجرة وفوق هذا الفرع مثبت الطائر المغنى. عندما ينساب الماء فى الحوض، فإنه يدفع الهواء الموجود بالحوض إلى أعلى داخل فرع الشجرة المثبت عليه الطائر فيبدأ الطائر (٢) فى الغناء. وعندما يفرغ الماء (٣) من الماسورة المنثنية يتوقف الطائر عن الغناء. ولكى تتحرك البومة مؤدية دورها، فإن الحوض مثبت بأسفله وعاء (٤)، أسفل الوعاء توجد قاعدة مستوية الأسطح، مثبت فوقها عمود (٥) مفرغ من الداخل، هذا العمود سهل الدوران،




(شكل ٢٦): جهاز للتسلية.

فوق هذا العمود تستقر البومة. حول هذا العمود يوجد خيطان مثبتان: الخيط الأعلى مثبت أحد أطرافه بالوعاء رقم (٤) عن طريق بكرة. أما الخيط الآخر، فمثبت فى طرفه الآخر ثقل (٧)، هذا الثقل لا بد وأن يكون وزنه أثقل من وزن الوعاء الفارغ من المياه.

عندما يمتلئ الحوض رقم١ بالمياه يتم ضغط الهواء فى الأنبوب التى عليها الطائر رقم ٢، عند ذلك تعمل الماسورة المنثنية رقم ٣، فتنساب المياه فى الوعاء رقم ٣، حيث يغوص بدوره إلى أسفل بتأثير ثقل المياه، عند ذلك يرتفع الثقل رقم ٧ إلى أعلى ومعه تُدار البومة نحو الطائر. وعندها تتوقف المياه عن الانسياب من الماسورة المنثنية، حيث يفرغ الوعاء من المياه عن طريق

ماسورة منثنية أخرى وهى فى الأسفل رقم (٦). ثم إن الثقل رقم (٧) ينخفض مرة أخرى إلى أسفل وتدور معه البومة مرة أخرى فى الاتجاه المعاكس للطائر ويبدأ الطائر فى الغناء، وهكذا.

ومن العلماء الذين كان لهم باع مشهود فى الطب هيروفيلوس[١٤٢]؛ هــذا العالم الطبيب كان أول من قام بتشريح الجثث فى منتصف القرن الثالث ق.م.، كما قام بتشريح الأجسام الحية، حيث إن الملك أعطاه الحق فى أن يقوم بتشريح أجساد المسجونين أو الذين صدر ضدهم أحكام بالإعدام. ولقد خطا بعلم الطــب وبصفة خاصة تشريح الجسم البشرى خطوات كبيرة، حيث عرف العــالم لأول مرة فى عصره نظام عمل الجهاز الهضمى من كبد وكُلَى وأمعاء، كما أن العلم مدين له باكتشافه الاثنى عشر. كما كان أول من اكتشف دور الخُصْيَتين، وأول من اكتشف البروستاتا، وأول من اكتشف الحويصلة المنوية وأول من اكتــشف المبايض لدى المرأة. كما اهتم هذا العالم اهتمامًا خاصًا بــالرأس حيــث قــام بتشريح محتوياته من عين ومخ، واكتشف أن المخ يتكون من جزءين: أمــامى وهو الأكبر وخلفى وهو الأصغر، كما أكد واكتشف ما لم يكتشفه أرسطوطاليس من قبل، من أن مركز الجهاز العصبى يقع فى المخ.ويرى العالم ب.م فريزر: "أن هيروفيلوس قد أوجد وابتكر أساسيات علم التشريح، والتى لــولا ضــياعها لكانت أعظم هدية من الإسكندرية للعالم فيما بعد" [١٤٣].

وإذا نظرنا هنا إلى بقية المدارس التى كانت فى الإسكندرية، بغض النظر عن الموسيون، فإن هذه المدارس بعد إتقان القراءة والكتابة جميعًا قــد أخــذت شهرتها من شهرة جامعة الإسكندرية. كما أن جميع هذه المدارس كانت تدرس الأدب والفلسفة كمواد أساسية لا بد من تعلمها، حتى وإن كان المرء يرغب فى دراسة شىء آخر.

إن التلميذ اليونانى بمجرد أن يتعلم الحروف الهجائية اليونانية كان لا بد أن يتعلم البلاغة وأن يختار الكلمة المنمقة الجميلة، ثم إن اليونانيين حرصوا علــى تدريس الفضائل والقيم الأخلاقية للتلاميذ فى صورة شعر بليغ ومنمق به أوزان موسيقية، حتى إنه بذلك كان يرمى إلى تعليم التلاميذ الأخلاق وفى الوقت نفسه

تهذيب عقولهم عن طريق هذه اللغة الأدبية الرفيعة، ويرى بلاتو (أفلاطون) أن هذا النظام كان متبعًا فى جميع المدارس.

وعلى إحدى الشقافات من مصر من منتصف القرن الثالث عشر ق.م. — وقد كانت الشقافات (الأُستراكا) عبارة عن كِسَر حجرية وفخّارية استخدمها المصريون للكتابة وذلك لرخص أثمانها — وجدنا مسجلاً عليها اثنتا عشرة حكمة ننتقى البعض منها كالتالى "النار تختبر معدنَى الفضة والذهب،كذلك فإن الذهب والفضة يختبران معادن البشر" (١٤٤). مثل هذه الجمل الأخلاقية الرفيعة كان على التلاميذ اليونانيون حفظها فى المدارس عن ظهر قلب. كما وجب على التلاميذ أيضًا تعلُّم حكم فلاسفة دلفى، ليس فى دلفى فقط لكن فى إحدى المدن التى سُميت على اسم الإسكندر وهى مدينة الإسكندرية عند أوكسوس، ومازال باقيًا منها حتى يومنا هذا جملة حكيمة تقول:" فى طفولتك تعلم أن تكون منظمًا، وفى شبابك تعلم أن تكون أنت المسيطر على نفسك، وفى منتصف عمرك تعلم أن تكون عادلاً، وفى شيخوختك تعلم أن تكون ناصحًا حكيمًا وفى موتك لا تترك خلفك همومًا"(١٤٥).

كانت هذه الحِكَم والنصائح الأخلاقية من أهم الواجبات المنزلية التى كان على التلاميذ عملها وحفظها فى المنزل. وقد وصلنا من الإسكندرية موضوع تعبير ترجمته كالتالى: "إنه يجب على الإنسان ذى المنصب الرفيع أن يكون رحيمًا بالبشر حتى وإن كان هؤلاء البشر غير ذوى أهمية. كما يجب عليه أن يكون عطوفًا على أهله ومعارفه وأن يضع كل هذا نُصْب عينيه، وإذا كان هذا الإنسان يتمتع بحسن السمعة ورفعة المكانة فيجب عليه أن لا يتبرأ من أصله وأهله الفقراء، وألا يتبرأ من حياته السابقة بما كان فيها من فقر، وذلك أن الناس سوف تعلم أصوله ومنشأه. ذلك لأن بعض الناس يتحرون عن هؤلاء ذوى المكانة الرفيعة وعندما يعلمون أنهم كذبوا سوف تكون عاقبتهم سيئة. وإنه إذا أكرم أهله وأقاربه الفقراء اعتبره الناس من العظماء. ولقد رأيت البعض الذين احتلوا مكانة رفيعة وقاموا بإنكار والديهم الفقراء ونسوا بيوت والديهم الفقيرة. ولقد كان من الأحرى بهم أن يشكروا والديهم وليس نكران الجميل لهم والجحود نحوهم"(١٤٦).

مثل هذه المبادئ كان لا بد على اليونانى أن يتعلمها وهى فى مجملها تقول، إن الذى توصلت إليه بمجهودك هو أعظم بكثير من الذى ترثه من والديك الأغنياء. وهنا فى مدينة كبيرة مثل الإسكندرية كان المرء يرى الكثير من الأمثلة عمن ارتقوا فى مناصبهم، سواء من الإغريق بل وحتى من غير الإغريق.

كما كان على التلاميذ فى المدارس اكتساب المعرفة عن العالم المعاصر حولهم. وهنا وصلتنا مذكرة تلميذ تحتوى على تمارين فى القواعد لكى يقوم التلميذ بحلها، وكان من بين هذه التمارين نكتة لاذعة تقول: "لقد رأى أحدهم شخصًا إثيوبيًا أسود يقضم رغيف خبز أبيض، فصاح انظروا: كيف أن الليل يخنق النهار!" (١٤٧). كما أن النظام والمعرفة الغزيرة كانت من الأشياء المهمة لاجتياز اختبار القبول بالمدارس(١٤٨). وقد وصلتنا قوائم من الإسكندرية من القرن الثانى ق.م.، توضح لنا أسماء العلوم التى كان يجب على الطلبة تعلمها(١٤٩)، كما كان فى هذه القوائم أيضًا أسماء الطلاب الذين اجتازوا اختبارات القبول بالمدارس وكان من ضمن الممتحنين بعض من رجال القانون، فنانون، ومهندسون وغيرهم من أصحاب العلوم والمعارف، ومن خلال هذه الأسماء والقوائم التى وصلتنا يتبين لنا أنها أسماء طلبة يونانيين فقط، وإننى أشك فى أن النص قد فُقدت بعض أجزائه.

كما علمنا أن طالب الجغرافيا كان يدرس الجبال الشاهقة والتلال والبلدان المنحصرة فيما بين الهند ومنطقة وسط أوروبا. ثم إن الطالب كان عليه أن يعرف جميع المرتفعات والجبال والأنهار، مثل نهر الرون فى الغرب والدانوب والأنهار التى تتفرع من البحر الشمالى الأسود. كذاك الأنهار فى آسيا الصغرى والعراق حتى البوابة الشرقية من الهند. كما وجب على الطالب معرفة مواقع البلدان، مثل الجمل التعليمية التى كان على الطالب تعلّمها حتى تساعده على الحفظ، مثل قولهم: نهر الرون فى أيبريا عند مرسيليا، أو قولهم: مرتفعات الأولمب فى مقدونيا، وهكذا، وربما كانت هذه الطريقة فى التعلم صحيحة بالنسبة لمقاييس هذا الزمن البعيد. ولم تكن المناهج التعليمية تختلف

عن مثيلاتها سواء كانت من الإسكندرية أو من اليونان، كما وجب على الطلبة دراسة جغرافية البلاد التى كانت تحت سيطرة الإسكندر الأكبر.

ولم يتدخل الحكام فى المناهج التى دُرست فى الجامعات، بالرغم من أنه بعد ذلك اشترط الملك على الجامعات أن تضيف مادة جديدة وهى تدريس عبادة الملك فى هذه الجامعات. وقد عثرنا على مذكرة طالب ترجع إلى أواخر القرن الثالث ق.م.، وقد اشتملت هذه المذكرة على موضوعات للمطالعة وموضوعات للكتابة، وأخرى للحساب وقوائم علمية أخرى. وتنتهى مذكرة هذا الطالب بمديح للملك مكون من مقطوعتين، مقطوعة كتبها الطالب وكأنها على لسان هومير الشاعر اليونانى، والأخرى كانت مكتوبة أصلاً على جدران نافورة ونقلها الطالب فى مذكرته. ويقول الشاعر هنا فيما معناه: "وكأننى أرى أرسينوى فى منتصف النافورة وتتقاسم الجمال والحسن مع عرائس البحر فى كل عام "[١٥٠].

وقد استخدم هنا اسم هومير لكى يُنسب إليه هذا الشعر والمديح بالرغم من أن هومير لم يكتب هذا الشعر، وقد استُغل اسم هومير هنا لأنه كان مادحًا لاثنين من الملوك البطالمة اللذين عاشا فى عصره. وفى النهاية، يقول الشاعر فيما معناه مدح بطلميوس الثالث وزوجته برنيكى: "فلتعد أرواحكما أيها المنعمان على البشر، أنتما اللذان تفوقتما فى مجال الحرب والفنون". ولقد عُبد بطلميوس الثالث وزوجته فى حياتهما على أنهما الآلهة المنعمون، وهما والدا بطلميوس الرابع والذى وصف هنا بأنه سيد الحروب؛ وذلك لفوزه فى الحرب عام ٢١٧ ق.م. ضد السلوقيين بقيادة أنطيوخس الثالث فى رفح. كما أن بطلميوس الرابع هنا وصف بأنه سيد الفنون وذلك لأنه ألف مسرحية شعرية باسم أدونيس، ثم إنه أمر أيضًا ببناء معبد للشاعر هومير.

إن التعليم فى المدارس كان باللغة اليونانية التى غدت اللغة الدولية الأولى، كما أنها غدت لغة العلم أيضًا، وعلى أية حال فإنها اللغة التى ربطت العالم الهلِّينستى بعضه بالبعض الآخر. إنها غدت ظاهرة تبدو واضحة وجلية فى مدينة المدائن الإسكندرية[١٥١].

وقرب نهاية عصر الملوك البطالمة الذى استمر زهاء ثلاثمائة عام حكمت آخر ملكة مصرية هى كليوباترا(١٥٢)، فكتبت فصلاً جديدًا فى تاريخ البطالمة وتصل إلى قمة جديدة، والتى أُتيح لها ما لم يكن متاحًا لرجل آخر فى موقفها بصفة خاصة إبان الحرب الأهلية الرومانية التى دارت بين قيصر وبومبى، ثم بعد ذلك استمرت الحرب بين أتباع قيصر وقتلته، ثم كانت هناك الحرب بين أوكتافيوس ومارك أنطونيوس. فى كل تلك التوترات والصراعات حافظت كليوباترا لمصر على استقلالها، بعد ذلك جاء حكام موظفون ممثلون للقيصر الذى يحكم فى روما ويديرون البلاد نيابة عنه.

وبالرغم من أن كليوباترا كانت تتولى السلطة فعليًا فى الحكم، إلا أنها من حيث شرعية الحكم كانت مجرد الزوجة الملكية التى تجلس على العرش بجوار زوجها الملك، حتى وإن كان هذا الزوج الرجل فقط صورة على الورق. حيث كانت القوانين آنذاك لا تسمح بجلوس المرأة لوحدها على العرش دون رجل، فبدون تلك الشرعية يصبح مركزها مزعزعًا تمامًا مثلما حدث فيما بين عامَىْ (١٤٧٩ــ١٤٥٧ ق.م.) مع الملكة المصرية حتشبسوت، حيث كانت كليوباترا متزوجة صوريًا مرتين. فى المرة الأولى تزوجت من أخيها الأصغر منها سنًا وذلك تنفيذًا لوصية أبيها بطلميوس الثانى عشر، والذى تُوفِّى عام ٥١ ق.م. ومؤداها أن يتولى العرش من بعده ابنته كليوباترا التى كانت تبلغ من العمر آنذاك ثمانية عشر عامًا مشاركة مع ابنه بطلميوس الثالث عشر، والذى كان يبلغ من العمر عشرة أعوام. وذلك بعد أن أقرت له روما، والتى كانت تتحكم فى مصير الشرق الإغريقى، بأن تئول خلافته إلى أبنائه من بعده.

لقد أدى زواج الأخوين كليوباترا السابعة وبطلميوس الثالث عشر فيما بعد إلى حرب أهلية، حيث إن لكل منهما أتباعًا وجنودًا ولكل هؤلاء الأتباع أطماع وأهواء وتضاربت أهواء وأطماع كل الأطراف؛ مما أدى فى النهاية إلى النتيجة السابقة. فى العام الأول من الحكم المشترك بين الملكين الأخوين، تُوفى العجل بوخيس المقدس فى مدينة أرمنت بجنوب الأقصر. وقد كان هذا العجل مقدسًا

عند المصريين القدماء، حيث كانت تتمثل فيه روح الإله آمون رع. وكان لزامًا على الملك أن يقوم بتكريس عِجْل جديد بدلاً من العجل المُتوفَّى، وقد جاء وصف تكريس العجل الجديد وذلك فى مارس عام ٥١ ق.م. وذكر النص أن الملك بنفسه سوف يقوم بتكريس العجل الجديد. وهو تقليد كان يمكن أن يكون صُوريًا؛ غير أن النص ذكر بشكل قاطع: "أن الملكة كليوباترا(١٥٣)، ملكة مصر العليا والسفلى المحبة لأبيها قد اقتادت العجل المقدس داخل المعبد مع كهنة طيبة وأرمنت وذلك فى القارب المقدس الخاص بأمون، ترافقها القوارب الملكية والشعب".

هذا النص والحدث يعطينا فكرة عن أن كليوباترا حرصت على أن تشارك فى كل الأحداث السياسية، وأن أخاها كان مغيّبًا عن هذه المساهمات الرسمية والاحتفالات الشعبية. ولكن فى الفترة من ٥ سبتمبر عام ٥٠ ق. م. وحتى ٣ سبتمبر عام ٤٩ ق. م. يبدو أن انفراد كليوباترا بالسلطة قد انتهى، حيث استطاع مستشارو بطلميوس الثالث عشر أن يمكنوا هذا الأخير من السلطة وأن يستبعدوا كليوباترا وينحّوها عنها. وبصورة سريعة وفجائية تمكن هؤلاء من طرد كليوباترا من الإسكندرية، بل ومن مصر قاطبة.

عند ذلك كان العالم فى منطقة البحر المتوسط يقف على أعتاب حرب وشيكة الوقوع بين بومبى والقيصر. وكان الشرق الإغريقى وخصوصًا فى الإسكندرية يؤيدون ويساندون بومبى الذى كان قد استضاف بطلميوس الثانى عشر (الزمار) من قبل فى روما. ولكن الموقف قد تغير الآن تمامًا، حيث إن بومبى جاء هنا فارًا يأمل فى مساعدة مصر له وذلك بعد هزيمته النكراء فى موقعة فارسالوس من غريمه قيصر. وبمجرد وصوله الإسكندرية فى نهاية سبتمبر عام ٤٨ ق. م. وجد البلاد فى حالة حرب أهلية، مما أدى إلى ازدياد موقفه سوءًا، كما أنه كان يعوّل الكثير على كليوباترا التى طالما أرسلت لجنوده سفنًا حربية محملة بالسلاح والعتاد؛ ولكنها الآن غير موجودة فى البلاد. كان الموقف بين الملكين الأخوين فى مصر كالتالى: جمعت كليوباترا جيشًا من البدو والعرب وعسكرت فى الصحراء الشرقية بغية أن تنقض على الإسكندرية

وتستولى على عرشها السليب، فى الوقت ذاته عسكر أخوها بطلميوس الثالث عشر فى منطقة بلوزيوم – ٣٥ كيلومترًا جنوب مدينة بورسعيد – كى يعوق تحرك جيوش كليوباترا صوب الإسكندرية. هكذا بدت الصورة فى مصر عند وصول بومبى إليها.

ولم يجد بومبى بدًا من اللجوء إلى بطلميوس الثالث عشر ابن الثلاثة عشر عامًا ومستشاريه الذين قرروا – حسب رأى المؤرخ الرومانى لُوكان – أنهم إذا ساعدوا بومبى فسوف يكسبون بذلك عداء قيصر، لذلك قرروا قتل المهزوم مجاملة لقيصر والمهزوم هنا بومبى[١٥٤]؛ ولكنهم بفعلتهم هذه قد ضمنوا لبطلميوس الثالث عشر مكانًا فى قعر جهنم بجوار قابيل ويهوذا، كما تصف مسرحية الشاعر الإيطالى دانتى[١٥٥].

بعد ثلاثة أيام من ذلك وفى الأول من أكتوبر من عام ٤٨ ق. م.، وصل الإمبراطور الرومانى قيصر إلى الإسكندرية حيث إنه ترك الحرب الأهلية ضد بومبى فى روما متجهًا إلى حرب أهلية أخرى فى الإسكندرية. عندما وصل قيصر إلى الإسكندرية فى اليوم الأول من أكتوبر عام ٤٨ ق. م. وعلم بمقتل غريمه بومبى، لم يسعد بهذا النبأ ولم يُبْدِ أى ارتياح أو شكر على ذلك. وبدلاً من أن يساند بطلميوس راح يخطط للاستقرار فى الإسكندرية. ثم إنه أحضر مساعديه ومستشاريه حوله وراح يقنعهم بأن يروجوا لفكرة مؤداها أن قيصر جاء إلى الإسكندرية كى ينفذ وصية بطلميوس الثانى عشر، وهى أن يخلف ابناه كليوباترا وبطلميوس الثالث عشر أباهما فى الحكم، وذلك لأن الشعب الرومانى هو المسئول عن تنفيذ هذه الوصية فى مصر. لذلك فإنه طلب من الأخوين المتصارعين تسريح جيوشهما والعودة إلى الإسكندرية والانصياع إلى ما يحكم به قيصر.

هنا وافقت كليوباترا على الفور وتركت جيشها وانصاعت إلى حكم قيصر وذلك لأن موقفها كان ضعيفًا. ويحكى المؤرخ اليونانى بلوتارخ عن رحلتها إلى الإسكندرية حكاية طريفة تصلح لأن تكون مسرحية هزلية، فيقول: "إن المدينة (مدينة الإسكندرية) والقصر كانا تحت سيطرة أخيها بطلميوس الثالث عشر؛ لذلك وضعها مساعدوها فى جوال كانت توضع به الملابس وأدخلوها القصر

فى هذا الجوال حتى لا يراها أخوها". لقد كانت كليوباترا آنذاك تبلغ من العمر واحدًا وعشرين عامًا، أى فى أجمل سنى عمرها. دخلت كليوباترا القصر حيث يوجد قيصر، ولا يدرى المؤرخون ماذا فعلت كليوباترا فى هذه الليلة بالقصر! صاغ المؤرخون الكثير من الحكايات والروايات عن تلك الليلة، ولكن على كل حال فإن وجود كليوباترا فى القصر أجبر الرجل الوسيم قيصر على التعامل معها. كما أن المؤرخ كاشيوس ديو قد رأى نفس الرأى، وزاد فى ذلك أن كليوباترا كانت فى زهرة شبابها وأنها كانت ذات جمال ساحر[١٥٦].

أما بالنسبة لبطلميوس الثالث عشر، فقد راح بوثينوس وزير المالية ومستشار الملك يتفاوض للملك الصغير مع قيصر. وقد كان بوثينوس هذا خصيًا وذا دهاء ومكر شديد، حيث إنه أحضر الملك إلى الإسكندرية ولكنه لم يدعه يسرّح الجيش. وفى الوقت الذى راح فيه بوثينوس يتفاوض مع قيصر أثار فيه الشعب السكندرى ضد قيصر ونشبت الثورات فى مدينة الإسكندرية، وذلك لأن قيصر طلب من بوثينوس أن يدفع له ثلاثة آلاف تالنتة من الفضة، وهذا يعادل ١٨ مليون سيسترسن كان بطلميوس الثانى عشر قد وعد بها قيصر. عند ذلك ثار بوثينوس على قيصر وطلب منه أن يغادر مدينة الإسكندرية، وراح بوثينوس يحرض الشعب السكندرى ضد الجنود الرومان على أن يهاجموهم كلما وجدوهم فى أى مكان. كما أنه أعاق المعونات التى كانت تُقدم للجيش الرومانى، وعندما تيقن بوثينوس بأن الوقت قد حان للهجوم على جيش قيصر أسرع فى التنفيذ، وبدأ بأن أمر قائد الجيش المصرى المدعو أخيلاس والذى كان يعسكر بالجيش المصرى فى منطقة بلوزيوم أن يتقدم بالجيش نحو الإسكندرية.

عندئذ بدأت حرب الإسكندرية والتى تُعتبر من أصعب وأقوى الحروب التى خاضها قيصر فى حياته. حيث إنه جاء إلى الإسكندرية لكى يقبض على القائد الرومانى الفارّ بومبى ولم يكن معه جيش مؤهل لكى يخوض حربًا كبيرة مثل هذه، بل كان معه قوة صغيرة فقط لذلك. لقد كان الجيش المصرى يحارب هنا وهو يرغب فى التخلص من التبعية لروما، بينما كان قيصر يحارب هنا انتقامًا من المصريين لقتلهم صديقه وغريمه بومبى. وفى القرن الثانى

الميلادى، كتب المؤرخ سيوتون عن هذه الحرب بأن قيصر لم يكن مؤهلاً لخوض هذه الحرب ولم يُعد لها العُدّة (١٥٧)، ولم يكن له سوى بعض السفن الحربية القليلة فى الإسكندرية. ولم تكن هذه السفن حرة الحركة، بل كان عليها أن تمر فى ممر ضيق يقع بين منطقة لوخياس وفنار الإسكندرية حتى تصل إلى البحر الكبير. أما الأسطول المصرى، فقد كان يشتمل على ٧٢ سفينة حربية فى ميناء إينوستوس وهى تُعد من أحسن السفن فى منطقة البحر المتوسط. وقد بدا هنا قيصر يدير الحرب كعادته بحزم ونشاط حيث إنه أشعل النار فى مخازن الغلال والبردى المصرية، ويُقال إن قيصر هنا قد أحرق ٤٠ ألف لفة بردى كانت معدة للتصدير فى سفينة ترسو فى ميناء الإسكندرية. هذا الحريق قد رُوّج له فيما بعد على أنه حريق مكتبة الإسكندرية!

كان على القيصر أن يغادر الإسكندرية، ولكنه لكى يغادر المدينة ليس أمامه سوى الممر الضيق الصعب سالف الذكر بين منطقة لوخياس وفنار الإسكندرية، ولكى يستطيع السيطرة على مدينة الإسكندرية فإنه فى حاجة إلى جنود، والجنود ليسوا معه الآن؛ لقد غدا فى موقف صعب. إن كل ما يملكه من عتاد وهو ٣٢٠٠ جندى مشاة و٨٠٠ فارس، كان يقابلهم فى الجانب المصرى ٢٢٠٠٠ من الجنود المشاة، و٢٠٠٠ من الفرسان. أما الجنود الرومان فهم مدربون على الحروب فى ساحات القتال الفسيحة، ولكن الجنود المصريين فهم مدربون على حروب الأزقّة والشوارع وهو ما لا يستطيعه الجنود الرومان.

لذلك وجب على قيصر أن ينتظر أن تأتيه مساعدة من الخارج، فلم يكن الهرب من المواقف الصعبة من عادة قيصر، كما لم يعد مُقامه فى الإسكندرية فسحة ممتعة. لقد كان عليه أن يختبئ جيدًا. ويروى المؤرخ سترابو أن مدينة الإسكندرية قد عانت الكثير من جراء هذه الحرب، بل إن جزيرة فاروس قد تعرضت للنهب وأنه بعد رحيل قيصر بدت فاروس وكأنها جزيرة مهجورة خاوية من كثرة النهب والسرقات!

لم يكن قيصر جالسًا فاقد الحيلة منتظرًا للمساعدة ولكنه كان دؤوبًا مستمر العمل والحركة، حيث إنه كان مُحاصرًا فى منطقة صغيرة من القصر والمسرح والذى كان يطل عليه من الجهة الأخرى ما يشبه جزيرة رودس؛ ولكنه استطاع

أن يوسع هذه المنطقة التى كان محاصرًا بها؛ حيث إنه كان يقوم يوميًا بهدم المنازل المحيطة بهذه المنطقة مستخدمًا آلة يُطلق عليها المنجنيق. وقد قام بذلك فى جهة معينة من المدينة وهى الجهة التى تقوده نحو الشرق من المدينة، وقد أراد بذلك أن يسيطر على الممر الذى يربط المدينة من جهة الشرق بالغرب. وفى الجنوب من الشارع العريض كان هناك منخفض بحيرة مريوط وكانت معظمها مستنقعات. ثم إن قيصر بدأ يتجه نحو الجنوب أى الجهة المضادة للمسرح، وبذلك أصبح يسيطر على جزء كبير من المدينة. وبهذا يُعتبر قيصر قد دمر أجزاء كبيرة من المدينة بعد أن أحرق أجزاء كبيرة من سفن الأسطول المصرى.

فى معترك الأحداث، خسر قيصر ٨٠٠ جندى من جنوده، أما المصريون فإنهم فصلوا قناة المياه التى كانت متصلة بمياه النيل والقصر وقاموا بتوصيل هذه القناة بمياه البحر المتوسط. وإذا ألقينا نظرة على القصر، فقد كان يعيش فيه قيصر وكليوباترا وبوتينيوس وبطلميوس الثالث عشر وبقية أفراد العائلة المالكة فى وضع متوتر وملتهب. فى تلك الأثناء أمر قيصر بقتل بوتينيوس، أما أرسينوى أخت كليوباترا فقد هربت إلى الجيش المصرى وقائده أخيلاس، عند ذلك نادى الشعب والجيش بتنصيبها ملكة على البلاد. لم يدم الوئام طويلاً بين أخيلاس وأرسينوى، حيث تشاجر الاثنان وفقد أخيلاس مكانته كقائد للجيش وقُتل. ثم قام قيصر بعد ذلك بطرد بطْلميوس الثالث عشر من القصر والذى اتجه بدوره إلى الجيش المصرى. وظل قيصر يتحاشى الحرب فى انتظار المعونة التى كان قد طلبها من أحد رجاله المقربين فى آسيا.

فى منتصف ديسمبر، جاءت المساعدة العسكرية التى كان القيصر ينتظرها بفارغ الصبر، فرقة عسكرية على رأسها القائد ميتريداتس من بلدة برجامون اليونانية والتى كانت تتكون من اليهود والنبطيين، حيث عبر هذا الجيش فلسطين متجهًا إلى بلوزيوم ثم وصل من هناك إلى الإسكندرية. فى ليلة ٢٥ مارس، توحدت وتلاحمت كل من جيوش ميتريداتس وقيصر. فى اليوم التالى حدث الصدام مع جيش بطلميوس الثالث عشر. وقد خسر الجيش المصرى المعركة وقُتل فيها بطلميوس الثالث عشر واستسلمت مدينة الإسكندرية. أما

كليوباترا فكانت أثناء الحرب ترقب الموقف عن كثب، ويبدو أنها قد تم تزويجها من أخيها الأصغر منها بطلميوس الرابع عشر والذى كان قد بلغ الثانية عشرة من عمره وتُوِّجا كملكين على مصر. وهكذا أصبحت الأمور تجرى تبعًا لإرادة روما، وهكذا انتهى الصراع فى البيت المالك البطلمى طبقًا لإرادة روما ــ القوى العظمى الجديدة ــ لصالح كليوباترا.

بعد نصر قيصر تولت كليوباترا الحكم فى مصر مع أخيها بطلميوس الرابع عشر؛ وبهذا غدا على قيصر أن ينهى مغامرته فى مصر ويرحل عنها تاركا خلفه أربع كتائب عسكرية لحماية الإسكندرية وملكتها، وقد كان ذلك مع مطلع عام ٤٧ ق. م. وهذا حسب رأى المؤرخ هيرتيوس، وبالتحديد فى منتصف أبريل من العام السابق الذكر.

بعد رحيل قيصر من مصر أنجبت كليوباترا ابنًا أسمته بطلميوس قيصر، وهذا الاسم ذو مغزى كبير، حيث يذكِّر العالم بوالده قيصر وأجداده البطالمة. لقد حكمت كليوباترا مصر تحت رعاية الرومان وحمايتهم حتى عام ٤٦ ق.م.، وذلك أن قيصر قد دعاها إلى زيارته فى روما، حيث أقامت هناك فى الفيلاًّ الخاصة به. وبعد حادث مقتله فى منتصف مارس عام ٤٤ ق.م.، عادت كليوباترا مرة أخرى إلى مصر. ثم حدث أن تُوفِّى أخو كليوباترا بطلميوس الرابع عشر، عند ذلك رفعت كليوباترا ابنها من قيصر والمدعو بطلميوس الخامس عشر بجوارها على العرش ليشاركها الحكم.

بعد عودة كليوباترا إلى مصر لم يكن لها من عمل سوى حل المشاكل التى كانت قد تراكمت وتفاقمت فى مصر أثناء غيابها فى روما. ومن ذلك أن الترع قد أُهملت ولم تُنظف من الطمى، وأدى ذلك فى عام ٤٣/٤٤ ق. م. إلى انخفاض حصاد الأرض ومحاصيلها كثيرًا والذى بدوره تسبب فى حدوث مجاعة بالبلاد. وتفشّت كذلك الأمراض والأوبئة، يقول الطبيب السكندرى ديسكوريدس فاكاس واصفًا أحد الأمراض المتفشية: "لقد حدث تقيح فى الغدد الليمفاوية مع ظهور بثور سوداء فى البشرة، كما انتشرت الأورام الخبيثة بالإسكندرية وباقى المدن".

بعد أن عادت كليوباترا من روما راحت تنقذ ما يمكن إنقاذه من البلاد، فى هذا الصدد عثرنا على نص يرجع إلى العام الحادى عشر من حكم كليوباترا، ومؤرخ فى: ١٣ أبريل عام ٤١ ق. م. يقول: إن كليوباترا وبطلميوس الخامس عشر (قيصر) يقران المميزات الخاصة المعطاة للسكندريين الذين يعملون فى الزراعة خارج مدينة الإسكندرية. هؤلاء المزارعون السكندريون كانوا قد أُجبروا من قِبَل السلطات المحلية على دفع الضرائب وهم فى الأصل سكندريون لا يجوز لهم ذلك. كما أنهم أُجبروا على عمل السخرة دون دفع أجورهم، بالرغم من أن عمل السخرة لدى المصريين لم يكن شيئًا جديدًا فهو قديم ومتأصل فى التاريخ المصرى منذ نشأته. ولقد أرسل المواطنون بعثة من جانبهم مؤرخة بمنتصف مارس عام ٤١ ق. م. [١٥٨]، وذلك كى يقدموا شكاواهم أمام الملكة. بعد شهر من هذه البعثة جاء رد الملكة كالتالى: "الملكة كليوباترا، المحبة لأبيها الإلهة، والملك بطلميوس قيصر المحب لوالديه الإله. إلى إدارة إقليم هيراكليوبوليس، بعد التحية: لا بد أن تكتبوا هذا القرار باليونانية وكذلك بلغة البلاد الأصلية، وأن يوضع هذا القرار فى الأحياء المهمة بالعاصمة والمناطق المهمة بالإقليم، كذلك لا بد وأن تسير الأمور فى البلاد حسب أوامرنا، مع التحية، العام الحادى عشر من الحكم ــ ١٣ أبريل (برمودة) عام ٤١ ق. م.".

أما بعد، إلى السيد/تيون

إن الفلاحين الذين يعملون فى منطقة بروسوبيس وبوبسطه قد تقدموا بالشكوى بتاريخ ١٥ مارس، ضد موظفى الإقليم العاشر هؤلاء من أقاليم مصر السفلى، وهنا إنهم اشتكوا أن الموظفين أجبروهم على أعمال زائدة وجمعوا منهم ضرائب زائدة ضد إرادة هؤلاء المواطنين، ولهذا فإننا نحن كليوباترا وبطلميوس مستاءون من تصرف الموظفين هذا، وقررنا أن كل الفلاحين السكندريين لا يُجمع منهم أى ضرائب للتاج الملكى؛ كذلك لا يُجمع منهم ضرائب للحالات الخاصة التى تطرأ على البلاد. ثم لا يجب أن تؤخذ منهم ممتلكاتهم لأى سبب من الأسباب، كما لا يجب أن تفرض عليهم أى ضرائب جديدة. والضرائب التى تجبى منهم هى فقط ضرائب زراعة النبيذ؛ وكذلك

ضرائب زراعة الغلال غير ذلك لا يجب تكدير حياتهم بأى أعباء أخرى. قم بنشر هذا المرسوم، وأعلم الناس به حسب القوانين." فى خضَمّ مشاكل كليوباترا لإصلاح حال البلاد فى مصر، فإنها كانت تتابع باهتمام أخبار الحرب الأهلية الدائرة فى روما بين أتباع قيصر القتيل وقتلته. وبالطبع، فملكة مصر كانت متعاطفة مع أتباع قيصر. أثناء ذلك أمرت كليوباترا بسك عملة معدنية تحمل اسمها وصورتها وهى تضع التاج على رأسها وفى يدها الصولجان، وتضع على رجليها ابنها الرضيع وهو يرضع من ثديها. وحملت هذه العملة اسم كليوباترا وبطلميوس الخامس عشر قيصر. ( شكل ٢٧).




(شكل ٢٧): لوحة لكليوباترا.

وهنا ندرك بسرعة المغزى من هذه الصورة، حيث إن كليوباترا هنا تقارن نفسها بالإلهة إيزيس وابنها حورس الإله. هذا المنظر موجود وتكرر فى معبد بمدينة أرمنت؛ حيث نرى الملوك الفراعنة قد صوروا أنفسهم فى هذا المعبد بطريقة توحى بأن أصولهم إلهية. كما عثرنا على نقش للملكة كليوباترا وهى جاثية على ركبتيها تحيط بها الإلهات وكُتب فوق رأسها "أم الإله رع"، وفوق الطفل المولود نرى الجعران المقدس، رمز إله الشمس بما يوحى بأن بطلميوس الخامس عشر ابن كليوباترا قورن بالشمس المشرقة. بجوار نقش كليوباترا هذا نرى منظرين لمعبودتين برأس البقرة: إحداهما ترضع الإله حورس، والبقرة الأخرى ترضع قيصر الصغير ابن كليوباترا.

وبالطبع، فإن كل هذه النقوش ترجع فى أصلها إلى الأسطورة المصرية القديمة التى مؤداها أن أوزوريس كان ملكًا على مصر، ثم قُتل وخَلَفه على حكم مصر ابنه الإله حورس الذى أخذ بثأر والده الإله أوزوريس من قاتله. وهنا نفهم المغزى الذى تريد كليوباترا أن تقدمه لنا، حيث إن والد ابنها قيصر قد قُتل فى روما، تمامًا مثل أوزوريس فى مصر، وإن حورس أخذ بثأر أبيه من قاتله كذلك لا بد على قيصر الصغير أن يفعل نفس الشىء الآن، ثم إن قيصر الصغير قد أعطته كليوباترا لقبًا جديدًا وهو "المحب لأبيه".

ولو ألقينا نظرة على أحداث الحرب الأهلية فى روما، نجد أن الحرب انتهت بانتصار أتباع قيصر أوكتافيوس ومارك أنطونيو، وسرعان ما بدأ الصراع يدور بينهما. عندما التقت كليوباترا مع مارك أنطونيوس فى عام ٤٢ ق. م. وقع كل منهما فى غرام الآخر وسط أروع قصص الحب على مدى التاريخ الإنسانى، تلك القصة الإنسانية التى خلَّدها الشاعر الإنجليزى شكسبير فى مسرحيته العظيمة "أنطونيو وكليوباترا". لقد كان أنطونيوس فى حاجة إلى ثروات مصر الكبيرة، واستطاع أن يوسع من مساحة الإمبراطورية المصرية التى كانت على رأسها محبوبته كليوباترا والتى أنجب منها ثلاثة أطفال فيما بعد.

أما مرحلة الذروة فى حياة آخر ملكات مصر، فقد صُوِّرت لنا فى احتفال كبير دارت أحداثه فى مسرح الإسكندرية، وروى فيه أن الملكة قد جلست فوق منصة من فضة وهى ترتدى زى الإلهة المصرية إيزيس، بينما ارتدى أنطونيوس زى الأباطرة الرومان موشّى بالذهب ويضع عباءة حمراء أرجوانية على كتفيه، بينما جلس أبناء كليوباترا الأربعة بجوار الملكين ولكن عروشهم كانت منخفضة بعض الشىء عن عرشَى كليوباترا وأنطونيوس. ولو نظرنا لرأينا أن الأطفال جلسوا بالترتيب بجوار كليوباترا كالتالى: أولاً بطلميوس الخامس عشر قيصر، والذى كان يحكم معها آنذاك ثم جاء من بعده أبناؤها من أنطونيوس، وهم: ألكسندرهليوس يرتدى روب ملك ميديا فوق رأسه تاج الفارس المرتفع، ثم بطلميوس فيلادلفوس الذى ارتدى زى ملك مقدونى ذا قبعة عريضة من القطيفة، كذلك ارتدى معطفًا وحذاء ذا رقبة طويلة.

وفى النهاية نرى كليوباترا سيلينا الابنة. كل من هؤلاء الملوك كان يقف خلفه حراس يرتدون الزى الرسمى للبلاد التى كان يمثلها هؤلاء الحكام. وعندما يرى المرء هذا الجمع من الحكام والملوك يُخيل إليه أنهم هم الذين يسطّرون التاريخ، وأنهم هم سادته وقادة الأرض وأصحابها. فى هذه اللحظة أعلن الموظف الأعلى بالقصر الملكى أن الملكة كليوباترا تحمل لقب "ملكة الملوك" وابنها من قيصر وشريكها فى الحكم يحمل لقب "ملك الملوك"، أما ألكسندر هليوس ابنها من أنطونيوس والذى كان يبلغ من العمر ستة أعوام آنذاك فقد أعطوه لقب "الملك العظيم"، وتم تنصيبه ملكًا على كل من أرمينيا وميديا وبلاد الرافدين حتى حدود الهند، أى الحدود التى وصلها الإسكندر الأكبر قبل ذلك فى حروبه، وبالطبع من ضمنها بلاد فارس. أما بطلميوس فيلادلفوس ابن العامين، فقد تم تنصيبه ملكًا على سوريا وآسيا الصغرى. أما كليوباترا سيلينا، وهى الأخت التوأم لأخيها ألكسندر هليوس والتى تبلغ من العمر ستة أعوام، فتم تنصيبها ملكة على قورينائية.

ولكن كليوباترا نسيت هنا أن مجد مصر الفرعونى القديم ذا الإمبراطورية المترامية الأطراف قد ولّى دون رجعة، حيث إنه فى ٢ سبتمبر عام ٣١ ق.م. بالتحديد موقعة أكتيوم البحرية، فى هذا اليوم تبخرت أحلام كليوباترا بالإمبراطورية المصرية العظيمة. وفى العام التالى وقف أوكتافيوس بقواته عند ميدان سباق الخيل أمام أبواب الإسكندرية. فى أول أيام أغسطس الحارة عام ٣٠ ق. م.، بدأت المعركة الحاسمة عندما قرر أنطونيوس ــ فى محاولة انتحارية يائسة ــ الدفاع عن مدينة الإسكندرية، منطلقًا من مخبئه بجوار ميناء الإسكندرية (انظر شكل ٢٠). ولكن هذه المحاولة باءت بالفشل وذلك لأن البقية الباقية من أسطوله البحرى انضمت إلى أسطول أوكتافيوس، وانهزم جيشه البرى أيضًا عندما انضم فرسانه إلى جيش أوكتافيوس. فى اليوم التالى راحت تعزف الموسيقى فى شوارع الإسكندرية العريضة معلنة نصر أوكتافيوس، عند ذلك انتحرت كليوباترا التى بموتها كانت النهاية لاستقلال مصر، ولكنه بالرغم من ذلك بقيت الإسكندرية هى العاصمة الأهم بين عواصم الولايات التابعة للإمبراطورية الرومانية[١٥٩].

الفصل الثانى

# الولاية الرومانية والعاصمة منذ ٣٠ ق.م. وحتى ٢٨٤ ميلادية

# رأس مصر، والتغييرات التى أحدثها أغسطس بها

فى الأيام ١٣، ١٤، ١٥ من أغسطس من عام ٢٩ ق.م.، عاشت روما ثلاثة انتصارات احتفل بها أوكتافيوس بعد مقتل غريمه مارك أنطونيوس وانفراده بالحكم، وأحد أسباب الاحتفال كان انتصاره على كليوباترا والانتصار على مصر والإسكندرية كما ذكر بلينى العجوز. ومع حلول الأول من شهر ٨، تم تغيير اسم الشهر إلى اسم الإمبراطور الرومانى أغسطس بمناسبة انتصاره على كليوباترا ومصر. وهنا يتبادر إلى الذهن سؤال مؤداه: إلى متى سوف يتحمل السكندريون اسم شهر٨ على أنه أغسطس، وهذا الاسم يُعتبر رمزًا لأسوأ الأحداث على مستوى التاريخ البشرى قاطبة! ويرى المؤرخ دوميتيان (٨١ ــ ٩٦) وكذلك الكثير من المؤرخين الآخرين أن احتلال مصر[١] من قبَل الرومان كانت له نتائج اقتصادية خطيرة على المستوى المصرى[٢] والرومانى، حيث إن أوكتافيوس قد وضع يديه على كنوز كليوباترا التى أخذت طريقها إلى روما، وفى وقت قصير يلاحظ المرء الطفرة الاقتصادية التى ظهرت آنذاك فى روما، وزاد البيع والشراء بالعاصمة الإيطالية، كما أنه من الملاحظ ازدياد أسعار الأراضى زيادة كبيرة غير معهودة. ويقول المؤرخ كاشيوس ديو فى هذا

الصدد: "لقد ازدادت روما غنًى والمعابد امتلأت بالثروات والخيرات وتزينت بأجمل الزينات"[٣].

وبوفاة كليوباترا أصبحت الإسكندرية عاصمة لولاية رومانية بعد أن كانت مدينة العالم الأولى وعاصمة لإمبراطورية عظيمة.هذا التغيير في مدينة الإسكندرية أجّج الكراهية ضد روما وشعبها لدى السكندريين. ولكن كيف يستطيع الشعب السكندرى التعبير عن هذا السخط ضد الرومان والمدينة تعج بالجنود الرومان واليونانيين. عند ذلك نلحظ أن السكندريين صبوا جامّ غضبهم على اليهود بمدينة الإسكندرية لكى يغيظوا بذلك الرومان.

كما اجتهد السكندريون في الوقت ذاته ليكون لهم مجلس شورى خاص بهم، بعد أن كان قد تم حله غالبًا فى عهد بطلميوس الثامن (١٤٥ــ١١٦ ق.م.). فى عام ٢٠/١٩ ق.م.، أرسل السكندريون التماسًا كتابيًا إلى الإمبراطور الرومانى أوكتافيوس شخصيًا كى يعيد لهم مجلس الشورى الخاص بهم، وتعللوا فى مكتوبهم هذا بقولهم: حتى لا يدّعى غريب حق المُواطَنة بالإسكندرية أو يهرب سكندرى من واجباته تجاه المدينة أيضًا. وجاء رد الإمبراطور أوكتافيوس بأنه سوف يفحص هذا الأمر وسوف يصلهم منه رد بذلك[٤].

بعد عشرة أعوام، بالتحديد فى عام ١٠/٩ ق.م.، اتجه وفد من السكندريين إلى مقر الإمبراطور فى بلاد الغال (أيبيريا) كى يسألوه الإجابة على طلبهم. وجاء رد الإمبراطور عليهم كالتالى: "إن بعثتكم قد وصلت إلىّ وأبلغونى طلباتكم وأمنياتكم ومشكلاتكم، فى الماضى" [٥]، ثم ينقطع النص عند ذلك. ويخبرنا كاسيوس ديو المؤرخ الرومانى قائلاً: إن الإمبراطور أباح للسكندريين أن يديروا شئونهم بأنفسهم؛ ولكنه لم يمنحهم حق تكوين مجلس شورى خاص بهم بصفة رسمية. ويرى المؤرخون أن الإمبراطور أوكتافيوس رفض منح الشعب السكندرى حق تكوين مجلس شورى لهم عقابًا لهم على أنهم فى الماضى وقفوا إلى جانب كليوباترا وأنطونيوس ضده وضد[٦] جيشه. أما السبب الآخر، فإنه كان يرى أن الإسكندرية أهم المدن فى الإمبراطورية الرومانية ولا يريد لها أى شكل من الأشكال التى تمكّنها من إدارة نفسها بنفسها، أو أى كيانات سياسية قد تشكل عبئًا عليه فيما بعد.

وعلى نفس نهج أوكتافيوس هذا ضد الشعب السكندرى سار فيما بعد الإمبراطور كلاوديوس (٤١ــ٥٤ ميلادية)، الذى أقر بأن السكندريين كان يحق لهم مجلس شورى فى عهود حكامهم السابقين؛ غير أنه لم يرغب أن يغير ما كان أغسطس قد وضعه من قواعد، ولم ير فى تأسيس مجلس جديد أى فائدة سواء بالنسبة لشعب الإسكندرية أو الحكم الرومانى، ودعا إلى إجراء استطلاع يحدد جدوى ذلك. ويرجع الإصرار الشديد لأهل الإسكندرية فى المطالبة بحقهم فى هذا الشأن إلى أنهم يرون أن الإسكندرية هى مدينة يونانية وأنهم أحق الناس بوراثة اليونانيين عن غيرهم. وكان هذا مصدر فخر لهم، هذا بالإضافة إلى أنهم خلال حكم البطالمة كانوا يتمتعون بقدر من الإدارة الذاتية؛ ومن ثَم فإن حصولهم على الحق فى مجلس شورى خاص بهم كان من شأنه أن يعلى من شأن الطبقة العليا الإغريقية ومكانتهم.

أما الإسكندرية فى العصر القيصرى الأول، فقد كانت تُحكم بطريقة رومانية صرفة، بمعنى أنه كان هناك حاكم يتم تعيينه من قبَل الإمبراطور الرومانى، وهو ممثل الإمبراطور فى المدينة، وكذلك ممثل المدينة أمام الإمبراطور. وقد كان هذا الحاكم فى الوقت نفسه يمثل كاهنًا للإسكندر. وكان يتعين عليه أن يرتدى إكليلاً من الذهب فوق رأسه وعباءة ذات لون أحمر أرجوانى على كتفيه. كما أن الشخص التالى فى الأهمية بعد هذا الحاكم الرومانى بالإسكندرية كان رئيس الجالية اليونانية بالإسكندرية، وهو ممثلها والمتحدث باسمها فى كل المجتمعات: داخلية وخارجية[٧].

لقد كانت الإسكندرية ومصر ذواتَىْ أهمية خاصة عند الرومان؛ حتى إن الإمبراطور الرومانى اعتبرهما دائمًا ملكًا خاصًا له وأن الحاكم على الإسكندرية ومصر هو ممثله الشخصى فى مُلْكه هذا[٨]. ولم يكن الحاكم على الإسكندرية له الحق فى أن يغادرها سوى بإذن من الإمبراطور، وكان لا بد أن يرسل الإمبراطور من ينوب عنه فى حالة غيابه كما يجب عليه ألا يترك الإسكندرية قبل أن يأتى إليها من يخلفه.

هذا الحاكم الرومانى كانت فى يده كل الحقوق وكانت له الحرية المطلقة فى البلاد يفعل ما يشاء، كما أنه كان هو القاضى الأعلى بالبلاد كما كان يقيم

بالإسكندرية طوال العام. أما مدينتا ممفيس وبلوزيوم، فقد كان يزورهما باستمرار فى الفترة ما بين يناير وأبريل. وأما الأحياء الصغيرة والنائية، فقد كان هذا الحاكم يزورها مرة كل عامين[٩]. لهذا كان على الأفراد الذين لهم شكاوى وقضايا الانتظار طويلاً. وقد عثرنا على نص خطاب أرسله شخص يُدعى تروفيمس، فحواه أنه فى الإسكندرية منذ شهرين فقط لكى يرى ما تم فى قضيته. وعندما طال المقام بالسيد تروفيمس هذا فى الإسكندرية فإنه بحث عن عمل بها، ولما أعجبه العمل والأجر بها أرسل لوالده نقودًا من أجر عمله بالإسكندرية وأخبر والده بأنه سوف يبقى فى مدينة الإسكندرية ولن يعود إلى منزله؛ حيث إن الإله رزقه بها بالعمل والمال والحياة السعيدة[١٠].

لقد اعتبر أوكتافيوس ـ الذى تلقب فيما بعد بلقب أوغسطس ـ نفسه ملكًا لمصر والإسكندرية وخليفة للحكام البطالمة والحكام على مصر والإسكندرية ما هم إلا ممثلوه ونوابه، كما أن الرومان رأوا فى الإسكندرية إداريًا أنها خارجة عن مصر[١١]، كما وصفها اليونانيون بأنها الرأس بالنسبة لمصر. وقد عُثر على قبر شخص تونسى من تخوم الإسكندرية يقول فيه إنه فى موطنه بالإسكندرية بجوار مصر[١٢]. كما عثر على ألقاب كثيرة لحكام الإسكندرية الرومان، تقول: "حاكم الإسكندرية بجوار مصر" أو "حاكم الإسكندرية التابعة لمصر". كما أن المؤرخ الرومانى ديون فون بروزا فى القرن الثانى الميلادى قال فى عبارة له: "إن الإسكندرية هى رأس مصر"[١٣].

لقد حلت الإدارات الرومانية محل الإدارة البطلمية ومع ذلك بقيت بعض الإدارات قائمة، ومن بينها إدارات الأموال الخاصة والتى كان المشرف عليها فى العصر الرومانى مشرفًا فيها على الأموال التى لا صاحب لها. وقد عثرنا على بردية من عصر الإمبراطور الرومانى أنطونيوس بيوس (١٣٨-١٦١ ميلادية) وهى مستند مهم عن الإدارة الرومانية فى مصر[١٤]، وهذه البردية قد أثبتت أن المواطن المصرى البسيط كان عليه أن يسدد الضرائب، تمامًا مثلما كان يفعل سابقا أثناء حكم البطالمة عبر إدارات تصب جميعها فى الإدارة الرئيسية بالإسكندرية. وقد كانت هناك فى الإسكندرية الإدارة الرئيسية لجمع الأوراق الرسمية التى شملت جميع الأقطار المصرية؛ فأدارت تلك الإدارة

المركزية شئون البلاد بشكل فى غاية البيروقراطية. وكانت تتبعها إدارة خاصة تكونت من اثنى عشر أرشيفاً.

لقد نتج عن هذا أن الجهاز الإدارى فى عصر الحكم الرومانى قد بدأ كبيرًا وضخمًا؛ لدرجة أنه أصبح حلمًا لأى شخص أن يأتى إلى مدينة الإسكندرية كى يعمل لدى أحد الموظفين الرومان. وقد عثرنا على خطاب كتبه شخص من الفيوم يُدعى سارابيون، حيث يقول: بينما أنا فى الإسكندرية اقتحم رجال الضرائب منزلى فى الفيوم، عند ذلك أشار علىّ أصدقائى بالإسكندرية أن أقبل العمل خادمًا عند موظف رومانى كبير يُدعى أبولونيوس وهو قاضٍ بالمحكمة، وأخبرونى بأنه سوف يساعدنى فى اجتياز القضية بالمحكمة" [١٥]. إن الدور العلمى الطليعى لمدينة الإسكندرية ظل كما هو، حيث إن مكتبة الإسكندرية ظلت هى المكتبة التى يغترف منها الجميع علومهم، كما أن أكاديمية البحث العلمى بالإسكندرية ظلت تؤدى أيضًا دورها[١٦].

فى العصر الرومانى، تم تقسيم هذه المعاهد العلمية إلى إدارات، وجُعل على رأس كل إدارة شخص يكون مسئولاً عنها وعن مشكلاتها[١٧]. أحد هؤلاء الأشخاص كان يدعى لوخياس جيليوس ماكسيموس، وقد كان هو الطبيب الشخصى للإمبراطور أنطونيوس بيوس (١٣٨ــ١٦١ ميلادية)، حيث كان مرتب هذا الطبيب ٢٠٠ ألف سيسترسن[١٨]. وهذا التقسيم للمعاهد العلمية كان جديدًا فى مصر ولم يكن معمولاً به فى عصر البطالمة. كما أن هذه المعاهد العلمية قد ابتكرت شيئًا جديدًا فى عصر الرومان، وهى أنها منحت عضويتها للكثير من رجال الجيش والسياسيين، وقد كان هؤلاء توّاقين إلى هذه العضوية الشرفية بالأكاديميات العلمية. لهذا كانوا يدفعون الذهب بسخاء فى نظير قبول عضويتهم بها. وهذا يُعتبر شيئًا جديدًا لم يكن معمولاً به من ذى قبل. من أمثال هؤلاء رجل يُدعى كلاوديوس ديمتريوس، وهو رجل اقتصاد رومانى كان يعيش بالإسكندرية، وقد دُعى فى عام ٥٠ الميلادى، إلى الطعام وتم تكريمه فى أكاديمية البحث العلمى بالإسكندرية[١٩].

وقد تمتعت جامعة الإسكندرية فى العصر الرومانى باهتمام الحكام الرومان وحظيت بكثير من النظام والترتيب خاصة فى مجال الطب. فى القرن

الثانى الميلادى، درس الطبيب المشهور جالين الطب فى جامعة الإسكندرية. كما ساهمت جامعة الإسكندرية فى علم الفلك بنصيب الأسد، حيث إن معظم علماء الفلك على مستوى العالم قد درسوا علم الفلك فى جامعة الإسكندرية، ونحن ندين لهم بوضع تقويمنا الفلكى الحالى. ويُذكر أن الإمبراطور تيبريوس (١٤ـ ٣٧م) قد دعا علاَّمة عصره العالم تراسيلوس إلى كابرى، كما قام الإمبراطور كلاوديوس (٤١ ـ ٥٤ ميلادية) بتوسعة الجامعة وتكبيرها، وأنفق من أجل ذلك الكثير من الأموال. وأيضًا على المحاضرات العامة عن تاريخ الأيروسكا القرطاجنيين. كذلك الإمبراطور نيرون (٥٤ ـ ٦٨ م) الذى استعان بأكاديمية البحث العلمى بالإسكندرية وخبرتها فى التخطيط لأحد المشروعات الفنية، هذا المشروع هو شق قناة تربط مدينة كورينث اليونانية بمياه البحر.

كما أن الرومان اهتموا بأن يبقى الوضع المميز لليونانيين بمصر كما كان عليه أثناء الحكم البطلمى، واهتموا كذلك بأن يكون المواطن اليونانى صاحب أعلى وأفضل المميزات وله كل الحقوق فى مصر. وهو ما يتضح من حق المواطن. ولعلنا نعلم بعض التفاصيل الدقيقة عن ذلك النظام الطبقى المعقد من خلال مصير مدلك مصرى اسمه حربوقراط كان يعمل مدلّكًا لبلينيوس[٢٠] الصغير عضو مجلس الشيوخ الرومانى وحاكم مدينتَىْ بونتوس وبيتين، وكان قد توجه برسائل متصلة للإمبراطور تراجان (٩٨ـ١١٧ م)، بشأنه يطلب له حق المواطنة الرومانية. والسبب فى ذلك أن بلينيوس كان قد مرض مرضًا خطيرًا كاد أن يودى بحياته، فاستدعى إليه ذلك المدلك المصرى حربوقراط، والذى كان فى السابق عبدًا؛ فقام بتدليكه وعلاجه حتى تم له الشفاء بعد أن كان قد فقد الأمل فى الشفاء، وتقديرًا وعرفانًا منه بذلك فكر بلينيوس أن يمنح حربوقراط مكافأة كبيرة لم تخطر له على بال، ولم يكن حتى يحلم بها. لذلك فإنه أراد أن يمنحه المُواطنة الرومانية حتى يكون له حق المواطن الرومانى فى الإسكندرية. لذلك أرسل بلينيوس طلبًا إلى الإمبراطور الرومانى تراجان يطلب منه ذلك، فوافق الإمبراطور وحول طلبه إلى الجهات المختصة كى تمكنه من ذلك.

وهنا بدأ الصراع مع الروتين والبيروقراطية المتعمدة، حيث إنهم طلبوا منه أن يرسل لهم بالأوراق الموثقة ما يفيد عمر حربوقراط وأملاكه. ثم إن الموظف المسئول فى مجلس الشيوخ الإيطالى أفاد بلينيوس أن حربوقراط هو عبد من أم مصرية ويظل مصريًا ولا يحق له الحصول على المواطنة الرومانية؛ غير أن مجلس الشيوخ أشار عليه ــ من أجل الإمبراطور تراجان ــ قائلاً: إنك تستطيع أن تعمل شيئًا آخر يفيد فى هذه الحالة، وهو أن تحصل أولاً لحربوقراط على مواطنة مدينة الإسكندرية، ثم بعد ذلك يمكن له أن يحصل على المواطنة الرومانية. لذلك وجب على بلينيوس[٢١] أن يعيد الطلب مرة أخرى ولكن لكى يطلب لحربوقراط مواطنة مدينة الإسكندرية أولاً، وهو ما أقره تراجان له بشكل استثنائى.

وهذه الحالة تعطينا فكرة عن مدى أهمية مواطنة مدينة الإسكندرية والتى كان اليهود يقاتلون من أجل الحصول عليها بكل السبل، كما نعرف أن الرومان فيما بعد وبصفة خاصة منذ عام ٢٤ ق.م.، قد فرضوا ضريبة جديدة على المصريين تُسمى بضريبة الرأس والتى كان يدفعها كل مصرى يبلغ من العمر أربعة عشر عامًا حتى سن الـ ٦٢ عامًا. هذه الضريبة أدت إلى ازدياد سوء حال المصريين وتردّى مستواهم الاقتصادى. وحتى لا يهرب أحد من المصريين من أداء هذه الضريبة، فقد قام الرومان بتسجيل أسماء أفراد الشعب المصرى الذين تبلغ سنهم الـ ١٤ عامًا. ولهذا قام الرومان بعمل سجلات ميلادية جديدة تسجل كل المواليد والوفيات الجديدة، بل إنه لو مات شخص كان على أقربائه أن يدفعوا له ضريبة العام الذى تُوفِّى فيه هذا الشخص. أما الذين كانوا مُعفَيْن من هذه الضرائب فهم الرومان واليونانيون، وكذلك الأراضى المجاورة للإسكندرية والتى يمتلكها مواطنون سكندريون، كذلك الذين يتمتعون بحقوق المواطنة بمدينة الإسكندرية. ولم يُمتعوا بالإعفاء من هذه الضرائب فحسب، بل إنهم أُعفوا من أعمال السخرة والخدمات التى تتطلبها الدولة أيضًا. ولا بد أن نذكر هنا أن هذا القرار كانت كليوباترا قد أصدرت به مرسومًا أيضًا، بناءً على ما جاء فى آراء يوليوس ألكسندر.

فى عهد الإمبراطور أوجست قدم السكندريون طلبهم بإنشاء مجلس شورى لهم، وذلك لكى يمنع هؤلاء المتسللين من الشعب المصرى من القدوم إلى الإسكندرية هربًا من ضريبة الرأس؛ كذلك هربًا من أعمال السخرة التى تتطلبها منهم الدولة الرومانية. هكذا علل السكندريون طلبهم الذى رفعوه قديمًا للإمبراطور الرومانى أغسطس، قائلين له: إذا زاد عدد الفارّين من ضريبة الرأس إلى الإسكندرية، فإن دخل الإمبراطور من الضرائب سوف يقل وذلك فى محاولة لإقناعه، ولكن الإمبراطور بالرغم من هذا الرأى لم يوافق لهم على إنشاء هذا المجلس المرغوب(٢٢).

ولما كان اليهود بالإسكندرية غير مُعفَيْن من ضريبة الرأس، فقد تساووا فى ذلك مع المصريين وهو ما لا يتفق مع أوضاعهم الاجتماعية؛ لهذا حاول اليهود باستماتة أن يحصلوا على حق المواطنة بمدينة الإسكندرية كى يتم إعفاؤهم من ضريبة الرأس هذه. وقد وصلتنا بعض الأوراق والبرديات التى تؤكد أن الكثير من اليهود قاموا بتزوير أوراقهم كى يعطوا لأنفسهم حق المواطنة بمدينة الإسكندرية. وأمامنا هنا نص يثبت ما أوردنا، وهو من شخص يهودى يُدعى هلينوس بن تريفون، والذى وجه خطابه إلى حاكم مدينة الإسكندرية المدعو جايوس تيرانوس بتاريخ ٤ ـ ٥ ق.م.، يقول فى خطابه: "أيها الحاكم القوى، بالرغم من أن أبى سكندرى وأننى أعيش منذ طفولتى فى هذه المدينة الإسكندرية أيضًا وأننى تبعًا لإمكانات أبى قد تلقيت تربية وتعليمًا إغريقيًا، ومع ذلك فأنا أعيش بلا حق فى وطنى وأنا مهدد فى كل شئون حياتي."، ثم ينقطع النص ولكننا نعلم أن هلينوس أراد هنا أن يُعفى من ضريبة الرأس. ولم نعرف الإجابة التى أرسلها له حاكم مدينة الإسكندرية، سواء بالموافقة أو الرفض.

ونود أن نضيف ملحوظة هنا وهى أن هلينوس قد وقّع فى نهاية النص بلقب السكندرى، ولكن الموظف المسئول بتقديم الشكاوى إلى حاكم الإسكندرية شطب لقب سكندرى وأضاف مكانه تعبير" يهودى من الإسكندرية"(٢٣). ولم تكن هذه هى المحاولة الوحيدة من أشخاص يهود بل كانت هناك محاولات عديدة من اليهود للحصول على حق المواطنة بمدينة الإسكندرية، بل إنهم قاموا بتعليم

أبنائهم تعليمًا يونانيًا وفى مدارس يونانية، حتى يستطيع هؤلاء أن يحصلوا على حق المواطنة السكندرية فيما بعد. ولقد استمرت هذه المشكلة لمدة خمسين عامًا أخرى، حيث حاول غير السكندريين تكرارًا ومرارًا أن يحصلوا لأبنائهم على حق المواطنة السكندرية. وقد كان ذلك يتحقق للبعض منهم عن طريق الالتحاق بالخدمة العسكرية الأوَّلية التى كانت شرطًا من شروط الحصول على المواطنة. وفى خطاب شهير من الإمبراطور كلوديوس إلى السكندريين بتاريخ ٤١ ميلادية يقول فيه: "إننا قيصر كلوديوس نقر لكل الذين تلقوا التعليم العسكرى الأوَّلى بحقهم فى المواطنة بالإسكندرية؛ وكذلك بأن لهم جميع حقوق سكان الإسكندرية، وكذلك لهم كل مزايا سكان المدينة مستبعدًا من بينهم من كانوا أبناء للعبيد"(٢٤)

هذه الفوارق الواضحة بين الجاليات المختلفة فى مدينة الإسكندرية ظهرت بشكل جلى فى عام ١٩ ميلادية، عندما قام الإمبراطور جيرمانيكوس الرومانى بزيارة الإسكندرية وراح يوزع الغلال على شعبها ولكنه استبعد اليهود من هذه العطايا، وذلك نظرًا لأنهم كانوا كثيرى الفتنة وأشد إثارة للقلاقل(٢٥).

وبمناسبة تلك الزيارة هذه يشير تاكيتوس إلى أحد الضوابط المهمة التى وضعها الإمبراطور أغسطس بالنسبة لمصر وحدها دون بقية الولايات الرومانية، حيث إنه منع كذلك أعضاء مجلس الشيوخ والقادة العسكريين من زيارة مصر إلا بإذن شخصى منه هو، حيث اعتبر هذا الإمبراطور مصر هى مفتاح الإمبراطورية الرومانية، سواء عن طريق البر أو البحر. وحتى لا يقوم أحد بتهديدها من إيطاليا عن طريق تجويعها بسيطرته على مصر، والدليل على ذلك أن قيصر وبعدد قليل من جنوده استطاع أن يقيم بمدينة الإسكندرية مُدافعًا عن نفسه وعن حياة الكثير من جنوده ضد جيش قوى وكبير(٢٦).

على أى الأحوال، فمع احتلال الرومان لمصر والإسكندرية بدأت مصر اتباع تقويم فلكى جديد، واتخذ المصريون التقويم اليونانى الجديد. فمن قبل كان العام ينتهى دائمًا عند يوم ٨/٢٨ ويبدأ العام الجديد بيوم ٨/٢٩ ولكن أغسطس الإمبراطور الرومانى جعل من شهر ٨ ثلاثين يومًا، ولكن كل أربعة أعوام فقط. والأهم من التقويم أن الإمبراطور أغسطس قام بعمل نظام جديد لسك

العملات فى الإسكندرية، حيث إن العملة غدت تُسك على معدن البرونز، كما إن صورة صاحب العملة تبدلت أيضًا من الملك البطلمى إلى الإمبراطور الرومانى. ولقد استمر نظام العملة سائرًا كما وضعه أغسطس حتى زمن الإمبراطور تيبريوس (١٤ـ٣٧ ميلادية) الذى أحدث تغييرًا جديدًا فى نظام العملة ليس فقط بالإسكندرية، بل فى مصر كلها، حيث إنه غير شكل العملة وكذلك مادة الصنع وكذلك قيمتها.

وقد استمر هذا النظام الذى وضعه تيبريوس لمدة ٣٠٠ عام تالية[٢٧]، حيث إن وجه أية عملة كان يحمل دائمًا صورة الإمبراطور الحاكم أو صورة أحد أفراد عائلته، أما ظهر العملة فقد خُصص لسرد تاريخ المدينة وأبرز أحداثها مثل إنشاء العمائر المهمة أو الانتصارات أو زيارة القيصر للمدينة (انظر الشكلين: ٣٤، ٣٩) أو بعض الأحداث المحلية، مثل العملة التى حملت ذكرى يُقال لها "عام الطائر فونكس" (انظر شكل ٤٤)، كذلك فى عصر الإمبراطور مارك أوريليوس (١٦١ـ ١٨٠م) والإمبراطور كاراكالا (٢١١ ـ ٢١٧ م)، حيث قام هذان الأخيران بمنع سك العملة لبضع سنوات بسبب بعض الاضطرابات الداخلية.

وقد ترك الرومان فى مصر الأملاك لأصحابها كما كان الحال عليه أثناء حكم البطالمة، ولم ينتزعوا الأملاك من أصحابها. إن السلام الذى ساد فى منطقة البحر المتوسط قد عاد بالخير على مصر ومدينة الإسكندرية أيضًا، حيث نرى مجددًا أفواجًا من البشر من جميع بلاد الأرض تجعل من الإسكندرية موطنًا وهدفًا لها، حيث ازدهرت التجارة مرة أخرى عن طريق ميناء الإسكندرية الذى كان المنفذ الكبير لمنتجات الإسكندرية ومصر والشرق. حيث زودت الإسكندرية العالم آنذاك بالمنسوجات من الكَتَّان وورق البردى والزجاج وزيوت الزهور والبذور، وكذلك المراهم الطبية، والخردل وأشياء أخرى كثيرة لا مجال لإحصائها كانت تصدرها مصر إلى العالم آنذاك عن طريق ميناء الإسكندرية[٢٨]. كما أنه جدير بالاهتمام أن مصر كانت غنية بالأحجار وقامت بتصديرها إلى أنحاء العالم القديم. وكانت حرفة تصدير الحجارة من الحرف المهمة والصناعات الرابحة فى مصر[٢٩].

من أمثلة الأحجار التى كانت تقوم مصر بتصديرها عن طريق الإسكندرية الحجر الرملى من بلاد النوبة، حجر الجرانيت الأحمر من أسوان، الحجر الجيرى، الحجر الصخرى، الجرانيت الرمادى من مونس كلاوديانوس، وغيرها من الأحجار التى يتوق مشيدو العمائر من روما وغيرها إلى الحصول عليها، ويسعدون عندما يعودون إلى بلادهم بقطعة منها من أرض مصر.

ومن النفائس والصناعات المهمة التى اشتهرت بها مدينة الإسكندرية دوليًا صناعة البخور، والذى كان يُجلب من جنوب الجزيرة العربية (اليمن). وكانت هناك فى مصانع البخور قواعد صارمة جدًا حتى لا يسرق العمال البخور، حيث كان عليهم خلع ملابسهم قبل الدخول إلى العمل فى المصنع وارتداء ملابس أخرى للعمل، وحتى لا يخبئوا شيئًا بهذه الملابس كان عليهم أن يخلعوا هذه الملابس مرة أخرى ويتركوها فى مكان العمل ويخرجوا من المصنع عراة!

لقد كان عمل السخرة فى مصر شيئًا معتادًا منذ أيام الفراعنة، حيث قام الرومان بنفس الشيء عندما كانوا يأتون بالعمال من جميع أفراد الشعب المصرى كى يقوموا بالأعمال الصعبة فى محاجر الألبستر بالقرب من الإسكندرية لمدة ثلاثة شهور كل عام. ولكن هؤلاء القرويين كانوا يبقون فى الإسكندرية بعد انتهاء مدة الشهور الثلاثة هذه؛ حيث كانت مدينة الإسكندرية بالنسبة لهم أجمل وأهم من قراهم التى عاشوا فيها، كما كانت فرص العمل والكسب فى الإسكندرية أفضل بكثير مما اعتادوا عليه فى بيئاتهم. ولقد عثرنا على خطاب بخصوص هذا الشأن من شخص يُدعى هيلازيون يقول فيه لزوجته الحامل: "اعلمى أننا نحن الآن فى الإسكندرية، أرجوكِ ألا تخافى ولا تنزعجى عندما يعود رفاقى ولا أعود معهم، إننى سأبقى بالإسكندرية، أرجوكِ أن تحافظى على ابننا القادم، بمجرد أن أحصل على أجرى سوف أرسله لك. إذا ولدت ولدًا أبقيه فى قيد الحياة، أما إذا ولدت بنتا، فتخلصى منها"(٣٠).

وبالطبع كانت الفتيات فى القرية آنذاك غير مرغوب فيهن، على النقيض من الفتية الذين كانوا يقومون بالعمل مبكرًا ويجلبون الخير لأهلهم، بينما الفتيات

كن عاجزات عن القيام بأى عمل يدوى صعب. هذا الخطاب يعطينا فكرة عن أن القرويين كثيرًا ما كانوا يهربون من قراهم إلى الإسكندرية بحثًا عن حياة أفضل.

**ما أكثر هذه الفضائل والمزايا! مدينة الحامية العسكرية نيكوبوليس**

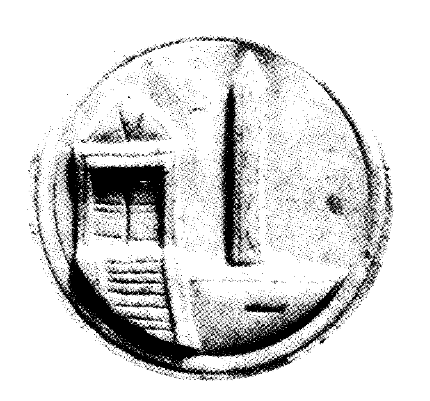
إن الواقع يقول إن مصر وقعت تحت الاحتلال الرومانى منذ مجيء قيصر إليها، حيث ترك بها حامية تكونت من أربع كتائب عسكرية كانت تقوم بحماية كليوباترا وحكومتها، وفى الوقت نفسه مراقبتها. وعند مجيء أغسطس إلى الحكم، فإنه خفض هذه الحامية العسكرية إلى ثلاث كتائب ثم بعد ذلك خُفضت إلى كتيبتين فقط. ولكن الوجود الرومانى العسكرى كان يزداد أو يقل بالإسكندرية حسب حالة البلاد الأمنية[٣١]، على سبيل المثال فيما بين عامَىْ ٦٤-٦٧ ميلادية، وصل عدد الجنود الرومان بالإسكندرية إلى ٢٠٠٠ جندى وذلك نتيجة لثورات اليهود بالمدينة. وفى عام ٦٦ ميلادية، جاءت إلى الإسكندرية كتيبة رومانية أخرى، حيث أراد نيرون الزحف من هناك إلى إثيوبيا ولكنه لم يفعل شيئًا لأنه غير رأيه.

لقد كانت هناك كتيبتان رومانيتان تتمركزان فى معسكر مزدوج فى منطقة نيكوبوليس بالإسكندرية؛ هاتان الكتيبتان قامتا بإخضاع ثورة اليهود بالإسكندرية فى الأول من يوليو عام ٦٩ ميلادية، وذلك بصورة وحشية ودموية. وكانتا تخضعان لأوامر فسباسيان، الذى كان آنذاك حاكمًا على مصر، ثم تولى العرش إمبراطورًا فى روما. لقد غادرت هاتان الكتيبتان مصر فى بداية القرن الثانى الميلادى وحلت محلهما كتيبة واحدة، حيث رأى الإمبراطور أنها كافية لحفظ النظام فى البلاد، حيث إن مصر لم تكن مهددة من أى جهة.

أما مدينة نيكوبوليس التى أسسها أوكتافيوس، فقد كانت تبعد عن الإسكندرية بمسافة ٥,٥ كيلومتر أى ٣٠ ستاديا، بجوار المقابر البطلمية وبالقرب من منطقة أليوسيس، حيث المكان الذى انتصر فيه على مارك أنطونيوس، كما أنه أسس مدينة أخرى فى منطقة أكتيوم باليونان وأسماها أيضًا

نيكوبوليس، ولكن هذه المدينة التى أسسها بالإسكندرية لم تكن على غرار نيكوبوليس اليونانية، بل إن نيكوبوليس السكندرية كانت معسكرًا للجيوش الرومانية أكثر منها مدينة سكنية. إلا أنها تشابهت معها فى أنها كانت مركزًا لدورات رياضية كانت تُعقد كل خمس سنوات فيها، ومن أشهر الفائزين فى تلك المسابقات شخص يُدعى تيتوس (٧٩ ـ ٨١ م) كان مشرفًا على خدمة معبد الإله فى الإسكندرية، وفى الوقت نفسه منظمًا لتلك الألعاب والمسابقات[٣٢].

لقد كانت نيكوبوليس تقع على شاطئ البحر وكان لها استاد خاص كما كان لها مسرحها الخاص بها، وكان بها ميدان عام خاص بها للندوات والاجتماعات. ولقد عُثر على قطعة من أحجار اللعب تصور شكل الميدان، وعلى أحد أوجهها وجدنا اسم المدينة نيكوبوليس والوجه الآخر منظر لهذا الميدان (شكل ٢٨). وكان هناك ولع شديد فى الإسكندرية بأحجار اللعب هذه والتى كان بعضها يُصنع من العظام وسن الفيل، وبعضها كان يُصور عليه مناطق معينة أو أشكال الآلهة أو أعياد المدينة[٣٣].



(شكل ٢٨): ميدان ضاحية النصر بالإسكندرية.

ويظهر من هذا الشكل منظر معبد كما نرى أيضًا سُلمًا ومسلة، فوق هذه المسلة بقايا كلمات كُتبت بالهيروغليفية. وقد سُمى هذا الميدان بمدينة نيكوبوليس على اسم أوكتافيوس. أما المسلة سابقة الذكر، فقد أخذها غالبًا الإمبراطور كاليجولا إلى روما ووضعت فى موضع الفاتيكان الآن، ومنذ ذلك الحين أصبح يُطلق على هذه المسلة اسم "مسلة الفاتيكان" التى تُعد من أهم المزارات السياحية. ثم إنه ما بين الإسكندرية ومدينة نيكوبوليس كان هناك الكثير من الفيلات التى يمتلكها الموظفون الرومان الكبار.

تلك المدينة التى أنشأها أوكتافيوس بمناسبة انتصاره على غريمه أنطونيوس، جعل لها أيضًا بوابة كبيرة أسماها باب الشمس يخرج منها جنوده

إلى مدينة الإسكندرية فى الحالات التى تستدعى وجودهم. ومن الملاحظ أن الجنود لم يكونوا يتدخلون فى حياة العامة بالمدينة، بل كانوا بمعزل عنهم ولا يتعرضون للناس بأذى. لقد ظل الجنود الرومان فى هذه المدينة حتى عام ٢١٥ ميلادية، عندما أمر كاراكالا بنقل معسكرهم إلى الإسكندرية. وبانتقال معسكر الجنود الرومان إلى الإسكندرية، طبع هؤلاء الجنود صورة المدينة بطابع عسكرى، وأصبح وجودهم الكثيف بها علامة مميزة تضاف إلى العلامات البارزة بمدينة الإسكندرية. وقد عثرنا على نص فى إيطاليا يتحدث فيه شخص عن ترقيته بمدينة الإسكندرية من الإمبراطور أنطونيوس بيوس إلى رتبة قائد بمدينة الإسكندرية[٣٤].

لو أردنا عمل تصور للوجود العسكرى الرومانى وتأثيره فى الإسكندرية، فيجب أن نعلم أولاً أن تعداد الجيش الرومانى بالإسكندرية بلغ نحو ٢٠ ألف جندى فى عصر الإمبراطور هادريان، بالإضافة إلى ١٢ألف جندى وهو تعداد الكتيبتين الرئيسيتين، ثم جاء إليهم ٨٠٠٠ جندى مساعد. ولنا أن نتخيل أن هؤلاء الجنود الرومان، كانوا يتقاضون أجورًا ممتازة كما كانت لهم خيولهم وحيوانات أخرى لنقل أمتعتهم، كما أنهم كانوا فى حاجة دائمة إلى طعام وملبس. كل هذا أدى إلى رواج اقتصادى كبير بمدينة الإسكندرية، كما أدى إلى إيجاد فرص عمل كثيرة للسكندريين أيضًا.

كما أن الجنود أنفسهم تمتعوا بأفضل المزايا، وكانوا ذوى مستوى معيشى مرتفع، وقد وصل إلينا نص من إيطاليا يخبر عن مدى المزايا التى تمتع بها الجنود الرومان يقول: "من يستطيع تعداد المزايا التى يتمتع بها الجندى المحظوظ؟ أنت أيها الجندى السعيد لا يجرؤ مدنى أن يمد يده إليك بسوء، بل العكس أنت الذى تضرب وجهه، وتجرح حاجبه، وتجعل هالات زرقاء تحت عينيه، وتحطم أسنانه. إن المدنى يخاف من عقابك إذا ذهب بعد ذلك إلى القاضى شاكيًا، إن ما يتبقى للمدنى بعد ذلك هو أمل ضعيف فى أن يعالج الطبيب ما أصابه"[٣٥].

ونظرًا للمزايا التى تمتع بها الجنود فى كل مكان، فقد رغب الكثيرون فى الانضمام إلى الجيش، وهكذا تصبح الإسكندرية من جديد مركز جذب بشرى،

وجاء الشباب من جميع الأقطار المصرية: شمالها وجنوبها راغبين في الانضمام إلى الجيش. وقد كان ذلك في القرن الثاني الميلادى.وهنا عثرنا على نصوص توضح أن كل جندى قد حاول أن يجد مكانًا معه لأخيه أو صديقه من أبناء قريته مثل هذا الذى جاء من قرية بالفيوم وأرسل إلى صديقه في نفس القرية كي يأتي له إلى الإسكندرية(٣٦). وبالطبع، فإن حياة الجندية آنذاك كانت بالنسبة لهم أفضل بكثير من العمل في الزراعة وتربية الماشية والعمل بالسخرة لدى الرومان. وقد كان حلمًا كبيرًا لدى هؤلاء الجنود أن يصل الواحد منهم لرتبة مساعد ضابط، وهو ما يُسمى اليوم "رقيب أول" (جاويش). وحتى عصر الإمبراطور سبتيميوس سيفيروس (١٩٣ ـ ٢١١ ميلادية) لم يكن مسموحًا للجنود بالزواج بصورة رسمية؛ ولكن واقع الأمر يقول إن الجنود كانت لهم عشيقات يعشن بالقرب من معسكر الجيش، وقد أنجبن منهن أطفالاً أيضًا. ولنا أن نتصور مدى تأثر المحال الصغيرة وأصحاب الحرف عندما يتم سحب إحدى الفرق من العاصمة.

أما في شرق مدينة الإسكندرية، فكانت هناك مقابر الجنود وذويهم. وقد عُثر على الكثير من شواهد القبور التى ضمت جنودًا ومدنيين من المصريين واليونانيين مكتوبة بالحروف اللاتينية، وهو ما يكشف عن فخرهم بانتمائهم لوحدات الجيش، وكانت هذه الشواهد توضح ماهية المُتوفى والعمل الذى كان يقوم به وكذلك قوميته.

وبمناسبة القبور وشواهدها، فإن أهل المتوفى كانوا يحرصون على عمل شاهد قبر له من المرمر، لذلك كان هذا الحجر غاليًا ونفيسًا حيث كان يتم استيراده. وقد عثرنا على شاهد حجر من المرمر لشخص يونانى يُدعى تيموكراتيس من منتصف القرن الثاني الميلادى، الذى يروى أنه تعرف إلى زوجته في قلقيليا بآسيا الصغرى وتزوجها وأحضرها معه إلى الإسكندرية بمصر. وقد تُوفيت زوجته هذه وهى في الخامسة والثلاثين من عمرها(٣٧). عند ذلك كتب على شاهد قبرها اسمها أوريليا يوليا وأنها من منطقة قلقيليا (انظر شكل ٢٩).



(شكل ٢٩):
شاهد قبر يوليا
إيبيكتيسيس.

ويبدو أن هذا النُّصب التذكارى قد صُنع غالبًا فى القرن الثالث الميلادى، عندما سمح الأباطرة الرومان للجنود بالزواج أثناء الخدمة العسكرية. وبالعودة إلى قبر يوليا السابق نلاحظ من خلال الشكل أنها قد لُفّت فى ثوب من القماش يعلوه معطف فوق جسدها يضيق شيئًا ما أسفل منطقة الصدر، وفى يدها اليسرى تحمل شيئًا من الحلى، ويدها اليمنى مرفوعة إلى أعلى نحو زوجها للتحية والوداع. بجوار منها نرى صورة لابنها الذى تُوفى وهو فى الثانية عشرة من عمره ويُسمى ماركوس أوريليوس باولوس، وهو يرتدى معطفًا يمسكه بيده اليمنى أما اليد اليسرى فيمسك بها لفافة بردى، ويبدو هنا أصغر

حجمًا من أمه وذلك تعبيرًا عن سنه الصغيرة. وعلى نُصُب آخر (شـــكل ٣٠) ويرجع غالبا لنفس الفترة[٣٨]، فإننا نرى منظرًا لأب اسمه فاليرينوس أرسونكيو أشار لنفسه على أنه فارس، وقد صُوِّر ابنه ذو الأشهر السبعة بـــنفس الهيئـــة والألقاب العسكرية. ونرى على شاهد القبر الابن يرتدى زيًا قصيرًا وفى يـــده اليمنى حربة، وعلى كتفيه عباءة الفرسان ترفرف من شدة الهواء، وهو يمتطى جوادًا يركض. ويستطيع المرء معرفة عمر الطفل الصغير من خلال ملامـــح وجهه. ويبدو أن الوفاة المبكرة للطفل فاليرينوس، قد بددت آمال والديه فى أن يكون له مستقبل فى الجندية.




(شكل ٣٠): شاهد قبر فاليرينوس.

### النزهة الثانية عبر معبد وقناة قيصر بالإسكندرية

أثناء الحرب الطاحنة التى دارت بين قيصر وبطلميوس الثالـــث عـــشر، والتى عُرفت بحرب الإسكندرية، قام قيصر بتخريب وتدمير أجزاء كبيرة مـــن

المنشآت البطلمية بالإسكندرية[٣٩]، بل إنه دمر منطقة فاروس وأحرق أجـزاء كبيرة منها، كما أن شبكة المياه الخاصة بالهيباستاديا أصبحت عديمة النفع ثـم تهاوت بعد ذلك. وعلى أثر ذلك قام القياصرة الرومـان خـلال القـرن الأول الميلادى باستحداث منصب جديد بمدينة الإسكندرية ومهمة صاحبه هى الاهتمام بالمبانى والمرافق التى تم تدميرها والنظر فى إعادة ترميمها وبنائها، وأُطلـق على هذا الشخص لقب" مدير فاروس"[٤٠] وكان مسئولا عن شئون الميناء. ومن الأعمال المهمة التى قام بها هو شق قناة لسير السفن تقع شـمال الهيباسـتاديا مكان القناة القديمة التى ردمها قيصر، حيث إن القناة القديمة كانـت معرضـة دائمًا للانسداد والردم، وكان لا بد للمرء من إعادة حفرها وتنظيفها. لهذا كـان من الأفضل والأسهل شق هذه القناة الجديدة عوضًا عن هـذه القديمـة كثيـرة الأعطاب والسدد[٤١].

وبالطبع، فإن أول من قام بأعمال الترميم وإعادة البناء بالإسكندرية بعـد انسحاب الرومان كانت كليوباترا التى جاءت مباشرة إلى الحكـم بعـد حـرب الإسكندرية، ونظرًا لأن الترميمات الكبيرة بالإسكندرية تُنسب إلى كليوبـاترا؛ فإنها اشتهرت فى التاريخ بلقبها المعروف "البنَّاءة الكبرى". كما أن الإمبراطور أغسطس قام أيضًا بترميم الكثير من الأماكن بالإسكندرية، ويُنسب إليه أيـضًا إنشاء المدينة الجديدة فيابوليس والتى ذكرها المؤرخون فيما بعد، ومن الأشياء المهمة التى قام بها أنه قام بإعادة بناء منطقة قبر الإسكندر، وأخذ جزءًا كبيـرًا منها وجعل منه مخازن غلال الإسكندرية. وبالطبع، فإن منطقة مخازن الغلال هذه كانت قريبة من قبر الإسكندر مؤسس المدينة، ولكنه لم يمس قبر الإسكندر بسوء.

وأُحيطت المنطقة كلها بمجموعة من الأسوار لحماية ما بها من أشياء ثمينة ومن بين ذلك الحبوب، وكان يوجد بفيابوليس صومعة ضخمة للغـلال ظلـت مستخدمة لفترة طويلة فيما بعد.

وبالطبع، فإن أغسطس ترك أسطولاً بالقرب من مدينة الإسكندرية لحماية مخازن الغلال التى كانت الطعام الرئيسى لروما، ثم إنه فى عصر كومـودوس أرسل أسطولاً آخر لحماية مخازن الغلال والبواخر المحملة بالغلال فى طريقها

إلى روما (١٨٠ ــ ١٩٢ م ). وكان تأمين الغذاء لروما من أهم أولويات القيصر.

أما المبنى الوحيد الذى ظل كما هو دون تهدم ودون تغيير فى مدينة الإسكندرية وذلك حتى القرن التاسع عشر، فهو معبد قيصر الذى أمرت كليوباترا ببنائه بعد مقتله فى روما وذلك لكى يُعبد على أنه إله، وفى الوقت نفسه كى تذكِّر الناس بوالد ابنها قيصر الإله. ولكن بعد أن احتل أوكتافيوس الإسكندرية كرس المعبد لنفسه، ولكن بقى المعبد محتفظًا باسم قيصر وكذلك بوظيفته. ومنذ العصر الأوغسطى كُرس المعبد لعبادة أغسطس، الآلهة الرئيسية والأباطرة الأحياء(٤٢).

وبالرغم من تحفظات المؤرخين والكُتّاب على عبادة القياصرة الرومان وتأليههم أنفسهم، فإن هناك فيلسوفًا يهوديًا كتب مقطوعة غنائية يمتدح فيها معبد قيصر، هذا الفيلسوف اليهودى اسمه فيلو ويقول فى هذه الأغنية: "لا يوجد فى أى مكان على الأرض معبد جميل لعبادة قيصر سوى فى مدينة أجدادى الإسكندرية، التى تتمتع بميناء جميل وفسيح. هذا المعبد ملىء بالهدايا والقرابين من لوحات وتماثيل بعضها من ذهب والبعض الآخر فضة. يا له من مكان فسيح يستطيع المرء التحليق به، يحتوى على المكتبات والأجنحة والحدائق بالأشجار النادرة، به البوابات العالية الشاهقة، الأفنية المكشوفة، كل شىء مزين بسخاء وترف دون تقتير، كما أن المعبد يتمتع بالأمان، ولا يشعر المرء بالخوف عند الدخول أو الخروج منه". وهكذا راحت الدعاية تروج لأغسطس بأنه جاء إلى مصر كى يخلص الشعب والناس من ذل العبودية لكليوباترا. ثم إن أغسطس أصبح بطريقة فريدة إلهًا حاميًا لميناء الإسكندرية والبحارة فى البحر. وقد انتهج جميع الأباطرة نهجه، وجعلوا من أنفسهم أيضًا آلهة حامية لميناء الإسكندرية والبحارة. على الجانب الآخر كان معبد قيصر وكذلك سوق الإسكندرية، من أحب الأماكن للمتسولين الذين كانوا دائمًا يأملون فى المساعدة من ذوى القلوب الرحيمة.

ويقول المؤرخ بلينيوس إن معبد قيصر بالإسكندرية كان يتقدمه مسلتان مصريتان تعودان إلى عهد الملك المصرى تحتمس الثالث (١٤٥٧ ـ ١٤٢٥

ق.م.)، ارتفاع كل منهما ١٨,٦ مترًا[٤٣]. هاتان المسلتان أمر أغسطس بإحضارهما إلى الإسكندرية. فى العام ١٨ من حكم قيصر ويقابل العام ١٣ ق.م. من حكم أغسطس، تم إحضار المسلتين فى عهد الوالى بارباروس الذى كان آنذاك حاكمًا على مصر من قِبل الرومان، أما المهندس الذى قام بهذا العمل فيُدعى بونتسيوس[٤٤]. هاتان المسلتان اشتهرتا فى الآداب العالمية بعد ذلك تحت اسم "مسلتا كليوباترا". فى عام ١٨٧٧، نقل الإنجليز إحدى هاتين المسلتين إلى لندن، وفى عام ١٨٧٩ حصل الأمريكان على المسلة الأخرى، وهى تقف الآن فى أهم ميادين نيويورك (شكل ٣١). وهذه المسلة الأخيرة والتى ظلت باقية رغم الزلازل والأعاصير والحروب قد خُلدت فى كثير من الخرائط والصور، ومن بينها صور العالم الأثرى تيريش الذى صورها قبل نقلها مباشرة.



(شكل ٣١): مسلة كليوباترا.

وإذا عدنا مرة أخرى للوراء إلى تلك القناة التى شقها الرومان عوضًا عن القناة التى ردمها قيصر، فإنها كانت تمتد من الغرب إلى الشرق وقد ربطت الإسكندرية بمنطقة شديا غرب فرع النيل الكانوبى. هذه القناة أُطلق عليها اسم

قناة قيصر، كما جاء على نص التشييد عام ١٠ و١١ الميلاديين[٤٥]. فى منطقة تلاقى القناة مع فرع النيل عثرنا على لوحة حجرية تقول إن طول القناة يبلغ ٢٥ ميلاً، أى ٣٧ كيلومترًا. ترجمة النص كالتالى: "القيصر أغسطس ابن الإله والكاهن الأكبر قد حفر القناة فى منطقة شديا لمسافة تصل إلى ٢٥ ميلاً عبر المدينة بأكملها، وذلك تحت حكم الوالى جايوس لوليوس أكوالو فى العام الأربعين من حياة قيصر"[٤٦]. وتتفرع قناة شديا هذه فى اتجاه شمالى جنوبى داخل الإسكندرية إلى ثلاث قنوات أخرى؛ واحدة عند ميناء إينوستوس وواحدة عند الميناء الكبير، والثالثة فى اتجاه كانوب. وكانت هناك قناة للماء العذب تجرى عند الناحية الشمالية الشرقية من أسوار المدينة ثم تنتهى عند الميناء الكبير، وكانت تُعرف باسم قناة نيفروتيس وهى تفصل الجزء Δ ( دلتا) عن بقية أجزاء المدينة. أما المنطقة الغربية من قناة شديا والتى شملت أيضًا الميناء، فكانت تبعد عن مدينة الإسكندرية بحوالى ٣ كيلومترات، وقد سُميت هذه المنطقة باسم مدينة يوليوبوليس نسبة إلى الإمبراطور أغسطس، تمامًا مثل مدينة نيكوبوليس أيضًا التى كانت تذكّر الناس بنصر أغسطس على كليوباترا والإسكندرية ومصر. وعلى النقيض من مدينة نيكوبوليس العسكرية، جاءت مدينة يوليوبوليس التى كانت بالدرجة الأولى مدينة سكنية وميناء ومحطة ينتهى امتدادها عند جمركية الناحية الأخرى من قناة شديا.

ومن مدينة يوليوبوليس هذه حيث كان يوجد ميناء الإسكندرية، كانت البواخر تبدأ إبحارها فى النيل متجهة إلى الجنوب، كما أخبرنا المؤرخ بلينيوس[٤٧]. كما أن هذا الميناء انطلقت منه السفن التجارية التى أبحرت إلى الهند محملة بالبضائع بصفة خاصة بعد أن استطاع أحد الباحثين فى جامعة الإسكندرية يُدعى هاربالوس تحديد رياح مونسون ووصف أثرها على مسار السفن فى اتجاه الهند، ومنذ ذلك الحين بدأت تقلع السفن فى شهر يونيو من ميناء يوليوس بالإسكندرية حتى مدينة قفط بالجنوب عبر النيل وكانت المسافة ٤٦٠ كيلومترًا، كانت تقطعها السفن فى ١٢ يومًا، أما المسافة التى بلغت ٣٨٠ كيلومترًا تجاه البحر الأحمر عبر الطريق البرى فكانت الجمال تقطعها فى ١٢

يومًا ونصف اليوم. وقد كانت تلك الرحلات فى أشهر الصيف الحارة: يونيو ويوليو، حيث كان المسافرون يمكثون طوال النهار بجوار بئر مياه فى الصحراء وفى الليل يواصلون السير. أما رحلات الهند فكانت تبدأ دائمًا فى ١٩ يوليو من كل عام، متحركة من ميناء برنيكى على البحر الأحمر متجهة إلى الهند، ومع نهاية شهر سبتمبر كانت البواخر تصل إلى الهند. بعد ثلاثة شهور كانت المراكب تعود مرة أخرى إلى الإسكندرية، وبالتحديد يصل المسافرون أرض الوطن فى الفترة ما بين فبراير وأبريل من العام التالى .

عند عودة البواخر من الهند إلى ميناء برنيكى (القصير)، كان الموظفون يبدءون أعمالهم الإدارية البيروقراطية، ويتم فرض الضرائب على البضائع القادمة من الهند، حيث كانت الضريبة تبلغ ٢٥% من قيمة البضائع المجلوبة من الهند. وحول هذا الشأن وصل إلى أيدينا نص يرجع إلى القرن الثانى الميلادى.هذا النص عبارة عن عقد بين تاجر وشركة شحن، حيث وصلت البضائع الخاصة بالتاجر إلى ميناء موزيرى على البحر الأحمر، وقد تعهد صاحب شركة الشحن بنقل هذه البضائع للتاجر وباسمه وخاتمه وحراسه إلى منطقة قفط، حيث يتم شحن البضائع مرة أخرى على سفن راسية فى النيل تتجه بالبضائع إلى الإسكندرية، حيث يتم خصم ٢٥% من قيمتها لصالح الضرائب. ولقد كانت قيمة البضائع الواردة من الهند فى هذه الحالة نحو سبعة ملايين سيسترسن[٤٨]. وهذا يؤكد كلام المؤرخ بلينيوس الذى كان يرى أن قيمة التجارة بين الإسكندرية والهند كانت تبلغ ١٠٠ مليون سيسترسن. ويردف قائلاً إن أرباح هذا المبلغ كانت تعادله بمائة مرة، وربما كان بلينيوس مبالغًا فى هذا التقدير.

ولم تكن التجارة مع الهند فقط، بل كان هناك تبادل تجارى مع الصين أيضًا، حيث إن هناك نقشًا يرجع إلى عام ١٦٦ الميلادى، يصور بعثة مرسلة من طرف الإمبراطور ماركوس أوريليوس أنطونيوس وقد أوصلت هدية من طرف الإمبراطور الرومانى إلى نظيره الصينى.هذه الهدية كان من محتوياتها ميدالية ذهبية عليها نقش باسم الإمبراطور الرومانى. وقد عُثر فى مصادفة جميلة على ميدالية ذهبية قرب سايجون (فى فيتنام). تلك اللقية ربما كانت

لمجموعة من البحَّارة جاءوا من الإسكندرية ووصلوا الصين عبـر الهنـد(٤٩). وهنا لا بد لى من العودة إلى العصر البطلمى مرة أخرى وبالتحديد منتـصف القرن الثانى الميلادى، حيث تم حفر قناة لكى تربط بين النيل وميناء سليما(٥٠) (السويس الحالية). ولقد ازدادت أهمية تلك القناة خلال القرنين الثالث والرابـع الميلاديين، وذلك لأنها كانت الطريق المباشر بين النيـل ومدينـة الـسويس، وخصوصًا بعد أن دُمرت مدينة قفط أثناء ثورة عام ٢٩٨/٢٩٧ وأصبح طريق القوافل، الذى كان يبدأ من قفط وينتهى عند ميناء برنيكى، غير آمن(٥١).

وإلى جانب القناة الكبرى الممتدة شرقًا وغربًـا فـى الإسـكندرية، أمـر أغسطس جنوده بحفر قنوات أخرى تربط موانى الإسكندرية بعضها بـالبعض الآخر وتيسّر عملية نقل الغلال من الإسكندرية إلى روما(٥٢).

وبالرغم من أنه كانت هناك تطورات فى بناء مدينة الإسـكندرية، إلا أن شوارع الإسكندرية الواسعة ظلت محتفظة بأسمائها القديمة من ملوك البطالمـة السابقين. وبالرغم من أن الإسكندرية قد حدث بها بعض التطور فـى الـشكل العام ، فإنها ظلت كما كانت مدينة عالمية كبيرة، كذلك ذات شهرة واسـعة، إلا أنه لم يعد لها البريق الذى كان لها فى العصر البطلمى. وغـدت الإسـكندرية تشتهر أكثر بأنها مخازن للغلال، أى "برخيوم" بالرومانية القديمة، فـى تعبيـر تهكمى من شعب الإسكندرية، لدرجة أن المؤرخ أيبيفيلفوس من القرن الرابـع الميلادى كتب يقول إن بطلميوس الثانى قد أنشأ المكتبة فى مخـازن الغـلال (برخيوم)، ويعنى بذلك مدينة الإسكندرية(٥٣).

**المنقذون: أصحاب الفضائل ــ الآلهة الأحياء**

إن آخر ملوك مصر ــ كليوباترا ــ قد قامت ببناء معبد لقيصر ووضـعت به تمثالاً له لكى يُعبد فى المعبد على أنه إله. هذا المعبد لجأ إليـه أنطونيـوس محتميًا بتمثال قيصر الإله، وذلك بعد أن خسر الحرب ضد أوكتافيوس. ولكـن تمثال قيصر لم يوفر له الحماية ولم ينقذ حياته من غريمه.

فى عامَىْ ١٢، ١٣ ق.م.، أُدخلت عبادة أغسطس(٥٤) معبد قيـصر وتـم تكريس عبادته مع عبادة قيصر على أنه إله أيضًا، واحتُفل بهذه المناسبة مـن

قِبل البحارة فى مدينة بوتيه أوليه الإيطالية. وكان من أغانى البحارة أغنية تقول: بك نحن نحيا، بك نبحر فى البحر، وبك نتمتع نحن بالحرية والرفاهية(٥٥).

وهكذا جعل الرومان أيضًا من الحاكم إلهًا وصنعوا تمثالاً صغيرًا من الزجاج الغامق لرأس الإمبراطور أغسطس لا يتعدى حجمه ٣ سم (شكل ٣٢). وقد ظلت عادة صُنع تماثيل صغيرة لرؤوس الحكام سائدة لفترة طويلة من الزمن فى الإسكندرية.

ولكن أول الأباطرة الذى صُنع له رأس تمثال، كان يوليوس قيصر(٥٦)، والذى سُمى على اسمه شهر يوليو من التقويم الميلادى، حيث ولد بهذا الشهر. كما أن الشهر الثامن والذى كان يُطلق عليه سابقًا سيكتيلس أصبح يُسمى أغسطس، أى رمزًا لشهر نصر أوكتافيوس على كليوباترا فى هذا الشهر.

(شكل ٣٢): رأس الإمبراطور أغسطس.

ولأننا قد عثرنا على الكثير من أوراق البردى الخاصة بهذه الحقبة، فإننا نعلم الكثير عن التقويم المصرى وأسماء الشهور آنذاك. كما نعلم منها الكثير عن القياصرة والحكام الذين حكموا مصر آنذاك. كما أن هناك أسماء بعض القياصرة الذين كان لهم دور فى عمل وتحديث التقويم المصرى، وهم حسب القائمة كالتالى: أغسطس ــ تيبيريوس ــ كاليجولا ــ نيرون ــ دوميتيان ــ هادريان ــ أنطونيوس بيوس. وإنه لمعلوم لدينا أن أغسطس، وتيبيريوس، وكاليجولا قاموا ببعض التغييرات فى التقويم المصرى استمرت حتى القرن الثالث الميلادى. حتى هذا التاريخ كان يُطلق على الشهر الذى ولد

فيه أغسطس والذى يقابل الشهر الأول فى التقويم المصرى اسم سيباستوس. كما أنه فى عصر الإمبراطور تيبيريوس أصبح اسم شهر ميلاده نيوس سيباستوس (نيو أغسطس). وحتى عصر الإمبراطور كاليجولا كان اسم هذين الشهرين قد انتشر وشاع. وعند مجىء كاليجولا إلى الحكم قام بتغيير أسماء الشهور العشرة الباقية وأسماها على أسماء أفراد أسرته كالتالى: كايسرايوس على اسم (يوليوس قيصر)، ثيوجينايس من اسم (قيصر أغسطس)، نيرونايس (اسم نيرون أخى كاليجولا شخصيًا)، دردسايس على اسم (دردسس أخى كاليجولا)، جيرمانيكايوس من اسم (جيرمانيكوس ـ اسم كاليجولا)، أجريبانايوس من اسم (أجريبنيا أخت كاليجولا)، لولايوس من اسم (ليفيلا ـ أخت كاليجولا)، دروسيلليوس على اسم (دروسيلا أخت كاليجولا)، وسوتر من اسم المنقذ (شكل ١٢). من كل هذه الأسماء بقى اسمى جيرمانيكايوس وكايسرايوس حتى القرن الثالث الميلادى. أما الشهر الذى ولد به نيرون فقد أُطلق عليه اسم نيرونايس أغسطس. وقد استمر هذا الاسم طوال فترات الحكم القيصرى. أما دوميتيان، فقد جعلوا من اسمه دوميتيانوس وسوتيريوس، وجيرمانيكوس. هذه الأسماء لم تعش طويلاً. أما اسم هادريان والذى أُطلق عليه هادريانوس، فقد بقى حتى القرن الثالث الميلادى. أما اسم الإمبراطور أنطونيوس بيوس فقد جعلوا له اسم سيباستوس بيوس ووضعوه على أحد الشهور؛ ولكن هذا الاسم اختفى بسرعة ولم يبق.

كما أن القياصرة الرومان استغلوا العادات المصرية القديمة فى تأليه الحاكم، ولهذا لم يكن صعبًا فى مصر أن يدّعى القياصرة الرومان بأنهم أيضًا آلهة، وصنعوا التماثيل لأنفسهم ووضعوها فى المعابد كى يقوم الشعب بعبادتهم. وروَّج الكهنة بأن عبادة القيصر تضمن الصحة والشفاء والخير والنماء وكل الخير لشعب مصر، بالرغم من أن الشعب السكندرى لم يكن يؤمن بذلك.

ولكن هذا الشعب كان يعطى الإيحاء للرومان بأنهم يؤمنون بألوهيتهم حتى إنه عندما قام القائد الرومانى جيرمانيكوس بزيارة الإسكندرية، قام الشعب السكندرى بتحيته والهتاف له فى شوارع الإسكندرية على أنه إله وليس بشرًا. تلك الرحلة لم يكن مرغوبًا فيها من قبَل الإمبراطور تيبيريوس، وعندما لاحظ

جيرمانيكوس أن شعب الإسكندرية استقبله هذا الاستقبال، خطب الأخير خطابًا قال فيه: "أشكركم وأحييكم أينما أراكم ولكن هتافكم لى وتحيتكم لى على أننى إله فهذا أرفضه تمامًا لأننى لست إلهًا، وإن الجديرين بهذه التحية والهتاف هم الآلهة الحقيقيون المنعمون والمنقذون للبشر، وهم الإمبراطور تيبيريوس والدى ووالدته ليفيا جدتى"[٥٧]. كما أن السكندريين قاموا بعمل تمثال لجيرمانيكوس، مما أثار حفيظة الوالد الإمبراطور تيبيريوس وقال إن زيارة جيرمانيكوس هذه للإسكندرية كانت السبب فى مقتله فيما بعد[٥٨].

جايوس المعروف باسم كاليجولا (٣٧ ــ ٤١ م) وخليفة تيبيريوس، هذا الرجل سار على نهج سابقيه من تأليه نفسه فى حياته ومناداة الناس لعبادته. إن هذه العادة المصرية القديمة كانت تعجبه كثيرًا واستمتع بها واستغلها أحسن استغلال. وقد كان هناك رجل خاص بعبادة كاليجولا على أنه إله، هذا الشخص اسمه لوسيوس فيتيليوس، حيث كان أول من قام بتأليه كاليجولا. وكعادة الكهنة وهم يقدمون القرابين نراه وقد صوروه يقترب من كاليجولا وهو يضع غطاء على رأسه، ويقبل الأرض بين يديه[٥٩].

وفى العصر الرومانى، أصبح تأليه الملوك وسيلة طيبة للسكندريين كى يعبّروا عن ولائهم للقيصر ويضمنوا بذلك عطفه ورعايته. وقد ظهر هذا بوضوح فى صيف عام ٣٨ عندما وقعت صراعات بين اليونانيين السكندريين واليهود، ونتج عن ذلك أن السكندريين أرسلوا بعثة إلى قيصر بروما برئاسة شخص يُسمى آبيون. وراح آبيون يبين للإمبراطور مدى ولاء الشعب السكندرى له ولعبادته كإله، وأن الشعب السكندرى يقوم بعمل التماثيل والمعابد للإله كاليجولا ويقدم لها القرابين والصلوات باستمرار، على عكس اليهود الذين لا يقومون بذلك ولا يعبدون الإمبراطور كاليجولا ولا يعتبرونه إلهًا ولا يحلفون باسمه.

يقول المؤرخ[٦٠] فيلو إن الإمبراطور كاليجولا عزم على زيارة الإسكندرية، وراحت المدينة تتزين وتستعد لاستقباله، كما أخبر المؤرخ فيلو، وأن المدينة بالغت فى وصفه على أنه الإله الذى لا يضارعه إله آخر.

أما كاليجولا نفسه فقد عزم منذ وقت طويل على زيارة مصر، حيث إنه مع بداية العام ٤٠ الميلادى راحت التجهيزات والدعاية تتحدث عن ذلك، وهذا يعطينا صورة واضحة عن مدى أهمية مصر والإسكندرية بالنسبة للأباطرة الرومان. ولكى يقوم كاليجولا بتكريم جده مارك أنطونيوس، قام بمنع الاحتفال السنوى الذى ابتكره أوكتافيوس بمناسبة نصره على أنطونيوس عام ٣١ ق.م. فى أكتيوم، كما أنه عبّر عن تقديره فى روما لعبادة الإلهة إيزيس المصرية فى روما، وراح يعلن عن أنه سوف يعرض ويقدم نفسه بذاته على أنه إله بمدينة الإسكندرية التى كان يعتبرها هو مدينة عظيمة ساحرة.

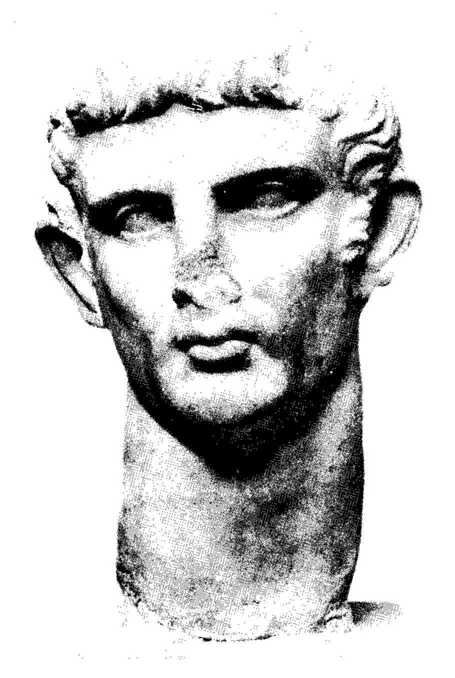
ويروى المؤرخ فيلو ساخرًا أن كاليجولا لم يجد لأفكاره هذه أفضل من الشعب السكندرى ذى الجذور المصرية، حيث إنهم كانوا مستعدين لتقبُّل هذه الأفكار أكثر من نظرائهم اليونانيين، حيث إنهم جعلوا من قديم الأزل من الثعابين السامة وطيور أبى قردان آلهة. إذًا فلا جديد عليهم أن يجعلوا من كاليجولا إلهًا(٦١). وكما أن البطالمة كانوا آلهة فى مصر، فلا غرو فى ذلك أن يجعل الرومان من أنفسهم آلهة فى مصر أيضًا.

إن الشعب الوحيد فى الإسكندرية الذى لم يقبل بألوهية الإمبراطور الرومانى هم اليهود، حيث إنهم يؤمنون فقط بإلههم الواحد الذى لا يقبل معه شريكًا. بالرغم من ذلك تظاهر اليهود باحترامهم للقيصر الرومانى، واحترموه ولكن لم يعتبروه إلهًا. إن اليهود آنذاك كانوا مواطنين سكندريين؛ ولكن فكرهم الدينى وعدم عبادتهم للإمبراطور كبقية الأفراد بالإسكندرية كان دائمًا مثار شكوك وأقاويل كثيرة وجلب عليهم المتاعب أيضًا.

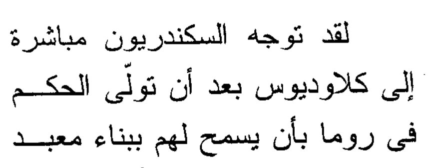
لقد كان هناك حق المواطنة السكندرية، ومن يتمتع بهذا الحق فعليه أن يمجد القياصرة: تيبيريوس كاليجولا أو كلاوديوس. ولما كان اليهود يرفضون تقديس هؤلاء الآلهة الملوك، فكيف يحق لهم المطالبة بالاعتراف بهم كمواطنين؟

ولقد وصل إلينا هنا نص من عام ٤١ ميلادية والذى وافق العام الأول من حكم الإمبراطور الرومانى كلاوديوس يجسد فيه فكرة القيصر الإله الحى، وفيه يقول للشعب السكندرى: "إنه يقبل كل الهبات والعطايا والقرابين من الشعب

السكندرى، سواء كانت هذه القرابين تماثيل أو أشكالاً مربعة أو مكعبة، سواء كانت هذه التماثيل ذهبية أو من خامات حجرية، سواء وضعت له فى جزيرة فاروس أو طابوزيريس أو بلوزيوم، ولكنه (أى القيصر كلاوديوس) يرفض أن يكون له كاهن خاص بعبادته كما يرفض أن يكون له معبد خاص بعبادته، أيضًا. "وذلك حتى لا أكون ثقيلاً على البشر، وأرجو أن تُبنى المعابد وما شابهها للآلهة فقط من بعد حكم التاريخ". وهنا أود أن أعرض رأسًا[٦٢] من المرمر للإمبراطور كلاوديوس عليه آثار تطعيم بالذهب كشأن الآلهة (شكل ٣٣)، وقد كان هذا الرأس موضوعًا على جسم بشرى من الخشب.



(شكل ٣٣): رأس كلاوديوس.



لقد توجه السكندريون مباشرة إلى كلاوديوس بعد أن تولّى الحكم فى روما بأن يسمح لهم ببناء معبد خاص بعبادته كإله بالإسكندرية، وأن يكون بالمعبد كاهن خاص به أيضًا ويكون به مذبح للقرابين. وبالطبع أجابهم الإمبراطور كلاوديوس بالموافقة وقد كان هذا الرجاء فى أول سنى حكمه، وهذا ما لم يكن كلاوديوس نفسه يتوقعه، أن يُؤلِّه فى أول سنى حكمه وقبل أن يحقق أمجادًا تُحسب له، كما أنه حصل على لقب جديد هو "أب أرض الآباء" الذى قبله كلاوديوس فقط بعد مرور عام على تولِّيه الحكم، ثم إنه بعد هذا العام، جاء إلى الإمبراطور رجاء من الإسكندرية يقول إن هذه التماثيل والرؤوس التى قمنا بعملها، نرجو أن تضعها فى أماكنها المقدسة على أنها تماثيل لإله. عند ذلك أجاب كلاوديوس قائلاً: "أنا أسمح بوضع التماثيل الخاصة بى فى المعابد على أنها تماثيل لإله"[٦٣].

بعد وفاة الإله والإمبراطور كلاوديوس بشهر واحد، تم الاحتفال باختيار إله وإمبراطور جديد يكون فاتحة خير للعالم من جديد، هذا الإله الجديد والحاكم المنتظر هو نيرون (٥٤ ــ ٦٨ ميلادية). عند ذلك رأينا المصريين بالإسكندرية وقد نشطوا فى عمل التماثيل مرة أخرى احتفالاً بالإله الجديد نيرون، وراحوا يهيئون الأجواء لقدومه وإيجاد مكانة له وسط الآلهة السابقة من الأباطرة الرومان(٦٤). وراحت الألقاب الجديدة والأسماء المبتكرة تنهال على الإمبراطور الجديد نيرون وتبشِّر بالعهد الجديد، حيث إنهم أطلقوا عليه اسم "جالب السعادة"، "حارس العالم"، "منبت الزروع والثمار"، "جالب الخصب والنماء"، و"مسبب فيضان النيل"، كما نادوا أمه أجربينا بقولهم: "أم الإله"، كما أن السكندريين قاموا أيضًا بسك عملات معدنية لنيرون، تصوره على أنه إله الشمس حامى مدينة الإسكندرية فى شكل الإله آجاثادايمون، وكإله حامٍ لمدينة الإسكندرية فى شكل ثعبان.

كل هذا التبجيل والتعظيم للإمبراطور نيرون من قبَل السكندريين جعل الإمبراطور نيرون فضوليًا وأراد أن يتعرف أكثر على الشعب السكندرى، لهذا أرسل إلى السكندريين يطلب حضور فرقة سكندرية مشهورة بتقديم أداء إيقاعى خالص لزيارة روما. وعندما جاءت تلك الفرقة السكندرية إلى روما، صار لدى الإمبراطور قناعة كاملة بأنه لا بد وأن يزور مصر(٦٦) إلا أن ذلك لم يتحقق، ويبدو أن هناك أسبابًا قوية طرأت حالت دون زيارته لمصر، تمامًا مثلما حدث مع الإمبراطور هادريان عندما أراد زيارة مصر ولم يُتح له ذلك.

أما ما حدث فى الإسكندرية، فإن التجهيزات لزيارة نيرون ظلت مستمرة وكأن الإمبراطور على وشك الوصول إليها. ولقد كشفت لنا عملة سكندرية من عام ٦٦/ ٦٧ إلى أى حد كان السكندريون يترقبون ويأملون فى تلك الزيارة (شكل ٣٤)؛ لدرجة أنهم قاموا بعمل حمام سباحة كبير للإمبراطور؛ ولكن حاكم الإسكندرية قام باستعمال هذا الحمام قبل الإمبراطور مما أدى إلى نفيه من الإسكندرية. أما العملة المعدنية التى قام السكندريون بسكها، فقد كانت منقوشة على كلا وجهيها كالتالى: الوجه الأول يحمل صورة القيصر وعلى رأسه التاج المشرق بأشعة الشمس، وهو هنا مشبه كإله الشمس. أما الوجه الآخر من

العملة، فقد صُورت عليه سفينة بمجاديف كاملة يُفترض أنها هى التى تحمل القيصر كما تقول العبارة المكتوبة تحتها. وهكذا كان على مدينة الإسكندرية أن تتخلى عن الأمل فى زيارة نيرون لها. ولكن لم يمض وقت طويل حتى بدأت الإسكندرية تستعد للترحيب بإله حى جديد هو القيصر فسباسيان.



(شكل ٣٤): نيرون والسفينة.

## اليهود أغنى الأغنياء بالإسكندرية

إن الفيلسوف اليهودى فيلو يصف أهله من بقية اليهود بمدينة الإسكندرية بالتعبير (سَحَرة النقود)؛ وذلك لأنهم كانوا يعرفون دائمًا من أين تأتى النقود، ثم تأتى بعدهم فئة البحارة، ثم التجار الذين يعملون بالتجارة البحرية أو التجارة بصفة عامة، أما أفقر الطبقات بالإسكندرية فكانت طبقة الحرفيين وكذلك طبقة الفلاحين التى هى أدنى الطبقات.

ويردف فيلو قائلاً إن بقية أهله اليهود لم يكونوا فقط أغنياء، بل كان منهم متوسط الحال والفقير أيضًا[٦٧]. ولكى نرى ذلك، فعلينا أن ننظر فى المعبد اليهودى الذى كانت تجتمع به كل طبقات اليهود لمناقشة قضاياها ومشاكلها. وهناك مقطع من مقاطع التلمود البابلى يتناول بعض الحرف التى امتهنها اليهود مثل صانعى الذهب والفضة وصانعى المعادن الأخرى، كذلك صانعو المناظر

الحائطية من الرسامين بمدينة الإسكندرية. ومن المهم أن كل طائفة من هذه الحرف كان لها مكانها المعين فى المعبد الذى تجلس به.

ولقد قسم المؤرخ اليهودى بنى جلدته تقسيمًا اقتصاديًا، ولو أنه نسى أن هناك طائفة منهم غير متعلمة كانت تتميز بالعدوانية والاستعداد للقيام بالأعمال التخريبية(٦٨). ولا ننسى أن اليهود بالإسكندرية كانوا متعددى الأمزجة والأعراق، مثل اليهود الذين جاءوا فى الأصل من جنوب فلسطين، وكذلك الفريسيون وهم يهود متشددون، والسَّدُوسيون وهم حزب يهودى غنى ذو تأثير على الحكام وأصحاب القرار، كذلك كانت هناك جماعة يهودية تُسمى الإيسنيين وهم جماعة ينتهجون فكرة الحرية دون قيود ولا زواج أو روابط دينية. كما كانت هناك جماعة يهودية أخرى من أصل هلّينستى.

وقد كان الفيلسوف اليهودى فيلو ينتمي إلى الفريق اليهودى الأول، أى الذين جاءوا من جنوب فلسطين من منطقة تُسمى (يهوديا) ولكنه كان معتبرًا نفسه هلّينستيًا. أما إذا أراد المرء تقسيم اليهود الذين عاشوا بالإسكندرية على طريقة الكتاب اليهودى المقدس، فإنهم انقسموا إلى فريقين كالتالى: الفريق الأول عبارة عن فريق غير متدين وغير محافظ، والآخر على النقيض تمامًا من هذا الفريق. أما الفريق الأول وهو غير المتدين، فينتمى إليه الفيلسوف فيلو وهم الذين كانوا ينتمون إلى الديانة اليهودية بصفة صورية، أما الفريق الآخر فهم يهود ولكن أعمالهم وطموحاتهم الدنيوية أهم بالنسبة لهم من الديانة، وقد اختاروا أن يكونوا منفصلين عن التقاليد اليهودية التى يتطلبها المعبد من الشخص اليهودى، وكان من هذه الطائفة مجموعة تؤمن بالآلهة المصرية القديمة المتعددة. ولهذا عندما بدأت تظهر الديانة المسيحية فيما بعد وراح المعتنقون للمسيحية يروجون لفكرة أن المسيح هو المُخلّص للبشر، لم يقتنع اليهود بهذه الفكرة وحدث الصدام بين أتباع الديانتين.

وعودة مرة أخرى إلى ثراء اليهود، حيث إنه من المعروف أن البيت الملكى اليهودى فى جنوب فلسطين قد أرسل إلى الإسكندرية يبحث عن أزواج يهود سكندريين لبناتهم. ومن أمثلة ذلك أثرى أثرياء الإسكندرية ألكسندر ليسيماخوس الذى كان مسئولاً عن الجمارك فى عصر الإمبراطور تيبيريوس.

وكان يراقب رفع أسعار الجمارك على ضفة النيل الشرقية، وكان ألكسندر هذا هو الذى جمع هذه الأموال الخاصة بهذه الزيادة من الجمارك. ويقول الأديب اليهودى فلافيوس يوسفيوس إن موظفى الجمارك كانوا من أغنى الأغنياء، وقال أيضًا إن ألكسندر ليسيماخوس كان أغناهم جميعًا.

ويرى الأديب اليهودى أن عائلة ليسيماخوس قد حصلت على حق الإقامة بالإسكندرية من الإمبراطور الرومانى أغسطس. وكان ألكسندر ليسيماخوس قد أعطى الملك هيرودوس أجريبا الأول بفلسطين قروضًا، كما أنه وهب رقائق من الذهب والفضة ليُغطى بها الباب الجديد لمعبد بيت المقدس (أورشليم). لقد كان ألكسندر ليسيماخوس صديقًا شخصيًا للإمبراطور كلاوديوس قبل أن يصبح هذا الأخير إمبراطورًا. فى عصر الإمبراطور كاليجولا أودعه هذا الأخير السجن وعانى التجار اليهود فى غيابه الكثير، ولكن عندما اعتلى كلاوديوس العرش أطلق سراحه وأعاد إليه كل صلاحياته القديمة، وقد كان هذا فى عام ٤١ ميلادية. ثم إنه بعد ذلك حدث أن تزوجت ابنة الملك اليهودى ابنة الثلاثة عشر عامًا بابن ألكسندر ليسيماخوس المدعو ماركوس يوليوس ألكسندر؛ هذه الابنة تُسمى برنيكى، وهى ابنة يوليوس أجريبا الأول ابن هيرودوس الأكبر. هذه المصاهرة قد دعمت موقف ألكسندر ليسيماخوس وأسرته، وإن كان قد مات بعد هذه الزيجة بفترة قصيرة. أما برنيكى فقد زوّجها أبوها للمرة الثانية بأخيه المدعو هيرودوس ملك خلكيس فى شمال لبنان، وقد أنجبت برنيكى ولدين من هذا الزواج الأخير.

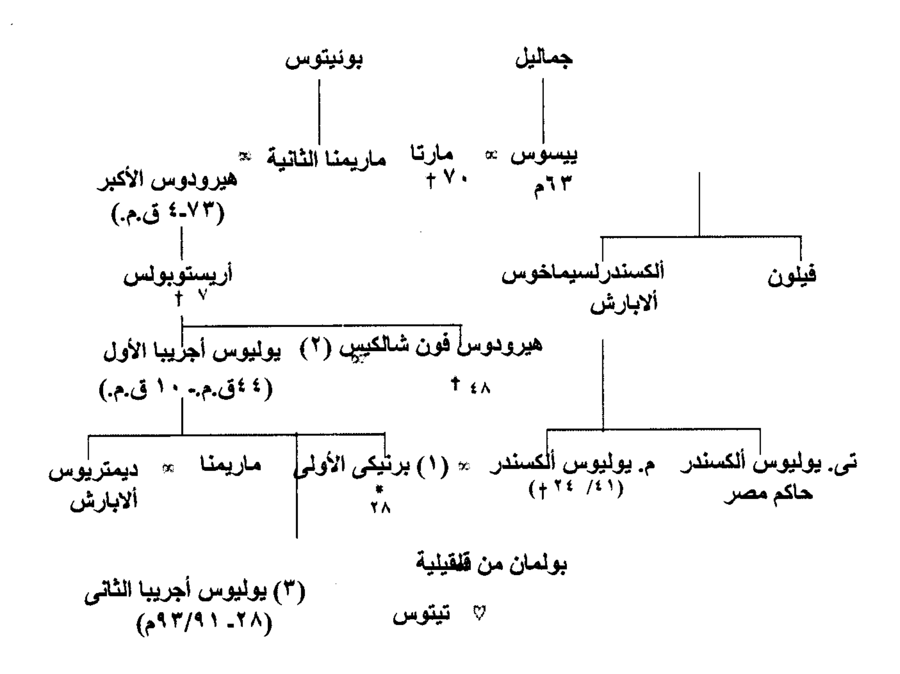
فى عام ٤٨ ميلادية، تُوفّى زوجها الثانى، وعاشت برنيكى مع أخيها المسمى يوليوس أجريبا الثانى، وراحت الشائعات تروّج أن هذين الأخوين تربطهما علاقة أكبر وأعمق من علاقة الأخوّة. وقد تزوجت برنيكى للمرة الثالثة من بوليمون ملك قلقيليا؛ ولكن هذه الزيجة لم تستمر سوى فترة قصيرة. وليس هناك أدل على مكانة برنيكى وثرائها من اضطرار بوليمون للختان كى يتمم هذا الزواج. أما أخت برنيكى والمسماة ماريمنا، فقد تزوجت من رجل يهودى من الإسكندرية، يُعد من أغنى أغنياء الإسكندرية فى فترة الخمسينيات بعد الميلاد، وكان هذا الرجل يُسمى الأبارش ديميتريوس. كذلك امرأة يهودية

أخرى تُسمى مارتا، والتى كانت تنتمى إلى أسرة كهنوتية عظيمة ترجع أصولها إلى الإسكندرية، وقد كانت زوجة لهيرودوس الأعظم. ويرى المؤرخون أنه حسب التلمود، فإن هذه المرأة كانت على صلة قرابة بالأسرة الملكية اليهودية، كما أن هذه السيدة مارتا كانت أيضًا من أغنى أغنياء القدس[٦٩].

ومن اللافت للنظر أنه فى عام ٦٦ ميلادية، حدثت ثورة اليهود ضد الرومان فى الإسكندرية، فما كان فى ذلك الوقت من برنيكى وأخيها سوى الانضمام إلى جانب الرومان ضد بنى جلدتهم، بل إن برنيكى قد مثلت دور الحب على ابن الإمبراطور الرومانى فيسباسيان والمسمى تيتو رغم أنها كانت تكبره بثلاثة عشر عامًا. ويقول المؤرخ فى ذلك الشأن إن برنيكى استطاعت أن تؤثر على الشاب عن طريق كرمها وسخائها الناتج عن ملايينها الكثيرة وصداقاتها المتعددة بأبناء الأغنياء فى الإسكندرية[٧٠]. ومن أغنى أغنياء الإسكندرية أيضًا كان الفيلسوف فيلو أيضًا، حيث إنه أخو ألكسندر ليسيماخوس. ويقول الفيلسوف فيلو إنه منذ صباه وهو يطمح فى التعلم والدراسة. وقد كان ذلك بالنسبة له شيئًا جميلاً لأنه يعيش فى مدينة العلم والدراسة، مدينة الإسكندرية. كما أن من المزايا التى تمتع بها فيلو أيضًا أنه من أسرة موسرة لا تحسب للمال حسابًا، فقد لبَّت أسرته جميع نفقاته وأتاحت له الدراسة.

أما ابن أخيه والمسمى تيبيريوس يوليوس قيصر، فقد اتجه اتجاهًا آخر جعل منه أول يهودى يصبح حاكمًا على مصر قاطبة. حيث إنه حصل على حق المواطنة من الإمبراطور الرومانى تيبيريوس، ثم إنه ترك الديانة[٧١] اليهودية وانخرط فى خدمة الرومان. وقد أصبح هذا الرجل فى عام ٤٢ ميلادية حاكمًا إقليميًا على إقليم طيبة، وبدأت من هنا صلاته السياسية التى كان والده فى الإسكندرية يعمّقها وساعدته كثيرًا فى الترقِّى والصعود إلى أعلى، حيث إنه بعد ذلك تولى منصبًا قياديًا فى مدينة يهودا جنوب فلسطين، ثم تولى منصبًا آخر فى أرمينيا ثم أخيرًا عاد من أرمينيا وعيَّنه الرومان واليًا على مصر فى الفترة من ٦٦ ميلادية وحتى ٦٩ ميلادية. وبهذه المناسبة، فإن ملك اليهود هيرودوس أجريبا الثانى قد جاء بنفسه إلى الإسكندرية كى يهنئ ويبارك لتيبيريوس هذا النجاح العظيم.

ثم إنه بعد وفاة الإمبراطور الرومانى نيرون تمنى تيبيريوس يوليوس ألكسندر أن يمنحه الإمبراطور الجديد الاستمرارية فى حكم مصر[٧٢] والإسكندرية، وذلك لأنه كان يقوم بجمع الضرائب من مدينة الإسكندرية، المدينة الغنية ذات الأملاك العظيمة. هذه المدينة عانت فى فترة حكم الإمبراطور نيرون حيث بالغ فى جمع الضرائب من المُلاّك ومن الشعب؛ مما أدى إلى هروب الكثير من العمال الزراعيين ردًا على ذلك، وما ترتب عليه من فَقْد الملاك لعمالهم وكذلك لامتيازاتهم. أما الإمبراطور فيسباسيان، فقد كانت بينه وبين تيبيريوس اليهودى علاقات طيبة وحميمة.




(شكل ٣٥ ): شجرة عائلة الحاكم اليهودى فى مصر المدعو تيبيريوس يوليوس ألكسندر.

لقد كان هذا الإمبراطور فيسباسيان يعود فى الأصل إلى أعراق متواضعة وقد كان حاكمًا فى مدينة يهودا الفلسطينية قبل أن يصير إمبراطورًا وقد أُتيح له آنذاك أن يصبح صديقًا لبعض الأثرياء من اليهود بصفة خاصة. ومن هذه الصداقات صداقته بشخص يُدعى ليكينوس موكيانوس(٧٣). وقد كان هذا الرجل حاكمًا على إقليم سوريا، ومن مآثر هذا الرجل على فيسباسيان أنه وضع تحت تصرفه ثلاث فرق عسكرية سورية وكمًا كبيرًا من المال، ونتيجة ذلك أن موكيانوس، كما عبر هو نفسه علنًا قد صنع قيصرًا. كما أن موكيانوس قد مكّن لفيسباسيان أن يتعرف على الطبقة الغنية بمدينة الإسكندرية والتى كانت معظمها من اليهود الأغنياء فى الإسكندرية، وكذلك بحاكم الإسكندرية القوى. ثم ازدادت علاقاته قوة عن طريق علاقة الحب التى نشأت بين برنيكى الثرية وابن فيسباسيان المدعو تيتو، وكان لحفيده هيرودوس العظيم علاقات وثيقة مع أغنى رجال المال اليهود فى الإسكندرية. ولعل شجرة الأنساب المبينة (شكل ٣٥) يمكن أن تبين لنا تلك العلاقات بشكل واضح.

تيبيريوس يوليوس ألكسندر كان هو الذى قاد الإمبراطور فيسباسيان فى الأول من يوليو عام ٦٩ بالإسكندرية ومصر. وقام بتقديم أسرته من الأثرياء إلى الإمبراطور، وعرّفه بأفراد أسرته ومواقعهم الحالية فى مصر. ثم إن تيبيريوس قام بإهداء الإمبراطور فيسباسيان فرقتين عسكريتين، هما: كيرانيكا(٣) ودايوتاريانا (٢).

**حى دلتاΔ معقل ثورة اليهود عام ٣٨**

مع بداية العصر الإمبراطورى، سيطر اليهود على اثنين من الأحياء الخمسة فى مدينة الإسكندرية، كما أنهم كانوا منتشرين فى بعض المناطق الأخرى المتفرقة. فقد كان المرء يرى معبدًا يهوديًا هنا أو هناك. لقد شكّل اليهود ــ من حيث تعداد السكان ــ عددًا كبيرًا لا يُستهان به، حيث إنهم جاءوا فى المرتبة الثالثة بعد اليونانيين والمصريين بالإسكندرية. كما أن الجنود اليهود

كانوا يخدمون فى الجيش المصرى منذ عهد الفراعنة(*)، ثم إنهم خـدموا مـع الجيش الفارسى، ثم بعد ذلك مع البطالمة، وكانوا يُعرفون بالمقدونيين(٧٤)، وقد امتد كره المصريين للاحتلال الفارسى أيضًا إلى الجند اليهود الذين فى خدمتهم. وقد حدث التوتر الشديد بين اليهود والشعوب الأخرى بالإسكندرية بعد أن ترجم اليهود كتابهم المقدس وأصبح مقروءًا عند اليونانيين والمـصريين علـى حـد سواء. وبدأت العداوات إبان حكم الرومان لمصر تظهر على أشدها بين اليهود والمصريين، والسبب هنا سياسى محض، وهو أن اليهود وقفوا دائمًا فى جانب الرومان وكان المصريون يكرهون الرومان.

لقد كان لليهود كلمة ووضع فى الجيش البطلمـى اليونانى،وعنـدما حـل الرومان محل اليونانيين فى مصر تسلل اليهود أيضًا إلى الجـيش الرومـانى؛ ولكنهم لم تكن لهم الحظوة والكلمة التى كانت لهم فى الجيش البطلمـى. وقـد استعاض اليهود عن ذلك بأن قوّوا مركزهم الاقتصادى وأصبحوا هم المتحكمين فى اقتصاد البلاد تمامًا، مثلما أخبر الفيلسوف اليهودى فيلو.

ثم إنـه فى عام ٣٨ ميلادية قام الملك اليهودى أجريبـا الأول بزيـارة الإسكندريـة واستقبله اليهود بها استقبالاً حافلاً مدويًا(٧٥). عنـد ذلـك اغتـاظ السكندريون وراحوا يكيدون لليهود، ومن هذه المكائد أنهم طالبوا اليهود بـأن يضعوا تماثيل الأباطرة الرومان فى معابدهم، وعند ذلك أمـر حـاكم المدينـة فلاكوس اليهود بأن يبقوا فقط فى منطقة دلتا ولا يبرحوها إلى أى مكان آخـر بالإسكندرية، كما اعتبرهم أجانب وليسوا سكندريين. وبهذا القرار من الحـاكم فلاكوس نشأت فكرة الجيتو لأول مرة فى التاريخ.

وبالطبع، فإن فيلو اعتبر هذا القرار ضد اليهود تعديًا سافرًا وغير إنـسانى على أقلية بشرية صغيرة، حيث بدأ الجنود يقتحمون منازل اليهود ويهجّـرونهم إلى حى دلتا بالقوة والعنف، كما أنه فى ذلك الشأن يروى المؤرخ فيلو بـأنهم كانوا يضربون النساء والأطفال وكانوا يلقون بأمتعتهم فى الشوارع، فى حـين راح السكندريون ينهبون بضائع التجار اليهود ويحطمون محلاتهم ويغتـصبون

(*) هذا أمر لا دليل عليه. (المراجع).

ما بها من أموال. وقام البعض الآخر بتقييد اليهود وسحبهم فى الشوارع مكبلى الأيدى والأرجل. وتمادى السكندريون فى اضطهادهم لليهود، حيث راحوا يشعلون النيران فى معابدهم ولم تسلم من الحرائق سوى المعابد التى كانت فى تكتلات سكنية يهودية كبيرة. وما تبقى من هذه المعابد، قام السكندريون بوضع تماثيل القياصرة الرومان به. وقد استند السكندريون فى ذلك على موافقة الإمبراطور الرومانى كاليجولا بوضع تماثيله فى كل مكان بالإسكندرية.

عند ذلك أمر فلاكوس حاكم الإسكندرية بالقبض على ٣٨ من كبار مجلس الشيوخ اليهود، وأمر بضربهم علانية فى الشارع بالكرابيج عقابًا لهم. أما السكندريون فإنه أمر بضربهم بالعصى عقابًا لهم. والمؤرخون هنا يفهمون الفرق بين الضرب بالعصى والضرب بالكرباج، حيث إنه فى تلك الأوقات كان الكرباج أداة لتأديب العبيد والعصى كانت لضرب الأحرار. أما أوج تعذيب اليهود وإذلالهم فكان فى مناسبة معينة، وهى مناسبة الاحتفال بعيد ميلاد الإمبراطور كاليجولا فى ٣١ أغسطس عام ٣٨، حيث إن اليهود أُجبروا فى هذا الحفل على تناول لحم الخنزير وهو طعام محرم عليهم، عند ذلك حدثت مفاجأة غير متوقعة، حيث تم القبض على فلاكوس وإرساله إلى روما بدون أدنى مقدمات.

بعد ذلك بدأت تتحسن أحوال اليهود فى الإسكندرية وإن بقيت معابدهم مغلقة، ثم ذهبت بعثة يهودية إلى روما. هذه البعثة تكونت من ثلاثة أشخاص، وبالطبع كان فيلو على رأس هذه البعثة وكان من مطالبهم فى روما تحسين أحوال المعابد اليهودية بالإسكندرية وحقوق المواطنين اليهود. كما طالبوا باستبعاد التماثيل الرومانية من معابدهم. وطالبهم الإمبراطور كاليجولا فى مقابل ذلك أن يقوموا بتقديم القرابين لتماثيله ووافقوا على ذلك. ثم إنهم طالبوا كاليجولا بحق المواطنة فلم يوافقهم على طلبهم هذا كما فعل الإمبراطور، كلاوديوس أيضًا.

فى الوقت نفسه، اتجهت بعثة أخرى إلى روما من السكندريين واليونانيين معًا، وكان على رأس هذه البعثة آبيون والمعروف عنه عداؤه وكرهه لليهود. لقد وقفت بعثة آبيون هذه فى روما ملقية الذنب كله على اليهود وعلى مواقفهم

المتزمتة، وأن مواقفهم هذه هى السبب الرئيس فى اندلاع الاضطرابات بالإسكندرية. فى عام ٤٠ الميلادى، أمر كاليجولا بإحضار كلتا البعثتين أمامه للفصل بينهم، ولكن ذلك لم يسفر عن نتيجة. أثناء ذلك كان الوضع قد ساء وتفاقم فى مدينة يهودا الفلسطينية، لقد كان هَمُّ كلتا البعثتين هو تملُّق الإمبراطور الرومانى وسب البعثة الأخرى.

وقد لوحظ أن البعثة اليهودية لم تكن سعيدة فى روما، حيث إنه بعد فترة وجيزة طالبهم كاليجولا الإمبراطور الرومانى بعمل تمثال كبير له فى هيئة زيوس ووضعه فى المعبد اليهودى الكبير بأورشليم. أما السبب فى قرار كاليجولا هذا أن مدينة يامنيه اليهودية والتى كانت تتبع مملكة يهودا بفلسطين قد آلت ملكيتها إلى ليفيا زوجة أغسطس الإمبراطور الرومانى المُتوفَّى. ثم ورث هذه المدينة الإمبراطور تيبيريوس وآلت ملكية هذه المدينة فيما بعد إلى الإمبراطور كاليجولا. هذه المدينة المذكورة كانت ذات أغلبية يهودية من حيث تعداد السكان والجزء المتبقى كان أقلية غير يهودية، أرادت هذه الأقلية غير اليهودية أن تثبت ولاءها للإمبراطور صاحب الحق فى المدينة ومالكها وهو فى هذه الحالة كاليجولا، فقاموا بعمل مذبح من الطمى المحروق للإمبراطور الإله كاليجولا[٧٦]، وقد واجهوا صعوبات كثيرة فى وضع هذا المذبح فى المعبد اليهودى بأورشليم، كما أخبرنا الفيلسوف اليهودى فيلو. غير أن اليهود قاموا بإزالة ذلك المذبح؛ فقام الإغريق من أهل المدينة بإبلاغ كابيتو حاكمها، الذى قام بدوره بإبلاغ القيصر بذلك؛ مما أغضب كاليجولا فقرر إقامة التمثال المذكور له فى معبد أورشليم إمعانًا فى إذلال اليهود.

ولكى يتم تنفيذ أمر كاليجولا، فقد أرسل الإمبراطور أمرًا بذلك الطلب إلى والى سوريا المدعو بيترونيوس وقال له أن يصطحب معه نصف جيشه ويذهب به إلى يامنيه لنصب تمثال الإمبراطور بها. ولكن هذا الأخير راح يماطل ويلعب على عامل الوقت. فى خريف عام ٤٠، حدث لقاء آخر بين البعثتين: السكندرية واليهودية أمام الإمبراطور فى روما، حيث أراد الإمبراطور سماع البعثتين المتعاديتين فى حديقة قصره.

فى عام ٤١ ميلادية، اغتيل الإمبراطور كاليجولا، عند ذلك راود اليهود الأمل فى تحقيق نجاحات عن طريق الإمبراطور القادم، ولم ينتظروا طويلاً، حيث قاموا بثورة مسلحة ضد اليونانيين فى الإسكندرية؛ تلك الثورة التى أخمدها الرومان بسرعة قبل أن تطفو على السطح. فى العاشر من نوفمبر عام ٤١، أصدر الإمبراطور الرومانى الجديد كلاوديوس خطابًا موجهًا إلى السكندريين وحذرهم فيه من معاداة اليهود أو إهانتهم، حيث إنهم يعيشون فى المدينة منذ سنوات طويلة، وأمرهم بأن يتعايشوا مع اليهود فى أمان وسلام، وإن لم يفعلوا ذلك فإنهم يثيرون سخط الإمبراطور وغضبه، كما أمرهم ألا يثيروا حفيظة اليهود أثناء ممارسة شعائر دينهم، وأن يتعايش كل منهم مع الآخر فى سلام، تمامًا مثل عهد الإمبراطور أغسطس إله المدينة. "هذا التعايش السلمى أريد أن يؤكده لى الطرفان: اليهودى والسكندرى. كما أن الإمبراطور منع اليهود من أن يطمحوا فى حقوق ومزايا جديدة لم تكن لهم من قبل، كما يجب عليهم عدم إرسال أى بعثات ولا يحق لهم التصارع والثورات، كما أن عليهم الاستمتاع بالحقوق التى لديهم فى المدينة؛ تلك المدينة التى ليست مدينتهم بل هم ضيوف فيها. وبالرغم من ذلك تستمتعون بالكثير من المزايا بها. كما يجب على اليهود عدم استجلاب المزيد من أقربائهم وذويهم إلى الإسكندرية، ويجب عليهم حتى عدم دعوة أقربائهم إلى الإسكندرية، وبصفة خاصة إذا كان هؤلاء الأقرباء مصريين أو سوريين. ولا تجبرونى على أن أسىء الظن بكم وعلى أن أعاملكم بسوء. وإذا اضطررتمونى إلى ذلك واستفززتمونى، فسوف أبيد جنس اليهود من الأرض قاطبة"[٧٧].

ولو نظرنا إلى خطاب كلاوديوس لرأينا أنه يحذر ويتوعد كلا الطرفين المتنازعين بالإسكندرية، ولكنه فى الوقت نفسه أظهر بعض التعاطف مع اليونانيين المقيمين فى مصر، وبصفة خاصة بالإسكندرية. إنه تحدث عن حقوق اليهود ولكنه حذرهم وتوعدهم إذا ما فكروا فى إرسال بعثات أخرى إلى روما، على خلاف ما سمح به لهم كاليجولا، كما أنه منعهم من جلب المزيد من اليهود إلى الإسكندرية. ولم يستمر السلام المنشود بين اليونانيين بالإسكندرية واليهود طويلاً، بل راحت الصراعات تحتدم بين الطرفين من جديد.

## الاضطرابات اليهودية بالإسكندرية ــ تراجان الذى قضى على وجودهم فى مصر

لقد تصاعدت الاضطرابات اليهودية فى الإسكندرية بحدة وذلك فى فترة الستينيات بعد الميلاد، واستمرت حتى عهد سيمون (باركوخيا)، وهو من قواد الثوار اليهود البارزين(٧٨)، وقد أخذت هذه الثورات فى معظم الأحيان شكلاً دمويًا وعنيفًا، وتطورت هذه الاضطرابات وأدت إلى الاشتباك مع الجاليات اليونانية فى الإسكندرية؛ حتى إن الشكل العام بدا وكأنه حرب أهلية فى الإسكندرية وذلك مع بداية ولاية يوليوس ألكسندر. ويقول المؤرخ اليهودى فلافيوس يوسفيوس إن السبب وراء الاضطرابات هنا هو أن اليهود كانوا يدَّعون دائمًا أن الإسكندر الأكبر كان قد أعطاهم نفس الحقوق والمزايا التى أعطاها لليونانيين بالإسكندرية، ومن أهم هذه الحقوق حق مواطنة الإسكندرية، كما قالوا إن البطالمة قد أعطوهم هذا الحق أيضًا وسار على نهجهم الرومان أيضًا. وربما يفهم المرء أسباب المؤرخ فلافيوس يوسيفوس حيث إنه يهودى، وربما كان متعاطفًا فى أسبابه هذه مع بنى جلدته.

فى عام ٦٦ ميلادية، اجتمع حشد كبير من السكندريين فى مسرح الإسكندرية الكبير، بهدف اختيار بعثة منتقاة لإرسالها إلى روما، حيث يوجد الإمبراطور الرومانى نيرون. ثم حدث أن تغلغل عدد كبير من اليهود فى هذا الجمع، رغم أن الأمر لا يتعلق بهم حسبما قال يوسيفوس نفسه، وسرعان ما اكتُشف أمرهم واتُّهموا بأنهم يقومون بأعمال التجسس وأنهم أعداء للبلاد، وأُلقى القبض عليهم. وقرروا إحراق ثلاثة من اليهود أحياء يُعتقد أنهم المدبرون لكل المؤامرات. ولم ينتظر اليهود طويلاً حتى ينفذ المجتمعون ما اتفقوا عليه، حيث إنهم سحبوا أسلحتهم وهاجموا هذا الجمع السكندرى.

ومن الأسباب التى كانت وراء ثورة اليهود هذه المرة كانت أيضًا ثورتهم السابقة فى فلسطين وما كان وراءها من نتائج، كما أن هناك عددًا كبيرًا من اليهود كان يكره يوليوس ألكسندر الذى لم يكن يهوديًا مخلصًا حسب ما كانوا يعتقدون. وعندما زاد اليهود اضطراباتهم وهيجانهم بمدينة الإسكندرية، قام حاكم المدينة الرومانى بإرسال فرقتين عسكريتين إلى حى اليهود بالمدينة وقاوم

اليهود هاتين الفرقتين مقاومة شرسة ووقع الكثير من الفريقين ما بين قتيل وجريح. وانتقم الجنود الرومان من اليهود شر انتقام، واقتحموا المنازل وقتلوا من بها من نساء وشيوخ وأطفال ونهبوا محتوياتها.

فى عام ٧٣ ميلادية، قام اليهود بنفس أعمال الثورة والاضطرابات فى فلسطين أيضًا، ولكن الحاكم الرومانى هناك قام بالسيطرة على الموقف وقضى على ثورة اليهود بفلسطين. وكان من نتيجة ذلك أن فر عدد من اليهود المتطرفين (سيكاربين) إلى الإسكندرية واتحدوا بيهودها وأرادوا مواصلة الثورة والحرب ضد الرومان من الإسكندرية. عند ذلك أراد مجلس الشيوخ اليهودى ألا تتطور الأمور إلى الأسوأ، فقاموا بإلقاء القبض على ٦٠٠ متطرف يهودى، أما بقية المتطرفين اليهود فقد هربوا إلى جنوب مصر. ونظرًا للاضطرابات المتكررة التى قام بها اليهود، فقد قام الرومان بفرض ضريبة جديدة عليهم كنوع من العقاب عليهم، وبقى الوضع المتأزم كما هو عليه بين اليهود والسكندريين.

وقد حدث تطور فى العقيدة اليهودية، أدى إلى اتساع الفجوة بين اليهود وغيرهم من المسيحيين وأصحاب العقائد الأخرى. هذا الحدث هو أن الرومان قاموا بهدم المعبد اليهودى المقدس بأورشليم. عند ذلك رأى فريق كبير من اليهود أن يجلس أحبارهم الفريسيون ـــ وهم من خاصة اليهود ـــ بعضهم مع البعض الآخر وأن يقوموا ببعض التعديلات فى كتابهم المقدس والمسمى بالعهد القديم. ووافق الأحبار على إجراء تعديلات تتوافق مع مجريات العصر السياسية والحضارية، وأضافوا جزئية مهمة فى كتاب العهد القديم، وهى أن الذين يتبعون المسيح لا ديانة لهم، وأن أتباع المسيح ما هم إلا مارقون. أما الفترة ما بين عامَىْ ١١٥و ١١٧ ميلادية، فقد كانت مهمة بالنسبة للإسكندرية، حيث كانت ثورة اليهود من المؤمنين بمعجزة المسيح، وأنها أمر مصيرى، ومع ذلك فنحن لا نعلم موقف النصارى من ذلك؛ لعلهم وقفوا فى جانب الرومان.

كانت حرب الفرس فى عهد تراجان السبب فى الثورة الكبيرة لليهود عام ١١٥، تلك الحرب التى سحب لها القيصر أعدادًا كبيرة من الجنود المتمركزين

فى شرق الإمبراطورية، وتم نقل فرقة كاملة من فيلق السيرينايكا الثالثة المتمركزة فى نيكوبوليس من مصر إلى الجبهة. ولا نعرف الأسباب التى أدت إلى العديد من القلاقل المحلية الصغيرة، ولكن الواضح فقط أنها انتشرت بسرعة لتحرق المنطقة بأسرها، وقد وصفها بعد قرنين من الزمان الكاتب الكنسى المسيحى يوسبيوس كما يلى: "اندلعت ثورة اليهود فى العام الثامن عشر من حكومة القيصر (والمقصود تراجان وعام ١١٥) وأُبيد عدد كبير منهم، وكانت ثورة اليهود ضد المواطنين اليونانيين فى كل من الإسكندرية وباقى ربوع مصر وخاصة فى قيرانه وبدت ثورتهم كما لو كانت روح مرعبة تدفعهم للتمرد، وبينما هم يتوسعون فى تمردهم خلال العام التالى إذا بهم يبدعون حربًا ضد حاكم مصر لوبيوس"[٧٩].

وكان اليهود يشعرون بالقهر منذ عدة عقود بسبب الأحداث التى وقعت فى فلسطين وتدمير المعبد وفرض الضرائب عليهم، وبسبب التهكم عليهم بقصص ساخرة إلى أقصى درجة، وكانت تطل عليهم من بعيد فقط ذكريات عصور أمجاد مضت كانوا فيها منتصرين، ومن تلك الأيام يسطع مصباح بسيط من الفَخَّار على هيئة شمعدان له سبع أذرع ويُظْهر رمزًا قديمًا معروفًا من الإنجيل يصور لنا (جالوت) مسلحًا بالرمح والدرع فى مواجهة داود وهو يقذف بمقلاعه[*]، ونهاية القصة معروفة، وهكذا حاول اليهود أصحاب المصباح بالإسكندرية أن يضعوا تصورًا لمن يرغبون فى رؤيته فى هذه المَعركة فى وضع جالوت: هل اليونانيون أم الرومان أم المصريون أم السكندريون؟ لقد تحمل اليهود طويلاً الهوان والضغوط التى تثقل كاهلهم، والآن جاء دورهم ليردوا على ذلك، وكان انتقامهم رهيبًا. وقد استرسل المؤلف اليونانى كاسيوس ديو فى وصف الفظائع وقال: "بدأ اليهود بقتل اليونانيين والرومان وأكلوا لحمهم وصنعوا أحزمة لأنفسهم من أحشائهم ودهنوا أجسادهم بدمائهم وصنعوا من جلدهم ملابس"[٨٠] وفاقت أعمالهم كل تصور عن مدى وحشية البشر.

---

[*] المقصود بها قصة انتصار داود على جالوت، كما جاء ذكرها أيضًا فى القرآن الكريم فى قوله تعالى: "وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء.."(سورة البقرة: من الآية ٢٥). (المراجع).

وقام اليهود بتدمير مدينة سالاميس بقبرص، واتحدوا فى كيرانيكا تحت لواء ملك مخلِّص يُدعى لوكواس وزحفوا نحو مصر لينضموا إلى رفاقهم فى العقيدة هناك. وفى الإسكندرية قاوم اليونانيون هذه المرة دفاعًا عن حياتهم، ولكن كثيرًا منهم لقى حتفه، إلا أن فرقة نيكوبوليس تمكنت من السيطرة على الوضع بعد أشهر قليلة فقط، ومع ذلك عايشت الإسكندرية حربًا أهلية بحجم لم يُعرف له مثيل حتى ذلك الوقت خلال العصر الرومانى، وأثناء معارك الشوارع دمر اليهود معابد صغيرة كثيرة داخل المدينة بأكملها، وهاجموا أيضًا معابد أكبر مثل معبد نيميسيس والسيرابيوم، ومثلما كان اليونانيون سيحتفلون فى الإسكندرية بعد ١٠٠ سنة بالنصر على اليهود، فقد بقيت ذكرى اقتحام اليونانيين ذات يوم لمعابدهم لوضع تماثيل تقديس القيصر وبالتالى تدنيس دور العبادة ماثلة أمامهم أثناء تلك المعارك، ولهذا فهم الآن ينتقمون.

وعلى كل حال لم يستمر النصر إلا فترة قصيرة، واستعادت الفرقة المتمركزة فى نيكوبوليس مدينة الإسكندرية بعد عدة معارك ومكّنت الرومان واليونانيين من السيطرة عليها، وأثناء ذلك وقع اليهود بالآلاف ضحية المذابح؛ مما قلل بشدة عدد اليهود بين شعب الإسكندرية. وبالتأكيد تم فى ذلك الوقت تدمير حى دلتا (Δ)، وتمت إزالة المعبد الكبير تمامًا الأمر الذى جعل صيت يهود الإسكندرية ينتشر بعيدًا خارج حدود المدينة، ويبدو أن أضرارًا كبيرة لحقت بالإسكندرية كلها لأنه قيل فيما بعد إن القيصر هادريان قد أعاد بناء المدينة التى دمرها اليهود. ولخص الكاتب الكنسى المسيحى أوروسيوس، الذى صور تأثير الثورة بوضوح، وما حل بالعاصمة بقوله: " تمت هزيمتهم (اليهود) وطردهم فى معركة فاصلة دارت رحاها بالإسكندرية"[٨١]، وكان القائد العسكرى لوبيوس قد ذكر فى مرسوم صدر فى أكتوبر عام ١١٥ " معركة دارت بين الرومان واليهود "وانتصر فيها الرومان[٨٢] وكان الثمن الذى دفعوه لنصرهم هذا باهظًا وهو الأمر الذى وثقته خطابات لجنود من المدينة أصابهم الذهول وقوائم بخسائر الوحدات الرومانية فى ذلك الوقت، بالإضافة إلى أعداد كبيرة من المجندين الجُدُد الذين وصلوا الإسكندرية عام ١١٧.

ولهذا، فمن المفترض أن الأمر استغرق طويلاً حتى استطاعت السلطة المركزية فى المحافظة أن تمسك بزمام الأمور، وكان رد فعل تراجان على هذا الحريق الشامل أن أرسل وحدات من "فيلق الحملات الخارجية" المعروف بفرقة السيرينايكا الثالثة، تحت إمرة أحد قواده البارزين، وهو مارسيوس توربو إلى فلسطين ومصر، وحتى وصول هذا القائد إلى هناك كان اليهود قد أجروا حمامات من دماء اليونانيين والمصريين فى مناطق كثيرة.

ويحكى الكاتب اليونانى أبيان[٨٣] الذى ولد فى الإسكندرية عام ١٠٠ تقريبًا كيف أفلت بالكاد من فرقة يهودية بالقرب من الفرما فى الدلتا، وهناك العديد من التقارير ليونانيين أصابهم الرعب توثق الإرهاب الذى كان سائدًا، وفى واحد من مثل هذه الخطابات تدعو أُمّ أحد الجنود أبوللونيوس وترجوه ليمنع اليهود من" شواء ابنها فى النار"[٨٤].

وفى النصف الأول من عام ١١٧، أعاد توربو السلطة الرومانية إلى ما كانت عليه، ودارت إحدى المعارك الحاسمة لصالح مصر والإسكندرية عند منف وذلك بعد أن اتحدت فرقة الدايوتاريانا الثانية والعشرين المتمركزة فى الإسكندرية تحت إمرة الحاكم الرومانى على مصر مع قوات توربو، واضطر الحاكم حتى بعد انتهاء الثورة فى العاصمة بعام ونصف تقريبًا إلى أن يغامر بإرسال الفرقة الثانية إلى المعركة، وكانت حملة التنكيل والانتقام الرومانية تعنى بالنسبة لليهود فى مصر نزفًا لا نظير له. وكان أبيان المذكور سلفًا شاهد عيان على الأحداث وتحدث عن رؤيته لكيفية" إبادة تراجان للشعب اليهودى فى مصر"[٨٥] ، ولكن تطبيق هذه الملحوظة على مصر بأكملها كان بالتأكيد نوعًا من المبالغة، وإنما الأمر على العكس كان مرتبطًا بالدرجة الأولى بمدينة الإسكندرية، فهنا كان الفيصل أن اليهود هددوا المدينة التى يعتبرها الرومان المركز الرئيسى لإمداد العاصمة بالحبوب كما أنها تُعد المركز الرئيسى لكل تجارة البحر المتوسط، لهذا تدخلوا هنا بصرامة مثلما فعلوا فى القدس وأزالوا "بركان الخطر" تقريبًا تمامًا، ولمنع أى صراعات محتملة جديدة بين اليونانيين واليهود فى الإسكندرية نقل خليفة القائد العسكرى لوبيوس ويُدعى راميوس مارتياليس مَنْ بقى من اليهود فى قيد الحياة إلى منطقة سكنية جديدة خارج

المدينة، وهذا ما أثار غضب اليونانيين عليه الذين اعترضوا عام ١١٩ مرة أخرى لدى هادريان بسبب أحداث عام ١١٥ ضد اليهود.

ولم يفت محكمة الجنايات الرومانية فرض تأثيرها على يهود المدينة، فلم نسمع شيئًا عن مشاركة الإسكندرية فى ثورة بَرْ كوخبا عام ١٣٢، ولمدة قرنين تقريبًا اختفت عن أنظارنا الجالية اليهودية من المدينة تلك التى كانت فى يوم ما واحدة من أهم فئات الشعب، ولم نسمع عنها شيئًا مرة أخرى إلا فى القرن الرابع عندما ساندوا الأريانيين ضد أثناسيوس .

**"أنا النيل" – العلاجات المعجزة لفيسباسيان**

بعد موت نيرو ونهاية الأسرة الأيولية الكلودية فى روما، نجح قائد الجيش الذى تم تعيينه أثناء الحرب اليهودية ويُدعى فيسباسيان فيما يُسمى "عام القيصر الرابع" فى الفوز بعرش الإمبراطورية الرومانية (من عام ٦٩ إلى عام ٧٩ بعد الميلاد)، وتواجد فيسباسيان فى مدينة قيصرية، أى فى فلسطين، فى ذات الوقت الذى كان تيبريوس إيوليوس الإسكندر قد جعل فرق مصر الثلاث العسكرية تؤدى له قسم الراية وذلك فى الأول من يوليو عام ٦٩، وحتى منتصف يوليو كان قد انضم للإمبراطورية سوريا كلها والأمراء الموالون. ولما كان لفيسباسيان ولدان، فقد أخذ يراوده التفكير فى تأسيس أسرة حاكمة جديدة، وكان عليه أن يثبت أولاً شرعيته الإلهية تبعًا للتقاليد المعمول بها من زمن بعيد عند تغير الأسرة الحاكمة ومقدم حاكم جديد. من تقرير لسيوتون عن تولّى حكومة فيسباسيان زمام الأمور نتعرف على جانب من مثل هذه الإجراءات، وفى الوقت نفسه نتعرف على التدين الشخصى للرعية أمام هذا القيصر الإله.

وكانت الإسكندرية أول محطة مهمة لتثبيت سيادته الهشة: ففى مصر كانت تعسكر وحدات عسكرية كما أنها كانت مخزن غلال البحر المتوسط، وفى منتصف نوفمبر وصل فيسباسيان مع ابنه تيتوس إلى الإسكندرية، وكان من المفترض أن يبقى بها تسعة أشهر تقريبًا، وأثناء هذه الإقامة وصلت إليه بعثات تهنئة من جميع أنحاء الإمبراطورية الرومانية، واستقبلت الإسكندرية لبعض الوقت كثيرًا من الناس حتى إنها بدت مدينة صغيرة جدًا، بالرغم من أن

فلافيوس يوسيفوس يعيدها إلى الأذهان فى هذا السياق مرة أخرى علـــى أنهـــا أكبر مدن العالم بعد روما[٨٦].

وعرض فيسباسيان نفسه أمام الشعب على أنه إله حى وبـــصفة خاصـــة على أنه سيرابيس الحى، وقام بسلسلة من معجزات الشفاء استخدمها كدعايـــة لأول أعمال الحكومة بقصد استعراض الـــذات علانيـــة فـــى جميـــع أرجـــاء الإمبراطورية، ولنتابع أولاً تقرير سيوتون: "عندما بدأت الحرب الأهليـــة وتـــم إرسال قائد الجيش مع القوات إلى إيطاليا أولاً أخذ هو (فيسباسيان) طريقه إلى الإسكندرية ليحصل على مفاتيح مصر فى يده، وبعد أن أبعد كل مرافقيه هنـــا ودخل معبد سيرابيس وحده ليتلقى آية إلهية تؤمّن سيادته قام بأداء صلاة طويلة وخاشعة، وعندما استدار فور نهاية الصلاة بدا له كما لـــو أن المُفْـــرج عنـــه ويُدعى باسيليدس قد أتى له بفـــروع شـــجر (مقدســـة) وأكاليـــل ومخبـــوزات الأضحية، مثلما هى العادة هناك (فى المعبد). ولم يكن أحـــد قـــد ســـمح لـــه بالدخول، بالإضافة إلى أنه كان من قبل عاجزًا عن المشى بسبب مرض فـــى الأعصاب، والثابت أيضًا أنه كان يقيم بعيدًا جدًا عن الإسكندرية"[٨٧] .

وأول شىء يراه المرء بعد أن يتحول عن الرب يُعتبر نبوءة، وللحصول على مثل هذه النبوءة ذهب فيسباسيان إلى المعبد وكان راضيا بـــالخبر الـــذى وصله، وفى البداية كان اسم الرجل الذى قابله فى خياله، مع الأخذ فى الاعتبار أن معجزة ظهوره تصبح واضحة وجلية بسبب عدم إمكانية ذلك فعليًا من خلال التفسير الثلاثى (السابق)، وباسيليدس اسم بالتأكيد وراءه مغزى، ويندرج تحتـــه مصطلح باسيليوس وهو يساوى فى معناه كلمة ملك، وحامل هذا الاسم يعلن أو يؤكد ما يعنيه هذا الاسم، وهو أن: فيسباسيان عن طريق الشرعية الإلهية هـــو فرعون مصر، وفى الوقت نفسه قيصر الإمبراطورية.

وكان فيسباسيان قد دخل أولاً ودون حاشية إلى السيرابيوم ليعرف مستقبل حكمه، وعقب ذلك ظهر القيصر فى مضمار السباق على الملأ، ومن المحتمل أن يكون ما وصلنا جزءًا من الخطاب الذى ألقاه فى هذه المناسبة، وللأسف فإن النص ليس كبيرًا ويتضمن فى جوهره عبارات مبتذلة غير محددة الزمن لكلام منمق سياسى من نوعية أن المستقبل لن يأتى إلا بالأفضل[٨٨]. وعقـــب هـــذه

الخطبة يأتى ترحيب الشعب، فعند ظهوره يتم تحيته بالأمنيات المباركة، وعند مخاطبته يتم ذلك بكلمة السيد وفى هذا إضفاء للألوهية على القيصر، ثم يتبع ذلك حفلات المبايعة والولاء لهذا الفارس ورجل الخير، وهى حفلات معتادة منذ العصر الهيلّينى، وكانت لغة المخاطبة له بابن آمون للتذكرة بنماذج مصرية سابقة، فقد كان من المعروف أن الفرعون ابن لآمون رع، وكان فيسباسيان يُخاطب علاوة على ذلك بالشمس المشرقة وهو إله ذَكَر تدور حوله كثير من العبادات، وكانت تزداد أهميته على ما يبدو باستمرار. وقد ورد إلينا الترحاب الذى تردد عند ظهوره فى مضمار السباق: "السيد والقيصر، الإله، رجل الخير سيرابيس "[٨٩]، وفى السياق نفسه تتم مخاطبة فيسباسيان بكلمات "الإله القيصر فيسباسيان"، وفى الختام تمدح الجموع الحاكم لأنه أرسل إليها هذا القيصر الإله فى الإسكندرية.

وفى هذه الأيام نفسها، جاء أيضًا القديس أبولونيوس من تيانا فى تجواله — فيما ذكره فيلوسترات فى القرن الثالث من وصفه لحياته، وكانت وجهته بالطبع إلى الإسكندرية، وعندما وصل إلى الميناء ومشى فى المدينة كان الناس يفسحون له الطريق مثلما يفعلون مع رجال الدين (القساوسة) الذين يحملون شارات مقدسة، وكما فعل فى كل مكان ذهب إليه كانت له معجزات فى الإسكندرية، ومن بين ذلك أنه أثبت براءة شخص من بين أحد عشر شخصًا كان قد حُكم عليهم بالإعدام — وربما المقصود هنا بوكولين — وهو ما ثبتت صحته فيما بعد. هذا وقد لعب أبولونيوس، حسب روايات فيلوسترات، نفس دور باسيليدس المذكور آنفًا، والذى كان قد بشر فيسباسيان بتولّيه الحكم، وكان ذلك عندما رد على رجاء فيسباسيان: "اجعلنى ملكًا" فقال له: "لقد جعلتك بالفعل ملكًا، لأننى عندما تضرعت للآلهة من أجل ملك عادل نبيل حكيم له شعر أبيض وله أبناء صالحون كنت أصلى من أجلك." وطبقًا لقصة فيلوسترات، فإن الإله الذى جعل من فيسباسيان قيصرًا هو زيوس Zeus وهو الذى يأخذ دور سيرابيس.

مثل هذا الاحتفال بالجلوس على العرش كان يتم تفهّمه على وجه الخصوص فى مصر والإسكندرية لأنه كان يتطابق مع تقاليد عمرها آلاف

السنين، ونحن نعرف مثل هذا الدور لآمون خلال عصر الأسرة الثامنة عشرة (١٥٤٠ ـ ١٢٩٥ ق.م.)، أو على سبيل المثال من خلال دعاء يرجع إلى العصر الإثيوبى (٧١٢ ـ ٦٦٤ ق.م.) توجه به الفرعون إلى آمون قائلاً: "جئت إليك يا أبى المبجل ويا أبا الآلهة لتجعلنى ملكًا على الأرضين (مصر العليا ومصر السفلى)" (٩٠)، ويبدو أن فيسباسيان قد اختار أيضًا مثل هذه الصيغة، ولم تكن إجابة الرب عام ٦٩ مختلفة عنها قبل ٨٠٠ عام بل كانت كما هى:

"جعلتك ملكًا على البلدين"، وكانت كلمات أبولونيوس مشابهة لهذا تمامًا. هذه الخلفية المصرية تتوافق مع تصوير القيصر الرومانى على هيئة أبى الهول (شكل ٣٦)، فملامح فيسباسيان الشخصية بجبينه المُقطَّب (شكل٣٧) التى ترمز إلى الجهود المبذولة والاهتمام الدائم بالدولة، تتفق تمامًا مع صور التعبير المصرية العتيقة وعناصر التكوين كما هى فى هيئة أبى الهول الضخمة



(شكل ٣٦)
فيسباسيان على هيئة أبى الهول.

والمنسوبة للملك خفرع فى الجيــزة حيــث بلغــت ذروتها، ومن ناحية أخرى فقد تم الربط بين ظهــور فيسباسيان فى الإسكندرية وأسس تقــديس وعبــادة القيصر الرومانى، لــذلك فإن بعض الظواهر يصبح لها تفسير مغاير: فمثلاً فى النــصوص المــصرية القديمة نرى الفرعون يقدم القرابين للإله، على حــين أن الأمــر فــى روايــة سيوتون يظل غير واضح: ألم يكن فيــسباسيان هــو الذى تلقــى الهــدايا مــن باسيليدس؟



(شكل ٣٧) رأس فيسباسيان.

وجاء وصول فيسباسيان إلى مصر مع مقدم فيضان النيل، وقام كاشــيوس ديو، وهو من المعاصرين لفيلوسترات، بإضافة المزيد إلى أحــداث معجزاتــه برواية حادثة من النوع المألوف فى مصر[٩١]: فقد حدث أن ارتفع مستوى النيل أعلى بكثير من المعتاد، حتى قيل إن مياهه ارتفعت فى ذلك الوقت فــى يــوم واحد فقط ما يساوى عرض اليد وهو ما لم يحدث حتى ذلك الحــين إلا مــرة واحدة فقط، وقد جاء فيضان النيل مع مقدم فيسباسيان لأن فيسباسيان هو النيل الواهب للحياة، ويُذكر أن الحاكم الجديد نادى المصريين قائلاً: "انهلوا منى كما تنهلون من النيل"[٩٢]. وإجمالاً، يتناسب ظهوره فى الإســكندرية مــع البيئــة السياسية الدينية فى مصر ويتطابق أيضًا مع التقاليد الموروثــة والتــى كانــت مرتبطة فى الغرب مع القيصرية الرومانية، وكان يتصرف كالإلــه ســرابيس

الحى فهو مثله يسيطر على العناصر مثل النيل، ويستطيع فى الوقت نفسه الإتيان بأعمال خارقة للطبيعة من خلال أعمال سحرية.

إذًا، فقد أصبح فيسباسيان بعد أحداث المعبد حاكمًا متوجًا وإلهًا،إلا أن كل هذا لم يكن كافيًا حسبما ذكره سيوتون، فكان لا يزال ينقصه حزم السلطة وإلى حد ما عظمة الملوك باعتباره قيصرًا جديدًا غير متوقع من أحد، إلا أن هذا أيضًا أُهدى إليه، فقد اقترب منه اثنان من عامة الشعب، أحدهما كُفّ بصره والآخر ذو ساق عاجزة، وكان فيسباسيان جالسًا على كرسى القضاء المرتفع، وتوسل الرجلان إليه من أجل الشفاء الذى كان قد تنبأ لهما به سيرابيس فى الحلم، وتذكر نبوءة الحلم: "إنه (فيسباسيان) سيعيد النور إلى العينين إذا هو بللهما باللُّعاب، ويعيد الساق إلى ثباتها إذا هو تعطف ولمسها بالكعب"، وبالرغم من أنه لا يمكن تصديق إمكانية نجاح شىء كهذا مطلقًا وبالرغم من أنه لا يمكن أن يجرؤ مطلقًا على القيام بمحاولة، إلا أنه فى النهاية قام بها فى الحالتين وسط حشد عام بعد أن تبادل المشورة مع أصدقائه، "ولم يخذله النجاح".

وكان من المعتاد فى مثل احتفالات البيعة هذه أن يكون اتصال الحاكم بالشعب أوثق، ولتحقيق ذلك فإنه من الممكن أن يقترب من الحاكم فى مثل هذه الفرصة اثنان من المرضى قد شجعهما الحلم، الذى كان يُعد الوسيلة المعتادة للإله للاتصال بالإنسان وإبلاغه مطلبه. وكان هذا التصور منتشرًا على نطاق واسع بواسطة كهنة سيرابيس؛ حتى إنه استقرت حول المعبد فى الإسكندرية مجموعات كانت تقوم بتفسير الأحلام، ومن الواضح أنه كان يجب على فيسباسيان أولاً التعود على قدراته الإلهية لأنه تشاور أولاً مع أصدقائه فيما ينبغى عمله. ومن المفترض أن موضوع المشاورات كان يدور، إلى جانب الاستفادة من مثل هذا السلوك وأيضًا نوعية الشفاء بالمعجزات، حول أنه يتم تنفيذ سبيل العلاج بمظاهره السحرية بشكل صحيح، وهكذا لمس فيسباسيان المريض المشلول بقدمه وبلل الأعمى بلُعابه، وعليه غادره الاثنان متعافيين.

ويتضح التوازى أو التطابق مع سيرابيس على وجه التحديد من خلال العلاج بالقدم، حيث نمتلك سلسلة من النذور تتكون من أقدام من المرمر فوقها مباشرة رأس سيرابيس (شكل ٣٨)[٩٣].

هذا الربط بين القدم والرأس، وهو ما ظهرت صورته أيضًا فى القرن الثانى على عملة معدنية سكندرية، لا يعنى إلا شيئًا واحدًا وهو أن مثل تلك النذور إنما تمثل القدم الشافية للإله سيرابيس، وأنه حتى مجرد تصوير تلك القدم حتى على أنها أحجار غير نفيسة يعطيها تأثيرًا شافيًا.



(شكل ٣٨) سيرابيس والقدم الشافية.

ويخبرنا[٩٤] تاكيتوس أيضًا عن الأحداث ولكنه يبدل فى تسلسلها ولا يدخل فى تفاصيل، ويحاول تاكيتوس إضفاء العقلانية على الأحداث وقصْر المعجزات على الشفاء الفجائى وذلك بجعل القيصر يستشير حتى أطباء، وعلى أية حال فقد اضطُر للاعتراف بأن حكايات العلاجات المعجزة كانت لا تزال تُحكى فى عصره أى بعد أكثر من ٣٠ عامًا، وبديهى أن هذه الحكايات أُضيف إليها بعض التجميل وأنها انتشرت بروايات مختلفة، وفى النهاية ساهم فيلوسترات فى انتشارها فى النصف الأول من القرن الثالث، من خلال روايته لذلك الحوار الطويل الذى جرى بين صاحب المعجزات أبولونيوس من تيانا مع فيسباسيان فى الإسكندرية، ذاكرًا الأحداث التى جرت عام ٦٩.

واستغل كاشيوس caisius ديو تقريره عن إقامة فيسباسيان فى الإسكندرية ليذكر حب التهكم لدى سكانها وهو ما كانوا مشهورين به عالميًا[٩٥]، وكانت نقطة الانتقاد، كما يقول المؤلف، هى السياسة الضريبية للقيصر، وعلق عليها فعلا عدد كبير من المؤرخين متنصلين منها وبتهكم بسبب الحماس، الذى حاول

به فيسباسيان البحث عن مصادر جديدة للدخل. وقد قابل فيسباسيان هذا التهكم بالعناد، حيث تمسك بأفكاره ولكن أيضًا بنوع من السخرية، وذلك عندما علق على سبيل المثال – على النقد الموجه إلى ضريبته الجديدة التى فرضها على استخدام دورات المياه بقوله الذى أصبح فيما بعض مثلاً شعبيًا: "النقود لا يصيبها العفن".

وبسبب حاجة القيصر للمال، وتفسير هذه الحاجة للمال تاريخيًا يعود إلى السياسة المالية السيئة لنيرو وعواقب ما تلاها من حرب أهلية، احتج السكندريون على ذلك، وكانوا يقولون بغضب: "أتطلب منا ست أبولات (سيسترسن) أكثر من ذى قبل"، مع العلم أننا لا نعرف حول أى ضريبة يدور الكلام. هذا، ويذكر الآن كاشيوس ديو أن النقد عامة قد أغضب فيسباسيان، وإن كنا لا نستطيع أن نجزم بذلك من خلال ما أورده من نص. والثابت أن ابنه تيتوس قد سمع ما كان يتردد: "نحن نعذره لأنه لا يعرف كيف يتصرف القيصر الجديد" (يقصدونه هو بذلك).

ولكن لأن التهكم فى ذلك الوقت كان أمرًا محببًا، فقد ترك السكندريين يتهكمون. وفى منتصف أغسطس عام ٧٠ استغل فيسباسيان الفترة الثانية للرياح الجنوبية، والتى استمرت تهب فى هذه الأيام، وانطلق نحو روما، وكتب فلافيوس يوسفيوس فى وصف وصوله: "كانت المدينة كمعبد ممتلئ بالأكاليل والبخور"[٩٦]، "وقامت بلديات المدينة بتتويج فيسباسيان فى المعابد المحلية" – حسب رواية فيلوسترات – وهو ما يمثل تعبيرا عن التقديس الدينى المنتشر فى كل أنحاء البلاد[٩٧].

وقد واصل الابن تيتوس الحرب التى شنها الوالد فيسباسيان بعنف فى يوديا، وفى أغسطس من عام ٧٠ تم الاستيلاء على معبد القدس وتم نهبه وتدميره، وبدخول تيتوس فى الثالث من سبتمبر عام ٧٠ انتهت الحرب التى كان يطلق عليها الرومان الحرب اليهودية. وفى طريق عودته إلى روما زار تيتوس الإسكندرية مرة أخرى فى شهر جيرمانيكايوس، أى فى شهر أبريل من عام ٧١، ووصل قادمًا من الشرق إلى نيكوبوليس أولاً، وقصد إلى السيرابيوم وقدم نفسه لشعب المدينة فى مضمار السباق، وعقب ذلك واصل رحلته إلى

روما، حيث احتفل فيسباسيان وتيتوس بنصرهما على مملكة يهوذا، وأمضى الأب والابن الليلة التى سبقت الاحتفال فى معبد إيزيس هناك، وكان هذا نوعًا من تذكّر وشكر الحاكم لمصر وآلهتها الذين ضموا فيسباسيان فى الإسكندرية إلى صفوفهم .

أما خلفاء فيسباسيان فى الحكم، فلم تكن لهم بالإسكندرية صلة إلا عن طريق الخطابات مثل تراجان (٩٨ ــ ١١٧ م)، فقد استغل تغيير حكومة مصر فى نهاية عام ٩٨ لكى يعرّف السكندريين بنفسه وبالحاكم الجديد، وتم ذلك من خلال خطاب إلى المدينة تمت قراءته على الملأ وتعليقه، ويبدو أن نص تلك المعلقة والتى سُجلت على ورق البردى قد كُتبت من قِبل كاتب غير متمرس، ولأن الأمر مجرد نوع من التعريف بالحاكم الجديد، فلا يجب أن نزن كل ملحوظة بميزان الذهب، ولكن بالتأكيد كان شيئًا طيبًا لسكان المدينة أن يقرءوا أو يسمعوا ما سيلى فيما بعد: فقد توجه تراجان إلى السكندريين ومدح ولاءهم الكبير للقياصرة، وذكّر بالأعمال الخيرية التى أمر بها للمدينة والده إله الدولة نيرفا (٩٦ ــ ٩٨ م)، ولا نعرف ما هذه الأعمال الخيرية، ولكن من المحتمل أن الخطاب كله عبارة عن جمل عامة، ويؤكد تراجان أنه سيرعى مصالح السكندريين، وأنه قد وضع المدينة تحت رعايته، ولكنه ترك ازدهارها أيضًا فى يد الحاكم الجديد.

ولكن ماذا وعد به أيضًا القيصر السكندريين؟: "سلام لا يعكر صفوه شيء ووفرة فى كل شيء، وخاصة فيما يتعلق بإمداد المواد الغذائية وحفظ الحقوق المحلية والشخصية "[٩٨]. ولم يكن قد مضى إلا عامان على الرسالة المشابهة التى أرسلها الحاكم السابق على تراجان، واستمرت حكومة تراجان حتى عام ١١٧، ومن المحتمل أن يكون معظم السكندريين قد نسوا مرة أخرى تلك الرسالة حتى جاءتهم رسالة مماثلة من هادريان.

### محطة لرحلة قيصر ــ زيارة القيصر المرتحل

زار كثير من القياصرة الرومان مصر، ولكن إقامة "القيصر المحب للأسفار" هادريان هى التى تركت الانطباع الأقوى، وكان قد قام أثناء فترة



(شكل ٣٩) الربة إسكندريا تحيّى هادريان.

حكمه (١١٧ــ ١٣٨م) برحلتين كبيرتين، وكانت الدولة الواقعة على النيل على برنامج الرحلة الثانية وأمضى فيها الحاكم ما بين عامَىْ ١٣٠/١٣١ حوالى ثمانية أشهر[٩٩]. ويُذكر أن هادريان كتب بنفسه تقريرًا عن إقامته بمصر، إلا أنه ضاع، وكانت هذه الزيارة موضوعًا يُذكر على كثير من عملات الإسكندرية المعدنية، حتى إنه تم سك عملة احتفالاً بوصول هادريان إلى المدينة فى الثالث عشر من أغسطس عام ١٣٠م وذلك قبل وصوله نُقش عليها: إلهة المدينة إسكندريا ترحب بالقيصر الذى يدخل راكبًا عربة النصر التى يجرها مرة أربعة أحصنة كما فى المثال المطبوع (شكل ٣٩) ويجرها مرة أخرى أربعة أفيال، ويقف هادريان فى العربة ويحمل صولجان نبلاء طويلاً، وإسكندريا تضع على رأسها قبعة من جلد الفيل وترتدى ثوبًا يغطى الجزء العلوى والسفلى منها وترفع يدها اليمنى مرحبة وتخطو فى اتجاهه .

وعندما يكون الحديث عن مجيء القيصر الرومانى حاكم الكرة الأرضية إلى الإسكندرية، فيجب أن يكون واضحًا ما ستتكبده المدينة ــ ومدن أخرى كثيرة أيضًا ــ فى مناسبة كهذه من مصروفات، ولدينا بالنسبة لمصر مثلاً أخبار كثيرة ومفصلة عن الاستيلاء على أقوات الناس وأرزاقهم، فهاهو تقرير بتاريخ ١٩ ديسمبر ١٢٩ لكاتب قرية من الفيوم إلى رئيسه فى الدائرة حول المواد الغذائية التى تم تخزينها فى منطقته لرحلة العبور المنتظرة لهادريان فى العام القادم[١٠٠]، حيث تم جمع وتجهيز ٧٦٠٠ لتر شعير (أكثر قليلاً من ٦ أطنان)، و٣٠٠٠ حزمة قش، و٣٧٢ خنزيرًا رضيعًا، و٢٠٩٠ لتر بلح، وعدد غير معروف من الخنازير، و٢٠٠٠ رأس من الأغنام، و٧ سلال من التين، و١٢٠ لترًا من الزيت، وتقريبًا نفس الكمية من زيتون لم ينضج بعد، وتشير

التقديرات إلى أن المجموعة الرئيسية لحاشية القيصر من المدنيين والعسكريين كانت تبلغ حوالى ٥٠٠٠ فرد[١٠١].

جاء هادريان من القدس عبر غزة إلى الفرما (بيلوزيوم)، وهنا زار قبر بومبى الذى قُتل فيها يومًا ما، ويحكى لنا كثير من المؤرخين اللاحقين أن القيصر كان يحب كتابة القصائد القصيرة طوال حياته، ولهذا سجل انطباعه عن هذا القبر فى بيت شعر يُعتبر من عيون الأدب اليونانى أواخر العصر القديم: "إلى من كان فى المعابد غنيًا، كيف صار مدفنه فقيرًا وصغيرًا"[١٠٢]، وعليه أمر هادريان Hadrian بإعادة بناء القبر بشكل فخم جدًا بعد أن جعلته حرب الأعوام من ١١٥ إلى ١١٧ فى حالة يُرثى لها.

وعقب ذلك جاء إلى الإسكندرية، ومكث بها شهرين، وتناقش مع علماء جامعة الموسيون، وقام برحلة لصيد الأسود فى الصحراء الليبية. وفى رحلته الكبيرة فى المحافظات كان على هادريان أن ينفذ برنامجًا مرهقًا، فكان عليه أن يستمع إلى شكاوى ويقضى بين الناس، ويلقى الخطب الدينية أو يقوم بأداء شعائر دينية، ودائمًا ما كانت مسكوكات مدينة الإسكندرية تسجل تفاصيل إقامة القيصر فى مشاهد، فأظهرت هادريان فى "طبيعته المزدوجة" كإنسان وكإله، فكإنسان يقوم بتقديم القرابين، أما الجانب الإلهى للحاكم فجعلت منه العملات المعدنية موضوعًا وهى تلك العملات التى تظهره فى داخل المعبد — وفى الحالتين يقوم بتحيته سيرابيس (شكل ٤٠).



(شكل ٤٠) هادريان وسيرابيس.

ويوضح الشكل سيرابيس والقيصر يقفان فى مواجهة بعضهما البعض فى معبد مقام على عمودين، ويحمل سيرابيس سلة ثمار فى يُسْراه وصولجانًا طويلاً وكرة أرضية فى يمناه الممدودة، ويقف أمامه القيصر مرتديًا التوجا ويضع فوق رأسه إكليل الغار، وبينهما صندوق كُتب عليه هادريانون (ΑΔΡ/ΙΑ/ΝΟΝ)، ومن المحتمل

أن يكون المعبد القوى لسيرابيس فى جنوب المدينة هو المقصود والذى تقاسمه الإلهان.

ولم يكن هادريان مرحَّبًا به بشدة فقط من سكان المدينة الرومان واليونان، وإنما كان المصريون يستقبلون أيضًا هذا القيصر تحديدًا بمحبة كبيرة، لأن هادريان كان على الأرجح هو الذى أنشأ عام ١٢٠ منصب الكاهن الأكبر لمصر(١٠٣)، والأمر هنا كان يتعلق بحكام المحافظات الذين انصبّ اهتمامهم على مراقبة العبادات وكهنتها، وأول من اعتلى هذه الإدارة هو رئيس جامعة الموسيون فى ذلك الوقت. وكان السبب فى إنشاء هذا المنصب مشكلة حساسة، فقد منع هادريان الختان فى جميع أنحاء البلاد وصار مساويًا لخصاء الرجل الذى يعاقب عليه القانون منذ فترة طويلة، ولم يستثن من ذلك إلا الكهنة المصريين، الذين واصلوا ممارسة عادة قديمة جدًا ومنتشرة فى البلاد على نطاق واسع منذ عصر البطالمة، وذلك طالما التزموا بقواعد عملية معقدة، وكان من بين واجبات الكاهن الأكبر الجديد مراقبة هذا. وكان منع الختان هذا ساريًا فى حق اليهود أيضًا، ولم يحصلوا على امتياز مشابه لامتياز المصريين إلا فى عهد أنتونينوس بيوس (١٣٨ ــ ١٦١ م).

وبجانب الكثير من الالتزامات "الرسمية" كان القيصر يجد دائمًا الوقت لأحد اهتماماته الكبيرة وهو الصيد دون أن يصبح أبدًا شأنًا خاصًا به، وحقق هادريان أكبر نجاحاته فى الصيد عام ١٢٤ عندما تمكن من قتل دُبّ فى آسيا الصغرى، وللتذكرة بهذا النجاح أسس مدينة صار اسمها هادريانوثيرا أى "صيد هادريان"، وتسمية مدينة طبقًا لهوايته شىء لم يستطع حتى الصياد الكبير الإسكندر أن يفعله رغم ما أقامه من مدن، والتى كان من أهمها (الإسكندرية). انطلق الحاكم عام ١٣١ فى رحلة لصيد الأُسود، وكان ملوك الآشوريين والفرس والفراعنة فى مصر وحكام البطالمة ينظرون إلى الصيد على أنه ببساطة عمل ملكى، وهكذا اقتفى هادريان فى الإسكندرية أثرًا خاصًا جدًا.

ولقد سجل لنا أحد الأعمال الأدبية قصتين غير مكتملتين حول عملية صيد كبيرة بالكلاب، لواحد من الأسود كان يعيش فى المنطقة الحدودية بين مصر

وليبيا، وتسببت خطورته فى جعل منطقة شاسعة خالية من البشر(١٠٤). القصة الأولى منهما، وهى الأصغر تصف كيف تجمع المشاركون فى الصيد، فقد كان تجمعًا من رجال بلاط الحاكم يشارك فيه الكثيرون بمقتضى بروتوكول صادر مسبقًا، وكان من بين الحاضرين بعض أعضاء مجلس الشيوخ وأنتينوس وهو معشوق القيصر، وانضم إليهم كمّ من العاملين ــ كبار الصيادين وسائس الحيوانات والخدم المسئولين عن رعاية كلاب الصيد المشاركة، وظهر القيصر ومرافقوه ممتطين الخيل ومسلحين بالرمح والحربة، وفى البداية قدم هادريان فى حضور الجميع الأضحية لآلهة الصيد، وانتهى اليوم بمأدبة جماعية.

وكان الشعراء أيضًا ضمن المرافقين لرحلات هادريان الكثيرة وهو الذى كان، كما يُقال عنه، يسجل انطباعاته العفوية على هيئة أبيات شعرية، وكان المصرى بانكراتيس Pankrates واحدًا من هؤلاء الشعراء، وشارك فى الصيد وألَّف قصيدة لاقت استحسانًا كبيرًا من القيصر، وفيها دخل بانكراتيس مباشرة إلى قمة الأحداث، وفيها يجلس أنتينوس على حصانه والرمح فى يده منتظرًا هجوم الأسد، وبالطبع ستكون الضربة الأولى من نصيب هادريان:

قذف هادريان فى البداية الحربة المُصنَّعة من الحديد، وجرح (الحيوان)، ولكنه لم يقتله، لأنه أراد تجربة دقة تصويب الفتى الجميل أنتينوس ابن قاتل أرجوس (هرميس) فى دقة التصويب.

وانطلق الأسد الجريح يعدو بسرعة وعيناه يتطاير منهما الشرر كالنار المرعبة متعطشًا للانتقام قارضًا على أسنانه نافشًا فروته على رأسه القوى وعنقه القذر مهاجمًا أنتينوس وأصاب حصانه إصابات بالغة؛ حتى إن حياة الفارس نفسه (أنتينوس) أصبحت فى خطر، وعندئذ أصاب هادريان الحيوان إصابة قاتلة داسته بعدها الخيول بحوافرها فى التراب، واعتبر بانكراتيس القيصر هادريان فى هذه اللحظة "الإله قاتل الحيوان".

وكان القيصر منبهرًا جدًا من قوة وصدق القصيدة، لدرجة أنه أنعم على بانكراتيس بعضوية جامعة الموسيون بالإسكندرية، ومثل هذا التعيين يقابل منح "نوط الفارس" ويرفع القصيدة إلى مرتبة بلاغ رسمى عام. وظلت حكاية صيد

الأسد فى الإسكندرية عالقة فى الأذهان لا تُنسى، حتى إن السكان كانوا يحيون ذكراها بإكليل يسمونه أنتينوايوس مصنوع من ورق اللوتس كانوا يحملونه فى الاحتفالات الدينية.



(شكل ٤١) هادريان وصيد الأُسود.

وعلى ما يبدو لم تُوثَّق تلك الرواية التى تدور حول صيد أسد الإسكندرية من خلال النصوص وحدها، وإنما أيضًا بصور لها، ففى قوس النصر لقسطنطين (٣٠٦ ــ ٣٣٧ م) فى روما أُعيد استخدام ثمانى صور مستديرة يبدو أن منشأها الأصلى من مبنى تم فيه تخليد أحداث الصيد الذى كان يقوم به هادريان، وكان هذا المبنى مشيدًا فى بالاتين. وقام فنانو العصر القسطنطينى بالاستعاضة عن رأس هادريان فى هذه الصور المستديرة برأس قسطنطين، وتعرض إحدى الصور صيد أسد، ومن المحتمل أن يكون المقصود هنا صيد أسد الإسكندرية، والذى أنقذ فيه هادريان حياة عشيقه أنتينوس (شكل ٤١)، وتعرض الصورة القيصر برفقة شاب ويضع كل منهما قدمًا على أسد مقتول.

وفى أكتوبر، انطلق القيصر مع حاشية كبيرة فى طريقه إلى مصر العليا، وهناك عند هيرموبوليس(*) لقى عشيقه أنتينوس حتفه بطريقة جعلت المعاصرين له يتكهنون حول موته وما إذا كان حادثة أم انتحارًا، فقد غرق أنتينوس فى فيضانات النيل، وأمر هادريان بإعلانه إلهًا للدولة وشيد فى مكان الحادث مدينة أنتينوبوليس(**) وجذب إليها السكان عن طريق منحهم مزايا ضريبية غير

(*) مدينة الأشمونين مركز عبادة الإله تحوت(هرميس) بمحافظة المنيا.(المراجع).

(**) مكانها حاليًا مدينة الشيخ عبادة بمحافظة المنيا، وهو الاسم الذى أُطلق عليها فى العصر الإسلامى نسبة إلى عبادة بن الصامت(رضى الله عنه). (المراجع).

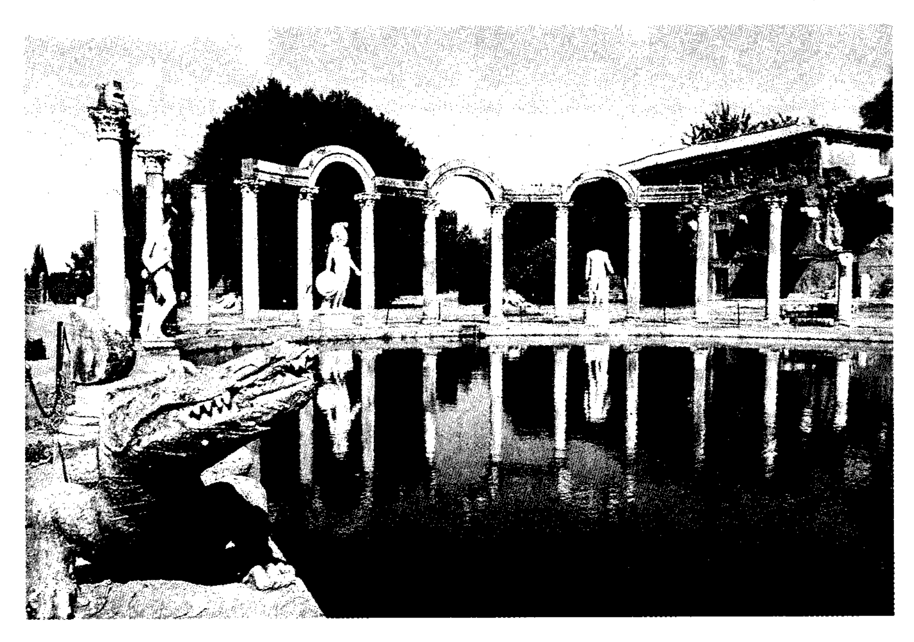
معتادة تمامًا. وعاد هادريان إلى الإسكندرية فى ربيع عام ١٣١ وتقابل الشاعر بانكراتيس مرة أخرى مع الحاكم وحاول مواساته، وأطلعه على زهرة لوتس لونها وردى وقال له إنها يجب أن تُسمى باسم أنتينوس لأنها تنمو فى تلك الأرض التى سال عليها دم الأسد الذى طعنه هادريان طعنة قاتلة[١٠٥].

وقد ورد فى "كتاب المعجزات والمعمّرين" لفليجون من تراليس الذين أفرج عنهم هادريان، قصتان انتشرتا فى الإسكندرية، ويمكن أن يكون فليجون قد التقطهما هنا عندما كان يتجول مع سيده فى المدينة، ولكن يجب على المرء أن يعترف أن هاتين القصتين كانتا يمكن أن تحدثا فى أى مكان، أو الأفضل أن نقول تُحكيا فى أى مكان، وفى القصة الأولى "يقول الطبيب دوروتيوس فى مذكراته إن رجلاً شاذًا جنسيًا فى الإسكندرية بمصر أنجب طفلاً، وبسبب هذه المعجزة تم تحنيط المولود الجديد والاحتفاظ به وما زال باقيًا"، أما القصة الثانية فهى: "يذكر أنتيجونوس أن امرأة واحدة فى الإسكندرية أنجبت على مدار أربع مرات حمل عشرين طفلاً نما وكبر معظمهم"[١٠٦]، ويمكن للمرء أن يتخيل استنادًا إلى روايات القابلات (السيدات المُولّدات) تلك ما كان يشاهده الزوار القياصرة.

ومن الصفات الخاصة التى ألصقها مؤلفو العصر القديم بهادريان ميله الشديد للبناء وربط ذلك بتدخل شخصى جدًا منه فى الخطط الفعلية للبناء، وكان القيصر يرى فى نفسه مهندسًا معماريًا، واستطاع أيضًا أن يمارس هذه الهواية فى الإسكندرية، ويشير هيرونيميوس، وهو كاتب الكنيسة فى أواخر العصر القديم، فى تأريخه لحصاد[١٠٧] عام ١١٧ إلى ذلك: "قام هادريان ببناء الإسكندرية التى هدمها الرومان بأموال عامة مرة أخرى"، أما النسخة السورية من هذا التأريخ فلا يوجد بها جملة "التى هدمها الرومان" وإنما "التى هدمها اليهود"، وعلى ما يبدو أن القلاقل فى الإسكندرية وثورة اليهود عام ١١٥ كانت معروفة للمترجمين، ومن المحتمل أن بعض مشاريع الأبنية الجديدة تمت فى فترة وجود القيصر شخصيًا فى المدينة، ومن وصف جاء ذكره فيما بعد نعرف أنه كان هناك حى سكنى باسم هادريانوس تم بناؤه على الأرجح فى منطقة الحى المدمر دلتا .

وكان للحاكم هواية استطاع أن يمارسها فى الموسيون وهى جامعة المدينة التى كانت لا تزال مرموقة، وكان هادريان يرى فى نفسه عالمًا فى كافة العلوم، وكان يشعر أن لديه القدرة على مجاراة كل شخص فى مجال تخصصه ـ وليس فقط المهندسين المعماريين، وسجل كاتب سيرته الذاتية فى أواخر العصر القديم ملحوظة فى هذا السياق فى التاريخ الأغسطى، جاء فيها: "طرح (هادريان) أسئلة كثيرة على الأساتذة فى الموسيون بالإسكندرية وأجاب بنفسه عن الأسئلة المطروحة منه"(١٠٨)، وهذا يتطابق مع ثقة هادريان بنفسه والتعامل مع المتخصصين بهذه الطريقة.

ومن معالم الإسكندرية، التى نادرًا ما يتخلف عن زيارتها سائح، "المكان سيئ السمعة" المسمى "كانوب" الذى يقع على مسافة ٢٤ كيلومترًا شرق المدينة، ومجموعة "مقتنيات" هادريان تذكّر بإقامته هناك، حيث كانت توجد فيلّته الكبيرة فى تيفولى والتى تقع على مساحة تزيد على ٥٠ هكتارًا، وكان هذا البيت الريفى ممتلئًا بأعمال فنية أصلية أو مقلدة من الشرق رآها القيصر (فى رحلاته)، ويشير كاتب سيرته الذاتية المذكور سلفًا صراحة إلى مكان يسمى



(شكل ٤٢) كانوب فى فيللا هادريان.

"كانوب": أمر هادريان ببناء المدينة المصرية فى وادٍ منخفض(١٠٩) تم تجهيزه بحوض سباحة ضخم وألعاب مائية كثيرة (الشكل ٤٢)، ولعله كان يبحث عن موضع كانوب فى الطريق إلى هيراكليون؛ ذلك لأن المدينة الساحلية كانت لا تزال هى نقطة الانطلاق الدائمة للرحلات النيلية شمالاً.

والفرق بين القيصر الرومانى هادريان وكل من سبقه من القياصرة كان يتمثل فى الرحلات الممتدة إلى جميع مناطق الإمبراطورية تقريبًا، وكان ذلك سمة مميزة لحكمه، وكانت هذه الرحلات تعبيرًا واضحًا لبرنامج حكومة تعتبر أقاليم الإمبراطورية الضخمة أجزاء متساوية الحقوق بجانب الدولة الرئيسية: إيطاليا.

ومن المحتمل جدًا أن يكون الفضول أيضًا هو الذى دفع القيصر إلى ما يعتقده الآخرون على وجه الخصوص بالنسبة لهدف سياحى مثل مصر، ولكنه أيضًا كان يستعلم فى أقاليم كثيرة عن حالة المدن، ويشجع على إنجاز كمٍّ كبير من مشروعات البناء، ويجتهد فى تصحيح الأوضاع الخاطئة من خلال إجراءات محددة، وكان مهتمًا بصفة خاصة بالجنود المتمركزين على حدود الإمبراطورية، وهذا ما توضحه سلسلة من العملات المعدنية بوضوح، فتذكر قوات اثنى عشر إقليمًا كاملاً وتُظْهر الحاكم وهو يلقى خطابًا.



(شكل ٤٣) هادريان فى هيئة خنوم.

ويرجع الشكل البرونزى المصور لفترة إقامة هادريان فى

مصر (الشكل ٤٣)(١١٠) وهو يبين سيقان وجذع إنسان، أما الكتفان فتحملان فوقهما رأس كبش للإله خنوم Chnum بالتاج، ويرتدى هذا الكائن المُخلَّط نقبة تصل إلى الركبتين (تونيكا Tunika) ودرعًا على الصدر، وعلى الكتف اليسرى معطف قائد حربى وفى القدمين حذاء طويلاً برباط. والمهم فى الرسم هو الوقفة المستقيمة لذلك الشكل الذى صُوِّر رافعًا يده اليمنى لإلقاء خطاب، والشكل لهادريان يلقى خطابًا بملابس وهيئة قائد حربى، ويمكن لأى مراقب ينتمى للطائفة العسكرية بالإسكندرية أن يستنتج بشكل منطقى أن القيصر الرومانى والإله المصرى خنوم قد اندمجا فى صورة شخص واحد.

وكما بدا لنا من واحدة من رحلات صيد هادريان فى الإسكندرية، فإن الصيد كان جزءًا من تخطيطه، والأسلحة المستخدمة فى الصيد كان يمكن أيضًا أن تُستخدم فى الحرب، وقد تأكدت مهارات القيصر من قوة وسرعة فى مجالَى الصيد والحرب، كما أن بانكراتيس المذكور سلفًا قارن فى نهاية عمله بين قصة صيد هادريان للأسد وحروب ما قبل التاريخ الأسطورية، وبظهوره أمام الملأ استطاع القيصر أيضًا الظهور أمام جنوده فى نيكوبوليس.

ولدينا شهادة لها أهميتها حول التفتيش على القوات جاءتنا من معسكر القوات فى لامبيسيس بشمال أفريقيا؛ حيث تبقت لنا بعض بقايا من أثر ضخم عبارة عن عمود تذكارى حُفظ على قاعدته على الأقل خمس خُطَب للقيصر ألقاها أمام وحدات عسكرية مختلفة أثناء مناورات استمرت عدة أيام، منها: "لقد قمتم جماعات وأفرادًا بتنفيذ كل شىء بنظام، وملأتم مكان التدريب بمناوراتكم، وكنتم تقذفون الرماح بتمكن رغم أنكم استخدمتم الرماح القصيرة الصُّلبة، وكثير منكم كان موفقًا أيضًا فى رمى الحراب، وكان امتطاؤكم اليوم للجياد فى لمح البصر أما أمس فكان سريعًا."(١١١)، ولنا أن نتوقع كلمات مشابهة أيضًا فى الإسكندرية بعد مناورات مشابهة، إلا أن الفرقة المتمركزة فى الجوار فى نيكوبوليس والتى أنشأها القيصر السابق على هادريان باسم الفرقة التراجينية الثانية كان لها اسم ثانٍ هو (الفرقة) "القوية" .

زار هادريان مصر فى الفترة من خريف عام ١٣٠ إلى ربيع عام ١٣١، ومع مقدم هذا الإله الحى تجدد الأمل لدى الناس فى كل مكان وليس فقط فى

الإسكندرية ــ فى مستقبل أفضل. ولم يكن هذا الأمل خادعًا، ففى العامين التاليين وصل مستوى النيل "إلى ارتفاع لم يشهده من قبل وأدى إلى محاصيل وفيرة ومتميزة جدًا"(١١٢)، وهذا هو ما ورد فى قرار القيصر الذى أعلنه حاكم المدينة فى الحادى والثلاثين من مايو عام ١٣٦ فى الإسكندرية، ذلك القرار الذى وصلنا منه حتى الآن ثلاث نسخ، إلا أن السبب فى صدور هذا القرار لم يكن سارًا، فقد حدث بالضبط ما جاء وصفه فى العهد القديم بمثال البقرات السبع السمان والبقرات السبع الهزيلات، وكان ما حدث كالتالى: خلال المائة والست والثلاثين سنة السابقة كان منسوب مياه النيل منخفضًا جدًا، وتمكن حاكم المدينة من التغلب على مشاكل التموين الناتجة عن ضعف المحاصيل وذلك عن طريق نظام التخزين المتبع منذ زمن طويل، وترتب على ذلك مشاكل لدى الفلاحين فى دفع الضرائب حتى إن القيصر أعلن استعداده تقسيط المبالغ المستحقة عن عام ١٣٦/١٣٧ على فترة من ثلاثة إلى خمسة أعوام، وذلك بقدر تضرر المنطقة بانخفاض مستوى الماء.

**"كل الأعوام الـ ١٤٦١" ــ ظهور طائر البشروش**

لكى نعطى الحدث الذى احتفلت به الإسكندرية عام ١٣٩ ما يستحقه من تقدير يجب أن نغوص بعيدًا فى ماضى مصر، وأن نبحث مع أهلها ممن عاشوا فى الألف الثالثة قبل الميلاد عن سبل وضع نظام للتقويم وتتابع الأيام المنتظم؛ وبالتالى نطرح على أنفسنا السؤال: كيف كانت تبدو سنة المصريين القدماء؟ يُلاحظ لدى كثير من الشعوب البدائية أنها تحدد بداية السنة بظواهر طبيعية تتكرر بانتظام بطريقة أو بأخرى، مثل بداية موسم الأمطار أو أول سقوط للثلوج أو ما شابه ذلك من ظواهر، أما بالنسبة للفلاحين المصريين فقد كان الأقرب لهم الارتباط بمنسوب مياه النيل الذى يحدد مسار العام، فإذا ما حسب المرء الأيام ما بين بداية منسوب وآخر فلن يحصل كل عام على نفس النتيجة ولكن بعد عقد من الزمان تقريبًا سيكون متوسط أيام السنة ٣٦٥ يومًا، وبهذا توصل المصريون مبكرًا جدًا وبدون حسابات فلكية وبطريقة بسيطة جدًا إلى تقويمهم النيلى (عام النيل الخاص بهم) .

وقسم المصريون العام إلى ثلاثة فصول نظموا حياتهم تبعًا لها، هذه الفصول هى: فصل الفيضان، وفصل الشتاء ( الفترة التى يتراجع فيها منسوب الماء وتظهر الحقول)، وفصل الصيف (فترة الجفاف)، ثم أدى اتباع الشهور القمرية إلى الوصول إلى تقسيم فصول السنة الثلاثة تلك إلى أربعة أشهر لكل فصل و٣٠ يومًا لكل شهر (٣×٤×٣٠=٣٦٠)، وللوصول إلى عدد الـ ٣٦٥ يومًا التى تمت ملاحظتها من خلال عام النيل أُضيفت خمسة أيام كبيسة فى نهاية السنة، وكانت أيام التوقف قبل بداية دورة العام مرة أخرى.

ولا نعرف متى تم اعتماد السنة رسميًا ٣٦٥ يومًا، ونستطيع فقط تخمين إن هذا تم فى عصر الملك زوسر(*) (٢٦٢٤ ـ ٢٦٠٥ قبل الميلاد)، ولم يمض وقت طويل على ذلك حتى تمكن المصريون من ربط بداية عامهم الجديد بالتقويم، لأن الظاهرة التالية كانت ملفتة للجميع وخاصة أن الفلاحين فى جميع أنحاء العالم يهتدون إلى ما يريدون اعتمادًا على السماء، وهذه الظاهرة ترتبط بنجم كان الأكثر سطوعًا من بين كل النجوم الثابتة هو النجم الشعرى أو السوتيس كما كان يقول المصريون(**)ـ "النجم الكلب" وهو ضعف حجم الشمس التى كانت تُعد كوكبًا فى ذلك الوقت وعلى مدار العصر القديم كله. فقد لوحظ أن هذا النجم كان يظهر ويختفى مثل جميع النجوم الثابتة من يوم ليوم كل أربع دقائق تقريبًا، وتبعًا لهذا يظل هذا النجم غير مرئى لفترة محددة فى السنة لأن بزوغه وأفوله يحدث فى وقت ما من اليوم، فعندما يمكن رؤية النجم مرة أخرى ساعة الغسق قبل شروق الشمس بوقت قليل لأول مرة فإن هذا يُعد ظاهرة ملفتة بشدة لإنسان تعود على النظر إلى السماء، ولأن الأمر يتعلق بنجم ثابت، فكان يكفى النظر دائمًا إلى نفس المكان، وتتكرر هذه الظاهرة بعد عام بالتمام والكمال، ولأن البزوغ المبكر للسوتيس عند خط العرض الجغرافى لمنف يتم فى التاسع عشر من يوليو، أى فى وقت يحدث حوله عادة زيادة منسوب مياه النيل أيضًا، لذا أصبحت سوبدة "جالبة للنيل" وبالتالى "ربة العام الجديد"، وهكذا اكتشف المصريون بداية فلكية للعام .

---

(*) أول ملوك الأسرة الثالثة وصاحب هرم سقارة المدرج. (المراجع).

(**) أطلق المصريون عليه اسم سوبدة وحُرفت إلى سوتيس فى الإغريقية. (المراجع).

ثم تعود الأحداث الكونية فتكرر نفسها غالبًا بطريقة دائرية، ولا تشتمل السنة النجمية الفلكية على ٣٦٥ يومًا بالضبط، وإنما على ٣٦٥ يومًا وربع اليوم، وعن هذا كتب النحوى الرومانى سنسورينوس Censorinus، والذى نعود معه مرة أخرى إلى العصر القيصرى، فى مؤلفه "عيد الميلاد" والذى أهداه عام ٢٣٨ لشخص لا نعرفه بمناسبة عيد ميلاده: "لأن سنة التقويم الشعبية عند المصريين تُحسب ٣٦٥ يومًا كاملة بدون أى كسور، ولكن يحدث عندهم كل أربع سنوات أن تصبح السنة أقصر يومًا، ونتج عن هذا أن النظامين لم يصلا مرة أخرى إلى نفس بداية السنة إلا بعد ١٤٦١ عامًا"[١١٣]، والمقصود هنا ١٤٦١ سنة أرضية وهو ما يساوى ١٤٦٠ سنة فلكية، إذًا حدث تلاقٍ بين السنة الأرضية والسنة الفلكية، ولن يحدث هذا مرة أخرى إلا بعد ١٤٦١ سنة وهى الفترة التى يُطلق عليها دورة سوتيس(سوبدة)، ويطلق اليونانيون على هذا التلاقى أبوكاتاستازيس ("إعادة التكوين"، "العودة").

وأثناء تأملاته يناقش سنسورينوس بدايات السنة، ويذكر فى هذا السياق وقت التقاء البزوغ المبكر للسوتيس مع بداية السنة النيلية المصرية معًا، ويقول: "بدايات السنة فى تلك التقاويم ( ويقصد أنواع التقاويم المختلفة التى ذكرها سابقًا) تكون دائمًا فى اليوم الأول للشهر الذى يسميه المصريون توت(Thot)، ويأتى ذلك اليوم فى هذا العام ( يقصد العام الذى يقدم فيه هديته فى عيد ميلاد الشخص المجهول لنا) فى الخامس والعشرين من يونيو، بينما جاء ذلك اليوم قبل مائة عام فى عهد القنصل الثانى للقيصر أنتونينوس بيوس (Antoninus Pius) وقنصل بروتيوس براسينس (Bruttius Praesens) (١٣٩)، فى العشرين من يوليو، وهو يوم البزوغ المعتاد لنجم الكلب فى مصر" [١١٤].

وهكذا كان الاحتفال بهذا الحدث يُعد من أهمها على الإطلاق مقارنة بالاحتفالات الدنيوية التى تُعقد كل ١٠٠ عام. فهذا الحدث كان عمره أكثر من ١٠٠٠ عام وهو الاحتفال الذى تمكنت كل من الإسكندرية ومصر من إقامته عام ١٣٩، وربما كان لأكبر العلماء فى هذا المجال وهو الفلكى وعالم الرياضيات بطلميوس يد فى هذه الحسابات الخاصة بعصره، وتم فى المدينة فى

ذلك الوقت سك عملات معدنية تظهر صورة للنصف العلوى من جسم أنتونينوس بيوس (رأس)، كما تُظْهر طائر البشروش (الفونكس) وحوله هالة من النور مع كلمة عام جديد (AIΩN) (شكل ٤٤)، ويمكن فهم رمزية البشروش، من خلال مقدرته المذهلة على النهوض من بين الرماد، ومن ثم اتخاذه رمزًا للمدينة التى تتعافى دائمًا من جديد بعد ضربات القدر المأسوية.



(شكل ٤٤) طائر الفونكس.

ومر ربع قرن على الوقت الذى كان فيه التفكير فى قدرة طائر البشروش/ الفونكس على تجديد نفسه، حينما دخلت فى السنة الأولى للحكومة المشتركة لمارك أوريل Marc Aurel (١٦١ ــ ١٨٠م) ولوسيوس فيريوس Lucius Verus (١٦١ ــ ١٦٩م) قوات فارسية إلى أرمينيا وانتصرت على الحاكم الرومانى فى معركة حربية، ثم قاتل الرومان فى الشرق من عام ١٦٣ إلى عام ١٦٦ حتى لم يصبح أمام ملك الفرس إلا الجلاء. وذكّر انتصار الرومان على الفرس بعصر تراجان، إلا أن الثمن الذى دفعته الإمبراطورية بأكملها كان فادحًا، إذ يُعتقد أن القوات العائدة قد جلبت معها الطاعون، وأن حوالى ١٠% من سكان الإمبراطورية سقطوا ضحايا لهذا الوباء خلال الـ ٢٥ سنة التالية.

وأطلق البحث عن أسباب المرض العنان للشائعات، ومنها أن الطاعون كان عقاب الآلهة، وعانت الإسكندرية أيضًا، وهى نقطة التقاء جميع طرق تجارة الشرق اليونانى، من هذه المأساة، وما عانت منه روما جرى أيضًا لعاصمة الشرق حيث "كان يجب التخلص من الأموات ونقلهم على عربات نقل"[١١٥]. ولاسترضاء الآلهة تم تنظيم مآدب لها فى المدينة تُقدم فيها أضحيات التكفير، وتم فى ذلك الوقت فى الإسكندرية سك سلسلة من العملات المعدنية لسيرابيس، وحربوقراط، وإيزيس Isis، وديمتر Demeter، وهيرمانوبيس، وتيشه Tyche، صُوّر عليها تلك الاحتفالات. وتظهر عملة البرونز المطبوعة

على أحد وجهيها مارك أوريل وعليه إكليل من ورق الغار، وعلى الوجه الآخر الإلهة تيشه Tyche (الشكل ٤٥)، التى تستريح على أريكة طعام مزينة بثلاثة أكاليل زينة، وتستند بيدها اليسرى على وسادة الآلهة، وتحمل إلهة مدينة الإسكندرية سلة الثمار مثل سيرابيس، وتمسك فى يدها اليمنى بدفة استُخدمت كما لم يُستخدم شىء آخر رمزًا للإسكندرية، وكان رد فعل المدينة، التى تُعد وطنًا لعدد لا يُحصى من الآلهة، على المصير الذى ألمَّ بها فى ذلك الوقت يتمثل فى نشاط دينى متزايد.



(شكل ٤٥) الإلهة تيشه.

وبجانب الآلهة المعروفة من قديم الأزل ظهر القياصرة كآلهة أحياء، وكانوا يُعدون على الأقل أقوياء ومؤثرين مثلهم، وهو ما أكده نص من الإسكندرية يرجع إلى تلك السنوات: "(أعضاء) المجمع الدينى للتماثيل النصفية للقيصر والفاوستينا Faustina وهى حامية الفنار والأسطول أوجوستا Augusta الجديدة يُكرّمون واحدًا من زملائهم فى المجمع"(١١٦). وكانت فاوستينا الصغرى هى أوجوستا الأولى التى حصلت على اللقب الشرفى "أُمّ المعسكر الميدانى"،





(شكل ٤٦) الإلهتان فاوستينا وإيزيس فاريا.

ويتم تكريمها فى الإسكندرية باعتبارها حامية الأسطول، وبهذا التصور فهى تتساوى مع إيزيس. وتُظْهر العملات المعدنية السكندرية على إحدى وجهيها أوجوستا وعلى الوجه الآخر إيزيس ـ فاريا (Isis – Pharia) وهى تدفع بالقدم واليد اليسرى شراعًا ممتلئًا بالهواء وتمسك بيدها اليمنى الصلاصل(*) (الشكل ٤٦).

**خطر قادم من المستنقع ـ ثورة الرعاة**

إذا ما صعد المرء فى الإسكندرية إلى معبد الإله "بان"(**)، لاستطاع أن يرى الفنار فى الشمال الذى كان يسطع بلونه الأبيض ومن خلفه زرقة البحر، وإذا ما اتجه المرء بعد ذلك ناحية الجنوب سيقع نظره على المساحة المائية الهادئة الواسعة لبحيرة مريوط التى تنتشر فوق أعواد الغاب فى أحراشها أسراب من الطيور، وهذا المنظر من بعيد هو بالتأكيد الحياة النموذجية المريحة.

وكذلك عند ذكر الرعاة تتسلل إلى النفس بسهولة تصورات الحياة الجميلة، ولكن من يفكر ضمن هذا السياق فى بوكوليك Bukolik وفى الشاعر الرومانى فيرجيل Vergil وقصائده عن الرعاة ينبغى عليه الآن ترك هذه المشاعر جانبًا، لأن الرعاة الذين كانوا يعيشون حول الإسكندرية كانوا أى شىء آخر إلا أن يمثلوا هؤلاء الغلمان الملهمين فى أشعار الحب الرومانى، هذا إذا كان منهم مثل هؤلاء الغلمان فى يوم من الأيام. أما بالنسبة للبوكوليك فهم شعب يعيش على السرقة وموطنه دلتا النيل فى الشمال، وأحيانًا كان يُطلق عليهم فى مصادر العصر القديم أيضًا هيراكليوبوكوليك Herakleobukolik نسبة إلى المدينة الساحلية هيراكليون Heraklion التى تبعد ٢٥ كيلومترًا شرق الإسكندرية، وكان المؤرخ اليونانى هيرودوت قد أطلق فى القرن الخامس قبل الميلاد على مصب

---

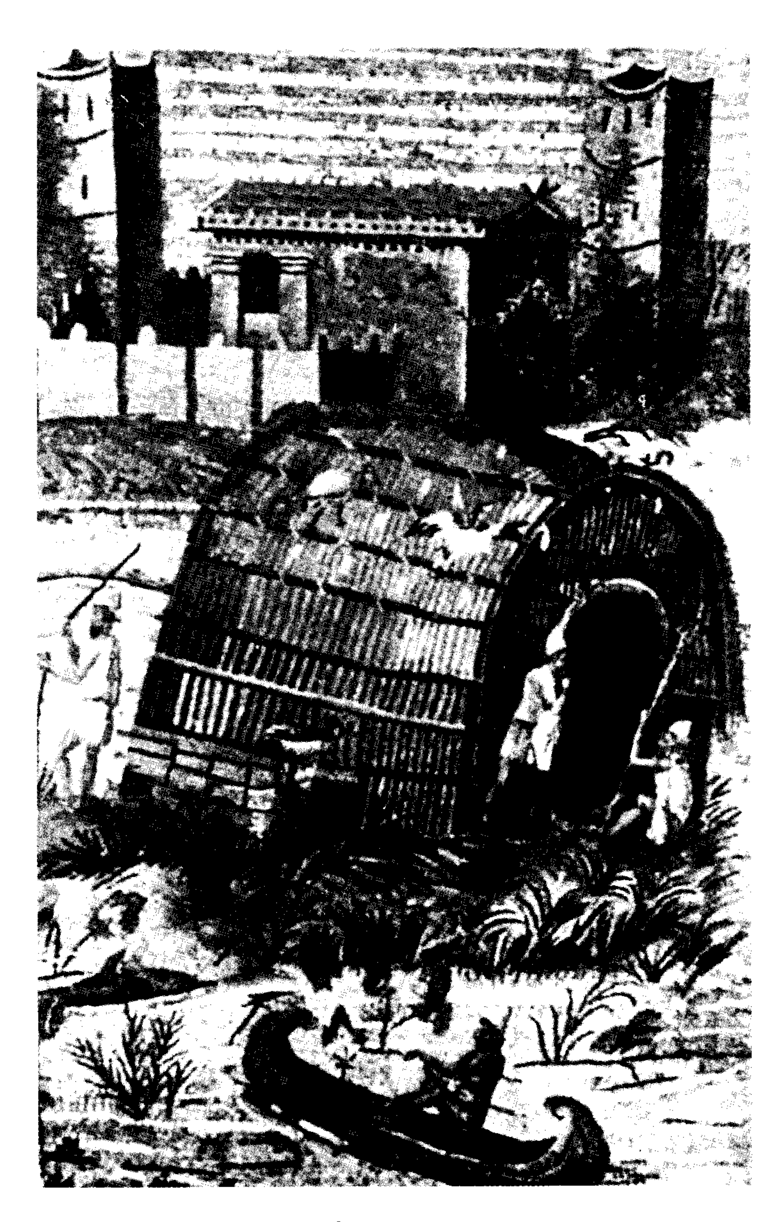
(*) الصلاصل: آلة موسيقية ترتبط بالإلهة حتحور وتقابل الشخشيخة الآن. (المراجع).

(**) معبود إغريقى يقابل الإله "مين" إله الخصوبة والتناسل عند المصريين القدماء. (المراجع).

النيل المصب البوكولى وهو الذى كان غالبًا ما يوصف بأنه المصب الكانوبى أو الهيراكليوتى(١١٧).

وسكان منطقة المستنقعات هذه يختلفون بشدة عن باقى المصريين فى المظهر الخارجى والعادات والتقاليد، وهم يمثلون دائمًا عاملاً لإثارة الفتن كان يتم إخماده فى العصر القيصرى (الإمبراطورى)عن طيب خاطر باستخدام القوات المتمركزة فى المدينة العسكرية بالإسكندرية، وكان المستنقع الواقع على مصب النيل هو مكان معيشتهم لأنه يقدم مأوًى آمنًا للصوص.

والوصف الذى يعطى أقوى الانطباعات عن هذه المنطقة وسكانها نجده فى إثيوبية Aithiopika، وهى الرواية الغرامية لهيليودور Heliodor عن مغامرات كاريكليا Chariklea وتياجينيس Theagenes؛ حيث يقوم هذان اللصان فى بداية القصة باختطاف أبطال العمل: "يطلق المصريون على هذه المنطقة بأكملها منطقة الرعاة وأرض الرعاة، وهى منخفض يمتلئ بالماء ويكوّن بحيرة عميقة جدًا فى منتصفها عند حدوث الفيضانات وارتفاع ماء النيل، وتتحول ضفافها إلى منخفضات ممتلئة بالماء والطمى، حيث تتشابه المستنقعات الموجودة على البحيرات مع الشواطئ الموجودة على البحار. وأرض الرعاة هذه هى مأوى حثالة لصوص مصر، فتجد أحدهم أقام كوخًا على بقعة أرض برزت من الماء، وتجد الآخر يعيش فى زورق هو مسكنه ووسيلة انتقاله، فى مثل هذه الأماكن تقوم النساء بغزل الصوف وولادة الأطفال، الذين تنمو أجسادهم أولاً بلبن الأمهات ثم بالسمك المجفف فى الشمس، وبمجرد أن يلاحظ الأب أن الطفل الرضيع بدأ يزحف (يحبو) على قدميه ويديه يقوم بربطه من قدمه بسير قصير من الجلد يسمح له بالزحف حتى حافة القارب الذى يسكنون فيه أو حتى مدخل الكهف فقط، وهذه السيور الجلدية تقوم بدور جليسات الأطفال اللاتى عادة ما يسحبن الأطفال من أيديهم ويسرن"، وتحكى لنا قطعة فسيفساء من معبد فورتونا Fortuna-Tempel فى برينستا Praeneste الإيطالية سلسلة من الموضوعات المعبرة عن شخصية مصر، ويُظْهر الجزء المطبوع أحد أماكن المستنقعات بكهف مصنوع من الغاب وأدغال برديات وزوارق مصنوعة من هذه المواد (شكل ٤٧).



(شكل ٤٧)
كوخ من
الخوص وقارب
من البردى.

ويواصل هيليودور وصف الرعاة فى روايته قائلاً: "وبعض الرعـــاة ولــد وكبر فى البحيرة وتغذى منها وصارت له بمثابة الوطن، وتُعتبر البحيرة ملاذاً آمنًا للهروب إليها بالنسبة للصوص، وهكذا يتدفق إلى هناك كل أصحاب هــذه

الحرفة، فيستخدمون الماء كجدار والغاب الكثير كأعمدة تثبيت، وحددوا طرق تسلل عديدة رائعة وأقاموا ممرات يعرفونها جيدًا ولا يمكن لغير الخبير بالمكان أن يدخل إليها، وبهذه الطريقة أنشؤوا حصنًا منيعًا لا يُخشى عليه من أى هجوم، وهذه هى خصائص البحيرة وسكانها الرعاة[١١٨].

صحيح أن البوكوليين Bukolen، الذين كانوا ينطلقون من مستنقعاتهم ويقتحمون باستمرار "حياة المدنيَّة"، كانوا يعلنون عن أنفسهم غالبًا بطريقة مزعجة ولكنهم لم يتحولوا إلى خطر حقيقى على الإسكندرية إلا عام ١٧٢[١١٩]، ولم تكن سرقاتهم حتى ذلك الوقت إلا هجمات مفاجئة على تجار أو على مزارع استطاع الناس التعايش معها مثلما يتعايشون مع تقلبات الطقس التى تحدث من آنٍ لآخر، ولكنهم ظهروا فى النصف الثانى من القرن الثانى مدربين تدريبًا عسكريًا إلى حد ما، ووصفتهم مصادر العصر القديم بأنهم تقريبًا جنود كادوا أن ينجحوا فى السيطرة على الإسكندرية.

ولنتتبع أولاً تقرير كاشيوس ديو الذى جاء فيه: "بدأ من يُطلق عليهم فى مصر "البوكوليين" ثورة وضموا إليهم مصريين آخرين فى أعمال السطو، وذلك تحت قيادة كاهن يُدعى إيزيدوروس Isidorus، واستطاعوا فى البداية وهم يرتدون ملابس نسائية أن يخدعوا قائد وحدة رومانية صغيرة اعتقد أنهم نساء بوكوليات يردن إحضار ذهب إليه ليفتدين أزواجهن، وعندما اقترب منهم قاموا بقتله، وقتلوا أيضًا مرافقيه وأخرجوا أحشاءه وأقسموا عليها وأكلوها، وكان إيزيدوروس يفوق كل معاصريه فى الشجاعة، ثم ضربوا القوات الرومانية المتمركزة فى مصر فى معركة عسكرية صريحة، وكادوا يستولون على الإسكندرية لولا وصول (أفيديوس) كاشيوس إليهم من سوريا ومواجهتهم. ويصف لنا كاشيوس ديو بعد ذلك كيف تم التغلب على الرعاة اللصوص قائلاً: "استطاع أفيديوس كاشيوس أن يضرب وحدة البوكوليين وترابطهم معًا، وفرَّقهم عن بعضهم البعض؛ لأنه نظرًا لشجاعتهم فى مواجهة الموت وعددهم الضخم لم يجرؤ على مواجهة قوتهم المسلحة المتحدة، ولكن عندما صاروا فيما بينهم غير متحدين استطاع أن يتغلب عليهم"[١٢٠].

ولأن أفيديوس كاشيوس كان ممنوعًا عليه دخول مصر باعتباره سيناتورًا رومانيًا، لذا فقد احتاج إلى تفويض خاص لتخليص الإسكندرية من هذا "الوبـاء الذى ألمّ بها"، ويُذكر أنه بعد ذلك بقليل أُعلن قيصرًا بناء على مجـرد إشـاعة ترددت بأن مارك أوريل (١٦١ ــ ١٨٠م) قد مات، وكان أفيديوس كاشـيوس واحدًا من القادة الجنرالات البارزين فى عصره، وكانت قد مرت سنوات قليلة على نجاحه فى حرب الرومان ضد الفرس، وكان والد المغتـصب أفيـديوس هليودوروس Avidius Heliodorus، والذى عُرف عنه أنه كان فصيحًا وفيلسوفًا قد شغل منصب حاكم مصر فى الفترة من عام ١٤٠ إلى عام ١٥٠ تحت حكم أنتونينوس بيوس (١٣٨ ــ ١٦١م)، وكانت له علاقات بالإسكندرية أفادت ابنه أفيديوس كاشيوس فيما بعد، وعلاوة على ذلك كان لا يزال انتصاره الكبير على الرعاة ماثلاً فى الأذهان، ولهذا لم يكن مـستغربًا أن ينـضم إليـه فلافيـوس كالفسيوس Flavius Calvisius القائد العسكرى لمصر.

وظل أفيديوس كاشيوس لمدة ثلاثة أشهر، مـن منتـصف أبريـل حتـى منتصف يونيو عام ١٧٥، قيصرًا معترفًا به فى الإسكندرية، وعندما اتضح أن خبر موت القيصر إشاعة لم يعد هناك أهمية للتساؤل حول ما إذا كان إعلانـه نفسه قيصرًا تم بموافقة زوجة القيصر فاوستينا الصغرى أم لا، ولكـن أثنـاء الاستعدادات للحرب الأهلية التى كانت على الأبواب قتل بعض الجنـود هـذا المغتصب، ولأن مارك أوريل عفا عن أتباع أفيديوس كاشيوس فقـد انتهـت القصة بالنسبة للإسكندرية دون عواقب، إلا أن القيصر قرر، عنـدما علـم أن المغتصب كان له سند قوى لدى المدنيين من شعبَىْ سوريا ومـصر، أن يهـتم بالأمر بنفسه فى الولايتين، وهكذا عايشت الإسكندرية زيارة القيصر عام ١٧٥ بنذر أخرى غير تلك التى عاشتها لسنوات مضت، وهناك قاعدة تمثال يعود إلى فترة إقامته كتب عليها عبارة تكريم، وأمر بوضعها للقيصر مفوّضـون عـن العسكريين بفرقة التراجيانا الثانية II Traiana المتمركزة فى نيكوبـوليس[١٢١]، وبالتأكيد انتشر خبر أن مارك أوريل مستعد لمواصلة حكمه المعتدل المـشهور عنه أيضًا على ضفاف النيل، ولكن ينبغى فى البداية إظهار الندم علانية للتقرب من الحاكم.

ويُذكر أن شعور السكندريين بالذنب تم التعبير عنه بالتصفيق كما فعلوا عند الاعتراف بأفيديوس كاشيوس قيصرًا، وبعد أن تم إظهار الندم وإعلان العفو قام القيصر بإعفاء الحاكم، ثم نفذ عقب ذلك البرنامج المعتاد بالإسكندرية– حتى إنه يمكن القول إنه "كان يتصرف فى كل الأماكن والمعابد كمواطن وفيلسوف"(١٢٢)، وإذا كان القيصر فعلاً مهتمًا بالفلسفة كما كان يدعى دون كلل أو ملل ويواصل البحث والتأمل بإقامة الصلوات، فإن إقامته فى الإسكندرية، وبعيدًا عن مجريات الحرب على نهر الدانوب، لم تكن بالتأكيد إلا استجمامًا بالنسبة له، ومع نهاية عام ١٧٥ شد الرحال مرة أخرى تاركًا ابنة له فى المدينة.

## سيرابيس الجديد – سيبتميوس سيفيروس فى الإسكندرية

سعى سيبتميوس سيفيروس (١٩٣ – ٢١١م) فى صراعه من أجل أن تدين له السيادة وحده أولاً إلى الفوز بروما، ثم أتبع ذلك بمحاولة إزاحة الحاكم السورى بسكنيوس نيجر Pescennius Niger فى الشرق، الذى طالب فى نفس الوقت بتنصيبه قيصرًا معه، وبخلاف فيسباسيان Vespasian أبدى سيبتميوس سيفيروس اهتمامًا بالحفاظ على علاقته بالجيش، ولذلك كانت الأعوام من ١٩٣ إلى ١٩٧ كلها حروب، ولم يكن هدف هذه الحروب فقط إزاحة المنافسين على الحكم وإنما أيضًا تقوية وتدعيم شرعية السيادة داخليًا عن طريق الانتصار على الأعداء خارجيًا، وهكذا نتج أثناء حرب الفرس عام ١٩٧، التى تحقق أول نجاح لها فى احتلال كتيسيفون Ktesiphon ، إلى جانب ترقية الابن الأكبر – الذى عُرف بعد ذلك باسم كاراكللا Caracalla– إلى مرتبة أغسطس Augustus والأصغر جيتا Geta إلى مرتبة قيصر Caesar، وعقب ذلك امتدت المعارك إلى عامين آخرين، إلا أن سيبتميوس سيفيروس لم يعد عام ١٩٩ إلى روما، وإنما قرر الإقامة لمدة عام فى الإسكندرية، وترقب شعب المدينة حضور القيصر بمشاعر متباينة. وبدون حرية حقيقية فى اتخاذ القرار تمت مساندة ودعم بسكنيوس نيجر، وهو واحد من المنافسين للقيصر الجديد، والذى كانت هزيمته بالنسبة لسيبتميوس سيفيروس بمثابة خطوة مهمة على الطريق إلى الحكم

منفردًا، والآن قد جاء هو بنفسه، وكان "الشارع العريض" مزينًا ومكتظًا بسكان المدينة، الذين كانوا يُبْدون قلقهم الداخلى على هيئة صرخات مع كل تصفيق وتهليل للقيصر وإعلان الولاء له، ويُقال إن هذا الاستقبال لم يَفُقْه إلا استقبال ابنه كاراكللا.

وبالنسبة للوضع السياسى فى الإسكندرية، كانت هناك أولوية لتصريف وتنفيذ الأمور الإدارية والفنية، ومن ذلك أن حصلت الإسكندرية أخيرًا على مجلس للمدينة كان قد طالب به المواطنون منذ عهد أغسطس دون جدوى. أما السبب الحقيقى لرحلة سيفيروس الطويلة إلى مصر، فيوضحه المؤلف الذى وصف حياة القيصر فى مؤلف التاريخ الأوغسطى، وهو الرغبة فى الترحال التى ظهرت منذ سنوات شباب القيصر وشغفه "بالعلوم، والمناسبات الدينية، والأبنية، والآثار"(١٢٣)، وهل يوجد مكان يمكن للمرء الاستمتاع فيه بهذه الهوايات كما فى الإسكندرية ومصر؟

جاء القيصر عن طريق الفرما Pelusium، وقدم قربانًا ــ حسب التقاليد المتبعة ــ على قبر بومبى، الذى جدده هادريان، وبعد وصوله إلى الإسكندرية "منح السكندريين الحق فى أن يكون لهم مجلسٌ للبلدية، وكانوا من قبل، مثلما كانوا تحت إمرة ملوك البطالمة، بدون مجلس بلدية، ومجبرين على الاكتفاء بقاضٍ واحد يعينه القيصر، وقام فضلاً عن ذلك بتعديل كثير من حقوقهم. وكان سيفيروس يردد كثيرًا كم أنه استفاد من هذه الرحلة وبالأخص فيما يتعلق بعبادة سيرابيس ودراسة الآثار، وما تنفرد به مصر فى عالم الحيوان والطبيعة، فقد زار وشاهد مدينة منف وتمثالَىْ ممنون(*) والأهرام وقصر التيه(**) (١٢٤)، هذا وقد أمضى الفترة من ديسمبر عام ١٩٩ إلى أبريل عام ٢٠٠ مع أسرته فى الإسكندرية قبل أن يبدأ برنامجه السياحى.

---

(*) التمثالان الكبيران للملك أمنحتب الثالث من بقايا معبده الجنزى بطيبة الغربية. (المراجع).

(**) هو المعبد الجنزى للملك أمنمحات الثالث من الأسرة الثانية عشرة، واشتهر باللابيرنت تشبيهًا له بقصر الحكم فى كنوسوس بجزيرة كريت؛ وذلك لتعدد حجراته وممراته التى تصل إلى ٣ آلاف حجرة، حسب وصف هيرودوت. (المراجع).

ومن ضمن ما ظهر بمناسبة هذه الزيارة الصورة المستديرة الشهيرة للأسرة والموجودة حاليًا فى المتحف المصرى ببرلين (شكل ٤٨)، وفى الصف العلوى نرى سيبتميوس سيفيروس مع زوجته أيوليا دومنا Iulia Domna وتحتهما ابنيهما كاراكللا وجيتا، هذا وقد أُزيل عن طريق الكشط أحد رأسَى الطفلين وهو رأس جيتا ورُسم مكانه بسائل من بول حيوان كانت رائحته يومًا ما بالتأكيد سيئة للغاية(١٢٥)، وكانت الصورة تضم فى الأصل أربعة آلهة أمر أحدهم وهو كاراكللا بقتل أخيه الأصغر جيتا، وكان جيتا إلهًا بينهم إلا أنه بعد مقتله، وبناء على قرار مجلس الشيوخ قد فقد وجوده وبالتالى ألوهيته، ولم يكن يكفى ببساطة تجاهل أنه كان فى يوم ما فى قيد الحياة، وكان لا بد من التأكد أنه لم يعد باستطاعته أن يسبب أى ضرر، لذلك تمت إزالة وجهه عن طريق الكشط من الصورة وتم تشويهها بعد ذلك لسحب قوته السحرية بهذه الطريقة.

وعن طريق شواهد أدبية وبقايا أثرية عرفنا ما يكفى عن تغيير سيبتميوس سيفيروس المتكرر لمنظر رسمه الجانبى، وتكييف نفسه مع برنامج سياسى



(شكل ٤٨) أسرة سيبتميوس سيفيروس.

حاول به دائمًا تدعيم حكمه. ومن بين ما يلفت الانتباه فى سـياق إقامتـه فـى الإسكندرية، ما ظهر له من تماثيل تصوره على هيئة سـيرابيس Sarapis-Typ الذى أعرض له على سبيل المثال صورة جانبيـة مـن مُتحـف جليبتوتيـك Glyptothek بميونخ (شكل ٤٩).



(شكل ٤٩)
تمثال نصفى
لسيبتميوس
سيفيريوس.

ويميز الشكل شعره المجعد ذو الخصلات الحلزونية (على طريقة بريمـة نزع السدادات) وتسريحة الشعر الشهيرة بأغسطس، وكان سيرابيس غالبًا أيضًا ما يتخذ هذه التسريحة لشعره، (قارن الشكل ٦٥)، وهكذا فإن القيـصر حينمـا يتخذ المظهر الخارجى لسيرابيس إنما يتوحد مع الإله المصرى اليونانى، الذى

يتساوى بدوره مع الإله الرومانى جوبتر، ولعل سيبتميوس سيفيروس قد اشترك فى الإسكندرية فى احتفال ليلى لسيرابيس كالذى نعرفه من وصف ورد إلينا من القرن الثانى: "كانت مصادفة وجود احتفال للإله الكبير الذى يسميه اليونـانيون زيوس Zeus ويطلق عليه المصريون سيرابيس، وكان يـسير هنـاك موكـب للمشاعل يُعد أكبر موكب عايشته هناك، كان الوقت بداية المساء فور غـروب الشمس، ومع ذلك فقد تحول الظلام الدامس إلـى نهـار مـع أضـواء آلاف المشاعل نعم، لقد عايشت فى ذلك الوقت كيف تتنافس مدينة فى الجمال مـع الجنة "[١٢٦]، ويتناسب مع هذا ملحوظة لكاتب السيرة الذاتية للقيصر قال فيهـا: "كانت الرحلة التى تتعلق بالإله سيرابيس مدهشة له...، وهذا ما كان سيبتميوس سيفيروس فيما بعد يردده دائمًا"[١٢٧]، ووصف ابنه كاراكللا نفسه فـى وقـت لاحق بأنه المحب لسيرابيس وهو ما يمكن أن ينسحب على الإله القديم والإلـه الجديد، وهو أبوه، بنفس الدرجة.

ووجدت زيارة سيبتميوس سيفيروس صدًى فى عريضة توجه بها عـام ٢٠٢ مبعوث كنيسة الإسكندرية السابق ويُدعى أوريليوس هوريـون Aurelius Horion فى شأن خاص به إلى القيصر، وقد أخذ الحجج التـى سـاقها لـدفع القيصر إلى الاهتمام بأملاكه فى الفيوم (أوكسيرينكوس Oxyrhynchus) مذكرًا بأحداث من ماضى الإسكندرية، فقد عدَّد مآثر المدينة و"نواياها الطيبة وولاءها وصداقتها للرومان، وهو ما تأكد من خلال تحالفها معهم فى الحرب ضد اليهود واحتفالها السنوى بذكرى الانتصار"[١٢٨]، والمقصود هنا ثورة اليهود فى عهـد تراجان.

**"حمَّام الدماء" ـــ وإقامة كاراكللا**

وفى عام ٢١٥، كانت هناك زيارة لأحد القياصرة من جديد، وكان أهـل الإسكندريـة قد تعودوا عبر السنين علـى مثـل هـذه الزيـارات، زيـارات أنتونينوس ـــ وهو الاسم الرسمى للقيصر الذى نعرفه بطريقة أفـضل باسـمه الهزلى كاراكللا Caracalla المشهور به (ومعناه زعبوط)؛ لأنـه كـان يحـب

ارتداء معطف له طاقية ــ وكان الناس يترقبون هــذه الزيــارة علــى وجــه الخصوص، فالقيصر كان مع والديه فى المدينة عندما كان شابًا، وصــحيح أن كاراكللا أمر بقتل أخيه وشريكه فى الحكم جيتا بعد موت سيبتميوس سيفيروس عام ٢١١، ولكن من المشكوك فيه أن تكون هذه الجريمة قد أحــدثت غــضبًا كبيرًا فى الإسكندرية بتراثها الطويل فى هذا الشأن مع البطالمة .

وهناك إجراء ملفت للغاية اتُّخذ عام ٢١٢، وسجلته كتب التاريخ على أنه دستور أنتونينيانا constitutio Antoniniana: فقد منح كــاراكللا كــل ســكان الإمبراطورية الرومانية الأحرار حق المواطنة الرومانية، وهذا الإجراء لم يعف بالطبع أى شخص من التزاماته الضريبية حتى ذلك الحين، وربما تكون النقوش الممجدة له والتى عُثر عليها قبل عدة أعوام بجزيــرة أنتيــرودس Antirhodos تدخل فى نفس هذا السياق، ومنها: "إلى سيد الأرض والبحــر وكــل أرجــاء المعمورة، حاكم الكون، المحب لسيرابيس، الخالد، القيصر ماركوس أورليوس سيفيروس أنتونينوسMarcus Aurelius Severus Antoninus الإله"(١٢٩)، وبهــذا المضمون أو ذاك جاءت تلك النصوص التى عُثر عليها فى تلك الجزيرة. وتُعد جزيرة أنتيرودس إلى جانب قيصرون Caesareum مقرًا بارزًا لعبادة القيــصر فى الإسكندرية.

وكانت نقوش التمجيد تلك لكاراكللا من صنع الكهنة القائمين على عقيدة القيصر بالمدينة وأيضًا الرومان والسكندريين، وربما إشارة إلى ما ذكرناه الآن توًا عن دستور أنتونينيانا عندما أصبح كل مواطنى الإسكندرية "رومان"، وتــم تلقيب كاراكللا مباشرة بالإله، وأصبح وصف الحاكم بخالق الكون يتضمن فعلاً إلهيًا هو فعل سيرابيس، الذى أراد القيصر أن يقيم فى معبده، والآن صــارت زيارة هذا الإله على الأبواب فعلاً.

سار كاراكللا على درب والده فيما يختص بمتعة السفر عامــة، ولكــن رحلته إلى الشرق كانت بغرض الاستعداد لحرب ضد الفرس، الــذين كانــت مملكتهم تبدو أنها أُصيبت بالوهن بسبب التقاتل الداخلى على السلطة؛ مما جعل القيصر يعتقد فى إمكانية إشباع رغبته فى تقليد الإسكندر، الذى تتوارى وراءه كل الأطماع الأخرى، بحرب مضمونة النتائج والنصرعلى الفرس، وهل هناك

من دوافع تفوق البحث عن تلك المدينة التى حملت يومًا اسم المقدونى الكبير ويوجد بها قبره؟

وإلى حد ما كان تصوير المؤرخ المعاصر هيروديان Herodian للاستعدادات التى تجرى لزيارة القيصر فى البداية موضوعيًا؛ ولكنه تاه فيما بعد فى وصف خرافى قائلاً: "أمر (كاراكللا) بتجهيز أضاحٍ عبارة عن ١٠٠ حيوان وأضاحٍ متنوعة، وعندما بلغ الخبر السكندريين، وهم بطبيعتهم متهورون بشدة ويمكن لأتفه الأسباب أن يحدث لهم نوع من الجنون، فرحوا فرحًا فاق الحد بما ينويه القيصر وحبه لهم، وعليه تم إعداد استقبال له ربما لم يحدث من قبل لقيصر آخر، وانتشرت فى كل مكان جميع أنواع المجموعات الغنائية، وتصاعدت أصوات جميع أنواع الموسيقى، واستُقبل القادم بالروائح الطيبة والبخور، وكرّم السكندريون القيصر بمواكب من المشاعل وأمطروه بالورود، وعندما استقر داخل المدينة بكامل جيشه ذهب أولاً إلى معبد سيرابيس وأتى بكثير من الأضاحى، وضحى على المذابح مع بخور كثيف، ثم ذهب إلى شاهد قبر الإسكندر، ووضع المعطف الأُرجوانى، وخواتمه المرصعة بالأحجار الكريمة الثمينة، وحزامه العسكرى، وكل ما يحمل من أشياء قيمة، وباركها أمام التابوت"(١٣٠).

وكان القيصر يحب أن يقلد النماذج التاريخية الكبيرة مثل أخيل Achill، وهو أحد أبطال الإلياذة Ilias، أو الإسكندر، الذى لا نكاد نجد قيصرًا واحدًا من قياصرة الرومان لم يقلده ــ وخاصة فى الإسكندرية، وكان كاراكللا يرى فى نفسه تجسيدًا للفاتح الكبير، ومن ثَم فقد ملأت تماثيل الإسكندر، وهو ما يتفق عليه المؤرخون المذكورون سلفًا فى كتاباتهم، معسكر الكتيبة ومدينة روما وحتى قرى المملكة.

ثم بدأ كاراكللا التخطيط لحرب ضد الفرس، وكان من ضمن الاستعدادات لها قيام القيصر بتشكيل وحدتين عسكريتين فى إسبرطة Sparta، التى لم يتبق منها الآن فى القرن الثالث إلا اسمها مقارنة بدورها إبان عصر القوة والزحف الإغريقى والهلّينى، وسمى الوحدتين: الوحدة الإسبرطية والوحدة البيتانتية، وكان استدعاء عصور المجد المنصرمة منذ أمد بعيد واضحًا: فكما أثبتت

الوحدة البيتانتية كفاءتها طبقًا لتصوير هيرودوت لها فى بلاتاياى Plataiai عام ٤٧٩ قبل الميلاد ضد العدو، وهو الفرس، فى الشرق، ينبغى الآن على الوحدة التى تحمل نفس الاسم أن تقف صفًا واحدًا أمام العدو الجديد فى الشرق، أى تقف ضد الفرس(١٣١)، وإذا كان كاراكللا الآن ينوى تجميع جنود من الإسكندرية أيضًا، فإن هذا لا يبدو لى مجرد ذريعة كما يقول مؤرخو العصر القديم، وإنما هى بالتأكيد رغبة جادة للقيصر، حيث تمثل له ذكريات أيام الزمن الجميل فألاً طيبًا للنجاح فى المستقبل.

وبمناسبة زيارة عام ٢١٥ يمكننا أن نكوّن مجددًا تصورًا عامًا عن التنظيم المطلوب لحدث ضخم كهذا، وفيه نجد دوائر الإدارة داخل مصر قد استعدت قبله بفترة طويلة، ففى بانوبوليس(*) البعيدة تعهد أورليوس كوليتيس Aurelius Kolleetis، الذى كان قد حصل توًا وطبقًا لما جاء به دستور أنتونينيانا على حق المواطنة الرومانى "بألا يتخلف صياد مكلف بتوريد صلصة سمك وسمك لأجل الزيارة الرفيعة الشهيرة لسيدنا القيصر ماركوس أورليوس سيفيروس أنتونينوس بيوس Marcus Aurelius Severus Antoninus Pius" ولا يتخلى عن مسئوليته نحو ذلك(١٣٢). وعندما دخل كاراكللا أرض مصر عند الفرما Pelusium، كانت حيوانات النقل والحمير جاهزة بالتموين والإمدادات الضخمة.

وكانت فترة الإقامة أيضًا مكلفة جدًا فى الإسكندرية، حيث لم يقتصر التموين خلالها على السمك المذكور سلفًا فقط، وإنما شمل أيضًا مواد غذائية أخرى من الإقليم كله، ومن جديد أظهرت لنا إقامة القيصر أهمية المدينة التى تقع على النيل، فقد كلف كاتب قرية بالفيوم أحد فلاحيها بمرافقة نقلة حبوب إلى الإسكندرية مخصصة لكاراكللا والجيش فى سوريا، وأبلغ رئيس الدائرة أنه أقسم اليمين على إتمام المهمة طبقًا للوائح(١٣٣). ومن الفيوم وصلنا أيضًا أنه قد استولى على جملين من امرأة لمثل هذه النقلات ثم أُعيدا مرة أخرى(١٣٤)، ومرة أخرى يعود أحد الضباط من القوات المتمركزة فى الإسكندرية ليأخذ من عندها أحد الجمال لأجل نقلةٍ إلى سوريا.

---

(*) مدينة أخميم بمحافظة سوهاج، والتى كانت مقرًا لعبادة الإله مين إله الإخصاب والتناسل. (المراجع)

ويُذكر أن القيصر سيفيروس الإسكندر Severus Alexander قرر فيما بعد أن يعلن الحكام عن المسافات اليومية التى يقطعونها قبل بداية رحلتهم بشهرين، وأن يذكروا أماكن المبيت والأماكن التى سيتم استقبال الحبوب فيها، وطبعًا كان التخطيط الطويل المدى ضروريًا للسلطات المحلية، ولكن بعض التجار تمكنوا أيضًا من استغلاله لمصلحتهم، ويُذكر أن دقلديانوس (٢٨٤ ٣٠٥م) فيما بعد قد حاكم أولئك التجار الذين استغلوا مرور حاشية القيصر فى رفع أسعار الحبوب إلى أكثر من ثمانية أضعافها، محاكمات صارمة، وأوضاع سيئة كهذه كانت تسبق أيضًا زيارة كاراكللا. ونتج عن المصروفات الباهظة على السكن والمواد الغذائية عدم تورّع أحد الذين أعتقهم القيصر عن قتل أحد إداريى القيصر بطريقة فظيعة، ومثل هذه الأحداث كانت تعكر سعادة المدينة التى تسبق فى المعتاد زيارة القيصر.

ولكن ماذا نعرف عن الأحداث التى تلت ذلك، والتى تمت الإشارة إليها فى العنوان، وكانت مرتبطة بزيارة قبر الإسكندر، وتُعد من الأحداث الأكثر سوادًا فى تاريخ الإسكندرية؟ نعرف ذلك من خلال ثلاثة مؤرخين من العصر القديم سجلوا ملاحظات قصيرة، ويبدو أن الثلاثة معروف عنهم عدم الدقة فى تدوين التاريخ، فصحيح أن كاشيوس ديو (١٦٠-٢٣٠م) كان معاصرًا لهم، ولكنه من ناحية كان يحمل كراهية للقيصر، ومن ناحية أخرى فإنه لم يصلنا من عمله فيما بعد إلا أجزاء متفرقة محذوف منها الكثير، أما هيروديان (١٨٠ ــ ٢٤٠م) فهو أيضًا من المعاصرين إلا أنه غير موثوق فى عمله بصفة خاصة، كما أنه تنقصه الدقة، وينطبق الشىء نفسه على مؤلف وصف حياة القيصر فى التاريخ الأوغسطى فى القرن الرابع .

ويُعتبر حمّام الدماء الذى أجراه كاراكللا فى الإسكندرية مثالاً جيدًا لما يفرضه المؤرخون على قرائهم، فالقيصر، الذى وصم بأنه حيوان متوحش، جاء إلى مصر مصممًا على الانتقام من سكان المدينة لما صدر هناك من عبارات ساخرة. ويبدو هذا لأول وهلة كلامًا معقولاً: فإدمان السكندريين للسخرية كان مضرب المثل، وأراد المؤلفون أيضًا تسجيل فظاعة الحاكم كتابةً. لقد وقعت

ثلاث مذابح: مذبحة لنبلاء المدينة عند وصول القيصر، ومذبحة للشباب، وأخيرًا مذبحة عشوائية لعموم أفراد الشعب، ولكن إذا كان القيصر قد بدأ زيارته بمذبحة بين النبلاء، فما الذى يدعو الشباب، أى أبناء النبلاء الذين قُتلوا توًا، إلى التجمع فى المدرسة الثانوية ينتظرون ذبحهم(*)؟

ولنتبع أولاً ما ذكره كاشيوس ديو: "عندما وصل كاراكللا إلى مشارف المدينة قابله نبلاؤها بإشارات مقدسة وغامضة، فحياهم ودعاهم إلى مأدبة وقتلهم، وفور الانتهاء من ذلك قام بتسليح جيشه كاملاً، ودخل المدينة بعد أن طلب من جميع السكان البقاء فى منازلهم وقام باحتلال كل الشوارع وحتى الأسطح، و ــ لكى نتخطى تفاصيل الحوادث التى أصابت المدينة المسكينة فى ذلك الوقت ــ ذبح الكثيرين حتى إنه لم يجرؤ مرة واحدة على الحديث عن أعدادهم، وإنما كتب لمجلس الشيوخ إنه ليس من المهم كم عدد من لقوا حتفهم أو من كانوا لأنهم واجهوا هذا المصير عن استحقاق، وتم تدمير جزء من الأشياء الثمينة التى عُثر عليها وتمت سرقة الجزء الآخر، وتُوفّى مع مواطنى المدينة أيضًا كثير من الأجانب ــ لأنه لم يتعرف عليهم أحد ــ وكذلك كثير ممن جاءوا مع أنتونينوس كاراكللا.

وحيث إن المدينة كانت كبيرة، وقتل الناس يتم بنفس الدرجة ليلاً ونهارًا، لم يستطع أحد أن يفرق بين القتلى حتى وإن كان يرغب فى ذلك بشدة، بل ماتوا كما شاء القدر، وتم إلقاء جثثهم فورًا فى مقابر عميقة حتى لا يعرف الباقون شيئًا عن حجم المصيبة. هذا ما حدث لأهل البلد، أما الأجانب فقد تم نزوحهم باستثناء التجار، وطبعًا تم سلب كل شيء منهم، حتى إنه تم نهب بعض المقدسات، وفى معظم هذه الأحداث كان أنتونينوس حاضرًا بنفسه، وكان إما يراقبها أو يشارك فيها، وفيما عدا ذلك كان يصدر الأوامر من سيرابيوم لأنه كان يُقيم خلال تلك الأيام والليالى التى وقعت فيها عمليات القتل فى هذا المكان المقدس."(١٣٥) ويبدو كما لو أن الفنان الذى أبدع الرأس المصور (شكل ٥٠) ــ

---

(*) لعل المؤلف يريد أن يبرهن بهذا الأمر الذى يراه غير منطقى أن تلك المذبحة لم تقع، وإن كنا لا نعلم أن تجميع هؤلاء الشباب فى المدرسة قد تم قبل أو بعد مذبحة النبلاء، ومن ناحية أخرى ليس هناك ما يدل على أنهم من أبناء النبلاء. (المراجع).

ذا الأنف المكسور المشوه تشويهًا ــ قد رغب فى إظهار مدى قسوة وعدم اكتراث حاكم عنيف دموى.

وربما تقودنا الملحوظة ــ "حتى إنه تم نهب بعض المقدسات" ــ إلى الأثر الصحيح، وليس المقصود هنا هو تبرئة القيصر ولكن تسجيل الحقيقة التاريخية، ومن الممكن أن تُلقى إحدى أوراق البردى تم نشرها عام ١٩٤٥ قليلاً من الضوء على الظلمة التى غلفت مثل هذه التفاصيل التاريخية(١٣٦)، وللأسف وصلت إلينا هذه البردية مبتورة، ولكن بعض الأسماء والمصطلحات المحورية توضح أن النص يدور حول نسخ محضر تحقيقات يتناول أحداث عام ٢١٥ فى الإسكندرية، وكان هيراكليتوس Herakleitos هو الحاكم العسكرى فى ذلك



(شكل ٥٠)
كاراكلا.

الوقت وإيتاليسيوس Italicus الكاهن الأكبر، ومــن هــذا يتــضح أن القيــصر المذكور أنتونينوس هو كاراكللا.

والأحداث التى يشير إليها المحضر جرت فى الإسكندرية وكــانوب، أى فى الضاحية الشرقية وفى المدينة نفسها، وهذا هو نفس ما يشير إليه كاشــيوس ديو، والحديث فى هذا السرد المتقطع بشدة يدور عدة مرات حول تماثيل نصفية وتماثيل وصور وعن نهب معبد أيضًا وعن نار وعبيد فــارّين، وفيهــا يلقــى القيصر بالمسئولية على الحاكم العسكرى الذى يرمى بها على ما يبدو على قادة القوات المتمركزة فى الإسكندرية، فماذا يمكن أن يكون قد حدث ؟

استقبل موظفو المدينة فى كانوب كاراكللا بموكب احتفالى باعتبــاره الديونيسوس Dionysos الجديد، وذلك بطريقة مشابهة لما حــدث علــى ســبيل المثال مع مارك أنتون Marc Anton وأيضًا فى سياق مشابه لحرب مع الفرس، وبينما كان نبلاء المدينة يبايعونه فى الضاحية ويرد القيصر على المبايعة بمأدبة احتفالية، حدثت فى وسط المدينة قلاقل ربما بسبب أعباء مالية نتج عنها علــى ما يبدو إسقاط تماثيل القيصر، وكان هذا بالتأكيد فى نظر القيــصر كــاراكللا وآخرين تدنيسًا للحرمات، ومن الممكن أن يكون قد حدث اعتراض آخر عندما تم تجنيد "الصف المقدونى" فى الإسكندرية، وبعد ذلك شارك على ما يبدو أيضًا سكان الريف الذين تدفقوا على المدينة فى هذه المناسبة الكبيرة والتى تتمثل فى زيارة القيصر.

وقضى كاراكللا على القلاقل، ولكن العقاب لم يحل بالجميع دون تفرقــة، ففى البداية تمت معاقبة القائمين على إدارة بلديات المدينة الذين يتحملون، كمــا هو معتاد فى العصر القديم، مسئولية ما يحدث فى مدينتهم، وتبع ذلك عــصيان المتمردين للإجراءات المضادة، ويبدو أن الحاكم العسكرى أساء تقدير الموقف، وربما كلفه هذا الفشل أكثر من وظيفته، ونتج عن إجراءات القيصر ضحايا بين المجندين والشعب، ولكن ليس بالقدر المبالغ فيه الذى يسوقه لنا المؤرخون.

وبعد إنتهاء ما سُمّى بحمّام الدماء عايشت الإسكندرية سيناريو عقابيًا آخر: فقد "منع" كاراكللا "العروض المسرحية والمآدب العامــة للــسكندريين، وأمــر بتقسيم الإسكندرية بأسوار يتم وضع حراسة على أجزاء كثيــرة منهــا حتــى

لا يستطيع سكانها تبادل الزيارات بسهولة"(١٣٧)، وأُقيم سور فى ذلك الوقت أيضًا فى بروخايون Brucheion، وظل قائمًا حتى وصل الأمر إلى أن هذا الجزء من المدينة كان لا بد من احتلاله فعلاً بعد حصار مرير.

وبقيت بعض أجزاء مكاتبة كاراكللا للسكندريين عام ٢١٥: "يجب استبعاد كل المصريين الذين يقيمون فى الإسكندرية منها، وخاصة الفلاحين الذين نزحوا إليها من كل مكان ويسهل التعرف عليهم، وذلك باستثناء تجار الخنازير والبحارة وأولئك الرجال الذين يجلبون الفحم لأجل الحمامات، ولكن طاردوا كل أولئك الذين يحدثون اضطرابات فى المدينة استنادًا إلى عددهم الكبير وعدم فائدتهم"، وسمح كاراكللا للمصريين بالحضور إلى المقدسات لتقديم الأضاحى وخاصة فى الأعياد الكبيرة، ومن البديهى أنه سمح بدخول المدينة لأولئك "الذين يريدون رؤية مدينة الإسكندرية الشهيرة أو يعيشون الحياة المتحضرة أو يمارسون حرفة"(١٣٨). وتم النص صراحة على رابطة حرفة صناع الكتان؛ ولكن مع ضرورة استبعاد أعضائها المصريين، وبالغطرسة المعهودة لدى أهل المدن الكبيرة فى كل العصور انقلب كاراكللا على الفلاحين الذين كانوا قد صاروا فى غضون ذلك مواطنين رومان، ولكن، كما حدد هو، "يمكن التعرف عليهم من لغتهم وسلوكهم غير المتحضر، وإذا كانت هناك حاجة إليهم كعمال موسميين فى الإسكندرية مثل العمل فى مناجم الألبستر، فينبغى أن يعودوا فور الانتهاء من العمل مرة أخرى إلى قرى مصر".

وما لبثت الحياة أن عادت إلى مسارها المعتاد مرة أخرى، وهناك نقش تشريفى من الإسكندرية بتاريخ ١١ مارس ٢١٦ "لحاكم العالم القيصر ماركوس أورليوس سيفيروس أنتونينوس Marcus Aurelius Severus Antoninus ... المحب لسيرابيس Sarapis، و(لأمه) أوجوستا أيوليا دومنا Augusta Iulia Domna ...، وللإله (سيبتيموس) سيفيروس"(١٣٩)، ولم تستطع أية مدينة على الدوام أن تفسد ما بينها وما بين القيصر، ولم يستطع أى حاكم الاستغناء عن الإسكندرية.

طبقًا للموروثات التى حافظت عليها الإسكندرية لقرون طويلة كان الحوارىُّ مرقص هو الذى نشر المسيحية فى المدينة، وقد حدث فى زمانه أثناء مروره من بوابة المدينة أن انقطع رباط صندله، فرأى فى هذا آية إلهية جمعته بإسكافى فى الإسكندرية، وأثناء إصلاح الصندل وخز الإسكافى يده كلها بالمخراز فزمجر ولعن، وهنا قام القديس مرقص بخلط بصاقه بالطين وداوى الجرح فبرئت اليد تمامًا وأصبح قادرًا على استخدامها، فأراد الإسكافى مدفوعًا بفضوله معرفة الكثير عن قوة الإله الذى يبشر مرقص باسمه فى الأرض، وسمع عن حياة المسيح وآمن به ودخلت المسيحية إلى المدينة، ولا يؤخذ من هذه القصة سوى أنها تشتمل على العناصر المعتادة لقصص المعجزات المسيحية.

ومن بديهيات تأريخ سيرة القديسين المسيحيين أنه لما استُشهد القديس مرقص، انتشرت أسطورة منذ القرن الرابع عن نقل المكان الوهمى الذى دُفن فيه مؤسس الكنيسة لأسباب لا نعلمها إلى مكان بالقرب من معسكرات الجيش بنيكوبوليس Nikopolis، حيث أُقيمت هناك كنيسة باوساليس Baucalis؛ إلا أن قبره لم يصبح مركزًا لبازيليكا Basilika كبيرة، كما حدث بالنسبة لقبر القديس بطرس Petrus فى روما، ولهذا بالتأكيد علاقة أيضًا بأن كنيسة باوساليس كانت مقرًا لآريوس Arius [١٤٠] وتم تجديدها عام ٦٧٠، أى بعد الفتح العربى للإسكندرية. وظلت كنيسة القديس مرقص باقية، إلى أن اختُطفت عظامه ونُقلت أخيرًا إلى فينيسيا.

والمعلومات المؤكدة عن الأنشطة المسيحية فى الإسكندرية فى القرنين الأولين ضئيلة، وليس هناك من شك أن المسيحيين اليهود ظهروا بالفعل فى أواسط القرن الأول فى الإسكندرية، ويطلق بولس Paulus على المسيحى اليهودى أبوللوس، الذى نشأ هناك المعلم الرائع للرسالة الجديدة[١٤١]، ويبدو أن أبوللوس وجد أتباعًا فى عدة مناطق من آسيا الصغرى. وينظر بولس مثل آخرين كثيرين إلى أبوللوس على أنه أيضًا منافس ولهذا ينظر إليه بشك وريبة، وأضاف مخطوط من القرنين الخامس والسادس، مكتوب بخط اليد ملحوظة إلى

نص قصة الحواريين: أن أبوللوس قد تنصَّر فى مدينته، ولا عجب أن قام من يُطلق عليهم المتنصرين بزيارة أكبر جالية يهودية خارج فلسطين بسرعة، وذكر يوستين Justin فى خطابه التبريرى الدفاعى الأول، والذى أرسله عام ١٥٣ تقريبًا إلى القيصر أنتونينوس بيوس، أن مسيحيًا سكندريًا توجه فى نفس ذلك الوقت برجاء إلى القائد العسكرى لمصر فيليكس Felix، والتمس هذا السكندرى المجهول من قائد المدينة الإذن له بأن يُخصى على يد أحد الأطباء، وكان أطباء كثيرون قد رفضوا القيام بهذا دون تصريح من السلطات لأن دوميتيان جعل فى نهاية القرن الأول تقريبًا إجراء عملية الخصاء جريمة تتساوى مع جريمة القتل، ومنع فيليكس الخصاء ولكن المسيحى عاش، وهذا ما أكده يوستين فى حمى إخوانه فى العقيدة، ويبدو أنه كان وراء رغبة المسيحى هذا أسلوب حياة يتسم بالزهد الشديد، وهو الأسلوب الذى دفع أوريجين إلى خصاء نفسه بعد حوالى نصف قرن.

ومن بين رجال الكنيسة السكندرية بقيت لدينا صورة غير واضحة المعالم لرجل الدين الأول بانتينوس Panteinos، ولأول مرة نقرأ عند كليمنت Clemens السكندرى (١٤٠/١٥٠ــ٢٢٠م)، وهو المعروف لنا بعض الشىء بكتاباته، أخبارًا عن أتباع الكنيسة النصرانية، ويبدو أن كليمنت توجه ناحية أفراد المجتمع الميسورين، والذين لم يكونوا منخرطين فقط فى الحياة الثقافية الهلّينية وإنما كانوا ينعمون أيضًا بأسلوب حياة راقٍ، وربما أراد كليمنت فى الوقت نفسه مخاطبة المفكرين الكفار بكتاباته، ولأسباب غير معروفة ظهرت عداوات ضده وغادر الإسكندرية فيما بعد، ويشابهه فى قلة المعلومات عن الطوائف المسيحية كتابات أوريجين الذى ولد فى المدينة كواحد من سبعة أبناء عام١٨٢، وقام هو أيضًا بتوجيه كتاباته التعليمية إلى المسيحيين المثقفين بالمدينة، وغادر هو أيضًا الإسكندرية عام ٢٢٠ تقريبًا بسبب خلافات بينه وبين الأسقف ديمتريوس Demetrius.

وكان ديمتريوس هذا (١٨٩ ــ ٢٣٢م) هو أول أسقف للمدينة مذكور فى التاريخ، وكان على ما يبدو مستعدًا وقادرًا على مواجهة التصورات المتهاونة من قبَل السلطة التى تدعمها الكنيسة لصالح وظيفة الأسقف، وهذا ربما يكون

السبب فى عدم تحمله وجود شخصية مثل أوريجين بجواره، وبالإضافة إلى ذلك كانت هناك من البداية بالفعل علاقات وثيقة بين الإسكندرية وما يحيط بها وبالتأكيد مع مصر كلها. ولم يشارك أساقفة الإسكندرية فقط فى ترسيم أساقفة المحافظة الآخرين، وإنما دخلوا معهم أيضًا فى مناقشات عقائدية، فمثلاً الأسقف ديونيسيوس (٢٤٧ ــ ٢٦٤م) فصل فى الخلاف الجدلى الذى تفجر عام ٢٥٧ فى بينتابوليس، ودعا نفس الأسقف فى نهاية عام ٢٦٢ إلى اجتماع للقساوسة الكاثوليك الميليناريين millenaristisch وترأس جلسات المناقشة.

ومنذ عهد ديونيسيوس أيضًا يوجد شاهد تاريخى على عادة خطابات عيد الفصح التى يعلن فيها أسقف الإسكندرية الميعاد السنوى لعيد الفصح، والتى كان يستغلها أيضًا لإعلان موقفه من موضوعات لها صفة العموم، وكانت خطابات عيد الفصح هذه أيضًا تُسمى بأسماء أولئك الزملاء الذين كانت تجمعهم بأسقف الإسكندرية أعمال كنسية مشتركة، وكان الختام الفعلى لهذا التطور عندما أسند الإشراف على الكنيسة فى جميع أنحاء مصر إلى أسقف الإسكندرية، وذلك أثناء انعقاد مجمع نيقيا Nicaea عام ٣٢٥ فى إطار اللوائح العامة لأساقفة المطرانيات والتى تسرى على الكنيسة فى كل أنحاء مصر.

وطبقًا لرؤية الإسكندرية لنفسها والمعروفة فى مشارق الأرض ومغاربها ظهر إنجيل مصرى بسرعة، ولكن كليمنت رفض استخدامه، وتم أيضًا إعداد قوائم للأساقفة وكذلك خطابات رسل مزورة وكل ما يلزم من أجل إيجاد تقاليد مسيحية تعود من ذلك التاريخ إلى وقت صَلْب المسيح وقيامته، وبدون ثغرات كلما أمكن ذلك.

ولا يمكن استعراض وضع الجالية المسيحية بالإسكندرية بمعزل عن التطور العام للتعاليم المسيحية ورؤى العصر، إلا أننى سأحاول التركيز بشدة كلما أمكن على الإسكندرية، وإن كنا للأسف لا نمتلك معلومات موثوقًا بها حول الدين الجديد فى المدينة خلال الفترة التى امتدت لمائة وخمسين عامًا بعد موت المسيح، ولمؤرخ الكنيسة آ. ف . هارناك A.V.Harnack كل الحق فى تسجيل ملاحظة بخصوص أهمية رجال الدين السكندريين التى ظهرت فيما بعد وقال فيها إن هذه الفترة هى "الفجوة المؤثرة فى معلوماتنا عن بدايات تاريخ

الكنيسة"[١٤٢]. وربما كانت الجالية المسيحية متأثرة بشدة بالسعى من أجل معرفة الله ؛ ولذلك تم التعتيم عليها فيما بعد بالصمت.

والبدايات الأولى لتقاليد مسيحية فى المدينة والتى تتخطى الذكريات المشوهة التى ظهرت فيما بعد ترتبط كما ذكرنا باسم كليمنت السكندرى، ومنذ هذه البدايات والأضواء مسلطة على علم اللاهوت بالإسكندرية، ومع كليمنت نتتبع الكنيسة المسيحية التى انقسمت إلى عبادات فردية كثيرة، ويذكر هو نفسه الجماعات الكبيرة بأسمائها مثل الماركيونيين Markioniten والملكانيين Basilidianer والإنكراتيين Enkratiten والمونتانيين Montanisten والدوكيتيين Doketen والأوفيتيين Ophiten والبيراتيين Peraten والكينيتيين Kainiten والفالنتيين Valentinianer والسيمونيين Simonianer .

والماركيونيون Markioniten اسم يُطلق على أتباع أكثر مؤسسى الكنيسة نجاحًا فى القرن الثانى وهو ماركيون Markion، وكان يدعو لإلهين: الأول الإله الأعلى الطيب، والثانى الإله المذكور بالعهد القديم خالق العالم والقاضى غير الرحيم، أما يسوع بالنسبة إليه فهو رسول الإله الطيب الذى يخلص البشر، وكان اللاهوت الملكانى المنتشر فى نفس الفترة أيضًا يفرق بين الإله الأعلى وإله العهد القديم، وكان أتباعه يمثلون العقيدة المبنية على الفكر، وكانوا متأثرين بالفكر الأفلاطونى بشدة، وكانوا يدعون إلى تحقيق الإنسانية من خلال ضبط انفعالات النفس، أما الإنكراتيون فكانوا أكثر تصوفًا، وهذه الكلمة مشتقة من الكلمة اليونانية التى تعنى السيطرة على النفس، وهم لا يتزوجون ولا يشربون النبيذ ــ ولا حتى فى العشاء الربانى ــ، أما المونتانيون فهم أتباع حركة رسولية نشأت أيضًا فى القرن الثانى ويغلب عليها المحلية مثل تلك الجماعة التى انضم إليها الترتوليان Tertullian فى شمال أفريقيا، وكان أهم ما يميز هؤلاء النصارى نبوة حالمة هائمة وأخلاق صارمة منها رفض مبدأ المغفرة أو التكفير عن ارتكاب المعاصى الشديدة، وكان الدوكيتيون يعتقدون أن يسوع عانى فقط "ظاهريًا"[*]، وهذا مذهب آخر يقوم على أن كل ما هو بشرى فى

---

[*] لعل هذا الاتجاه يتفق مع وصف القرآن الكريم لهذه النقطة فى قوله تعالى فى سورة النساء: "وما قتلوه وما صلبوه ولكن شُبه لهم". (المراجع).

شخص المسيح لا علاقة مباشرة له بالمخلّص، وبمثل هذه الأفكار يحدث أحيانًا تقليل من شأن الجسد .

أما باقى المجموعات المسيحية التى ذكرها كليمنت، فهى مذاهب مختلفة تتبنى كلها دون استثناء تصورات فلسفية ترمى إلى معرفة الله (الغُنُوصية)، والغُنُوصية Gnosis شكل محدد "لمعرفة" دينية تخلّص نفسها بنفسها، وإلى جانب عناصر أخرى كثيرة يمكن ملاحظة توجه واضح نحو ازدواجية مصطلح الإله والتقابل بين الروح والمادة، وبالنسبة للأوفيتيين، الذين يُشتق اسمهم حسب الكلمة اليونانية من الثعبان ــ الذكر ــ ويلعب هذا الحيوان دورًا محوريًا فى العبادة التى تقوم على التعاليم التى تنصب على الجمع بين القوى السماوية الطيبة والقوى الأرضية الشريرة، بينما يجب أن تتخلص المادة ــ وهى فى هذه الحالة الناس ــ من هذا الخليط عن طريق الخلاص، وهنا يقع على الثعبان دور المساعدة فى نقل وتوصيل المعرفة الحقيقية بالإله (الغُنُوصية) إلى البشر رغمًا عن رغبة إله العهد القديم، حسبما نعلمه من قصة الجنة(*).

وبينما كانت العبادة بالنسبة للأوفيتيين تتمحور حول حيوان بعينه، كان البيراتيون يرون فيه عنصرًا كونيًا، ورسمت علاوة على ذلك مجموعة غُنُوصية صورة لأتباع قابيل Kainiten الذين رأوا القوة الشريرة مجسدة فى إله العهد القديم، فكانوا يمجدون كل الأشخاص الذين يصورهم العهد القديم على أنهم أشرار وخاصة قابيل والثعبان أيضًا، ويُذكر أنه كان لديهم إنجيل لخائن المسيح وهو يهوذا الإسخريوطى Judas Iskarioth وكانوا يمجدونه أيضًا، وكان يتبع هذا الفكر الغُنُوصى أيضًا الفالنتيون، وهم أتباع فالانتينيوس Valentinus الذى أقام لفترة فى الإسكندرية، وانقسم الفالنتيون إلى مجموعات كثيرة، أما السيمونيون فجاءت تسميتهم من سيمون Simon الذى تحدثت عنه قصص الرسل وجاء فيها أنه اعتقد فى إمكانية بيع هبة الاتصال بالروح القُدُس، ويُذكر أن أتباعه كانوا يدعون إلى الحب المتحرر، وكانت تعاليمهم الغُنُوصية تدور

---

(*) لعل المقصود بها هو قصة خروج آدم وحواء من الجنة. (المراجع).

حول قوة الإله والتى نتج عنها من خلال فيض له إلهة إنثوية والملائكة والمادة وأخيرًا الإنسان .

ولا يمكننا تقدير مدى قوة المجموعات المتفرقة ولا مدى تنظيمها وما إذا كانت من الأصل منظمة ولا مدى لفتها للأنظار إليها فى المدينة، وانضم معظم هؤلاء المسيحيين آجلاً أو عاجلاً إلى الأغلبية؛ مما جعل ظهورهم وتأثيرهم يبدو متواضعًا.

ومنذ عهد ديمتريوس أصبح للأسقف السكندرى تأثير سياسى كَنَسىّ عام سيطر به على عاصمة مصر، يتفق مع ما لعاصمة مصر الكبرى من تأثير، وما لبثت أيضًا عواصم المحافظات أن حصلت على أساقفة خاصِّين بها يقوم برسامتهم الأسقف السكندرى، ويُذكر أن ديمتريوس عيَّن ثلاثة منهم، وعين هيراكلس Herakles الذى جاء بعده عشرين. وقد أثبت المرسوم السادس لمجمع نيقيا أن أسقف الإسكندرية كان الأسقف الأكبر لمصر بما فيها إقليم طيبة Thebais وليبيا وبينتابوليس Pentapolis، وكان واجبه تعيين الأساقفة وإصدار التعليمات التنظيمية والفصل فى القضايا الكنسية، وكان ديمتريوس قد عقد بالفعل مؤتمرات كنسية ضد أوريجين .

وتمثل فترة حكم ديسيوس (٢٤٩ ـــ ٢٥١م) نقطة تحول بالنسبة لكتابة التاريخ المسيحى اللاحق، فقد ساء وضع الجماعات المسيحية، ولكن لم يحدث فى عهده ملاحقة للمسيحيين، إلا أن القيصر قام بمحاولة الإلزام بتقديم قربان شكر فى أنحاء الدولة كلها بوسائل بيروقراطية، وذلك بالاستفادة من الهياكل الإدارية التى تستخدمها الدولة فى زيادة الضرائب، وربما تمثل التجديد فقط فى أن ديسيوس طالب بشهادات مكتوبة لقربان الشكر المعتاد منذ فترة طويلة، وإيصالات الأضحية هذه جاءتنا من مصر ومنها الإيصال التالى بتاريخ ٢٦ يونيو عام ٢٥٠: "إلى اللجنة المختارة لمراقبة الأضاحى لقرية ألكسندرو نيسوس Alexandru Nesos من أوريليوس ديوجينس Aurelius Diogenes الابن، من قرية ألكسندرو نيسوس Alexandru Nesos، البالغ من العمر حوالى ٧٢ عامًا وبه ندبة عند الحاجب الأيمن. كنت أضحى دائمًا للآلهة، وقمت الآن بالتضحية طبقًا للتعليمات فى حضوركم والتبرع بمشروب تقربًا من الآلهة

وتذوقت لحم الأضحية، وأرجوكم التصديق على هذا أدناه"[١٤٣]، ولأن مثل هذه الشهادات كانت تصدر غالبًا لكل أهل البيت فكان يكفى على سبيل المثال أن يحصل عليها عبد لدى أسرة مسيحية وبهذا يحمى كل الباقين، ويبدو أن ديسيوس لم يتوقع مطلقا أية معارضة نشطة مثلما حدث من بعض المسيحيين لأنه لم تكن هناك عقوبة على ذلك فى المرسوم، ولذلك لم يكن هناك تَصدٍّ بطريقة موحدة لمثل هؤلاء الأشخاص والذين منهم من لقى حتفه على أية حال .

وإنه لمن الصعب بمكان أن نستفيد من تاريخ الكنيسة الذى كتبه يوسبيوس كمصدر تاريخى، لأن طريقته فى كتابة التاريخ تندرج بوضوح تحت أهداف تربوية أكثر مما هو الحال عليه فى العصر القديم، وفى إطار الإجراءات التى اتخذها ديسيوس يستشهد يوسبيوس فى فقرات كثيرة بخطابات الأسقف السكندرى ديونسيوس الذى تحدث عن نهب قام به أشخاص لم يحدد هويتهم بوضوح، وإنما تحدث عنهم بطريقة عامة من خلال الإشارة إليهم فقط. وفى عهود سابقة كان اليهود ضحايا لعمليات مشابهة من جانب السكندريين، وكان يتم اقتحام بيوت المسيحيين المعروفين المجاورين منذ زمن بعيد والاستيلاء على الأشياء الثمينة، أما الأشياء الرخيصة المصنوعة من الخشب فكان يتم حرقها مباشرة فى الشارع[١٤٤] .

وتغلبت الطبيعة الإنسانية عند كثير من المسيحيين فسارعوا إلى العديد من المذابح وقدموا الأضاحى، كما كان هناك دائمًا بالإضافة إلى ذلك مسيحيون على استعداد للتوافق مع الدولة وحتى مع أعمال الأضاحى التى كانت تتم يوميًا تقريبًا، إلا أن تلك المجموعات، التى مرقت عن الدين طبقًا للمنظور الداخلى المسيحى، زادت بشدة منذ الإجراءات التى اتخذها ديسيوس ومن بعده فالريان Valerian. ويكفى لإظهار هذا الأمر ذكر المصطلح الجديد الذى نشأ، عندما تم البدء فى تصنيف المارقين: فكان هناك فى البداية الليبيلاتيكيون الذين حصلوا على "شهادات (إيصالات) الأضاحى" فى عهد ديسيوس أو اشتروها بمبالغ كبيرة أو حصلوا عليها بطرق ملتوية، أما المسيحيون الذين كانوا يقدمون فقط "قربان البخور" فكان يُطلق عليهم سوريفيكاتيين وذلك تمييزًا لهم عن الساكريفيكاتيين الذين قدموا قرابين كاملة أمام صور الآلهة، وبهذا أمكن إجراء

حلقات مناقشة بين المسيحيين حول ما إذا كان طريق العودة إلى الكنيسة متاحًا للمجموعات الثلاث، أم أنه متاح فقط للبيبلاتيكيين، وما إذا كان على السوريفيكاتيين تقديم نفس الكفارة التى على الساكريفيكاتيين تقديمها، كما كان هناك أولئك المسيحيون الذين لم يكونوا مستعدين مطلقًا لقبول أى واحد من المرتدين مرة أخرى، ولم يستطع مثل هؤلاء المتشددين إنفاذ رغبتهم ولكنهم أثروا بشدة على التطورات فى المستقبل .

وكانت الإجراءات التى اتخذها فالريان (٢٥٣ ـــ ٢٦٠م) أكثر عداءً للمسيحية من الإجراءات العامة التى اتخذها ديسيوس، رغم أن الأسقف ديونسيوس مدح السنوات الأولى من حكمه باعتبارها أسعد فترات حكم كل القياصرة حتى ذلك الوقت بالنسبة للمسيحيين(١٤٥). ولكن حدث التحول فجأة فى العام الرابع من حكم فالريان، أى عام ٢٥٧، فقد صدر مرسوم يطلب من الأساقفة والقساوسة والمطارنة، أى من أصحاب أعلى ثلاث درجات كنسية تقديم قرابين، كما تم منع إقامة القداسات واللقاءات فى المقابر، وأدى هذا الإجراء إلى عمليات اعتقال ونفى وأحكام بالعمل الإجبارى، ثم تفاقم الأمر مع المرسوم التالى فى عام ٢٥٨ الذى كان خطوة أخرى على طريق العداء للمسيحية، فلأول مرة تضع الدولة الرومانيةـ وهى على معرفة دقيقة بالتركيبة الدينية للجالية المسيحية ـ عقوبات محددة لأولئك الذين يمتنعون عن تقديم القربان (الأضحية)، وتتحدد العقوبة حسب الوضع فى التدرج الاجتماعى، فالقساوسة كان يتم إعدامهم، وأعضاء مجلس الشيوخ والفرسان كانوا يفقدون مناصبهم ورتبهم وثرواتهم، أما القائمون بالأعمال الإدارية للدولة فكان يتهددهم مصادرة الممتلكات والعمل الإجبارى، وبهذا تم إلغاء الوضع المستقر منذ قرن ونصف القرن ولخصه تراجان (٩٨ ـ ١١٧م) بكلمات قليلة مفادها عدم السماح لسلطات الدولة رسميًا بالبحث عن المسيحيين.

وتوضح الطريقة التى تم بها تفعيل المرسومين فى الإسكندرية الانفصام فى ذلك الوقت أيضًا بين النظرية والتطبيق للإجراءات التى تتخذها الدولة، حيث تم القبض على الأسقف ديونسيوس مع عدة قساوسة ونفاهم القائد

العسكرى لمصر موسيسيوس أميليانوس Mussius Ameilianus لمكان بجوار الإسكندرية مباشرة لدرجة أنهم استطاعوا العودة مرة أخرى بسرعة، وجاءت نهاية هذه الإجراءات بالسقوط المأساوى للقيصر الذى وقع أسيرًا لدى الفرس عام ٢٦٠ ولم يسمع أحد عنه شيئًا بعد ذلك. وألغى ولىُّ عهد فالريان وشريكه فى الحكم لسنوات طويلة ـ وهو ابنه وخليفته جالينيوس Gallienus ({٢٥٣} ٢٦٠ ـ ٢٦٨م) ـ أوامر والده من أجل تجنيب الدولة أعباء داخلية وهو فى بداية انفراده بالحكم، وقد عبر الأسقف السكندرى ديونسيوس عن انفراد جالينيوس بالحكم وعهد السلام بالنسبة للكنيسة الذى بدأ بالمرسوم الذى أصدره عام ٢٦٠[١٤٦]، مشبهًا تلك الفترة بسحابة أخفت نور الشمس لفترة فأظلمت الدنيا ولما مرت عادت الشمس تضىء من جديد.

وكان الحدث الحاسم لتلك الفترة هو أسر فالريان المذكور آنفًا على يد الفرس، والذى أعقبه سلسلة مبايعات للقيصر الجديد ـ وخاصة فى الشرق اليونانى ـ ولدينا من تلك السنوات رسالتان احتفالاً بعيد الفصح للأسقف ديونسيوس، الأولى منهما محددة التاريخ وذلك أن الحاكم "المقدس والمَرْضىّ عنه من الآلهة" جالينيوس، مقارنة بأبيه وسلفه فى الحكم، " أتم الآن العام التاسع من حكمه"، وبهذا يكون عام ٢٥٣ هو المقصود بتولّى السلطة رسميًا وتكون رسالة عيد الفصح قد كُتبت عام ٢٦١. ويلفت النظر فى الرسالة بوضوح الوجود الضعيف للدوائر السياسية بالإسكندرية؛ لأن الأسقف لم يذكر شيئًا عنها وإنما حيا فشل القيصر السابق وإخفاقه وبالغ فى مدح جالينيوس، حتى إنه فى الختام أبرز بعض عناصر المدح وبدا كما لو كان يبايع القيصر: "جالينيوس، الملك القديم والجديد فى نفس الوقت!".

وكان حاكم مصر أيضًا من بين المغتصبين للحكم إلى جانب موسيسيوس أميليانيوس، وكان هذا الحاكم الذى عينه فالريان قد انضم عام ٢٦٠ إلى كل من المغتصبيْن ماكريانوس Macrianus وكويتوس Quietus، ولكنه عاد واعترف فى صيف عام ٢٦١ بجالينيوس قيصرًا على البلاد بعد أن مُنى ماكريانوس بهزيمة، وبعد مقتل كويتوس فى خريف ٢٦١ لم يجد على ما يبدو مخرجًا آخر من الورطة السياسية التى ناور من خلالها سوى الهروب إلى الأمام، أى

الهجوم، وعليه ظهرت فى الإسكندرية منشوراته، وكان موقفه تجاه المغتصب فاصلاً بالنسبة للمستقبل القريب للكنيسة بالإسكندرية وللأسقف، وتشهد على وجهة نظر ديونسيوس رسالة عيد الفصح لعام ٢٦٢ـ هذا إذا كان مسموحًا لنا بتأريخ رسالة الأسقف إلى "هيراكس Hierax، أسقف الجالية فى مصر" بهذا التاريخ(١٤٧). ويلفت النظر فى هذه الرسالة أسلوب الكتابة المختلف تمامًا عن رسالة عام ٢٦١، وربما يمكن تفسير اللغة المجازية غير المعتادة على أنها محاولة لتناول أوضاع المنطقة دون إعطاء الخصوم السياسيين المحتملين ذريعة للهجوم، فقد تطرق ديونسيوس إلى الحديث عن الوضع فى المدينة المقسمة قائلاً: "ربما يكون السفر ــ ولا أقصد هنا السفر إلى بلد غريب ــ من الشرق إلى الغرب أسهل من الذهاب من نهاية الإسكندرية إلى نهايتها الأخرى، ومن الصعب عبور الشارع الذى يمر عبر وسط المدينة وهو أكثر صعوبة فى استخدامه من الصحراء الكبيرة التى لا يوجد بها طرق والتى عبرها بنو إسرائيل على مدار جيلين من البشر(*)"(١٤٨).

ويقصد الأسقف بذلك شارع الإسكندرية الفخم المشهور، والذى يقسم المدينة بأكملها من بوابة الشمس فى الشرق إلى بوابة القمر فى الغرب وتؤدى إليه بقية الشوارع وأحياء المدينة، وبهذه الطريقة يفصل أيضًا الأحياء السكنية المصرية عن اليونانية، وعلى ما يبدو فقد أصبح هذا الشارع بلا صاحب وخطًا فاصلاً بين الفرق المتحاربة فى الإسكندرية، أى بين أتباع أميليانيوس من ناحية وأتباع جالينيوس من ناحية أخرى، وكان يقع شمال الشارع الرئيسى المساكن التى تطل على الميناء وحى اليونانيين وقصور الملك وحى اليهود السابق الذى قسموه بالقناة الشرقية التى تأتى بماء النيل من بحيرة مريوط Mareotis ولهذا كانت مهمة للإمداد بمياه الشرب، وكان الأسقف يطلق على هذه القناة وقناة كانوب فى الجنوب كلمة نهر "ينساب حول المدينة ولونه الدم والقَتْلى والغَرْقى".

ويجب علينا تخيل الموقف التالى فى الإسكندرية: كان هناك فى المدينة معارك اعتبارًا من خريف عام ٢٦١، وكان موسيسيوس أميليانيوس قد انسحب إلى حى اليونانيين ومنطقة القصر عندما جاءت قوات جالينيوس مهاجمة من

(*) يقصد غالبًا سنوات التيه الأربعين التى قضاها بنو إسرائيل فى الصحراء. (المراجع).

الشرق من ناحية المعسكر الرومانى، حيث استولت تلك القوات أولاً على حى اليهود ثم احتلت أحياء المدينة التى تقع جنوب الشارع الرئيسى فقطع هذا الشارع والقناة الشرقية المنطقة التى يسيطر عليها أميليانيوس، وعليه أصبحت المعارك تدور حول هذه المنطقة الحدودية، فإذا انطلق المرء من أن الأسقف موجود فى منطقة نفوذ أميليانيوس Aemilianus فى حى اليونانيين فتصبح اللغة المجازية فى رسالته الرعوية أمرًا مفهومًا لأنه يقف إلى جانب جالينيوس، وكان من بين أسباب اتخاذ قرار الوقوف إلى جانب جالينيوس، ذلك القرار الذى لا يتفق على الإطلاق مع الحكمة السياسية، أن أميليانيوس كان هو الشخص الذى قبض قبل عدة أعوام على الأسقف وقام بنفيه .

ومن ناحية أخرى، يفسر انحياز الأسقف سبب إشارة جالينيوس عام ٢٦٢ فى رسالته إلى ديونسيوس وأساقفة آخرين بمصر إلى الرد الصادر منه عام ٢٦٠، حيث إن الرد كان عبارة عن تنظيم التعامل الرسمى للقيصر مع موظفيه، بينما كانت الرسالة على العكس من ذلك مرسومًا من النوع الذى يمكن توجيهه عادة إلى الهيئات الخاضعة للقانون العام مثل الجمعيات، ويمكن توجيهها فى حالات استثنائية أيضًا إلى أشخاص يتم مخاطبتهم مباشرة، وهذا ما حدث مع ديونسيوس. فقد ساق إلينا يوسبيوس، والذى يعود إليه الفضل فى معظم المعلومات المتعلقة بهذا الأمر، أيضًا المرسوم الذى أصدره جالينيوس عام ٢٦٢، وجاء فيه: "(من) القيصر بوبليوس ليسينيوس جالينيوس Publius Licinius Gallienus المتدين المُسعِد إلى ديونسيوس وبينّاس وديمتريوس وبقية الأساقفة، أمرت أن يتم تنفيذ نعمة هديتى فى العالم كله وأن تنسحب (الدولة) من الأماكن المحددة لإقامة القداس، ولهذا يُسمح لكم باستخدام نسخة من أمرى هذا حتى لا يتمكن أحد من مضايقتكم، وكان هذا المرسوم، المسموح لكم الآن استخدامه، تنازلاً منى منذ فترة طويلة، وعليه سيتولى أوريليوس كيرينيوس Aurelius Quirinus القائم على شئون المالية مراقبة تنفيذ أمرى هذا"[١٤٩] .

وهذا المرسوم مهم من عدة أوجه، فهو يؤكد على الدور الواضح بالفعل لكنيسة الإسكندرية فى ذلك الوقت، وكان كثير من المعلقين يتعجب من منح

الحرية لدور العبادة وعدم منحها بوضوح للمدافن. ولا يدع مرسوم فالريان ولا عمليات استجواب أسقف الإسكندرية بمعرفة القائد العسكرى مجالاً للشك أنه تم منع القساوسة بشكل قاطع من دخول المدافن ودور العبادة، فقد أراد فالريان إعاقة جميع التجمعات العامة للمسيحيين، وبينما استطاعت السلطات غلق دور العبادة وختمها بالشمع الأحمر إلا أنها لم تستطع فعل نفس الشيء مع المدافن، ولهذا لم يكن جالينيوس مضطرًا لإعادة الحرية إلى المدافن تحديدًا.

ويجب على المرء أن يتخيل غرابة الموقف، وهو أن القيصر الرومانى أكد أنه كان قد سمح بإعادة دور عبادة المسيحيين إليهم منذ فترة ـ ٢٦٠ ـ ويؤكد على هذا من جديد عام ٢٦٢ وعلى منع مضايقتهم فى هذا الأمر، فإذا كان تراجان قد سمح بأمر منه بعدم البحث عن المسيحيين وبهذا منع ملاحقتهم من قبل الدولة، فقد خطا جالينيوس خطوة أخرى بأن سمح للمسيحيين الذين لم يكن لهم الحق حتى ذلك الوقت فى تكوين جمعيات استنادًا إلى القانون، بتملُّك دور للعبادة ومدافن وبهذا جعل لهم كمجموعة حقوقًا، وصحيح أن هذا لم يكن بعد مرسوم التسامح ولكن الخطوة المماثلة لجاليروس Galerius عام ٣١١ كان من الممكن أن تواصل هذه السياسة بطريقة أكثر حزمًا/ مباشرة لولا أن ملاحقة دقلديانوس قطعت هذا التطور، ولم يساهم إخلاص الأسقف السكندرى ديونيسيوس Dionysius للدولة مساهمة قليلة فى هذا التطور، وربما يكون هذا أحد أسباب الدور البارز لأسقف هذه المدينة فى أواخر العصور القديمة كلها.

## كليوباترا قادمة؟ والإسكندرية تصبح بالميرية

عندما وقع القيصر فالريان عام ٢٦٠ فى الأسر، كان هذا من وجهة نظر الرومان الدرك الأسفل فى النزاعات التى تشتعل مرارًا وتكرارًا بين الرومان والفرس/ الساسانيين، وهدد التوسع الساسانى إلى جهة الغرب أمن طرق التجارة من الشرق الأقصى إلى البحر المتوسط والتى تشكل فيها بالميرا[*]

---

[*] عاصمة دولة تدمر فى جنوب بلاد الشام (الأردن). (المراجع).

Palmyra محطة مهمة، وحاول الحاكم[*] هناك ويُدعى أوديناثيوس Odaenathus مواجهة النفوذ الساسانى؛ ولهذا كان حليفًا مرغوبًا فيه بالنسبة للرومان.

وبعد أسر فالريان أيضًا واصل أوديناثيوس عملياته العسكرية، وسانده الرومان فى البداية دعائيًا وذلك بأن منحوه ألقابًا فخرية مثل" قائد حرب الرومان" و"الناهض بالشرق كله"، ولكن اتضح أن أوديناثيوس، الذى اختار لنفسه لقب "ملك الملوك"، كانت له مطامع فى روما وبلاد الساسانيين بنفس الدرجة وقام بتحقيقها عسكريًا، وعندما سقط ضحية لعملية إرهابية عام ٢٦٧ ذهب الحكم فى مملكته التى كانت تضم بالميرا وأجزاء من شمال بلاد الرافدين إلى ابنه القاصر فابلاتوس Vaballathus فتولت أمه زنوبيا الحكم باعتبارها "الملكة" .

وكانت زنوبيا قد أمَّنت سلطاتها فى العام الأخير من حكم كلاوديوس الثانى Claudius II (٢٦٨ـ٢٧٠م) فى الشرق الأدنى وخاصة الحدود مع الفرس، حتى إنها استطاعت توسيع مملكة تدمر ببلاد العرب ومصر، ولأن كلاديوس كان يحارب هذا العام فى البلقان ضد الجوتيين die Goten فلم يكن يتهددها من جانب القيصر أيضًا أية مقاومة، وطبعًا كانت مصر أهم من بلاد العرب لإمكانية الاعتقاد فى أنها كانت ضمن مناطق حكم زوج زنوبيا الراحل أُذينة، وعلى أية حال كان يوجد بالإسكندرية حزب موالٍ لبالميرا ساند زنوبيا فى احتلال المنطقة.

واستطاعت زنوبيا دعم أهميتها بالسيطرة على مصر وهى مخزن الحبوب وميناء التصدير بالإسكندرية، وأصبحت بهذه الطريقة متحكمة فى أحد عوامل السلطة فى المملكة ككل والتى لم يستطع كلاوديوس أن يغض النظر عنها. وبالإضافة إلى ذلك فقد لعبت المصالح التجارية لمملكة تدمر دورًا مهمًا؛ حيث تأثرت هذه المصالح بفتوحات الساسانيين؛ ولكن مصر أصبحت الآن بعاصمتها نقطة انطلاق لتجارة بالميرا البحرية مع الهند، واستولت قوات بالميرا فى البداية على بلاد العرب كما ذكرنا وانتصرت على الفرقة الرومانية

---

(*) هو الملك العربى المعروف باسم أذينة ملك تدمر. (المراجع).

المتمركزة هناك، ثم توجه جيش زنوبيا بعد ذلك إلى مصر ونجح فى احتلالها بمعركتين متتاليتين عام ٢٧٠.

وساعد التدمريين فى المعركة الأولى فى صيف عام ٢٧٠ أن القائد العسكرى لمصر ويُدعى تيناجينو بروبوس Tenagino Probus كان مكلفًا من قبل كلاوديوس بمحاربة قراصنة جوتيين gotish فى البحر المتوسط، ولأن هذا بالتأكيد لا يمكن أن يحدث بدون قوات من الإسكندرية فقد وقع بلد النيل فريسة سهلة لزنوبيا التى كان جيشها يأتمر بأمر سيبتيميوس زابدا Septimius Zabda الذى وضع حامية بالإسكندرية وعاد أدراجه إلى الشرق، وكانت مصر منذ منتصف القرن الثالث مهددة على وجه الخصوص من قبل البلميين بالنوبة، وفى الإسكندرية تركزت آمال واسعة النفوذ فى شخص يُدعى تيماجينيس Timagenes فى أن يوفر لهم حماية أفضل من تلك الحماية التى أمكن للقائد العسكرى للقيصر المستبدل تقديمها، وذلك عن طريق تولى البالميريين للسلطة.

وإذا كان العنوان ينضوى على تلميح إلى شخصية زنوبيا Zenobia على أنها كليوباترا (جديدة)، فقد أُخذ عن مقولة أوردها الكاتب الذى وصف حياتها فى التاريخ الأغسطى بقوله: زنوبيا حققت مجدها من أصلها الذى يعود إلى البطالمة وخاصة إلى كليوباترا، وهذه الملحوظة بالتأكيد مغالطة تامة، وتدل على استمرار شعبية كليوباترا لدى مؤرخى القرن الرابع.

وعندما علم القائد بروبوس باحتلال البلاد عاد فورًا، وحشد بعض الفصائل الذين لم ينضموا بعد إلى زنوبيا، وطرد الاحتلال البالميرى، وأعاد فى سبتمبر عام ٢٧٠ الإسكندرية على وجه الخصوص مرة أخرى إلى الحكومة المركزية. وتشتمل مصادر العصور القديمة على تقارير متضاربة جدًا ومتعارضة عن حصار وتدمير حى بروخايون Brocheion السكندرى، وكانت ضاحية الفيلات هذه تقع على الشاطئ حول منطقة القصر البطلمى السابق .

وقد ذكر المؤرخ أميانيوس مارسيلينيوس Ammianus Marcellinus: "عندما تولى أوريليان Aurelian السلطة تحولت الصراعات السياسية الداخلية إلى معارك شرسة، وتم تدمير الأسوار وفقدت الإسكندرية الجزء الأكبر من

المناطق التى كان يُطلق عليها بروخايون وكانت لفترة طويلة مكان السكن لعلية القوم."(١٥٠)، ومن الممكن أن يكون تدمير هذا الحى، والذى أُعيدت إقامته جزئيًا فى عهد كلاوديوس الثانى ومرة أخرى فى عهد أوريليان، قد تم فى ظل الاحتلال البالميرى للمدينة، ومن الممكن تصور أن القائد بروبوس اصطدم فى الإسكندرية بمقاومة أنصار زنوبيا المحليين عندما طرد قواتها فى صيف ٢٧٠، وربما تعلق الأمر بمواطنين أثرياء تحصنوا فى منطقة الفيلات التى فصلها كاراكلاّ بجدار عن بقية المدينة، وبهذا تم حصارها فعلاً، وعندما نفد مخزون المواد الغذائية اضطروا للاستسلام.

ويبدو أن هجوم الرومان جاء من البر؛ حتى إن معظم بروخايون تم تدميرها وخاصة الأجزاء التى تقع بالقرب من وسط المدينة، وظلت أجزاء واسعة من الحى خالية فى الفترة التالية لذلك تم هجرها بالفعل فى القرن الرابع، ويبدو أن المنطقة التى سكن فيها الراهب هيلاريون Hilarion لم تكن فى رأى هيرونيموس Hieronymus تتبع الإسكندرية عندما ذكر أنه كان يسكن فى بروخايون "بالقرب من" الإسكندرية(١٥١).

وهناك خطابان من تلك الفترة من صيف ٢٧٠ والتى تشبه فترات الحرب الأهلية أرسلهما أخوان ــ ماركوس وسيرينوس Marcus und Serenus ــ كُل على حدة إلى أمهما أنتونيا Antonia فى قرية غير معروفة فى صعيد مصر(١٥٢). وكان ماركوس يعمل طبيبًا وأخوه يعمل إداريًا ولكنه بسبب الحالة الخاصة القائمة له علاقة أيضًا بتضميد الجرحى، وكتب ماركوس Marcus موضحًا لأمه سبب عدم تمكنه من الحضور إلى المنزل قائلاً: هناك حرب فى الإسكندرية بين جماعات الحكومة والثوار، لذلك لا يستطيع أحد مغادرة المدينة، وطلب من أمه عرضًا أن تنظف كتبه الطبية من التراب تلك الكتب التى تركها فى القرية عند مغادرته لها، وعندما أرسل سيرينوس بعد ذلك بقليل خطاب مواساة كانت المعارك قد انتهت، إلا أن ماركوس كان لا يزال منشغلاً بمرضاه.

وذكر ماركوس، الذى كان يقف إلى جانب الحكومة، أى إلى جانب الرومان، معلومات عن المتورطين فى هذه الصراعات، ولم يرسل الرومان فقط الجنود النظاميين إلى المعركة وإنما أيضًا الذين تم تسريحهم وكذلك بعض

الحراس الخاصين بالقائد الذين كانوا قابعين فى المدينة، وعلى أية حال لا يمكن أن يكون المقصود بهذا مجموعات كبيرة لأن ماركوس يتحدث فقط عن عدد قليل من الجرحى، وهذا يشير إلى أن القوام الرئيسى للقوات الرومانية لم يكن بالمدينة، وأكد ماركوس أيضًا أن تلك الأيام لم تكن جيدة على الرومان وعلى المتعاطفين معهم: "أنت تعرفين أنه ليس من السهل ترك المرضى غير القليلين ومكان العمل، وحتى لا ينشأ تذمر بسببنا وخاصة مع حكومة كهذه." ولم يرغب أعداء الرومان ترك أى شخص يغادر المدينة، وكان الرومان فى حاجة ماسة إلى كل رجل.

وبعد طرد قواتها مباشرة، أمرت زنوبيا فى عام ٢٧٠ نفسه بهجوم ثانٍ على بلد النيل، ويبدو أن الأمر تم الإعداد له هذه المرة من جانب بالميرا بطريقة أفضل، وذلك لأن بروبوس، الذى كان لديه فى غضون ذلك فرق ضخمة من القوات، هُزم ووقع فى الأسر وانتحر، واضطرت أماكن سك العملة بالإسكندرية مرة أخرى فى نهاية نوفمبر من عام ٢٧٠ إلى تغيير برنامجها: ففىْ إيطاليا نودى بكوينتيليوس Quintillus وهو أخو القيصر كلاوديوس خليفة له بعد موته فى عام ٢٧٠ إلا أن تولّيه السلطة رسميًا كان فى سبتمبر أى بعد أيام قليلة من بداية السنة المصرية فى الثلاثين من أغسطس، واستغرق الخبر وقتًا طويلاً إلى أن وصل إلى الإسكندرية حيث كان سك العملة لا يزال فى البداية لصالح كلاوديوس وعامه الثالث، ثم انتقل الأمر بعد ذلك إلى العام الأول لكوينتيليوس: وتم فى الإسكندرية طوال الشهر التالى كله سك عملات عليها صورة له.

واعتبارًا من أكتوبر بدأ إصدار عملات لأوريليان (٢٧٠ ــ ٢٧٥) الذى نادى به جيش الدانوب فى منتصف سبتمبر قيصرًا ضد كوينتيليوس الذى قتله جنوده بعد ذلك، وفى شهور الخريف هذه أمرت زنوبيا باحتلال مصر احتلالاً نهائيًا، ذلك الاحتلال المذكور آنفًا والذى تقوم عليه أدلة منذ ديسمبر من عام ٢٧٠: وهى عبارة عن عملات مشتركة بين كل من أوريليان فى العام الأول LA[١٥٣] وفابالاتيوس الذى كان عامه الرابع LΔ، وبهذا تم استخدام العد السنوى البالميرى، وسارت طريقة العرض أيضًا على خطى نماذج بالميرية، فمثلاً

عملة برونزية سكندرية لذلك العام كانت ترمز إلى اللقاء المزمع بين الحاكمين، ذلك اللقاء الذى تم من وجهة نظر فابالاتيوس (الشكل ٥١)، فعلى الوجه الأمامى للعملة نرى أوريليان الملتحى ويضع إكليل الغار ودرع ومعطف قائد ميدانى، وعلى الوجه الخلفى للعملة صورة نصفية لفابالاتيو وهو شاب، وفيها يضع بالإضافة إلى إكليل الغار عصابة على الرأس أيضًا، وفيما عدا ذلك فملابسه مثل ملابس أوريليان .





(شكل ٥١): أوريليان وفابالاتيوس.

وعندما انتصر أوريليان عسكريًا على زنوبيا فى مايو عام ٢٧٢ فى إميسا Emesa، اعترف الشرق كله بما فيه أيضًا مصر (بالمنتصر) قيصرًا وتحول القائد الذى عيَّنته زنوبيا فى الإسكندرية عنها فتركه أوريليان فى منصبه، وفعل القيصر خيرًا بعدم الاكتفاء بالدعاية لسياسة معتدلة وإنما أيضًا بتفعيلها على أرض الواقع لتهدئة المنطقة المضطربة بسبب الحروب الأهلية. وتم إيقاف سك العملة بالإسكندرية الخاصة بفابالاتيوس وزنوبيا، وبدأ عد جديد لسنوات حكم أوريليان بالعملات، وصارت العملة السكندرية صدى للرسالة التى نشرها أوريليان.. إنه الخليفة الشرعى لكلاوديوس الثانى. وتبع ذلك ضرورة إعادة النظر فى العد المستخدم حتى ذلك الحين لسنوات حكمه واعتبار ذلك من عام ٢٧٢، وكانت فترة حكمه قد بدأت رسميًا بعد موت كلاوديوس فى أغسطس من عام ٢٧٠، ومن يستطيع فهم ما تشير إليه العملات فى ذلك الوقت يستطيع أن

يستقرئ أن السيادة غير الشرعية البالميرية المحتلة تمت الاستعاضة عنها الآن بحكومة نظامية رومانية. وقد مجدت العملات السكندرية الانتصار على بالميرا على وجه الخصوص، وأبرزوا القيصر يطعن العدو المترجل بحربة أو كمنتصر يحمل فى يده إما صولجانًا أو آلهة النصر.



(شكل ٥٢)
زنوبيا والنظرة الأخيرة على تدمر.

وقد جلب الربط بكليوباترا لزنوبيا فى العصر الحديث شعبية تفوق بشدة دورها السياسى، وفى نهاية القرن التاسع عشر قام رسام الصور التاريخية هيربرت ج. شمالتس Herbert G. Schmalz برسم تلك اللحظة التى يقوم فيها جندى رومانى باقتياد الملكة المكبلة والتى تبدو رغم ذلك شامخة على هيئة مشهد أو منظر مسرحى (الشكل ٥٢)، والمدينة الخالية بالرسم هى بالميرا،

وخلف الملكة، التى يرتفع على رأسها ثعبان الكوبرا المعروف بـــه الفراعنـــة المصريون، نشاهد إله الشمس يصعد فى رحلته، "إله الشمس الـــذى لا يُقهـــر" الذى كان يروج له أوريليان فى كل مكان على أنه الإله الأعلى.

ساد الهدوء بالإسكندرية لفترة قصيرة، وبينما عاشت زنوبيا فى فيلا بالقرب من روما كشخص "له كل التكريم" وهو ما أكده الأب القس(١٥٤) هيرونيميوس، اندلعت فى بالميرا ثورة من جديد أخمدها تمامًا وبسرعة أوريليان، وفـــى هـــذا السياق حدثت قلاقل أيضًا فى الإسكندرية فى ربيع عام ٢٧٣، إلا أن أوريليـــان ظهر فى صيف نفس العام قادمًا من بالميرا إلى بلاد النيل وقضى أيضًا هنـــاك على هذا التمرد.

ولكن ماذا حدث فى الإسكندرية فى عام ٢٧٣؟ ومَنْ هو الـــشخص الـــذى يُدعى فيرموس Firmus الذى ارتبط اسمه فى معظم الأحيان بالثورة فى مصر؟ الإجابة سهلة وصعبة فى نفس الوقت: سهلة لأنه لدينا وصف لحياة فيرمـــوس هذا، فهو تاجر ثرى من سلوقيا Seleukia ولا توجد معلومـــات أكثـــر عنـــه. وصعبة لأن هذه السيرة الذاتية موجودة فى مجموعة مـــا يُـــسمى بموســـوعة التاريخ الأغسطى التى اختلفت حولها آراء البحث العلمى فيما يختص بتـــاريخ كتابتها بالضبط وكذلك الأشخاص الكثيرين الذين ساهموا فى كتابتها، وينحصر الاتفاق فقط على أن مجموعة من السيَر الذاتية ومـــن بينهـــا الـــسيرة الذاتيـــة لفيرموس، تشتمل فى معظمها على نوادر مخترعة وأيضًا مضحكة، وهذا العمل الذى ظهر فى القرن الرابع يخاطب الجمهور الذى يحب الشىء غير المعتـــاد ويرسم صورة هزلية لمثل هؤلاء المؤرخين وذلك بتقليدهم، وهكذا نعرف عـــن فيرموس أنه يأكل كل يوم النعام إذا لم يكن يمتطيها، ويستطيع أن يشرب كميات هائلة من النبيذ ويحب السباحة مع التماسيح ويستطيع أن يضع سَـــنْدانًا علـــى صدره ليتم الطرق عليه، وكان يُطلق عليه "المارد ذو العين الواحدة"(١٥٥).

ورغم أن قصص الفضائح يمكن أيضًا أن تكون جميلة إلا أن المغتـــصب فيرموس لم يكن له وجود على الإطلاق، إذ لم يُعثر له هنـــاك علـــى عمـــلات سكندرية أو أوراق بردى مصرية، فمثل هذه الأشياء يتوقعها المرء حتى ولـــو كانت عن فترة حكم قصيرة، وعلاوة على ذلك فإن مؤلف هذه السير لم يكـــن

يعرف سوى القليل عن مصر، إلا أنه كان يعرف أهم محاصيل التصدير التي تأتى من الإسكندرية، لأنه يصف المدينة بأنها "مرفهة وغنية ومزدهرة ولا يوجد بها متعطّل، فالبعض صانعو قوارير زجاجية والبعض الآخر صانعو ورق والكل على الأقل ينسج الكتّان ويمارسون حرفة أو أخرى"[١٥٦]، فالورق على وجه الخصوص كان منتجًا من الإسكندرية يتم تسويقه فى العالم أجمع.

ولا يتبقى من الثورة المزعومة لفيرموس سوى القلاقل المذكورة أيضًا لدى المؤرخين الآخرين، والتى ربما يقف وراءها تجار من مصر وبالميرا والإسكندرية كانوا يتعاطفون مع زنوبيا. ويبدو أن الثوار كانوا بالإضافة إلى ذلك يسيطرون على أجزاء فقط من المدينة؛ لأن العملة كان يتم سكها دون توقف لصالح أوريليان الذى أعاد الهدوء بسرعة عندما ظهر فى الإسكندرية فى صيف عام ٢٧٣.

ولم يُصِب المؤلف فى السيرة الوهمية لفيرموس كبد الحقيقة إلا فى جانب واحد، وهذا الجانب لم يكن يعرفه فقط كل مواطن متعلم إلى حد ما بالإمبراطورية الرومانية فى القرن الثالث: فقد كانت الإسكندرية من الأهمية بمكان بالنسبة للإمبراطورية بسبب الحبوب المصرية، ولهذا أصدر أوريليان مرسومًا فى روما يصف فيه القيصر القضاء على بعض الثورات ويهدّئ فيه من روع الشعب، ومن الممكن أن يكون هذا المرسوم أيضًا مجرد اختراع من بنات أفكار المؤرخين، ولكن الجملة المهمة التى يمكن للمرء قراءتها هى تلك الجملة التى يمكن بلا شك فهمها على أنها الختام التصالحى لمرحلة متقلبة للبلاد وعاصمتها، وهذه الجملة هى: "سيتم مرة أخرى التسليم المنتظم لحبوب مصر بشكل كامل"[١٥٧].

**الفصل الثالث**

# مقر البطريرك: ٢٨٤ــ٦٤١م

النهاية الزمنية للجزء الرئيسى الثانى وبداية هذا الجزء الثالث تفرض نفسها إلى حد ما مثل نهاية كل الأجزاء التاريخية، فنهاية زمن تبعية الإسكندرية للقيصر كانت عام ٢٨٤ مع بداية ولاية دقلديانوس (٢٨٤ــ٣٠٥م) الذى ارتبط به فيما بعد فى مصر بداية "عصر الشهداء" وحُدِّد التقويم القبطى بناء عليها حتى اليوم، وكان من الممكن أن أنحاز أيضًا لعام ٣١١ وهو التاريخ الذى لا يعنى شيئًا مباشرًا بالنسبة للإسكندرية، وإنما يعنى الكثير جدًا لتاريخ الإمبراطورية كاملة: فهو العام الذى صدر فيه مرسوم التسامح لجاليريوس Galerius (٣٠٥ ــ ٣١١م) والذى جعل من الصلوات المسيحية (القُدَّاس) تجمعات مسجلة طبقًا للقانون العام، وعندما نسب قسطنطين (٣٠٦ ــ ٣٣٧م) بعد عام انتصاره على ماكسينتيوس Maxentius عند كوبرى ملفى أمام بوابات روما إلى تدخل رب المسيحيين بدأ الطريق الطويل للمسيحية كدين للدولة، وكان مركز المسيحية التى تزداد الآن قوة عامًا بعد عام هى الإسكندرية التى لم يكن من الممكن بدون أساقفتها كتابة تاريخ الكنيسة فى القرون التالية، ولم يكن من الممكن أيضًا كتابة التاريخ الدنيوى فى العصور القديمة.

كانت الإسكندرية مقرًا لبطريرك، وكان يتم وصف دوره داخل الكنيسة المصرية وخارجها أحيانًا بطريقة بالغة الدقة بأنه "الفرعون الجديد"[1]،

ولا ينبغى للدور المؤثر للطوائف المسيحية فى مصادر العصور القديمة المتأخرة أن يلفتنا عن أنهم شكلوا ربما حتى نهاية القرن الخامس، أقلية ــ حتى ولو كانت أقلية فى زيادة مستمرة ــ تقف فى مواجهتها مجموعة ما يُطلق عليهم الكفار، وهى مجموعة تفتقر إلى التجانس مثلها مثل المسيحيين لأنهم فى الحقيقة "اختراع" المسيحية التى صارت فى هذا خلف المزايا اليهودية، وبينما هم يصورون الكفار على أنهم ظاهرة استطاع المسيحيون إخراج الشيء الأكثر إضحاكًا والأكثر شذوذًا من كل مظاهر الكفر وجعلوا منها الصورة الظاهرة للكفار، ومن ناحيتهم طور الكفار شعورًا جماعيًا أقوى. وإذا كنا، بناء على وضع مصادر المعلومات، لا نفهم كل المعانى الدقيقة لتاريخ الفترة الأخيرة من العصور القديمة للإسكندرية، فيمكننا مواساة أنفسنا بزائر غير معروف رأى المدينة الكبيرة النابضة فى منتصف القرن الرابع وخلص إلى: "إنها فى مجملها مدينة ومنطقة غير مفهومة"[٢].

### "الإسكندرية الكبيرة" ــ جولة ثالثة

يمكننا بالنسبة للجولة الثالثة الأدبية أخذ النصيحة من مرشد جديد للأجانب ويُدعى ميخائيل بار إلياس، وهو بطريرك مدينة أنطاكيا السورية فى الفترة من عام ١١٦٦ وحتى عام ١١٩٩، وألَّف باللغة السورية تاريخًا شاملاً للعالم، وبالتوازى مع النظرة العامة التاريخية نجد أحيانًا معلومات إضافية من بينها المعلومة التالية: تم بناء الإسكندرية الكبيرة فى مصر فى العام السابع للإسكندر. وكان يوجد فى أنطاكيا فى وسط ميدان السوق وعلى عمود لأبسول، على لوحة برونزية، النص التالى محفورًا: بارتيله (مدينة سورية) Bartilla أكبر من إفيسوس Ephesus، وإفيسوس تتفوق على نيكوميديا Nikomedia، ونيكوميديا تتفوق على أنطاكيا Antiochia، والإسكندرية أكبر من هذه المدن الأربع، ففى الإسكندرية يجد المرء فى الحى (أ): ٣٠٨ أماكن للعبادة، و١٦٥٥ فناءً، و٥٠٥٨ منزلاً، و١٠٨ حمَّامات، و٢٣٧ حانة، و١١٢ بهو أعمدة؛ وفى الحى (ب): ١١٠ أماكن للعبادة، و١٠٠٢ فناء، و٥٩٩٠ منزلاً، و١٤٥ حمامًا، و١٠٧ حانات؛ وفى الحى (ج): ٨٥٥ مكانًا للعبادة، و٩٥٥ فناءً، و٢١٤٠

منزلاً، ... حمامًا، و٢٠٥ حانات، و٧٨ بهو أعمدة ؛ وفي الحي (Δ): ٨٠٠ مكان للعبادة، و١١٢٠ فناء، و٥٥١٥ منزلاً، و١١٨ حمامًا، و١٧٨ حانة، و٩٨ (بهو أعمدة)؛ وفى الحى(E): ٤٠٥ أماكن للعبادة، و١٤٢٠ فناءً، و٥٥٩٣ منزلاً، و.. حمامًا، و١١٨ حانة، و٥٦ بهو أعمدة. ومن هنا كان العدد الإجمالى لأماكن العبادة ٢٣٩٣ (والصحيح أنها: ٢٤٧٨)، والعدد الإجمالى للأفنية ٨١٠٢ (والصحيح أنها:٦١٥٢)، وللمنازل ٤٧٧٩٠ (والصحيح أنها: ٢٤٢٩٦)، وللحمامات ٥٦١، وللحانات ٩٣٥ (والصحيح أنها: ٨٤٥)، وللأبهاء ٤٥٦.

وهذا كله لم يتضمن معسكر هادريان Hadrianos الذى كان كبيرًا جدًا، ولا مسكن لوخياس Lochias الذى كان يقع خارج منطقة الفرعون أنتيرودس Antirhodos، ولا المنطقة التي تقع حول سيرابيوم Sarapeion، ولا أنوتينوس باندوتوس Anotinos Pandotos، ولا زيفيريوم Zephyrium، ولا كانوب Kanopus، ولا "القناة الجديدة"، ولا نيكوبوليس Nikopolis، ولا معسكر مانيوتيوس Manutius ولا بينديديون Bendideion، وكانت خلاصة هذا التعداد أن الإسكندرية هى "أكبر المدن المأهولة بالسكان فى العالم"[٣].

فإذا ما وضع المرء الظواهر المشهورة مثل الأحياء ومعظم مسميات الأماكن الواردة بالقائمة فى الحسبان — مثل لوخياس Lochias وأنتيرودس وسيرابيوم وزيفيريوم وكانوب Kanopus ونيكوبوليس وبينديديون — يبدو أنها تستند على معلومات موثوق بها مهما كان مصدر ورودها المستمر فى تاريخ القرن الثانى عشر، وكان معروفًا أيضًا من كثير من البرديات المكان الذى كان يُطلق عليه هادريان. وكتب عنه المصدر السورى أنه حى من أحياء المدينة، ولكنه لم يُذكر ضمن الإحصائية مع الأحياء الأخرى لأنه كان على ما يبدو يقع على ضواحى المدينة.

ومن الممكن تسجيل تاريخ المعلومات التى وردت على ما يبدو فى مصدر يونانى بداية، عن طريق مقارنتها مع إحصاءات أخرى مشابهة لمدينتَىْ روما والقسطنطينية، وعلى العكس منها نجد أن دور العبادة المسيحية بالإسكندرية لم تُذكر مطلقًا، ومن الملاحظ أيضًا أن حى بروخيون لم يُذكر لأنه تحول كما ذكر ميخائيل نفسه إلى كومة من التراب عام ٢٧٢، وذُكر فقط

سيرابيوم الذى تم تدميره عام ٣٩١، وهذا كله يؤكد أن القائمة نشأت فى القرن الرابع.

وتعطى الأرقام الواردة بالإحصائية انطباعًا يُعتمد عليه، إلا أنه لا يمكن إرجاع العدد الكبير فوق العادة وهو ٢٤٧٨ لأماكن العبادة فقط إلى أن الإسكندرية كانت قلعة للكفر، ولكن يمكن إرجاع ذلك أيضًا إلى أنه بجانب المعابد من كل نوع تم على ما يبدو عدّ أصغر الكنائس الخاصة والعامة الموجودة فى المعابد الأكبر، وربما تم عدّ الهياكل (المذابح) أيضًا، وتعنى الكلمة السورية التى ترجمتها على أنها أماكن العبادة أبنية لعبادات الكفار وكذلك عبادات اليهود، وهذا يفسر العدد الكبير من أماكن العبادة أيضًا فى حى Δ (دلتا) الذى كان فيما مضى حيًا يهوديًا، وكثير من المعابد القديمة كانت لا تزال تؤدى وظيفتها أو أبقت الماضى حيًا فى الأذهان من خلال حقيقة أنها أعطت اسمًا للشوارع التى كانت بها، ذلك الماضى الخاص بالملكات العظيمات للإسكندرية فى القرن الثالث قبل الميلاد: مثل شارع الملكة أرسينوى الثانية Arsinoë II، الملكة أرسينوى الرحيمة، الملكة أرسينوى المنجزة، الملكة أرسينوى ملكة المعبد المقدس، الملكة أرسينوى من إلويسيز Arsinoë، الملكة أرسينوى جالبة الخير (الثمار)، الملكة أرسينوى المنتصرة، الملكة أرسينوى المنقذة(٤).

ومن الملاحظ أن ٧٠% تقريبًا من المعابد موجودة بحى Γ وحى Δ، وخاصة حى Γ الذى يقع به ٨٥٥ مكانًا للعبادة مقارنة بعدد قليل من المنازل الخاصة (٢١٤٠ منزلاً). وكان حى Γ يستحوذ أيضًا على عدد ضخم من الحانات لأنه كان على ما يبدو من الأحياء الحيوية جدًا، وعلى العكس من ذلك يُعتبر الحى B بمعابده الأقل بمراحل، ولكن بمنازله التى يساوى عددها ثلاثة أضعاف عدد منازل حى Γ، حيًا هادئًا منغلقًا على نفسه، وتتساوى المدينة (الإسكندرية) بمنازلها وعددها٤٧٧٩٠ (والصحيح أنها: ٢٤٢٩٦)، رغم أنها توصف بأنها أكبر مدينة بالعالم المأهول بالسكان، مع روما التى يبلغ عدد منازلها فى نفس هذا الوقت ٤٨٣٩٢. وتفسير أن عدد الحمامات فى روما فى ذلك الوقت كان يبلغ ٨٥٦ حمامًا بينما كان عددها فى الإسكندرية الضعف، أى ١٥٦١، أنه تمت إضافة الحمامات الخاصة أيضًا إلى العدد.

وقد أخبرنا يوسيبيوس فى رواية أوردها كيف تم إجراء الاستطلاعات فى الإسكندرية نفسها حتى إنه أمكن الاستناد عليها فى عمل مثل هذه القوائم، فقد ضمّن الكاتب الكنسى هذا كتابه خطابًا من الأسقف السكندرى ديونيسيوس تحدث فيه عن آثار الوباء فى منتصف القرن الثالث: "وسيتعجبون ... أنه بسبب الطاعون لم يعد بالمدينة الكبرى عدد كبير من السكان ـ من الأطفال الصغار حتى أكبر المسنين ـ حيث كان العدد أقل مما كانت المدينة تُطعم من قبل ممن يُطلق عليهم "ذوى الأعمار المتوسطة"، وهم الذين يبلغ عمرهم من ٤٠ عامًا إلى ٧٠ عامًا، وكانوا فيما مضى كثيرين ولا يمكن الوصول الآن إلى عددهم السابق حتى ولو كان قد تم تسجيل الأشخاص ما بين ١٤ عامًا و٨٠ عامًا فى قائمة التوزيع العام للحبوب، وأولئك الذين يبدون طبقًا لشكلهم صغارًا جدًا أصبحوا وكأنهم فى نفس عمر الطاعنين فى السن"(٥).

ويمكننا من هذه الملحوظة استخلاص أن الإسكندرية كان بها إحصاء دقيق للسكان مرتبطًا بالتوزيع المجانى للحبوب، وأدت الخسائر البشرية الناتجة عن الطاعون الكبير إلى أنه أمكن الآن مد إعانة الحبوب لتشمل أيضًا كل المواطنين صغار السن لأن المتبقين من متلقى الحبوب صاروا فى مجملهم قليلين، وهذا أمّن أيضًا فرص الباقين على قيد الحياة والذين أمكن تحسين تغذيتهم بوضوح.

ولكن من كانوا المستفيدين من التوزيع؟ تكلم القيصر دقلديانوس ذات مرة عن البسطاء الذين لا يملكون ما يكفى للحياة، ومن هؤلاء كان يوجد الكثيرون حتى فى مدينة غنية مثل الإسكندرية يسكنها كثير من عمال اليومية الذين لم يكن هناك أبدًا عمل دائم لهم؛ وخاصة عندما تتوقف حركة السفن فى الشتاء.

وعلى أية حال، لم يستفد المعدمون فقط من تبرعات الخبز الحكومية، فقد كان الحق فى الحصول عليها يُورَّث، فقد دار الصراع حول إرث ذات مرة، وكان الصراع حول تقسيم قطعة أرض يرتبط بها نصف حصة خبز، ويبدو أن توزيع الخبز فى الإسكندرية لم يكن مرتبطًا بالشخص وإنما بامتلاك منزل؛ ولذلك أمكن مع تقسيم الإرث فى المنزل كذلك أيضًا تقسيم الحق فى الخبز، وهكذا كان الادعاء المتكرر بكثرة لكتّاب الكنيسة عن رعاية الفقراء بالتأكيد دعاية جيدة. والحقيقة أننا لا نسمع شيئًا عن رعاية الكنيسة للفقراء وإمدادهم

بالخبز والزيت، والتى تسير بالتوازى مع رعاية الدولة لهم، إلا عندما تكون هناك صعوبات لأن الأثناسيين Athansianer لا يفكرون فى الأريانيين Arianer والعكس بالعكس، وهذا أدى من ناحية أخرى إلى تدخلات حكومية تفوق التصور فى الاهتمامات الخيرية لكنيسة الإسكندرية، وعلى أية حال لم يتردد أيضًا قسطنطين الثانى Constantius II (٣٣٧ـ٣٦١م) فى سحب حصص الخبز من الكفار[٦].

ولنستدعِ فى الذاكرة مع وصف مؤرخ القرن الرابع أميانوس مارسيلينيوس Ammianus Marcellinus مرة أخرى الأجزاء والأبنية المميزة للمدينة: "الإسكندرية هى تاج كل المدن ... يهب فيها نسيم عليل والرياح هادئة ومعتدلة"، وذكر الميناء وجزيرة فرعون والفنار والملعب السابع، "ويُضاف إلى ذلك معابد بجمالونات شاهقة الارتفاع تطل تحتها على سيرابيوم تعجز الكلمات عن وصفها، وقاعات واسعة ذات أعمدة وتماثيل تكاد تكون حقيقية ووفرة من أعمال فنية أخرى تزينها لا يعرف العالم شيئًا أعظم منها، إلا القلعة التى ارتفعت بها روما الجديرة بالتكريم إلى الخلود"[٧].

وتشير الملحوظة التالية أيضًا للمؤلف إلى تقليد قديم: "وأيضًا الآن لا تصمت العلوم المختلفة فى هذه المدينة لأن مدرسى الفنون يعيشون، وتسلط الهيئة المختصة بالعلامات الحسابية الضوء على ما هو مخفى، كما لم تنقطع الموسيقى تمامًا من عندهم ولم يختفِ الانسجام، وبعضهم ـ حتى وإن كانوا أيضًا قليلين ـ يفهم حركة الكون والنجوم، وقليلون يتقنون علاوة على ذلك العلم الذى يشير إلى مسالك القضاء والقدر، أما دراسات الطب، التى نحتاج إلى مساعدتها فى حياتنا فهى لا تتسم بالشح ولا بالوفرة، فتزيد بصفة خاصة ومن يوم لآخر؛ حتى إن الطبيب يكفيه بدلاً من الإثبات بالوثائق {ملحوظة} ذكر أنه تعلم فى الإسكندرية للتوصية بتمكّنه من فنه"[٨].

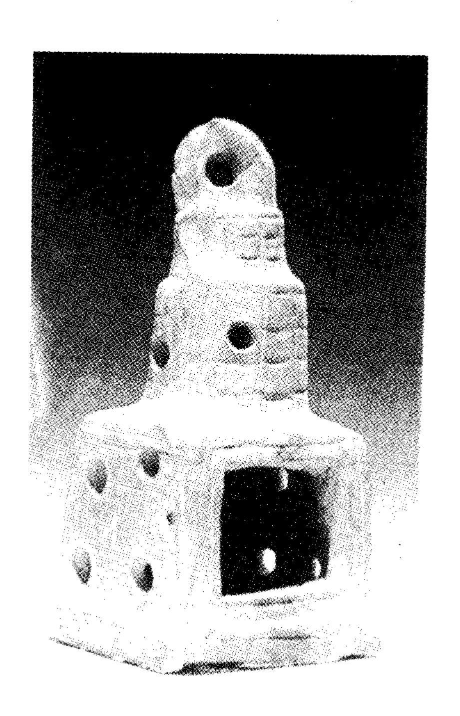
ويمكننا إلقاء نظرة مع أثناسيوس على تركيبة المدينة المتنوعة، والتى يمكن أن تبهرنا اليوم أيضًا بحيويتها، إذا ما نحينا جانبًا السياق الهجومى ـ الشكوى من الأريانيين ـ التى يصف فيها الأسقف حياة المدينة: "أين لا يزال يوجد منزل لم يدمروه؟ وأين لا تزال توجد أسرة لم يسرقوها بحجة البحث عن

أعدائهم؟ وأين لا تزال توجد حديقة لم تَدُسْها أقدامهم؟ وأى مدفن هذا الذى لم يفتحوه بحجة البحث عن أثناسيوس؛ بالرغم من أن هدفهم الحقيقى كان نهب وتدمير ما يقع فى طريقهم؟ كم منزلاً تم إغلاقه وقاموا بإهداء الأثاث وأثاث المطاعم إلى الجنود الذين ساندوهم، ومن ذا الذى لا يعرف خبثهم؟ من قابلهم ولم يضطر إلى الاختباء فى الأسواق؟ ألم يترك الكثير منازلهم لتمضية الليل فى الأماكن الموحشة؟ ومن هو، حتى ولو كان أيضًا جاهلاً بركوب البحر، الذى لم يأمن على نفسه فى البحر مع مخاطره أكثر من تحمل تهديداتهم (الأريانيين Arianer)؟ وكثيرون كانوا يغيرون باستمرار مكان إقامتهم من شارع إلى شارع ومن وسط المدينة إلى الضواحى."[٩]، ومرة أخرى يقدم لنا هذا الوصف وسط المدينة بمنازله وحدائقه وأسواقه والضواحى بالفنادق ومدن الجبانات، وأخيرًا الصحراء.

وقد تغير الكثير فى الإسكندرية منذ الجولة الأخيرة، فتم تدمير الحى اليهودى تمامًا، وأمر هادريان ببناء حى هادريان الجديد مكانه، وحولت الحروب الأهلية بالنصف الثانى من القرن الثالث، والاحتلال الذى قامت به زنوبيا واستعادة الأرض المحتلة عن طريق أوريليان ـ منطقة بروخايون إلى منطقة أطلال تتفتت تدريجيًا لتصبح أرضًا مقفرة، كما تركت معركة دقلديانوس حول المدينة آثارًا لها.

وعلى أية حال، يقابلنا أيضًا كثير مما هو معروف، فلم تنكسر أهمية الميناء كبوابة إلى العالم، ولم ينكسر دور الإسكندرية كملتقى مثلاً لذلك الاتصال مع الأنريناريين Anrainer على البحر الأحمر، وفى عام ٣٥٦ قرر القيصر قسطنطين الثانى إلغاء بدل السفر للمبعوثين إلى الإسكندرية الذين أقاموا بها أكثر من عام. وقامت مصر بصفة أساسية بتزويد شعب العاصمة الجديدة للمملكة الرومانية الشرقية، مدينة القسطنطينية Konstantinopel، بالحبوب عن طريق الميناء، الذى كان وسيظل القلب النابض، وكانت آخر الإصلاحات المعروفة قد أمر بها القيصر البيزنطى ماوريشيوس Mauricius (٥٨٢ ـ ٦٠٢م). وحتى عام ٦٨٠، كان أركولف Arculf المسافر فى رحلة حج يمدح

الفنار مثلما فعلت من قبله أجيال من الزوار المعجبين قائلاً: "على الجانب الأيمن للفنار توجد جزيرة صغيرة يقف عليها برج ضخم يسميه اليونانيون واللاتينيون فاروس وذلك استنادًا إلى وظيفته، ويمكن للمسافرين أن يروه عن بُعد فتخبرهم النار وخاصة ليلاً عندما يقترب المسافرون من الميناء على مكان اليابسة ، وإلا كانوا سيتعرضون لخطر الاصطدام بالصخور في الظلام أو لا يتمكنون من دخول الميناء"[١٠]. لقد كان هذا المَعلَم من معالم الإسكندرية ذا شعبية غير عادية، ما زال يذكِّرنا به ذلك المصباح الصغير الذى يشبه تمامًا شكل مصدر الضوء الكبير وهو الفنار (الشكل ٥٣، قارن الشكل ١٧).



(شكل ٥٣) تيراكوتا فى هيئة مصباح.

ولا يزال "الشارع العريض"هو الشارع الفخم فى الإسكندرية، وفى أواخر العصر القديم أمضى أحد الحجاج تسع ساعات يتجول به وهذه المدة لا تعنى أنه شارع طويل وإنما شارع جذاب وممتع وخاصة لشخص لا يعرف هذا النوع من المدن، وبدأ هذا الزائر جولته عند بوابة الشمس حيث توجد منذ قرون الفنادق التى تناسب الرغبات المختلفة ولم يتغير سوى سبب بعض الرحلات. ومدح أحد الحجاج المجهولين من مدينة بياتشنزا Piacenza الإيطالية مدينة الإسكندرية قائلاً إنها مدينة متألقة باهرة شعبها طائش، "ولكنه يحب الحجاج"[١١]، فقام على سبيل المثال "فندق الراهب" بإظهار هذا الاهتمام الجديد، هذا الفندق الذى أقامه يوحنا "المتصدق" فى بداية القرن السابع للضيوف المسافرين [١٢].

عندما أراد الراهب يوحنا الرحيل من مصر أخذ الطريق الزراعى من ضاحية مينيوتس Menuthis، الذى يربط ضاحية كانوب بالإسكندرية، إلى بوابة الشمس عند نهاية "الميناء" الشرقية، ومنها دخل إلى المدينة ليصل بعد ذلك إلى فاروس (الفنار)، وفى الطريق إلى هناك عبر يوحنا معبرًا (كوبرى) ـ على الأرجح أن هذا المعبر كان يمر فوق القناة التى يُطلق عليها نيفيروتيس Nepherotes ـ ووصل إلى نيابوليس Neapolis، وعَبَر الترسانات البحرية عند الطريق القديم الذى كان يربط بين فاروس وراقودة، ومر من أمبيليون Ampelion ـ التى لا نعرفها ـ ووصل إلى فاروس حيث تقف سفينة أحد الأصدقاء (١٣). وكانت لا تزال فى نيابوليس مخازن كبيرة للبضائع، وهناك إيصالات معروفة ما بين عام ٣٨٠ وعام ٣٩٠ تثبت نقل الحبوب من الأشمونين إلى الإسكندرية، وكان المختص بالتنظيم فى العاصمة "مسئول الحبوب".

وكانت موجات الحجاج التى تزحف على الإسكندرية تأتى أولاً من أجل المدينة الكبيرة نفسها، ولكن أيضًا بصفة خاصة لزيارة كنيسة القديس ميناس Menas الذى يُقال إنه يمتلك قدرات إعجازية شديدة وخاصة القدرة على الشفاء، وكان لا يزال بالإسكندرية وحولها فى أماكن كثيرة معابد عديدة تشبه معابد سيرابيس Sarapis من القرون الماضية وبسمعة مشابهة. ومن الإسكندرية ـ على الأرجح من ميناء إيليوبوليس Iuliopolis ـ انطلق الحجاج بالسفينة ليصلوا إلى



(شكل ٥٤) زمزمية مينا.

ميناء فيلوكسينيته Philoxenite عبر الذراع الغربى لبحيرة مريوط، ومن هنــاك على مسيرة يوم واحد فقط للوصول إلى ميناس التى تبعد ٤٥ كيلومترًا، ومن الهدايا البسيطة المحببة التى ــ يجلبها الحجاج من رحلاتهم هذه كانت أمبولات ميناس Menas-Ampullen وزجاجات الحجاج التى يعود تراثها إلــى عــصر الدولة الحديثة الفرعونية (الشكل ٥٤) .

ويتم التعرف على ميناس بين جملين (من ذوى السنام الواحــد)، وتحكــى الأسطورة أن الحيوانين جَثَوا على ركبتيهما بعد أن تم نقــل جثمــان القــديس بطريقة رائعة من أسيا الصغرى إلى مصر، وفى المكان الذى وجد فيه الجــسد تم إنشاء دير توسع وكبر حتى أصبح مدينة فى القرن السادس وصــار أكبــر مركز للحج للمسيحيين الأوائل فى العصر القديم .

ويحذرنا مصير راهب ذكره لنــا بــالاديوس Palladius مــن أن مدينــة الإسكندرية الكبيرة التى لا تهدأ أبدًا لها مخاطرها علــى بعــض المــسيحيين الطيبين: "ذهب إلى المسرح وإلى السباق فى حلبة ركوب الخيل وهــام علــى وجهه فى الحانات، وأكل وشرب كميات مبالغًا فيها وسقط فى الرغبة الحسية؛ ولأنه كان مصممًا على اقتراف الذنوب فقد أقام علاقة مع ممثلة"[١٤]، وكانــت الإسكندرية لا تزال مدينة "دنيوية" تمامًا، وهكذا لم يكن أمام الراهب يوحنا من ليكوبوليس Johannes von Lykopolis فى بداية القرن الخامس سوى تحذير كل الحجاج بتجنب المرور على الإسكندرية فى طريق عودتهم مــن أديــرة وادى النطرون،" لأنهم سيتعرضون بالتأكيد للمغريات"[١٥]، وبالنسبة لنا يُعد مكسبًا أن كثيرًا من هذه التحذيرات ضاع أدراج الريح .

وكان المسرح وحلبة ركوب الخيل دائمًا هما المكان الذى يتم فيه اتــصال بين القيادة السياسية والشعب وتتحد المشاعر. وفى عام ٣٩١، احتــرق تمثــال سيرابيس الضخم فى المسرح بعد تدمير الــسيرابيوم وتلقــى نفــس المــصير بطريرك بروتيريوس Proterius الخلقدونى chalkedanensisch بعد نصف قرن، هنا كان الحكام يعلنون قرارات القيصر ويعرض السكندريون مطــالبهم مثلمــا حدث عام ٤٥٣ عندما طالبوا بإعادة فتح الحمامات واستئناف تبرعات الحبوب، ولهذا كان يتمتع المسرح بمثل هذه الشعبية لدى كل الفئات الاجتماعية والدينية

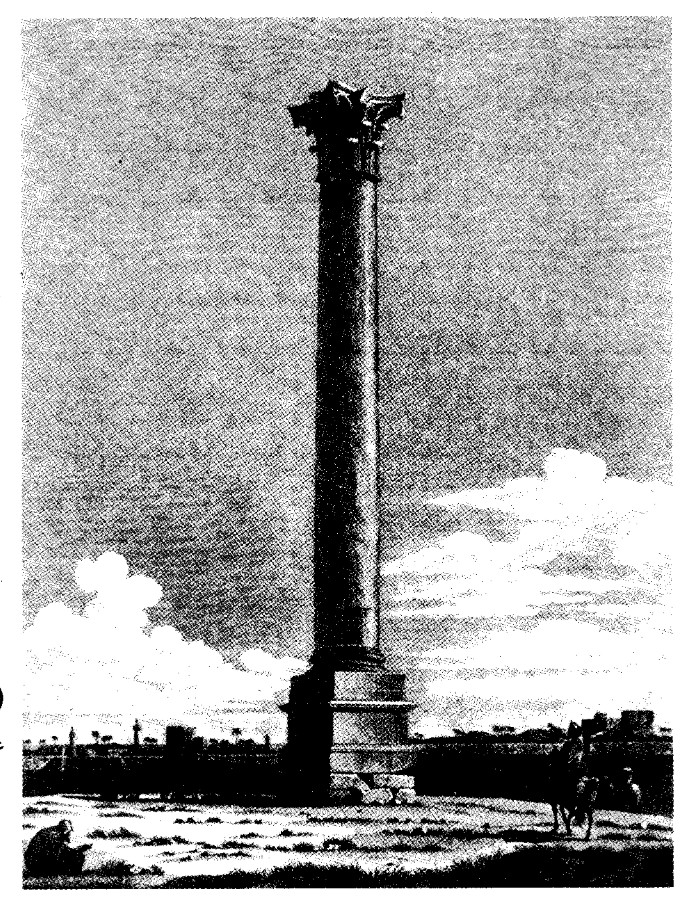
بالمدينة، وكان مضمار سباق الخيل يضاهيه فى هذه المكانة. ورغم أن القيصر منع الرقص فى الأماكن العامة بالإمبراطورية، فإنه استثنى الإسكندرية صراحة من هذا الأمر(١٦)، لأنه لم يرغب على ما يبدو أن يشعر سكان المدينة بالغربة تجاه الإمبراطورية أكثر مما كان عليه الحال فى القرن السادس .



(شكل ٥٥)
دوروس
المنتصر.

وعبّر أحد مشجعى سباق العربات عن سعادته بفوز شخص يُدعى دوروس Doros، وذلك بأن حفر صورة جانبية بأبسط المواد على الجهة الخلفية لقاعدة تمثال (الشكل ٥٥)، وكتب " فوز دوروس"، الذى صُور وهو يحمل جريدة نخل مألوفة فى يده كعلامة على الفوز. أما العمل الإنشائى الجديد فقد كان إقامة عمود دقلديانوس فى مكان ممتاز بمعنى الكلمة، وقمت بعرض هذا العمود ضمن رسوم حملة نابليون (الشكل ٥٦). وبديهى أن هذا العمود ما هو إلا قاعدة للتمثال الكبير لدقلديانوس (قارن الرسم ٥٨)، ويرجع الاسم الشائع حتى اليوم وهو عمود بومبى إلى سوء فهم، ففى العصور الوسطى كان هذا العمود يُعتبر موضع دفن بومبى المقتول. إلا أن أوضح التغيرات فى صورة المدينة كانت فى دور العبادة

المسيحية التى بدأ إنشاؤها منذ القرن الثالث وتبقى منها عدد غير قليل فى القرن الرابع، وكان الأسقف ألكسندر Alexander قد شلح خمسة قساوسة فى نزاعاته مع معارضه أريوس، وقام ١٦ شخصًا بالتوقيع على القرار من بينهم على الأرجح خلفاء المشلوحين؛ حتى إنه يمكننا أن ننطلق من وجود ١٦ كنيسة إجمالاً، وفى بداية القرن الرابع كانوا طائفة كبيرة، ويذكر لنا كاتب الكنيسة سوزومينوس Sozomenos مجموعة كاملة من الكنائس السكندرية، ولوحظ أنها كانت مشهورة بأسماء المدرسين المعاصرين(١٧).



(شكل ٥٦)
عمود دقلديانوس.

وسنعتمد فى نظرتنا العامة على الكنائس فقط على المصادر المكتوبة، فقد سجل إبيفانيوس Epiphanius فى نهاية القرن الرابع بصفة خاصة دور العبادة

الثلاثة الكبيرة، تلك التى لعبت دورًا بارزًا فى تاريخ الإسكندرية، وهى: كنيسة ديونيسيوس، وكنيسة تيوناس Theonas، والكنيسة التى كان يُطلق عليها كنيسة القيصر، وكان الأسقف ديونيسيوس Dionysius قد أسس الكنيسة المعروفة باسمه، وكانت مقرًا للأسقف الأريانى جريجور Gregor فى الفترة من عام ٣٥٧ إلى عام ٣٥٨ وللأسقف أثناسيوس Athanasius منذ عام ٣٦٤.

وسُميت كنيسة تيوناس باسم أسقف الفترة من عام ٢٨٢ وحتى عام ٣٠٠، حيث أسس فى هذا المكان دور عبادة صغيرة، وقام الأسقف ألكسندر (٣١٢ ــ ٣٢٨م) بتوسعتها بدرجة كبيرة وهو ما طابق من ناحية طلبات طائفة مسيحية متزايدة، وخدم من ناحية أخرى أيضًا استعراضًا للإمكانات الجديدة بعد مرسوم التسامح من جاليريوس وتشجيع قسطنطين. وكان موقع هذه الكنيسة على "الشارع العريض"، وهو شريان المرور الرئيسى للإسكندرية، موقعًا نموذجيًا، حيث كانت تقع مباشرة عند بوابة القمر حتى إنها كانت تظهر فورًا لأعين الزوار الكثيرين الذين يدخلون المدينة هنا قادمين إلى المدينة من الغرب، وفيما بعد تحولت إلى "مسجد الألف عمود" بعد تعديل بنائها، وقد ظلت مقرًا للأسقف حتى بناء كنيسة القيصر فى عهد قسطنطين الثانى، التى يرجع اسمها إلى حقيقة أنها أُنشئت داخل الأراضى القيصرية السابقة، وكان التصريح بإنشائها قد أصدره القيصر للأسقف الأريانى "جريجور" Gregor (٣٣٩ ــ ٣٦١)، وبسبب مقاساتها أُطلق عليها اسم " الكنيسة الكبيرة "[١٨]، ومع استخدامها ككنيسة للأسقف نقل أثناسيوس مقره من ضواحى المدينة إلى وسطها، وبهذا أصبح أيضًا المسافر الذى يصل إلى الإسكندرية مباشرة بالسفينة يرى من البحر مبنى مسيحيًا مرتفعًا.

وإلى جانب دور العبادة هذه كان يوجد عدة كنائس أصغر لمناطق القساوسة زاد عددها عن طريق هبات خاصة، وأيضًا من خلال تدمير أو تغيير فى بناء معابد الوثنيين مثلما حدث مع معبد متراس Mithras فى عهد جريجور عام ٣٦١ أو مع السيرابيوم فى عهد ثيوفيلوس Theophilus عام ٣٩١.

وساهم أيضًا فى تغيير صورة المدينة منشآت الأديرة التى أُقيمت فى النصف الثانى من القرن الرابع فى منطقة حى بروخايون الذى تم تدميره

وهجره السكان عام ٢٧٢، ونذكر هنا على وجه الخصوص المنشآت المقامة فى ضاحيتَىْ كانوب ومينوتس.

## "المجموعة الأقوى" ــ أصحاب سفن الإسكندرية

عندما زاد ملوك البطالمة من إنتاجية المحاصيل الاقتصادية للبلاد، وخاصة محصول الحبوب، اهتموا أيضًا بنقل البضائع ووضعت تحت تصرف التجار سفن يمكنهم استئجارها لنقل الحبوب إلى الإسكندرية أو استخدام وسائل النقل الخاصة بهم، وكان يتم جلب الحبوب من مخازن القرى المختلفة إلى العاصمة، وهناك يتم تسليمها لأصحاب السفن الذين يحررون سندًا (إيصالاً) بتسلُّمها، وكانت تتم مراقبة أصحاب السفن هؤلاء مراقبة صارمة إذا ما كان نقل تلك الحبوب لصالح الحاكم.

وباحتلال أغسطس لمصر، تولّى الرومان أيضًا تلك المؤسسات الإدارية البطلمية التى ثبتت صلاحيتها ومنها إدارة نقل الحبوب إلى الإسكندرية ومنها إلى روما، فقد كانت مصر إلى جانب شمال أفريقيا أهم مورد للحبوب، وكانت البضائع تغادر الميناء عبر ميناء التصدير بالإسكندرية. وظل أصحاب السفن السكندريون يمارسون عملهم حتى القرن السادس، إلا أنهم اعتبارًا من عام ٣٣٠ كانوا يوردون إلى القسطنطينية، وعلاوة على ذلك كان يتمركز فى الإسكندرية أسطول عسكرى يراقب حركة مرور السفن فى النيل والالتزام بقوانين الجمارك، كما كان يؤمِّن تصدير الحبوب، وبهذا تمثل واجبه ــ إلى جانب حماية البضائع من القراصنة أيضًا ــ فى تيسير تحميل السفن دون معوقات وخروجها إلى الإسكندرية .

كان أصحاب السفن يمارسون التجارة لحسابهم أو ينقلون بتكليف من الدولة الحبوب المصرية اللازمة لإمداد روما، وكانوا مثلهم مثل المجموعات الأخرى الكثيرة متكتلين فى روابط تُسمى زمالات هدفها فى المقام الأول رعاية ألوهية القيصر وإدارة أموال الجنازات والمدافن، وكانوا علاوة على ذلك فى خدمة حفلات السّمر وبالتأكيد أيضًا تبادل الخبرات، وكانت هذه الروابط كما يذكر القانونى المشهور جايوس Gaius "نموذجًا من نماذج شئون الدولة العامة،

فكان لها ثروة مشتركة وخزانة مشتركة وممثل ووكيل قانونى"[١٩]، كما كان لهذه الروابط أيضًا رعاة تستطيع الدولة التوجه إليهم مباشرة باعتبارهم ممثلين لهذه الروابط أمام السلطات. وذكر قانون صدر عام ٤٠٩ يخص هؤلاء "النبلاء السكندريين" الذين كانوا رعاة لهذه الرابطة المهمة لأصحاب السفن، وكان أن حدث فى العام السابق (عام ٤٠٨) صعوبات فى نقل الحبوب، مما اضطر "أصحاب السفن الشرقيين بمدينة الإسكندرية" مع " النبلاء" إلى تبرير ذلك أمام السلطات [٢٠].

وعلى مدار القرون، كانت الدولة تتدخل بشكل متزايد فى شئون هذه الرابطة بعد أن صار كل أصحاب السفن أعضاء بها، وقدمت هذه الرابطة للسلطات فهرسًا بالأعضاء من نسختين تشتمل على أسماء وأصل أصحاب السفن وأسماء باقى أفراد العائلة وبيانات عن كامل ثروة الأفراد، ونذكر هنا أحد التفاصيل على سبيل المثال: فعند تحديد قيمة الثروة كان هناك تركيز على العقارات، وكان يتم حساب قيمة البيوت طبقًا للدخل من الإيجارات، فإذا ما كان صاحب السفينة نفسه مقيمًا فى المنزل تضع الدولة نفس قيمته عند الحصول عليه، أما التحسينات والتجميل فلم يكترث بها أحد، ولكن كان مثل هذا المنزل يخضع فى الوقت نفسه "لرهن عقارى دائم"، فمن يمتلكه يحق له المشاركة فى نقل الحبوب من الإسكندرية إلى القسطنطينية، وكانت الرابطة نفسها تقرر مَنْ له أن ينفذ أية رحلة وتحدد على ما يبدو أيضًا القدرة المالية للفرد صاحب السفينة ومدى تحمُّله. وكان أصحاب السفن الأكثر قدرة يحاولون إحالة الرحلات الأقل جاذبية على الأقل أملاكًا، وكان القياصرة من ناحيتهم يجتهدون فى توجيه دفة الأمر ضد هذا السلوك، وكان من بين أعضاء هذه الرابطة أيضًا اليهود الذين استعادت طائفتهم فى الإسكندرية عافيتها عام ٤٠٠ تقريبًا.

وعن طريق سينسيوس Synesius من كيرينه Kyrene نتعرف على مالك السفينة ورُبَّانها أمارانتوس Amarantus الذى حجز عنده هذا الفيلسوف رحلة من الإسكندرية إلى وطنه، وكان نصف طاقم السفينة تقريبًا من اليهود وهذا لم نكن لنعرفه ما لم تواجه السفينة عاصفة فى يوم سبت وامتناع الربان عن لمس الدفة[٢١]. وبالتأكيد تعود دراما الحدث بنسبة كبيرة إلى فن السرد لدى

سينسيوس، ويمكن للمرء أن يتساءل: لماذا انطلق أمـارانتوس مـن الأصـل بالسفينة، وتوضح الرواية نفسها هذا الأمر؛ فالموقف المالى لصاحب السـفينة الصغير كان متأزمًا حتى إنه يقبل كل ما يُكلف به، ويبدو أنه كان يأمـل فـى رحلة بحرية إلى كيرينه بدون مشاكل، ولكن عندما ظهرت العاصفة على عكس ما هو متوقع لم يمنع السبت فقط عمليات الإنقاذ، لأنه أثناء العاصـفة انكسـر الشراع إلى نصفين ولم يكن بالسفينة شراع بديل لأن أمـارانتوس Amarantus كان عليه أن يتركه رهنًا لقرض لدى الدائن. وأحيانًا ما كانت الدولـة تتـولى القيام بتحسينات فى السفن أو تقدم المواد اللازمة لذلك، ولكن هذا الأمر كان فى معظم الأحوال واجب أفراد القطاع الخاص.

وصار أصحاب السفن من أمثال أمارانتوس بسهولة ضـحايا لـزملائهم الأغنى منهم، وذلك عندما كان الأمر يتعلق بتوزيع تكليفات غيـر مرغوبـة، وعلاوة على ذلك فقد وصلت إلى الإسكندرية طريقة للتعامل نابعة مـن تقليـد متبع منذ قرون تعود عليها أصحاب السفن اليونانيون مع أصحاب السفن اليهود، فقد كان أصحاب السفن الأغنياء يعتقدون على ما يبدو أن باستطاعتهم العبث مع أعضاء الرابطة اليهود حسبما يتراءى لهم، ولهذا أوضح القياصرة أن الرحلات يجب أن يتم توزيعها على جميع الأعضاء بطريقة عادلـة، وأنـه مـن غيـر المسموح به الإضرار باليهود والسامريين Samaritaner، حيـث تُـدرج هـذه المجموعة اليهودية فى قوانين كثيرة مع اليهود، وقد تلقى أوجوستاليس، وهـو رئيس أسقفية مصر، تكليفًا بالاهتمام بالتوزيع العادل للمهام المزعجة الثقيلة.

وكانت الدولة تحاول بالإضافة إلى ذلك تأمين وجود أعداد كافية دائمًا من أصحاب السفن، وكانت ترى أن الانتماء إلى الرابطة ضرورى، وكانت تـربط الواجبات بقيمة الثروات المذكورة: صحيح أن أصحاب السفن كانوا يتصرفون فى ثرواتهم الخاصة بحرية، وكانوا يبيعونها مـثلاً ولكـن بـشرط أن يلتـزم المشترى بالأعمال المرتبطة بما اشتراه فى خدمة الدولة دون إجبار عليـه أن يصبح صاحب سفينة، وهنا تدخل على سبيل المثال أيضًا الكنيسة فى اللعبـة، عندما تحصل على مثل هذه الثروات على أن يقوم الأسقف بالالتزامات تجـاه الدولة .

وتحدثنا بردية من عام ٣٩٠[٢٢] عن "سفينة الكنيسة الكاثوليكية بالإسكندرية"، وكانت الإسكندرية مثل كل مصر تعانى باستمرار من نقص فى الأخشاب، لذلك توجه أويلوجيوس Eulogius (٥٨٠ ــ ٦٠٧م)، وهو بطريرك المدينة، إلى جريجور(٥٩٠ ــ ٦٠٤ م)، وكان أسقف روما ويُطلق عليه الأكبر، ورجاه أن يرسل له أخشاب بناء ــ وطبعًا مقابل فاتورة، ورفض جريجور أى تسديد للحساب تقديرًا لاعتبارات الزمالة وورَّد الأخشاب، ولكن هذا التوريد كان بداية لتبادل طويل الأمد للخطابات لأن كتل الخشب كانت قصيرة جدًا بالنسبة للسكندريين، وألقى جريجور باللائمة على السفينة التى أرسلها أويلوجيوس لنقل الأخشاب لأنها لم تكن طويلة بدرجة كافية، وفيما بعد كانت هناك أخشاب أطول ولكن ظلت السفينة المتاحة قصيرة جدًا، وجاءت آخر المعلومات التى بين أيدينا فى خطاب لجريجور الذى تردد فى قطع كتل الأخشاب[٢٣].

وما بدا لنا من تضييق شديد وإجراءات جبرية ضد أصحاب السفن، فقد جرى أيضًا على الخبازين الذين تعرضوا لإجراءات صارمة مشابهة، وهو أمر يمكن فهمه من منظور ذلك العصر بلا شك كإجراء لإيجاد تأمين قانونى، وكان نقل الحبوب يمثل للقيصر التموين الأساسى لسكان العاصمة مما يساعد على حفظ النظام والهدوء، وكان القيصر يشدد على سرعة توريد هذه الشحنات الضرورية للحياة ويطالب كل سلطات المدينة والدولة بمساندة أصحاب السفن، الذين كانوا ملزمين بنقل ثلث الشحنة المنتظرة فورًا إلى القسطنطينية بمجرد بدء موسم النقل إلى ما وراء البحار، وكان التحميل يتم ما بين الأول من أبريل والثلاثين من سبتمبر، وبعد الخامس عشر من أكتوبر كانت السفن لا تخرج إلى البحر، ومن نوفمبر وحتى مارس تظل السفن راسية فى مكانها، وحتى لا ينتظر الأسطول السكندرى أمام بوغاز الدردنيل Dardanellen عندما تهب رياح الشمال فقد أمر جوستنيان Iustinian (٥٢٧ــ٥٦٥م) ببناء صوامع تخزين كبيرة للغلال فى جزيرة تينيدوس Tenedos يمكن نقل الحبوب منها إلى القسطنطينية عندما تكون الرياح مواتية، وأدى هذا الاختصار للمسافة إلى قيام السفن السكندرية برحلات قد تصل إلى ثلاثة فى الفترة ما بين جمع المحصول وحلول الشتاء.

وظل هذا المسار التقنى هو السائد فى نهاية العصر القديم، وزادت سيطرة الدولة على الأمور، ولدينا على الأقل مصادر كثيرة تذكر هذه السيطرة، فقد كان أصحاب السفن الذين يبحرون من الإسكندرية يحصلون على الحبوب من موظفين مختصين بإتمام هذا العمل ويقومون على مراقبة تحصيل الضرائب عليها، وكان هؤلاء الموظفون ملتزمين بإصدار خطابات شحن لأصحاب السفن خلال فترة لا تتجاوز عشرة أيام يتم بمقتضاها توجيههم إلى أماكن محددة، وكان على أصحاب السفن من جانبهم أن يقروا بتسلُّمهم البضائع فى حالة جيدة. وكانت السفن تبحر من الإسكندرية فى عصر القياصرة (العصر الإمبراطورى) عبر مالطا وسيشل ورجيوم Rhegium إلى ميناء بيوتولى Puteoli وفيما بعد إلى ميناء أوستيا Ostia، أما فى نهاية العصر القديم فكانت تذهب إلى العاصمة الجديدة القسطنطينية، وكان صاحب السفينة يورد البضائع هناك ويحصل على شهادة مسجل بها يوم التسليم يقدمها للسلطات فى الإسكندرية، وعندئذ فقط يحصل على التعويض المقرر للرحلات التى تم إنجازها بتكليف من الدولة .

وقد عرفنا الكثير وبالتفصيل عن قرارات القيصر فى شأن نقل الحبوب، عن طريق جامع القوانين الذى أمر تيودوسيوس الثانى Theodosius II فى عام ٤٣٨ بتجميع القوانين به، ومثلما هو الحال دائمًا عند قراءة مثل هذه المعلومات يكون هناك خطر التعجل فى تفسيرنا لها بأنها قهر ودليل على الإجبار، بالإضافة إلى أننا لا نعرف من هذه المعلومات إلا أقل القليل عن الأمور العادية مقارنة بما نعرفه عن المشاكل التى تظهر أحيانًا، فمثلاً إذا سار كل شىء بطريقة جيدة حصل أصحاب السفن على مكاسبهم وكسب البحارة أيضًا قُوتَهم، أما إذا وقعت حادثة فكان يتم الإبلاغ عنها لدى حاكم المحافظة التى جرت بها الحادثة، وكان على صاحب السفينة أن يحضر شهودًا يأتى على رأسهم بحارته، وتستطيع السلطات التأكد من أقوالهم بالتعذيب ويُعفى صاحب السفينة منه. فإذا ما ثبت أن الحادثة وقعت دون تورط أحد فى وقوعها تحملت الخزانة العامة الخسارة وإلا تحملتها الرابطة المهنية؛ لأن تحملها تلك الخسارة كرابطة أسهل من تحمل صاحب السفينة لها منفردًا، وعقب ذلك يتم إخراجه من الرابطة.

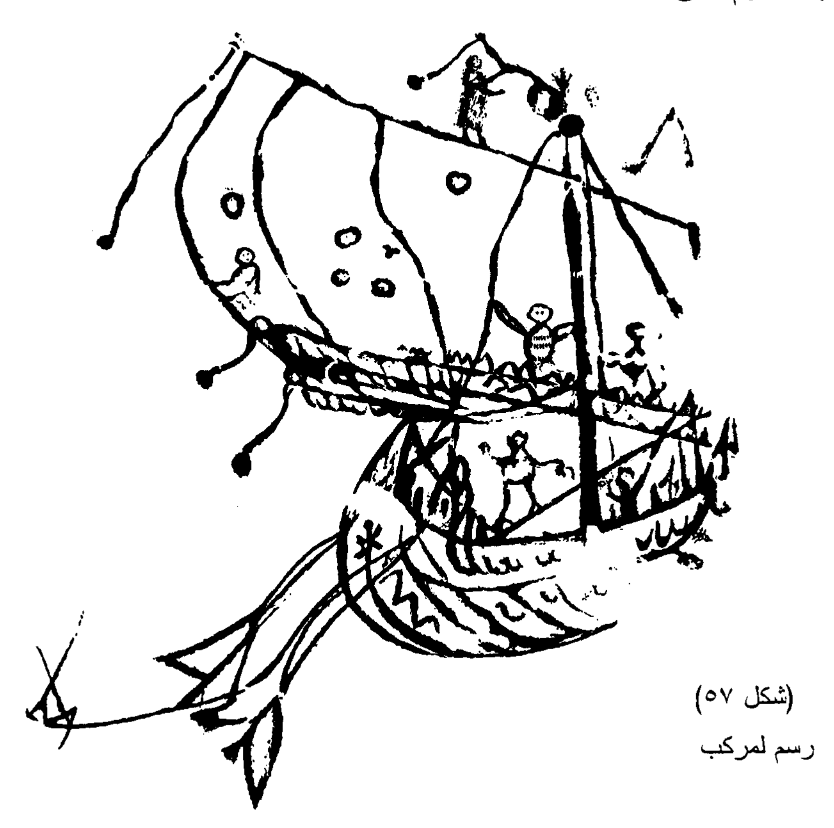
وكانت الدولة تمارس ضغطًا شديدًا على الروابط، حتى إن القياصرة كان باستطاعتهم أيضًا فى القرن السادس ليس فقط التأكد مثلاً من ثروات أصحاب السفن وإنما أيضًا من عقيدتهم، وقد عرفنا ذلك من استدعاء تلقاه صاحب سفينة من القيصر لمحاسبته على افتقاره للمصداقية القانونية(٢٤).

وبالنسبة لأصحاب السفن السكندريين فقد كانوا مجموعات من أغنياء المدينة لأن العمل لحساب الدولة لم يكن يتم أبدًا دون تعويض (مكافأة)، فكانوا يحصلون على ٤% من الحمولة المنقولة بالإضافة إلى سوليدى واحد Solidus على كل ألف مكيال حبوب. وإذا ما وضعنا الكميات المذكورة آنفًا فى الحسبان والتى كانت تتم سنويًا عن طريق الإسكندرية، فإن أصحاب السفن يحصلون تقريبًا على ٣٥ ألف سوليدى وتسعة آلاف طن حبوب تبلغ قيمتها مرة أخرى ٢٧ ألف سوليدى Solidi، ويُراعى فى هذا أنه كانت هناك أيضًا مصادر أخرى للدخل، ومن غير الممكن تقدير حجم التجارة التى كانت تتم كاملة عبر الإسكندرية فى أى عصر ولو بالتقريب.

وهناك بعض الملاحظات التى تجعلنا فجأة نشعر بأبعادها، فمثلاً ما دفع بلينيوس العجوز للشكوى بخصوص أشياء كانت تُعد مكسبًا كبيرًا بالنسبة للإسكندرية، إذ يقول: "يرسل "بحر بلاد العرب" إلينا اللؤلؤ، وطبقًا لأدنى توقعات حسابية تسرق منا الهند والسيرر {تجار الحرير} وشبه الجزيرة تلك {بلاد العرب} سنويًا ١٠٠ مليون سيستيرسن، ومثل هذا القدر نصرفه على الترف والنساء!" (٢٥)، ويبقى جزء ضخم من المبلغ مكسبًا للإسكندرية ملتقى التجار. وعلى هذه الخلفية، فلا عجب أن أطلق يوحنا أفيسوس Johannes von Ephesus فى القرن السادس على مُلاَّك السفن "أقوى مجموعة فى هذه المدينة الغنية"(٢٦).

ونظرًا لأهمية أصحاب السفن بالإسكندرية، تلك الأهمية النابعة من وجود عاصمتَى الإمبراطورية: روما ثم القسطنطينية على قيد الحياة، فقد كانت المزايا كبيرة كنوع من معادلة ضغوط الانتماء إلى الرابطة، وقائمة المزايا طويلة: حيث كان أصحاب السفن مُعفَيْن من كل الالتزامات تجاه مدينتهم،

وكانوا غير مضطرين لدخول مجلس المدينة ـ وهى ميزة حسدهم عليها الكثيرون، كما أنهم كانوا معَفيْن من ضريبة الأراضى سواء كانت نقودًا أو مواد زراعية، وأيضًا معفين من كافة الضرائب الخاصة الكثيرة، واعتبارًا من عام ٣٨٠ أيضًا أُعفوا من ضريبة المبيعات، وكانوا أيضًا معفين من كل الخدمات الاستثنائية، فكان من الممكن سحب المواطنين لعدد غير معروف على وجه الدقة من الأيام للقيام بمهام مختلفة فى محاجر الرخام الأبيض بالإسكندرية مثلاً. كان هذا النوع من التجنيد لا يسرى على أصحاب السفن، وتوضح عمليات حظر استخدامهم المتكررة فى ميناء الشحن أو التفريغ أو خلال السفر ما كان يحدث من تدخلات جسورة متكررة للسلطات المحلية. وأخيرًا كان أصحاب السفن معفين من الرسوم الجمركية، وكان هذا النظام له جاذبيته الاقتصادية حتى إن رجال القطاع الخاص حاولوا بدءًا من عصر البطالمة نقل بضائعهم على سفن ناقلى الحبوب لتوفير مصروفات الجمارك.



(شكل ٥٧)

رسم لمركب

وبنظرة شاملة على ملاك السفن نجد إنهم مجموعة من الأثرياء بمستويات مختلفة فى الثراء، ومن بين ما يعبر عن أهمية أصحاب السفن والنقل البحرى بالنسبة للإسكندرية تصوير غير واضح وُجِد على جدار منزل من القرن السادس أو السابع (الشكل ٥٧)، ويوضح الرسم سفينة بأشرعة كاملة يعمل عليها ستة بحارة.

## السكندريون المحبون للحروب ـ المُغتصب دوميتيوس دوميتيانوس (Domitius Domitianus)

أصدر القائد العسكرى لمصر، أريستيوس أوبتاتوس Aristius Optatus، فى السادس عشر من مارس عام ٢٩٧ مرسومًا أعلن فيه إعادة مراجعة النظام الضريبى فيما يختص بقواعد التصدير وعلاقتها بالممارسة الضريبية الجديدة وتقديرها على أساس جودة الأرض المملوكة، وتم تحديد الضرائب على الشخص لفترة زمنية محددة، وفوق هذا طُلب من دافع الضرائب السداد فى الموعد المحدد بدقة ـ وهى مشكلة ليست فقط مصرية وإنما أيضًا من مشكلات العصر القديم عامة. وكان القيصر أورليان Aurelian قد زاد بالفعل من الضرائب المفروضة على منتجات الزجاج والبردىّ والكتَّان والقِنَّب، وبهذا أضعف اقتصاد الإسكندرية، الذى تمتعت دوائره لوقت طويل بوضع متميز ضريبيًا، والآن أصبح الاستياء عامًا بعد أن ألغى دقلديانوس المزايا القديمة دفعة واحدة وبطريقة فجائية.

وارتبط هذا الإجراء ارتباطًا وثيقًا بإصلاح شئون العملة، والتى اختفت معها العملة الخاصة اليونانية المصرية التراثية، وانضوى كل هذا من ناحية أخرى تحت حزمة من المشروعات أنهى من خلالها دقلديانوس الوضع الخاص لمصر والذى استمر ٣٠٠ عام كممتلكات خاصة للقيصر. أما بالنسبة للسؤال الذى تُطرح مناقشته دائمًا حول أسباب ثورة دوميتيوس دوميتيانوس فى مصر فتبدو لى ملحوظة أن المرسوم المذكور لعام ٢٩٧ لا يذكر تمرده ولا يذكر توابع هذا التمرد، ملحوظة مهمة جدًا، ومن المستحيل بالنسبة لى أن أمرًا كهذا

كان بالإمكان إخفاؤه، وبالتالى فإن الثورة كانت نتيجـــة لحزمـــة الإجـــراءات الخاصة بمصر .

ولننظر إلى الوراء قليلاً، فقد وقع عام ٢٩٣ حدثان كبيران تم الاحتفـــال بهما فى جميع أنحاء الإمبراطورية: الأول تصعيد اثنين من نـــواب القيـــصر، والثانى ذكرى تولية المنصب للنائبين الأولين للقيـــصر، وهمـــا: دقلـــديانوس وماكسيميان Maximian، اللذان توليا منصبيهما قبل ذلك بعشرة أعوام، وكانت هاتان المناسبتان الاحتفاليتان على ما يبدو هما الحجة بالنسبة لهما مـــن أجـــل إصلاح نظام العملات الرومانى ووضع قاعدة دائمة له مـــن خـــلال توحيـــده وتجميعه، ووقف تجميع الأموال من مصادر الدولة من أجل اســـتقرار شـــئون العملات عقبة فى طريق سك العملات المحلية بـــوفرة وخاصـــة فـــى آســـيا الصغرى، ولكن ما لبث أن اختفى سك العملات محليًا بدون مشاكل لأن أهميته كانت محدودة.

وكان الإجراء الأول والمهم والأكبر على طريق توحيد نظام العملات من نصيب الإسكندرية، وتم إلغاء آخر عملة موجودة فى الـــشرق علـــى النظـــام اليونانى، ولأن الدرخمات الرباعية السكندرية ــ بخلاف كل العملات المحليـــة الأخرى ــ لم تكن عملة مستخدمة وسارية فقط فى المدينة نفسها وإنمـــا فـــى جميع أنحاء مصر، واستغرق التوافق مع الوضع الجديد عدة سنوات. ورغم أن التحول تم بحذر؛ فإنه كان على ما يبدو أحد العوامل المسببة لثورة دوميتيـــوس دوميتيانوس، وتُظهر عملية سك عملات المغتصب الذى أصدر عملات جديـــدة كانت تقليدًا لعملات الحاكم الشرعى ــ وهى الدرخمات الرباعية القديمة ــ إلى أى مدى كان التحول بطيئًا.

ومع اختفاء آخر عملة كبيرة محليـــة اختفـــت أيـــضًا معظـــم عمـــلات الإمبراطورية الواسعة الانتشار منذ أمد بعيد مثل الآس (As)، والديبونـــديوس Dupondius، واختفت على وجه الخصوص عملة السيسترس Sesterz وكانـــت الوحدة الحسابية للعصر القديم، ولم يتبق سوى الأوريوس Aureus وهى عملـــة ذهبية من فئة السوليدى فى شكل مُحسّن ــ وصارت تساوى واحدًا على ســـتين بدلاً من واحد على سبعين من الجنيه الرومانى. وتم سك عملة فضية جديدة هى

ديناريوس أرجينتيوس denarius argenteus، وساعد علـى اسـتقرارها اسـم أرجينتيوس Argenteus، وكانت العملة الصغيرة الجديدة (الفكة) من النحـاس. ولأن اسم هذه العملة فى العصور الوسطى لم تتناقله الألسن عبر الزمان، فقـد أُطلق عليه فى الأبحاث المكتوبة باللغة الألمانية اسم فوليس follis، وهى كلمـة من أواخر العصور القديمة تُطلق على كيس من العملات، وغالبًا ما كان يـرد باللغة الإنجليزية باسم نوموس (Nummus) وتعنى "عملة". ومن الممكن فهم أن التغيرات التى حدثت فى العملات المعدنية والتى مست ثقـة دوائـر مـصرية بنفسها مما جعلها تشعر بعدم الأمان والاستياء، وصـب هـذا بـدوره لـدى "السكندريين المحبين للحرب" إلى المناداة بقيصر معارض(٢٧).

وهناك اعتقاد أن إصلاح نظام العمـلات بـدأ عـام ٢٩٣ وانتهـى عـام ٢٩٥/٢٩٦، وتم الإعلان عن نظام الضرائب الجديد فـى ربيـع عـام ٢٩٧، بالإضافة إلى أنه من المحتمل أن بدء سريان تغيير تقسيم المحافظات فى مصر كان فى الثلاثين من أغسطس عام ٢٩٧، أى مع بداية السنة المصرية الجديدة. وأثناء إصلاحه للأقاليم قسّم دقلديانوس أقاليم مصر القديمة إلـى ثلاثـة أقـاليم جديدة: مصر Aegyptus وطيبـة Thebais وليبيـا Libya، وبهـذا لـم تعـد الإسكندرية مقرًا للقائد العسكرى ولا المركز الإدارى لمصر وإنما نزلت إلـى مرتبة عاصمة من عواصم الأقاليم فى الأزمنة السابقة، وبهذا تجمعت سلسلة من نقاط النقد لسياسة دقلديانوس؛ ولهذا لم يكن على ما يبدو صعبًا على دوميتيوس دوميتيانوس عام ٢٩٧ تجميع المعارضين حوله بأعداد كبيرة.

وفى ثورتهم استفاد الثوار من إجمالى وضع السياسة الخارجية، فقد كانت حرب الفرس تدور رحاها، وتلقى نائب القيصر جاليريوس هزيمة بسبب عـدم توخِّيه الحذر فى تكتيكه العسكرى، وتم من أجل هجمات الرومان على أرمينيا وشمال العراق عام ٢٩٧ تجميع قوات من الشرق بأكمله؛ مما اضطر الفرقـة الثانية ترايانا Traiana بالإسكندرية إلى المشاركة، وكان غيابها فرصة لانتشار التمرد سريعًا وكان قد بدأ على ما يبدو فى أغسطس عام ٢٩٧ فـى المنـاطق الريفية وخاصة الفيوم، ومن هناك انتشر سريعًا جهة الجنوب وأيضًا فى اتجـاه الدلتا. وتشير عملات معدنية سكندرية لدوميتيوس دوميتيانوس من السنة الثانية

لحكمه إلى المعارك التى دارت حول الإسكندرية من وجهة نظر المتمـــردين، وهذا يعنى أنه نجح بعد وقت طويل فى السيطرة على العاصمة، وتم سك قطع عملات معدنية له باعتباره أغسطس فى إشارة إلى أنه القيـــصر المعـــارض، وأمر بسك عملات معدنية فى شكلها المعتاد منذ قرون وأيضًا عملات معدنيـــة بالشكل الجديد، وحقيقة أنه سك الشكل القديم أيضًا يُظْهر كيـــف كـــان إلغـــاؤه سيجرح عزة كثير من السكندريين وافتخارهم.

وعندما وصلت إشارة عن الاحتلال إلى الإسكندرية جاء دقلديانوس بنفسه فى خريف عام ٢٩٧ إلى بلاد النيل لمحاربة القيصر المعارض، وتـــم إخمـــاد الثورة فى الفيوم بالفعل فى ديسمبر من العام نفسه، إلا أن اســـترداد العاصـــمة استغرق ثمانية أشهر كاملة. وتبدو هذه التواريخ التى ذكرها كثير من المؤرخين فى العصر القديم واقعية، كما كانت الوسائل التى كان هنـــاك اضـــطرار إلـــى استخدامها غير عادية، فقد تحدث مؤلف من القرن السادس يُـــدعى مـــالالاس Malalas عن تحويل للنيل ـــ ربما قطع القنوات التى تقوم بتوصيل الماء ـــ مما أدى فى النهاية إلى استسلام المُحاصَرين فى الإسكندرية، وكان يقف مثلما هـــو الحال دائمًا فى هذه المواقف دعاة شعارات الصمود أمام الذين يريدون التحرك مرة أخرى بطريقة عادية داخل وخارج المدينة، وأخيرًا نجح البعض فى فـــتح البوابات للقيصر. ولم يمت القائد الثانى للثورة أيضًا إلا فى مارس مـــن عـــام ٢٩٨ وكان يُدعى أوريليوس أخيليوس، وذلك بعد أن سقط من قبله دوميتيـــوس دوميتيانوس.

والمؤرخ مالالاس Malalas هو أيضًا الذى وصـــف الإجـــراءات العقابيـــة العنيفة والقاسية لدقلديانوس، ويذكر أنه أمر جنوده ألا يتوقفوا عن قتل المدنيين بالمدينة قبل أن يصل الدم إلى رُكب حصانه، ومن حسن الحظ أن الحصان قـــد كبا عند دخوله المدينة مما أدى على ما يبدو إلى تلطيخ رُكبه وإلـــى أن يـــأمر القيصر بإيقاف عمليات القتل. ولا يهم فى هذه الحكايات التفاصيل التى يتم دائمًا تصويرها بخيال واسع، ولكن المهم أن هذه المُزحة لها جوهر حقيقى: وهو أن العقاب الذى حل بالإسكندرية كان قاسيًا جدًا جـــدًا، وذكـــر أويتـــروب Eutrop

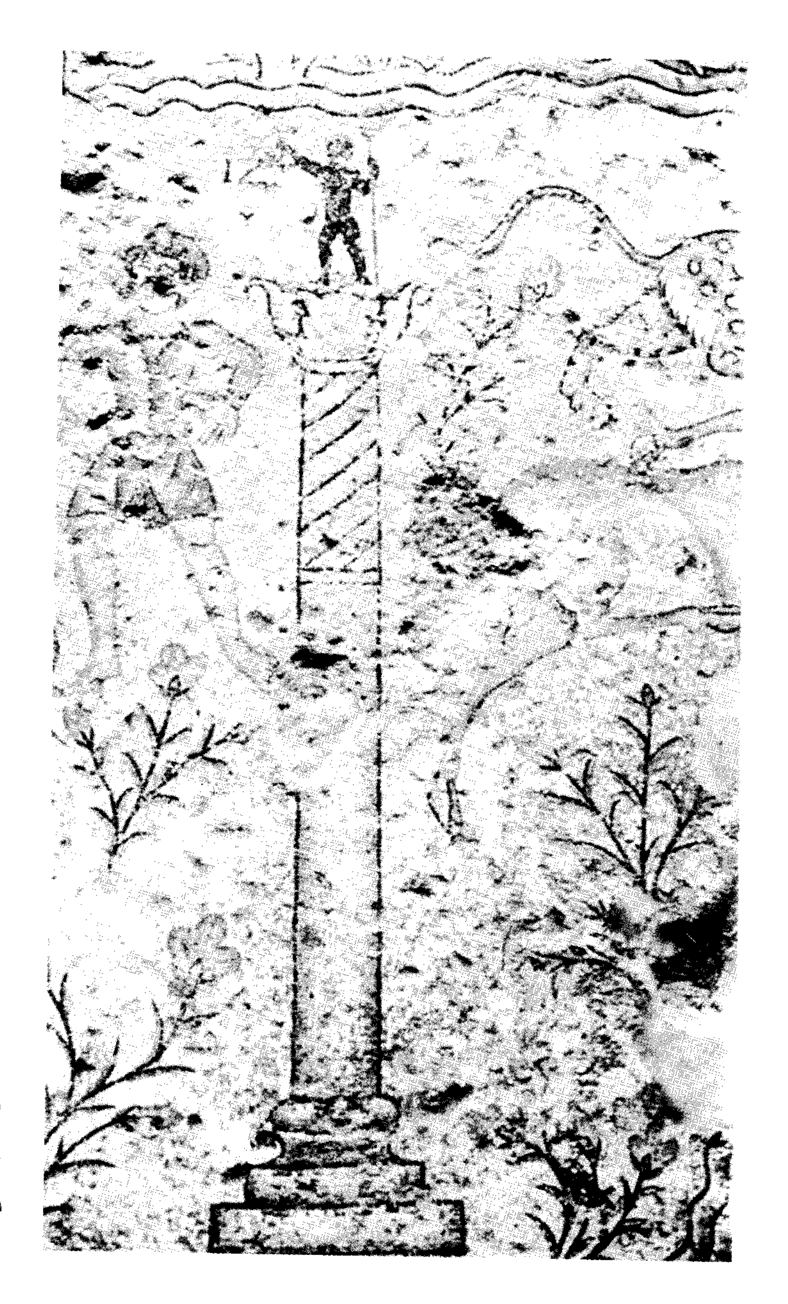
بالإضافة إلى ذلك عمليات الحرمان والمصادرات وهى إجراءات الحاكم التى أصابت بشدة تلك الدوائر التى تقود المدينة اقتصاديًا والتى ساندت المغتصب.

وبعد التخلص من الاحتلال أكدت الإسكندرية بسرعة ولاءها تجاه دقلديانوس ونائبه جاليريوس، وهناك نقشان على الحجر فى ذلك العصر خلَّدا مبايعة الحاكم: "جوبيتر أغسطس Jupite Augustus، ليتك تنتصر (نرجو لك النصر)!" و"جوبيتر قيصر، ليتك تنتصر (نرجو لك النصر)!"[٢٨]، وبهذا تم التلميح إلى الحرب التى تدور رحاها فى ذلك الوقت على الحدود الشرقية للإمبراطورية، وربما أيضًا نهاية المعارك، لأن اتفاق السلام مع الفرس تم عقده منتصف عام ٢٩٨. وحتى لو لم يكن بمقدورنا إدراك آثار وتأثيرات هذه الأحداث المصورة، فلنا أن نستدعى مرة أخرى فى ذاكرتنا أن الإسكندرية خضعت قسرًا لحصارين واحتلالين فى أقصر فترة زمنية ممكنة.

واحتفل دقلديانوس بانتصاره على المغتصب المحتل بنُصُب تذكارى كبير للنصر أمر بإنشائه عام ٢٩٨ على تلٍّ أعلى من أى شىء آخر فعلاً فى سيرابيوم: حيث يرتفع هذا النُّصب فوق قاعدة مربعة وهو عمود طوله حوالى ٢٩ مترًا، وهو بهذا واحد من أكبر الأعمدة الحجرية من العصر القديم ولهذا يُعدُّ واحدًا من أعمدة التكريم الأكثر تأثيرًا فى النفس على الإطلاق، وصار هذا العمود من ناحية أخرى قاعدة لتمثال للقيصر مصنوع من حجر السُوماق أهداه الحاكم أيليوس بوبليوس Aelius Publius " للإله حامى للإسكندرية"، دقلديانوس الذى لا يُقهر (الشكل ٥٨)[٢٩]. ويعرض العمل المصنوع من الفسيفساء بسبفوريس Sepphoris هذا العمود وتمثال القيصر بصولجان النسر.

واستغل دقلديانوس فرصة الافتتاح ليصل إلى النيل ويُكمل نهائيًا النظام الجديد لمصر، وهكذا وُجدت فى الفترة التالية الأقاليم الثلاثة المذكورة: مصر وطيبة وليبيا. وبين عام ٣١٥/٣١٤ و٣٢٤، تم تقسيم مصر مرة أخرى إلى مصر السفلى ومصر العليا، وفى عام ٣٤١ تم تقسيم ليبيا إلى خمسة أقاليم منها الأعلى ومنها الأدنى. وفى عهد أركاديوس Arcadius (٣٩٥ ــ ٤٠٨م)، انضم إلى الأقاليم الخمسة إقليم سادس؛ وذلك عندما تم استقطاع مصر أركاديوس المنسوبة إلى اسم القيصر من أوجوستامنيكا Augustamnica، ومع كل هذا لم

يقف التقسيم عند هذا الحد، وصارت الإسكندرية تابعة لمصر السفلى، التى اشتملت على مصر السفلى الغربية، وبقيت الإسكندرية عاصمة الإقليم ومعسكر الكتيبة.



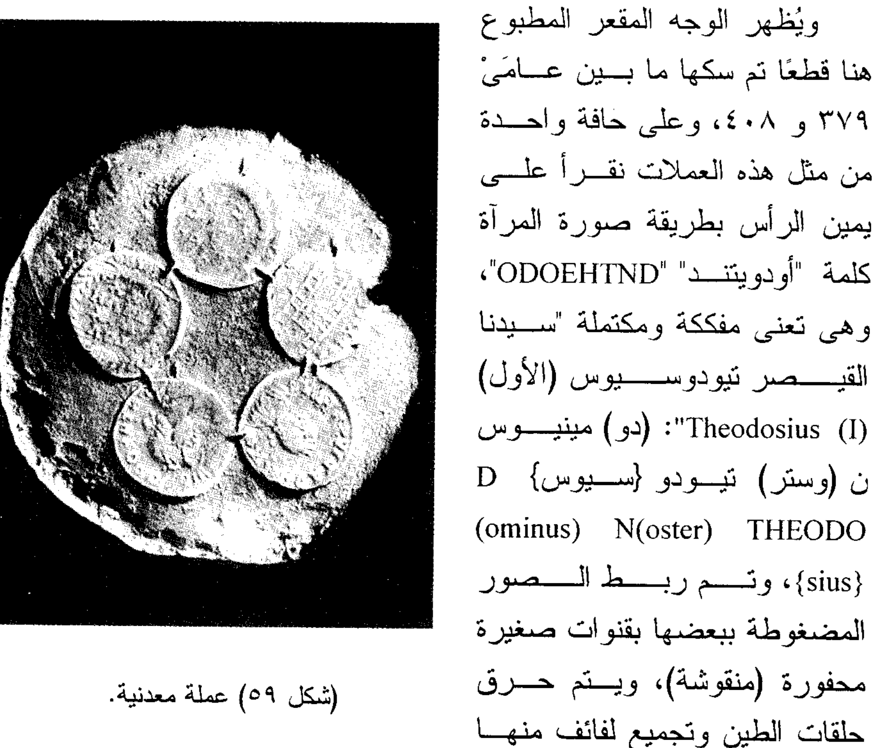
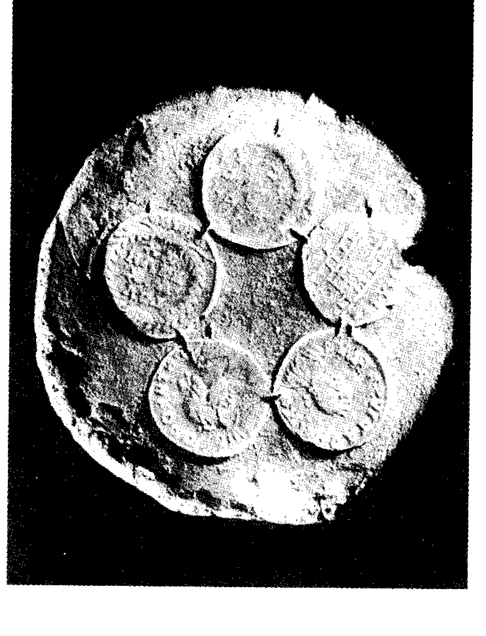
(شكل ٥٨)
عمود
دقلديانوس.

فى البداية لم يتغير إلا القليل فى موقف المدينة، وصار يدير بقايا الإقليم الآن قيادة من الفرسان، وبدءًا من عام ٣٣٥ حصل هؤلاء القادة على رتبة شيوخ (سيناتورات)، وبالطبع لم تكن لهذه الرتبة فى العصور القديمة نفس أهميتها فى عصر القيصر، وأصبح بدءًا من عام ٣٦٧ لهذه الأقاليم الخمسة/ الستة وحدة إدارية أعلى خاصة بها أُطلق عليها اسم أسقفية (أبرشية)، وكان رئيسها المدنى هو القسيس المعاون وله لقب خاص هو القائد أوجستاليس Praefectus Augustalis وذلك للتذكرة بالقائد المصرى القديم، وحتى إن اضطرت الإسكندرية أيضًا إلى القبول بدور متواضع سياسيًا ـــ وذلك بعد أن أصبح قادة هذه المحافظة المصغرة لا يمتلكون سلطة إصدار الأوامر العسكرية ولا يوجد بها أعلى ثانى رتبة فرسان بعد قائد حرس القيصر ـــ إلا أن هذه المدينة الساحلية كانت لا تزال تحتفظ بسلسلة من المكاتب يعمل بها موظفون إداريون فى الاقتصاد والتجارة؛ مما كان يعنى استمرارية لها على نطاق واسع.

ورغم أنه لم يكن من الممكن التراجع عن إصلاح الشئون المالية (العملات)؛ فإن بعض المشاكل ظلت قائمة وساهمت فى ثورة دوميتيوس دوميتيانوس: فمثلاً كيف كان على الإسكندرية أن تغطى احتياجها الضخم من العملات الصغيرة (الفكة)؟ وزادت حدة المشكلة عندما لم يتبق فى المدينة اعتبارًا من عام ٣٨٢ سوى أربعة أماكن لسك العملة لم تستطع سك كميات كافية لسد حاجة الأسواق المحلية من العملات الصغيرة اللازمة، وانتهى الأمر إلى أنها أوقَفت عملها تمامًا عام ٤٢٥ تقريبًا، ولم تستأنفه بكميات تُذكر إلا فى عهد جوستنيان Iustinian فى بداية القرن السادس.

وأدى تقليل أماكن سك العملة وغلقها تمامًا بعد ٤٠ عامًا بالسكان إلى تدبير العملات اللازمة للسوق بوسائلهم الخاصة، ونجحوا فى التغلب على هذه الأزمة بما يُسمى "عملات صب"، فقد قاموا بضغط عملات دائرية على الوجهين فى حلقات رفيعة (غير سميكة) من الطين يبلغ قطرها ٤ سنتيمترات، مرة من الناحية الأمامية ومرة أخرى من الناحية الخلفية، وهى أشكال مصبوبة بقى منها عدد يصل إلى ثمانية أشكال للعملات، وهى تشبه فى مظهرها الخارجى أقراص طلب أرقام التليفون القديمة (الشكل ٥٩).

ويُظهر الوجه المقعر المطبوع هنا قطعًا تم سكها ما بين عامَيْ ٣٧٩ و ٤٠٨، وعلى حافة واحدة من مثل هذه العملات نقرأ على يمين الرأس بطريقة صورة المرآة كلمة "أودويتند" "ODOEHTND"، وهى تعنى مفككة ومكتملة "سيدنا القيصر تيودوسيوس (الأول) "Theodosius (I): (دو) مينيوس ن (وستر) تيودو {سيوس} D (ominus) N(oster) THEODO {sius}، وتم ربط الصور المضغوطة ببعضها بقنوات صغيرة محفورة (منقوشة)، ويتم حرق حلقات الطين وتجميع لفائف منها تشتمل على ٢٥ إلى ٣٠ قطعة وصبّها.

(شكل ٥٩) عملة معدنية.

وكان من السهل التعرف على هذه النوعية من عملات الأزمة، ولأن القنوات المصبوبة كانت ممتلئة أيضًا بالمعدن فقد ظلت هذه الزيادات المعدنية التى زادت عن الحافة باقية فى بعض قطع العملات، بالإضافة إلى أن هذه العملات أصغر من تلك التى أُخذت بصمتها (رسمتها) لأن التجفيف وحرق الطين يؤدى إلى انكماش قالب الصب، وكلما أعاد المرء صب التقليد مرة أخرى قل حجم العملات من جديد، ولكن من غير المعروف على وجه التحديد من الذى توصل إلى هذا الحل لمشكلة العملات المعدنية فى الإسكندرية، ربما كبار الملاك أو هيئات كنسية هم الذين رتبوا عملية التصنيع، وبالرغم من أنه كان من السهل تبينها والتعرف عليها وإنها مقلدة؛ فإن عامة الشعب تقبلوها على ما يبدو لأنه لم يكن من الممكن الاستغناء عنها فى الأسواق اليومية(٣٠).

ومن ضمن حُزْمة الإجراءات المـــذكورة فـــى البدايـــة والتـــى اتخـــذها دقلديانوس، المرسوم الذى يُطلق عليه مرسوم الحد الأقصى للسعر والذى له هنا على وجه الخصوص أهمية لأن بعض المنتجات المحلية للإسكندرية تم ذكرها، فمن بين ١١٥ نوعًا من البضائع فى مختلف المجالات مُدرجة فى قائمـــة مـــع بيان مصدرها (أصلها) نجد مثلاً كانوب بزيت الحناء، الإسكندرية بخشب البلسم بالإضافة إلى الزجاج، وهناك جزء آخر من القائمة يذكر الحد الأقصى لأسعار النقل بالسفن، وتبدأ القائمة بالرحلات التى تنطلق من الإسكندرية وغالبًـــا فـــى اتجاه الغرب. وجميع تعريفات الشحن ترتبط بكسترينسيس موديوس Castrensis modius وهو حجم مكان معيارى يبلغ ٢١ لترًا، فإذا أردنا إذًا حساب تكـــاليف الشحن لسلعة فيجب قسمة حجمها باللترات على ٢١ ثم ضرب الرقم الناتج فى التعريفة المحددة. والقائمة التالية تسرى على حساب تكاليف البضائع المُصدَّرة من الإسكندرية، وهى تذكر أهم مسارات الرحلة فـــى بـــاقى منطقـــة البحـــر المتوسط:

| إلى | دينار Denare |
|---|---|
| بامفيولين Pamphylien | ٦ |
| إفيسوس Ephesu | ٨ |
| أفريقيا | ١٠ |
| صقلية | ١٠ |
| سالونيك Thessalonice | ١٢ |
| نيكوميديا Nikomedeia | ١٢ |
| بيزنطة Byzanz | ١٢ |
| روما | ١٨ |
| دالماتين Dalmatien | ١٦ |
| أكويلايا Aquileia | ٢٤ |

وقائمة الأسعار هذه توثّق أهمية الإسكندرية التى لم تنقطع كمركز لتجارة البحر المتوسط.

**دين جديد ــ الجاليات المسيحية**

كان التجديد المهم لدقلديانوس وحاشيته هو ربط حكمهم بالفكر اللاهوتى للحاكم مما يضفى الشرعية على هذا الحكم، الأمر الذى أسهم فى استقرار القيصرية بشكل كبير، فقد استمد الحكام سلطتهم من الآلهة التقليديين وربطوا هذه البديهية بالمبدأ الجديد وهو أنهم بمفردهم مسئولون عن تنسيق الاتصال بالآلهة ومسئولون أيضًا عن الحفاظ على العلاقات الدينية، والشىء القاطع الجديد كان أن أقر الحكام هذا المبدأ باعتبارهم الوحيدين الذين يعرفون الطريق والحقيقة.

ويُعتبر الدين الرومانى المُتوارَث منذ قرون، حجر الأساس الذى تستند إليه جميع قوانين الحياة وأيضًا الدولة، وإن التمسك بهذا النظام الدينى المتوارث يضمن أن تواصل الآلهة منح بركاتها للجميع، ففى قانون الزواج مثلاً علَّل دقلديانوس تحريم زِنَى المحارم على أساس أنه حد إلهى يتحتم على القيصر أن يقيمه من أجل الحصول على بركة السماوات لمملكته، وكان دقلديانوس أكثر وضوحًا عندما حرَّم التيار الدينى للمجوسية، تلك الديانة التى اقتحمت أراضى الإمبراطورية الرومانية من مملكة الفرس المعادية، الأمر الذى حرض على قلاقل كثيرة أو هكذا كان يرى دقلديانوس على أية حال؛ ولذلك كان لزامًا عليه أن يتدخل: "إن الآلهة الخالدة قد قدَّرت وسخَّرت برحمتها فى عنايتها الإلهية ما هو الخير وما هو الحق ومن لا يقف فى طريقه ولا يخالفه ينعم بالعطاء الإلهى، ولا يوجد دين جديد يطعن فى دين قديم ويخالفه"(٣١).

ورأى أيضًا مسيحيو الإسكندرية فى المانويين Manichäer (معتنقى ديانة مشركه من بلاد الفرس) مثيرين للشغب ومنافسين، حيث كانت مدينة الإسكندرية أهم مسرح للأحداث فى عالم البحر المتوسط والشرق كما كانت بوتقة للتيارات الفلسفية والدينية على حد سواء، فمنذ القرن الثالث ثبتت

المانوية[*] أقدامها فى العاصمة المصرية، حيث نظم مانى Mani حملة تبشيرية خرجت من كتسيفون Ketsifhon الواقعة على نهر دجلة وقادها الأسقف عدّاس Addas، وكانت جماعته مجهزة بكتب تم تأليفها للدعاية. ونقلاً عن مخطوطة فارسية قديمة، فإن عدَّاس وصل حتى الإسكندرية ومارس فيها محاولات تغيير العقيدة كما أنه أتى بالمعجزات[٣٢]، وبمرور السنوات توالى ذهاب مبشرين آخرين خاصة إلى الإسكندرية حيث لاقوا مقاومة من المسيحيين.

وقد انقلب على المانويين ما لا يقل عن ٣٠٠ من المجمع الأسقفى السكندرى، كما ألف أيضًا فى أواخر القرن الرابع ديديموس الأعمى Didymus من الإسكندرية كتابًا مضادًا للمانويين، وقد ولد ديديموس فى عام ٣١٣ م وتُوفِّى فى عام ٣٩٨، وأُصيب بالعمى فى سن متقدمة دون أن يكون قد تعلم القراءة والكتابة، ولكن عن طريق الاستماع والحفظ بالسمع خص نفسه بعلم أذهل معاصريه. وقد دعم مكانته من خلال المحاضرات العامة التى كان يسجلها وينشرها متخصصون فى اللغة المختصرة، وقد أكد هذا السكندرى على قوة إرادة الإنسان ضد مانى الذى يمجِّد الشر كمبدأ للطبيعة البشرية، حيث يمكن للإنسان بفضل قوة إرادته، وكذلك البركة الإلهية أن يختار الخير.

وينطبق السبب المذكور آنفًا عن ملاحقة دقلديانوس للمانويين أيضًا على الجماعات المسيحية لأنهم هاجموا الدين "القديم" باعتبارهم أصحاب الدين "الجديد"، وتعامل معهم كما تعامل القياصرة مع المسيحيين. وكانت ملاحقات دقلديانوس الأولى من نوعها التى استحقت تسمية ملاحقات، واقتصر الأمر فى عهد دكيوس Decius وفالريان وفى القرنين الأولين كليهما غالبًا على اضطهادات محلية فقط، ولكن الإجراءات الحاسمة بشكل مؤثر كانت تلك التى هاجمت المقدسات المسيحية منذ عام ٣٠٣، والتى يمكن تلخيصها فى عدة مراحل، وكانت أهم قراراتها موجهه فى البداية وبصفة عامة ضد أعضاء الدين: مثل تحريم الاجتماعات، تدمير أماكن العبادة، مصادرة أملاك الأقلِّيات والمؤلفات وجميع منشآت العبادة وإلقاء القبض على الأشخاص الذين يثبت أنهم مسيحيون وتجريدهم أيضًا من حقوقهم، وكان يُقبض على القساوسة ويُجبرون

---

[*] هى العقيدة النصرانية الفارسية المنسوبة للحكيم مانى. (المراجع).

على تقديم الأضاحى، وأخيرًا تم صدور الأوامر بأن يقدم كل شعب المملكة الأضاحى وذلك ضمن الأوامر التى صدرت فى عهد دكيوس.

ولقد فاق تأثير هذه الملاحقة على الأخص فى المملكة الشرقية عما عداها، وذلك بسبب انتشار المسيحية فى تلك الأثناء فى مناطق كثيرة من الجانب الشرقى، وعلى الرغم من أنه ليس بإمكاننا أن نعطى أرقامًا صحيحة لا مطلقة ولا نسبية عن أعداد المواطنين المسيحيين ــ سواء فى المدن المختلفة مثل فى الإسكندرية أو فى المناطق الأكبر ــ فإنه بالتأكيد لم يعد ممكنًا استمرار تجاهل المسيحيين فى ذلك الوقت، وبات من الصعب إمكانية التعايش السلمى للمسيحيين المختلفين مع مجموعات الوثنيين، فعلى مدار ما يقرب من عقد من الزمان كانت الملاحقات مستمرة وتحديدًا بين عامَىْ ٣٠٣ و ٣١١؛ الأمر الذى نكأ الجروح التى لم يكن ممكنًا التئامها بسرعة، وقد ساهم فى بقاء هذه الجروح طويلاً فى الذاكرة تقارير الشهداء، والقبور فى الجبّانات وذاكرة المسيحيين الجماعية اليقظة.

وكان للإسكندرية أيضًا شهداؤها: ففى العام التاسع من ملاحقات دقلديانوس، أى فى عام ٣١١، كانت ضاحية كانوب شاهدة على استشهاد ستة أشخاص، ففى الروايات التى نسجها المسيحيون الأواخر سواء حدثت أو لم تحدث فما دامت مصدقة فهى فى النهاية حقيقة. والقصة هى أن المسيحى كيروس Cyrus ولد فى الإسكندرية وذاع صيت علمه الطبى فى العالم آنذاك الذى تعلمه فى الإسكندرية، وكان يتمتع لدى الفقراء بسمعة طيبة لأنه كان يعالجهم بدون مقابل وكان مهمومًا بشكل خاص بأرواح الناس وكان يوعظ بحماس فى الديانة المسيحية، وهكذا ربط بين الوظيفة والتبشير، تمامًا كما ورد عن بولس فى الإنجيل، وعندما تم تقديم شكوى ضده عند الحاكم فر إلى الصحراء وهناك قابل يوحنا Johannes، وهو جندى من إديسا Edessa كان عائدًا من رحلة حج إلى القدس الشريف وسمع عن كيروس Cyrus وانضم إليه، وقد علما وهما فى صومعتهما الصحراوية أنه تم القبض على سيدة اسمها أثناسيا Athanasia مع بناتها الثلاث، وكانت أعمارهن خمسة عشر وثلاثة عشر وأحد عشر عامًا. ولأنهما قاما برعايتهن وتركا صومعتهما وذهبا لكى يواسوهن

فى السجن تم القبض عليهما أيضًا، وفى النهاية أصدر الحاكم قرارًا بقطع رؤوس الستة حسبما جاء فى الرواية فى الحادى والثلاثين من يناير، ومنذ ذلك الحين يتم الاحتفال بهؤلاء القديسين فى هذا المكان. وأخيرًا تم جمع أشلاء الأشخاص الستة ودُفنوا فى كنيسة القديس مرقص Marcus بنظام واحترام منفصلين حسب جنسهم، حيث رقدت السيدات الأربع فى ركن منفصل .

وبينما كان التقرير المكتوب عن كيروس يحمل ملامح خيالية ويخبر بالقليل عن بدايات القرن الرابع، وهو الوقت الذى دارت فيه أحداث القصة وكذلك نهايات هذا القرن، وهو الوقت الذى نشأت فيه على ما يبدو الأسطورة – نجده يتعامل بشكل مختلف إزاء ملفات استشهاد الأسقف فيلياس Phileas من مدينة تميوس Thmuis فى الدلتا الواقعة فى منتصف الطريق من الإسكندرية إلى الفرما (بلوزيوم Pelusium) [٣٣]. وصحة تلك القصة بشكل عام واضحة، فسير الأحداث كان بين عامَىْ ٣٠٦ /٣٠٧م، ونُظرت القضية فى الإسكندرية أمام الحاكم كولسيانوس، حيث إن الأسقف فيلياس كان مقبوضًا عليه هو نفسه فى الإسكندرية بعد أن تمت رسامته مباشرة بمعرفة الأسقف السكندرى ألكسندر. وقد كتب يوسيبيوس خطابًا بدقة إلى الأسقف الجديد عرض فيه واقعة الاستشهاد بالتفاصيل الدقيقة خاصة التعذيب على الحصان الخشبى، والذى كان فيه يتم ربط المذنبين بذلك الحصان حتى يُعذبوا. ولم يكن حاكم المدينة مهتمًا على أية حال بتعذيب فيلياس؛ ولكنه كان مهتمًا بإنقاذ حياته حتى يرغمه من شدة العذاب على أن يقدم الأضاحى.

وتقع ملفات التحقيق فى نسختين، واحدة باللغة اليونانية وأخرى باللاتينية، وتبين من النسخة اليونانية أن جولة التحقيق الخامسة مع الأسقف كانت هى الأخيرة وتمت قبل إعدامه، وكان من اللافت للنظر فيها اهتمام الحاكم بالعديد من التعاليم المسيحية، مثل: قيامة الجسد، ربانية المسيح، مهمة بولس الرسول Apostels Paulus ووظيفة الضمير، ويبدو أن هذه الأجزاء من التحقيقات كانت عبارة عن شرح للتعاليم المسيحية فى شكل ملفات شهداء، ولكن أسئلة الحاكم العسكرى تدل على اهتمام حقيقى، فمن ناحية لم يكن الحاكم فاهمًا للأسقف، ومن ناحية أخرى كان راغبًا فى إنقاذ حياته بأى ثمن، وكان مستعدًا بوصفه

قاضيًا أن يستمع إلى اقتراح مستشاريه القانونيين بأن يبدو الأمر وكأن فيلياس قد ضحى سرًا. ولم يكن القرار ليبعد الأسقف عن الموت بأية حال، وعندما سأله الحاكم العسكرى عن" الضمير" وعما إذا كان لا يؤنبه ضميره فيما يختص بزوجته وأطفاله الذين سوف يتركهم، لم يتراجع الأسقف عن موقفه إطلاقًا.

وفى الثلاثين من أبريل عام ٣١١، أوضح جاليروس فى عهد أغسطس "الأول" الدوافع الدينية لملاحقة المسيحيين، واعترف فى الوقت نفسه بفشلها، كما أوصى بالاعتراف العلنى والقانونى بالعقيدة المسيحية، وهكذا ضمن المسيحيون الحماية فى إطار قانون إقامة الروابط السارى فى ذلك الوقت وهى الحماية التى كانت تسرى على أعضاء طائفة دينية مصرح بها، فقد تمت معاملتهم على أنهم رابطة مسجلة وأصبح بإمكانهم أن ينضموا تحت إمرة رئيس مسئول وكذلك عقد لقاءاتهم فى أماكن خاصة بهم، ويمكنهم بناء مقابر منفصلة خاصة بأعضاء رابطتهم، وتلك الرابطة كانت معترفًا بها طبقًا للمعايير القانونية الرومانية على أنها تندرج تحت الملكية الخاصة. وتحت حماية القانون تم أيضًا وأخيرًا إلغاء المساهمات المالية للروابط، وقد ربط جاليروس إجراءاته هذه بشرط ألا يرتكب المسيحيون أى شيء ضد النظام العام، وكذلك أن يذكروا القيصر والمملكة فى صلواتهم، وجدير بالذكر أنه حتى ذلك الحين لم يكن ممكنًا للمسيحيين أن يقيموا مثل هذه الصلوات ــ على الأقل من الناحية الرسمية لم يكن ذلك مُفعّلاً ــ وعلى أية حال، لم يكن هناك من الأصل لهم عبادة من الناحية الرسمية.

وقد أوقف جاليروس الملاحقات ومنح المذاهب المسيحية الشرعية؛ ولكنه لم يتمكن من رأب التصدعات التى انفتحت على الأخص ــ ويجب التأكيد على ذلك دائمًا ــ فى القسم الشرقى، وكان من الأسباب المؤثرة فى ذلك إلى حد ما أن الملاحقات الدامية أصبحت شيئًا بديهيًا فى بعض المناطق وبقيت هكذا فترة من الزمن بعد إصدار مرسوم التسامح، وهو المرسوم الوحيد الذى يستحق أن يُطلق عليه هذا الاسم، وساعده فى هذا على وجه الخصوص تنامى إحساس المسيحيين بأمنهم من الآن فصاعدًا وهو الشيء الذى لم يضعف أبدًا.

وبعد أن أحرز قسطنطين (٣٠٦ ــ ٣٣٧ م) النصر فى معركته التى اشتهرت باسم قنطرة ميلف Milvischen Brücke على منافسه ماكسنتيوسMaxentius من المملكة الغربية بمساعدة المسيحيين، بدأ يدعم المسيحية منذ عام ٣١٣، وكان جزء من الإجراءات والقوانين ينحصر فى تفعيل مرسوم التسامح الذى أصدره جاليروس وكذلك التوفيق بين المذاهب المسيحية وغيرها من العقائد التى أقرتها الحكومة منذ فترة طويلة، وهكذا انتقل حق اللجوء السياسى الذى كان يتمتع به المعبد إلى بيوت العبادة المسيحية أيضًا. وفى عام ٣١٥، تم تحرير معتنقى المسيحية من تسديد الجزية وضرائب الحبوب، وبعد مرور عام سمح قسطنطين بالإفراج عن العبيد وتم هذا بتنظيم فيه كرم شديد، وتم أيضًا فى الكنائس أمام الأساقفة، وقبل ذلك كان مسموحًا بإتمام الإفراج أمام الموظفين الحكوميين والمحليين فقط. وحظيت المحكمة الأسقفية منذ عام ٣١٨ بالاعتراف الحكومى كجهة فصل فى المسائل المدنية حتى وإن كان فقط أحد الطرفين المتنازعين مسيحيًا، وبذلك أقر قسطنطين قانونية المحاكمات التى تجرى داخل دور العبادة المسيحية، وبهذا الإقرار ساوى قسطنطين بين القضاة الكنسيين والمدنيين.

وكان ضمن الامتيازات التى منحها قسطنطين للأسقف السكندرى على سبيل المثال أن تقبل الكنيسة من المواطنين المتيسرين أثواب الكساء، وأوجب توزيع هذه الأثواب على الفقراء، وعلاوة على ذلك نظم القيصر خدمات دفن مجانية تتم إدارتها بمعرفة القساوسة، والأسقف بدوره كون لنفسه أتباعًا من خلال أعمال الخير التى يديرها بهذه الطريقة وخاصة توزيع الخبز. وتولى الأسقف بشكل متزايد الدور الاقتصادى الذى كان يقوم به فيما سبق وجهاء القوم من أهالى الإسكندرية، عندما كانوا يُجنِّبون جزءًا من ميراثهم حتى يتمكنوا مثلاً من تقديم الطعام والتبرعات المالية فى أعياد ميلادهم إلى شعب الإسكندرية. وأخيرًا أقر القانون الكنسى صراحة بحق الكنيسة السكندرية فى تقديم تلك العطايا، وفى شهور الشتاء الباردة والممطرة أصدر البطريرك أوامره ببناء تندات من الخشب حول كنيسة القيصر، صحيح أن التندات لم تكن من النوع الفاخر ولكنها كانت تؤمِّن على الأقل الحماية للمشردين بالإسكندرية، ومن خلال مثل هذه الخدمات تكونت طبقة عريضة من الأتباع، وهكذا على

مدار الوقت تكونت شبكات أسقفية داخل المدينة تلاشت أمامها باطّراد مهام الموظفين الحكوميين، وفى نهاية هذا التطور فى القرن السابع نال الأسقف السكندرى المنزلة والصلاحية لتخفيف الضرائب عن ملاك الأراضى وبدا الأمر حقيقة، وكأن "المدينة ملكية خاصة له" (٣٤).

ولنُلْقِ نظرة على الحياة اليومية للمسيحيين وكيف كانت تعاملاتهم مع بعضهم البعض؟ هل كان الصراع الدائم الذى تابعناه على مدار أواخر العصر القديم حدثًا يوميًا حقيقيًا؟ وإلى أى مدى كانت المذاهب الدينية المختلفة واضحة للمسيحى العادى، هل يمكن للبيراتيين الاعتراف بأحد الإنكراتيين Enkratiten؟ وإذا كانت الإجابة بنعم، هل كانوا يتحدثون مع بعضهم البعض، وهل كان باستطاعتهم تبادل الزيارات فى أماكن العبادة التى كانت فى معظم الأحيان خاصة وليست عامة؟ ومن كان يبدى اهتمامًا بقداس المجموعات المسيحية الكبيرة من المذاهب مثل الماركونيين Markioniten، والمليتانيين Melitianer، والأريانيين Arianer أو الأثناسيين Athnasianer؟

ما يختص بالصلوات: أحيانًا أو غالبًا ما كانت تُقام الصلوات بصوت عالٍ يصل إلى حد الفوضى، وكانت الكنيسة السكندرية التابعة لأثناسيوس Athnasius ــ وهى ليست وحدها فى ذلك ــ توظف لديها قساوسة مبتدئين لأداء الصلوات أيام الأحد، وكانت هناك جماعة مهمتها حفظ النظام والهدوء فى مبانى الكنيسة نفسها وتقوم بإبعاد الأطفال الغوغائيين والبالغين الثرثارين، وكانت هناك مجموعة أخرى تحرس الأبواب فى حالة ما يكون التدافع كبيرًا، وعلاوة على ذلك يبعدون بالتعاون مع حراس الأبواب الأشخاص غير المرغوب فيهم، مثل الأشخاص المحرومين من المشاركة فى القداس وكذلك الأشخاص المهرجين الذين يذهبون من قداس إلى آخر بغرض مضايقة الواعظين، ودائمًا ما أمدتنا المصادر بانطباع أن سعادة أيام الإجازات وأجواء الاحتفال بالنسبة لكثير من المسيحيين كانت تأتى فى المقام الأول، وليس بالضرورة الانشراح والغبطة الدينية للقداس.

وتوضح لنا قصة من القرن السابع عن المحسن يوحنا مدى تباعد الانسجام بين تصورات القساوسة وتصورات المؤمنين (المسيحيين)، هذه القصة

تقول إن يوحنا هذا كان يحزنه جدًا أن الكنيسة تخلو من الناس فور انتهاء الصلاة، وفى يوم من الأيام غادر الكنيسة فور انتهاء القداس، واختلط بالناس فى خارجها، فاندهش الناس أنه حتى الأسقف قد غادر بعد القداس، وكان لزامًا عليهم أن يرضوا بالإجابة عن تساؤلهم فى هذا الشأن: وهى أن الراعى يتبع من يرعاهم أينما ذهبوا، وأراد المحسن يوحنا أن يمنع التقاء المرء مع الآخرين فى الكنيسة ويتخذ من الصلاة ذريعة لمناقشة الصفقات، والسؤال هل أحرز نجاحًا فى ذلك؟ ففى تلك الأثناء كان بيت الله (الكنيسة) تمثل للبعض بديلاً عن السوق والمدرسة وكان لذلك ثمنه![٣٥].

وعلى خلفية مثل ذلك الاهتمام الهيّن بالصلاة تكونت جماعة من المسيحيين فى الإسكندرية سمت نفسها "المتحمسين" Philoponoi، وهم يتطابقون مع جماعات المتحمسين الموجودة فى جاليات كنسية كثيرة وتطلق على نفسها اسم Spoudaioi[٣٦]، وتَمثَّل حماسهم فى الذهاب إلى القداس بانتظام ومشاركتهم بطريقة منظمة ملحوظة، واشتهرت هذه الجماعة بانضمام أشخاص إليها قرب نهاية القرن الخامس من أمثال سيفيروس الأنطاكى Severus von Antiochia، وزكريا من ميتلينه Zacharias von Mytilene، أو يوحنا الفيلوباتى Johannes Philoponus حينما توقفوا فى الإسكندرية ليدرسوا، وأضفى هؤلاء الناس على الحياة اليومية المسيحية الورع والخشوع والتصدق.

ومن خلال معايشة هؤلاء المتحمسين الصادقة للمسيحية فقد استحدثوا أيضًا بعض الحقوق الخاصة، والتى يتمنى كل متدين متحمس أن يفعلها فى كل الأوقات، ألا وهى أنهم كانوا يدونون ملحوظات أثناء وعظ الأسقف وأعطوا أنفسهم حرية أن يناقشوه فى أثناء الصلاة، وتولد الانطباع لدى الناس، أن المتحمسين أكثر دراية بنصوص الصلوات من القسيس نفسه، فعندما قرأ كيروس Cyrus عام ٦٣١ فى قداسه الأول مزمارًا من مزامير داود غير مناسب لقداس ذلك اليوم ارتفع صوت معارض له قائلاً: "ليس هذا هو المزمار الصحيح! إن ذلك نذير سوء بالنسبة للبطريرك! ولن يمر عليه عيد فصح ثانٍ فى الإسكندرية"[٣٧]. كان المتحمسون بمثابة المتحدث بلسان العامة أمام الأسقف ــ أو على الأقل كانوا هكذا يرون أنفسهم ــ تمامًا مثل أولئك المتحدثين

باسم الشعب فى المسرح فى مواجهة سلطة الدولة، وهناك قصة توضح وضعهم البارز وإن كانت هذه القصة لا تلعب دورًا مهمًا فى التاريخ، وهذه القصة تدور أحداثها فى القرن العاشر فى عصر الأسقف ديمتريوس (١٨٩ ــ ٢٣١م)، فقد رُوى أن مَلاكًا قد زار الأسقف فى المنام وطلب منه أن ينهى زواجه وأن يعلن ندمه أمام القساوسة والمتحمسين [٣٨].

وترجع أصول المتحمسين بدرجة كبيرة إلى الأوساط الأفضل اقتصاديًا والتى تستطيع أن توفر لنفسها قدرًا جيدًا من التعليم، وكانوا منظمين على شكل رابطة ويختارون متحدثين لهم من بين من كانوا يدعون كثيرًا إلى المأدبة الأسقفية، وكانت لهم قاعة للاجتماعات سُميت على اسمهم "الفيلوبونيون" Philoponion وكانوا منظمين بطريقة هيكلية ويشبهون إلى حد كبير جمعية دينية، ومن البديهى طبعًا أن مثل هؤلاء المسيحيين المتشددين كانوا لا يترددون فى الدخول فى اشتباكات باليد مع "الوثنيين غير المتدينين".

### "شبيه للجوهر" أو "مُعادِل الجوهر" ــ آريوس وطريقه الكنسى الخاص

فى خِضَمِّ الملاحقات التى وصفناها آنفًا فى عهد دقلديانوس، بدا من جديد أن المسيحيين يؤدون ما عليهم تجاه الدولة حتى ينقذوا كيانهم الاقتصادى أو حياتهم، وبعد صدور مرسوم العفو لجاليروس عام ٣١١ برز فى كل مكان كما حدث من قبل السؤال، كيف يتعامل المرء مع هؤلاء "الساقطين" (لاَبْسى lapsi)، ــ هكذا كان يُطلق على المسيحيين ذلك المسمى ــ وهل أهدروا سلامهم الروحى إلى الأبد، أم أنهم ينبغى أن يحصلوا على فرصة جديدة؟ وكان الأسقف ميليتيوسMelitius من ليكوبوليس Lykopolis يمثل فى الإسكندرية الاتجاه الصارم بينما يمثل الأسقف بطرس من الإسكندرية الاتجاه الأكثر اعتدالاً، وفى الصراع الذى تفجر من جراء ذلك لعب الغرور الدنيوى والتنافس للحصول على النفوذ السياسى للاثنين دورًا مهمًا، وأثناء الملاحقات وضع بطرس عام ٣٠٦ أسسًا للتوبة بغرض استعادة هؤلاء "المسيحيين الساقطين" وقام بإبعاد الأسقف ميليتيوس الذى احتج على هذا الإجراء ، وانضم إلى من يشبهونه فى الفكر "بكنيسة الشهداء". وفى الوقت الذى سعى فيه مجمع نيقيا

Nicaea جاهدًا فى عام ٣٢٥ إلى تجاوز الخلاف ـ دون جدوى ـ خاصة ذلك الذى كان يسود فى الإسكندرية، كان الملتيانيون فى ذلك الوقت يشغلون حوالى ثلث جميع كراسى الأساقفة المصريين ، فإلى جانب الأريانيين Arianern مع أنصار أثناسيوس Athanasius ـ والذين كان يُنظر إليهم على أنهم المؤمنون الحقيقيون فيما مضى ـ كان الملتيانيون يمثلون ثالث أكبر رابطة مسيحية فى المدينة، وذلك إذا استبعدنا العديد من المجموعات المسيحية الأقل عددًا [٣٩].

ولم تكن المواقف المنظمة هى فقط العامل الذى أثار الفُرْقة بين مسيحيى الإسكندرية، ليس بالدرجة الأولى، ولكن ما كان أعنف وأوضح أثرًا كان عنصر الجدل الجاد، فلم يكن من الممكن أن تذهب إلى السوق دون أن تتورط فى حديث حول العلاقة بين الله ـ الأب والله ـ والابن، هكذا كتب سقراط Socrates، الكاتب الكنسى فى القرن الخامس، وإن كان يقصد مدينة بعينها فكان يقصد مدينة الإسكندرية، والسؤال هو حول أى شىء كانت تدور هذه الخلافات العقائدية؟[٤٠]. لقد اعترفت الكنيسة فى بدايات المسيحية بطريقة ساذجة وغير نقدية بالرب، الأب خالق الكون وبالابن الروح، الذى تجسد فى صورة المسيح الإنسان من أجل الخلاص. وظلت الكنيسة تتداول هذا التصور دون تأمل وتمعن كثير، وكلما اعتنق المثقفون وخاصة فى الشرق العقيدة الجديدة، تسرب التراث الفكرى اليونانى إلى داخلها وبخاصة الفلسفة الهلّينية ذات الطابع التاريخى القديم قدم مئات السنين والغنية بالصيغ والتفكير المنهجى، فالذى اعتقده ونشره آباء الكنيسة دون تأمل بدأ الناس فى تمحيصه وفحصه حتى يتسنّى فهمه بطريقة أكثر أمنًا.

وقد ازدهرت أفكار أفلاطون Platos (٣٤٧ ـ ٤٢٧ قبل الميلاد) على الأخص فى القرن الثانى الميلادى وأثرت على علماء الدين المسيحيين، حيث لم يكن لديهم تصور لطريقة تفكير علمية أخرى سوى الفلسفة اليونانية، وقد ازداد احترام أفلاطون بطريقة أكبر فى القرن الثالث الميلادى. ويجدر بنا فى هذا المقام ذكر بلوتين Plotin (٢٠٥ ـ ٢٧٠م) المجدد للفكر الأفلاطونى، وهنا أيضًا يجب أن نذكر أورجنيس السكندرى Origene (١٨٢ ـ ٢٥٤م) وهو الأول الذى طوع محتوى العقيدة فى الكنيسة للأفكار الفلسفية الأفلاطونية منها

على وجه الخصوص، ومزج الأفكار الكَنسيَّة بأسس الفكر، ولذلك فقد كان لأورجنيس تأثير فقهى كبير على الجزء الشرقى للكنيسة، وأصبحت أفكاره ومصطلحاته تمثل المنطلقات والنقاط المحورية لجميع الآراء والمناظرات العلمية للقرون التالية.

وكانت المجادلات الحادة المتداولة أكثر ما تدور حول مسألة جوهر الرب، والعلاقة بين الابن الرب والأب الرب، وإمكانية فهم الخلاص، وتُعد هذه القضايا فى الحقيقة جوهرية للإنسان بمجرد أن يقترب من العقيدة المسيحية بتأمل، هذه القضايا تمس مفهوم الخلاص لكل البشرية وكذلك لكل فرد على حدة، وذلك جعل الحوار العقائدى لكل مؤمن أمرًا مهمًا وبرر الشغف بسعى كل الأطراف وقتالهم من أجل أن يجدوا طريقهم الأوحد الحقيقى للخلاص، حيث يجرى الصراع حول جوهر المسيحية.

بالنسبة لأورجنيس فإن الله هو المطلق، الأزلى، الخالد المنزه عن الصفات البشرية ولذلك فهو كيان غير مُدرَك حسيًا، وهو سبب الوجود حاليًا ومستقبلاً، ومنه امتد الابن ولم يُخلق ولكنه ولد كمخلوق ربانى ولكنه أقل درجة من الأب، بمعنى رب ثانٍ وسيط بين الله والعالم. وبهذه الثنائية ومن ذلك المنطلق للقضايا الحاسمة أعطى أورجنيس الدفعة ووجه فى الوقت نفسه الفكر العقائدى فى الاتجاه التالى: كيف يتصرف الجانب الإلهى فى ابن الرب ذى الصفات الإنسانية، وكيف يتحد العنصران فيه؟ وهل الابن طبقًا للفهم البشرى شخص فى حد ذاته؟ وكيف يؤثر هذا الإنسان الربانى، وكيف يكون الخلاص النابع من جوهره ممكنًا؟

كانت الإسكندرية مركزًا دينيًا للعالم الذى يقع شرق البحر المتوسط من وجوه عدة، وكانت الجماعات المسيحية المتنامية ممثلة أيضًا فى هذا العالم، ونشأت هناك أيضًا مدرسة عقائدية منذ زمن بعيد كانت تمثل إلى حد ما آراء خاصة بها، وقد اتضح كل هذا فى المناظرات الفقهية المسيحية المدونة. وقد اختلف فى بداية القرن الرابع القسيس السكندرى آريوس Arius على استحياء ـــ متضامنًا فى ذلك مع أورجنيس ـــ فى تفسير مسألة الابن والأب: "لم يكن الله

دائمًا أبًا، فقد كان هناك وقت لم يكن الرب فيه أبًا، والبداية كانت للابن عندما ولد ولكن الأب الأزلى (ليس له بداية) وعلى هذا فالابن غريب فى جوهره تمامًا ولا يشبه الأب، وكانت هناك فترة لم يكن هذا الابن موجودًا والشيء لا يوجد قبل أن يُخلق"، وبتعبير آخر أصر آريوس على أنه لا يوجد تطابق فى الجوهر بين الأب الإله والابن الإله[٤١].

وكانت إمكانية انتشار الأفكار الدينية فى المدينة متعددة بشكل عام، وتأتى فى المقام الأول أماكن العبادة الخاصة بالفئات الموجودة، والمعابد، والمعابد اليهودية والكنائس المسيحية، تلك الأماكن التى كان يجتمع فيها الناس ليقيموا الشعائر ويتحدثوا أيضًا عن الموضوعات الدينية، بالإضافة إلى الحمامات والحانات أيضًا والتى لم يكن عددها بالقليل فى الإسكندرية. وإذا أردنا معرفة مدى تأثير الحانات على الاضطراب داخل المدينة، فعلينا أن نضع ملاحظات أثناسيوس حول هذا الأمر نُصب أعيننا، وكيف أن تعاليم آريوس انتشرت ضمن ما انتشرت من خلال الأغانى الشعبية التى كانت تُغنى فى الخمارات العديدة فى المدينة.

ووقع الهجوم الأول للأغلبية من مسيحيى الإسكندرية ضد آريوس Arius فى عام ٣١٨ م، حيث أُدين هذا القسيس بمعرفة مؤتمر كنسى مصرى وبسببه جرت أول اشتباكات داخل المدينة، ولما تحقق النصر للقيصر قسطنطين على ليتشينوس Licinius وذلك فى عام ٤٢٤ وتولى السيطرة أيضًا على المملكة الشرقية، علم بهذا الصراع العنيف ووجد نفسه مضطرًا للتدخل، فالإسكندرية كانت بالنسبة للبلاط الرومانى على قدر كبير من الأهمية وأهم من أن يُسمح فيها بهذه القلاقل الكبيرة، ولأن القيصر الذى اعترف اسمًا بالمسيح إلهًا جديدًا له وقدَّسه فى إطار تصوره وفهمه الوثنى، لم يعايش خلافًا مماثلاً فى المملكة الغربية، لذلك ظلت أسباب الانقسام فى الكنيسة الشرقية فعلاً لغزًا محيرًا بالنسبة له، وفى أكتوبر من عام ٣٢٤ أرسل أهم مستشاريه المسيحيين ويُدعى هوسيوس Hosius من مدينة قرطبة برسالة إلى كلا الطرفين المتناحرين فى الإسكندرية، واعتبر قسطنطين الأمر كله خلافًا فى النظريات بين مثقفين متعصبين، وبهذا حفز كلا الطرفين لأن الأمر كان يتعلق فى خلافهم بفروق

دقيقة جدًا يصعب على الإنسان أن يجزم أنه متأكد من فهمها وأنه على حـق. وقد وضّحت رسالة قسطنطين أن مستشاريه الغـربيين ربمـا يكونـون غيـر مدركين لمدى عمق الخلافات فى الكنيسة السكندرية، الأمر الـذى أوشـك أن يمس الشرق بأكمله، وكانت أول خبرات اكتسبها القيصر على الطبيعة بعـد أن أصبح القطاع اليونانى تحت سيطرتـه أيضًا أن مبدأ "مُدَّ لنا يـدك" لـم يكـن معمولاً به.

وعندما لم تسفر نداءاته بالصلح عن أى نجاح، اختار قسطنطين طريقًـا مجربًا فى القرارات المتعلقة بالمسائل العقائدية وغيرها، وذلك بأن جعل لنفسه مستشارين فى هذا المجال، مثلما يتخذ لنفسه مستشارين فـى جميـع القـضايا المهمة. ومثلما كان يلتقى خبراء إداريون وعسكريون فى مجلس الدولـة، فقـد اجتمع فى نيقيا مختصون فى مجال العقيدة، أى أساقفة، وكان القيـصر علـى رأس كل جلسة لهؤلاء المستشارين وكان يقـود المفاوضـات وبهـذا تـولى قسطنطين ــ بالتعاون مع المؤتمرات الكنسية ــ مؤسسة كانت موجودة من فترة طويلة، إلا أنه جعلها تدور فى فلك أفكاره.

ولقد ناقش مجمع نيقيا عام ٣٢٥ النزاع الآريانى ولكنه ساهم بشكل بسيط فى فَضِّه، وحسب رغبة ــ أو أمر ــ قسطنطين تم إجبار المـشاركين علـى صيغة لم تلق قبولاً من أحد تقريبًا، وورد فيها عبـارة "نفـس جـوهر الأب" (homoi-ousios)، ولم تكن هذه الصيغة متداولة من قبل فى ذلك الوقـت، لأن هذا التطابق فى الجوهر لم يكن له تفسير دقيق، وكان آريوس Arius قـد أقـر وحده بهذا التطابق، وربما كانت صيغة " تطابق الجوهر" اصطلاحًا، يقصد بـه قسطنطين تحديد رؤية علاقته بالمسيح. وقد ظل علماء الفقه فى الحقبة التاليـة لهذا العصر ولأكثر من مائة عام يتصارعون من أجل فهم هذه المعضلة، وفى الإسكندرية بدأ أيضًا وخاصة عند تنصيب الأسقف أثناسيوس Athanasius وقت عاصف إذا ما وصفناه بتحفظ.

ولقد أصبح جليًا أنه خلال المناقشات برزت على الأقل اصطلاحات مثل: الطبيعة (physis) والشخص (prosopon)، ولقد اتُّفِق على أن، ابن الله كان لـه طبيعتان، اللاهوتية والناسوتية واللتان كانتا متحدتين فيه، ولقد اختلفـت الآراء

حول ذلك، عما إذا كانت كلتا الطبيعتين فى خصوصيتهما مستقلتين عن بعضهما البعض، أم أنهما أصبحتا منصهرتين فى كيان موحد ـ وأنصار التفسير الأخير كان يطلق عليهم اسم المونوفستيين[*] Monophysiten ـ، وهل اتحدت هاتان الطبيعتان فى شخصين، الأب الرب والإنسان المسيح. وهذا الخلاف فى الرأى لم يسمح مطلقًا من الأساس بوجود حوار، فلم يكن هناك وساطة ممكنة بين كل من المونوفستيين Monophysiten والديوفوستيين[**] Dyophysiten لأنه لم يكن هناك حل يمثل "نصف طبيعتين"، ومن كان يجتهد أن يجد حلاً وسطًا كان يثير الجانبين ضد بعضهما البعض.

وقد دار فى هذه المناقشات الجدل حول قضايا العقيدة، وكذلك تم التأكيد على قضية الخلاص للفرد والإنسانية وإلى أى مدى كان هذا متداولاً فى الحياة اليومية "لقد كانت مدينة القسطنطينية مملوءة بهؤلاء (الناس) فى الأزقة والأسواق والميادين والشوارع، وإذا رجوت أحدهم أن يعطيك بعض النقود كان يلقى عليك محاضرة فلسفية حول "هل المسيح مخلوق أم غير مخلوق"، وإن سألت عن سعر الخبز تتلقى الإجابة إن الرب هو الأكبر والابن يليه، وإذا سألت هل الحمَّام "فى الينابيع الساخنة" تم تجهيزه، يأتيك الرد الابن خُلق من العدم"[٤٢]. وعندما صور جريجور من نيسا Gregor von Nyssa إقبال جيله على تلك الحوارات، مستخدمًا الرسم الهزلى، فإنه يكون بذلك قد شهد على الاهتمام العام لمعاصريه بالموضوعات الفقهية المسيحية.

وكانت مثل هذه الحوارات تدور أيضًا حول كراسى الأساقفة، المصادر المالية، جماعات المؤيدين، السياسة بمعناها الواسع وخاصة أن انتشار العقيدة المسيحية بدأ يصبح تدريجيًا شأنًا من الشئون الحكومية، أما ما تُرك على حالة من الثبات فكان فى الحياة اليومية التى تراكمت فيها النقائص والتى كانت منذ القِدَم سبب صعوبة التعايش مع الآخرين، وهى: التطلع والمنافسة الشخصية،

---

[*] أتباع الطبيعة الواحدة للسيد المسيح والمشتقة من لفظى Mono بمعنى واحد، وphysics بمعنى طبيعة. (المراجع).

[**] أتباع الطبيعة المزدوجة للسيد المسيح والمشتقة من لفظى Dyo بمعنى ثنائى أو مزدوج، وكلمة physics بمعنى طبيعة. (المراجع).

والتعالى والإهانات من خلال المسرحيات، والتى وظفها الخيال البشرى لـذلك، وعلى العكس فقد شجعت العلاقات الإنسانية على المستوى الداخلى للمدينـة أو حتى على مستويات أعلى على وجود صراعات منتشرة اتخذت شـكلاً دينيًـا أصبح متطرفًا، وبهذه الطريقة أصبح من الممكن لكل إنسان أن يحجِّم أو حتـى يقضى على أى عدو يراه بدعوى الهرطقة، وأن يخلع على نفسه صفة البركـة الإلهية.

**الحبوب كسلاح فى الصراع حول عقيدة أثناسيوس**

وهناك وثائق تُظْهر شخصيـة آريوس على أنه غير متسامح فى الحـوار وليس لديه استعداد للحلول الوسط، وهو الأمر الذى نجده يزداد لدى الأسـقف السكندرى أثناسيوس، فقد كان من الرعيل الأول من الأساقفة النـشطين الـذين يتغلب لديهم تفوق القوة الإيمانية على القوة الدنيوية نظريًا، بـل كـان أحيانًـا مستعدًا لتنفيذها بالقوة، فلم يتردد على ما يبدو بالتهديد بوقف توريدات الحبوب إلى القسطنطينية وذلك حتى يفرض تصوراته اللاهوتية؛ ولكـن الـصلاحيات الأكبر لمن هم على رأس السلطة دائمًا ما كانت ترغمه على الذهاب إلى المنفى ولكنهم لم يحاولوا أبدًا أن يغيروا من أفكاره.

واصل قسطنطين بإصرار وهِمَّة كحاكم ملتزم الطريق الذى بدأه القيصر جاليروس عام ٣١١ بمساواة العقيدة المسيحية أمام القانون مع المذاهب المختلفة فى ذلك الوقت، وقدم القيصر شكره للرب الذى كان له بمثابة رفيق فى المعارك ووقف إلى جواره على الطريق الدامى إلى تحقيق السيادة المنفردة على مـدار السنين، وذلك بتقديم الموارد السخية وكذلك الأملاك التى ازدادت نتيجة التبرع المستمر من طبقة المؤمنين القادرين الذين قدموا التبرعات والهبات، الأمر الذى نمَّى سلطة الكنيسة أو بمعنى أدق سلطة بعض الأساقفة، فمثلاً أسقف روما الذى كان متصرفًا فى موارد مالية كبيرة كان يُعتبر شاغلاً لوظيفة مرموقة، والسؤال الذى كان مطروحًا: هل أسقف الإسكندرية هو من كان يلى الأسقف فى رومـا منزلة؟ ولم يكن محض صدفة أنه منذ أن عُقد مجمع نيقيا Konzil von Nicaea عام ٣٢٥ أصبح أساقفة عواصم الولايات يملكون منزلة تأتى قبـل الأسـاقفة

الآخرين، وعلاوة على ذلك تم رفع أساقفة روما والإسكندرية إلى مرتبة بطاركة على جميع المطارنة .

ومع ازدياد سطوة الأساقفة زادت أيضًا المشاكل التى كان عليهم مواجهتها، ولنلق نظرة سريعة على الرؤية الداخلية للكنيسة :

يُعتبر توريد الحبوب إلى طبقات الشعب الفقيرة فى المدن ضمن الواجبات الدينية البديهية للقيصر، حيث يتم توزيعها بمعرفة أساقفة المدن، ففى الإسكندرية مثلاً كان الأسقف أثناسيوس هو المسئول عن المسيحيين، وهنا يطرح السؤال نفسه: مَن مِن الأرامل الفقيرات ينبغى أن يحصلن على الحبوب مجانًا؟ هل يحصل عليها الأرامل اللاتى يتبعن آريوس أم ميليتيوس أو من ينتمين إلى جريجور من كابادوكيا Gregor des Kappadokriers، وهم الأشخاص الذين يكرههم أثناسيوس ربما أكثر من كرهه للكفار، وهكذا يصح لنا أن نتساءل: ألاَ يوجد خطر فى أن يكون توزيع الحبوب استنادًا إلى الانتماء المذهبى أكثر من استناده على المحبة وإيثار الغير؟ وكان الأساقفة النشطاء فى السياسة عامة وسياسة الكنيسة خاصة على حد سواء ــ وهم الذين لم تخلُ منهم الإسكندرية ــ يحتاجون إلى المال لتفعيل أغراضهم ظنًا منهم أنهم بذلك يخدمون العدالة، الأمر الذى أسقطهم فى براثن فكرة بيع الحبوب حتى يحصلوا على أموال يقدمونها على هيئة رُشًا.

وقد اشتكى أثناسيوس فى مخطوطة دفاعه عن نفسه "ضد الأريانيين" أنه قد تمت إدانته ظلمًا فيما يختص ببيع الحبوب، ولكى نلقى الضوء على هذه الاتهامات وما تلاها من إعلانات البراءة فهذا أمر صعب نظرًا لأن البراهين كانت تمس شخصيات رفيعة المستوى على الجانبين، وكان لزامًا على أثناسيوس[٤٣]، الذى وقع فى دائرة هذا الحوار الجدلى أن يعيش بهذه الاتهامات. ولم يقتصر الأمر على ذلك بل إنه اتُّهم بأنه طلب من المصريين توريد أثواب من الكَتَّان؛ الأمر الذى اعتُبر استغلالاً لسلطة الدولة. ولسنا مطالبين بمحاولة توضيح الاتهامات التى وُجِّهت منذ ألف وخمسمائة عام ولم يتم إثباتها، ولكن أثناسيوس بوصفه أحد الأساقفة الفاعلين سياسيًا كان على رأس جهاز سلطة حُكومية كنسية وأنه استغل هذا الموقع بجرأة ودون تردد.

ولد أثناسيوس هذا فى الفترة ما بين نهاية القرن الثالث وبداية القرن الرابع فى الإسكندرية، وعن والديه وطفولته تواترت بعض الحكايات التقليدية الخيالية عن القديسين ولكن لا يُنظر إلى هذه الحكايات على أنها سيرة ذاتية ذات قيمة ، أما عن حبه للعلم الذى هيأه له منزل أبوين ميسورين فهذا يمكن استخلاصه من كتاباته. وفى عام ٣٢٠ تقريبًا، أصبح أثناسيوس شماسًا ورافق بصفته هذه عام ٣٢٥ أسقفه ألكسندر إلى مجمع نيقيا، وقد زعم أثناسيوس أن الأريانيين قد وجدوا فيه عدوًا حقيقيًا لهم لأنه واجههم بصراحة، وبعد وفاة الأسقف ألكسندر أصبح أثناسيوس خلفًا له. ويبدو أن عملية ترسيمه لم تتم حسب القواعد المعمول بها؛ ولكن بمرور الوقت أقر معظم الأساقفة المصريين هذا الترسيم للوظيفة الكنسية .

وإذا كان هذا الفصل قد ذكر فى عنوانه اسم المنتصر فى الصراع الداخلى الكنسى فى المدينة، فذلك لأنه اتضح من البداية أن أثناسيوس قد فرض نفسه، فمنذ البداية وضع الأسقف على رأس اهتماماته صراعه مع الأريانيين الذين لا يصح أن نغفل أنهم لم يكونوا منعزلين أو بمفردهم على أية حال من الأحوال، ففى هذه الحقبة المهمة فى تطور الكنيسة المسيحية وبعد إعلان العفو الذى أصدره جاليروس استغلت كل الأطراف جميع الإمكانات لنشر وترويج وشرح أفكارها المذهبية ولكن لم يخلُ الأمر من تصفية الحسابات فيما بينهم، ففى الوقت الذى وجد فيه المسيحيون أنفسهم فى معترك قضية المساواة الصعبة بينهم وبين الوثنيين، كان من العسير طبقًا لوجهة النظر المسيحية تعريف "الإيمان الحقيقى" وغالبًا ما كانت الغلبة للأكثرية. هكذا دافع أثناسيوس عن نفسه على سبيل المثال ضد اتهامات المليتيانيين له، تلك الأكثرية التى أوجدت هيبة (قدسية) كنسية أدت إلى التعاطف ولكنها فى الوقت نفسه لاقت رفضًا من المعروفين بأصحاب الفكر البرجماتى (العملى)، ولكن على أية حال كانت الغلبة لأثناسيوس فى هذا الصراع .

ولنتتبع فى البداية مصير الأسقف وخاصة أنه أيضًا يتلاقى مع المصير الذى لاقته الإسكندرية، ولن نظلم أثناسيوس إذا أشرنا إلى أنه قد واجه الاتهامات المنسوبة إليه برفق زائد، ثم ما لبث أن تحول إلى تشدد واضح أثناء

محاولته فرض وجهة نظره الشخصية، تلك الشدة التى أورثته طوال حياته عددًا كبيرًا من الأعداء، وهو الأمر الذى أدى إلى أن يظل انتباه طوائف أخرى من المسيحيين مركزًا على الإسكندرية، فكما أشرنا سابقًا ارتبطت عملية ترسيمه أسقفًا بالقلاقل فى المدينة، ولأنه لم يكن خافيًا عليه أنه سيواجه بلا شك مشاكل فقد اتجه إلى الجهات القضائية الحكومية ليتسنى له التغلب على أعدائه داخل الكنيسة، وقام باستصدار شهادة من مجلس المدينة كدليل ــ على حد قوله ــ على صحة ترسيمه من قبَل الشعب السكندرى، تلك الشهادة التى نود أن نعرف كيف كانت تبدو فى الوقت الذى كانت غالبية أعضاء المجلس من الوثنيين. وقام بإرسال هذه الشهادة إلى قسطنطين وأبلغ القيصر بهذه الطريقة برسامته، أما من الناحية الكنسية فلم تكن هذه الشهادة ذات أى معنى ولكن أثناسيوس كانت لديه أسبابه فى البحث عن تغطية رسمية؛ حيث إن رسامته لا تتفق مع الشروط التى وضعها مجمع نيقيا.

وعلى ما يبدو أنه كان لدى شعب الإسكندرية فرصة اختيار أحد المليتيانيين كأسقف، الأمر الذى اعتبره الأساقفة التالون لأثناسيوس مُسلَّمًا به، وحين تم ترسيمه حضر عدد من الأساقفة يزيد ثلاثة على الحد الأدنى للعدد الذى يجب أن يكون حاضرًا، فعدد أساقفة الإسكندرية مائة حضر منهم أربعة وخمسون بمن فيهم أثناسيوس نفسه وهكذا تم الاستغناء عن موافقة باقى الأساقفة، الذين وافق معظمهم بعد ذلك، عندما عرض أثناسيوس على الشعب السكندرى خطاب التهنئة الذى تلقاه من قسطنطين، والذى أعرب فيه القيصر عن سعادته باجتماع الرأى المنشود على الترسيم، وربما قام أثناسيوس بتجميل الحقائق فى خطابه للقيصر الذى كان قد أرسله إليه ليعلمه برسامته وأشرنا إليه فيما سبق. ومنذ بداية مزاولته لمهامه كأسقف، برهن أثناسيوس على أنه إذا كان هناك مساس بشخصه أو بالعقيدة الصحيحة ــ من وجهة نظره ــ فإنه يتصرف بعقلية سياسية لا ضمير لها. وجدير بالذكر أن المليتيانيين هم فقط من رفض الاعتراف برسامته واختاروا أسقفًا ضده.

وهكذا كان لزامًا على أثناسيوس منذ بداية جلوسه على كرسى الأسقف أن يواجه عدة جبهات داخل الكنيسة، فعلاوة على المليتيانيين ظهر الأريانيون الذين

سعوا إلى رد الاعتبار لزعيمهم أريوس بعد عودته إلى الإسكندرية، حيث كـان قد تم شلحه بمعرفة مجمع نيقيا عام ٣٢٥، ولكن بعد مرور عامين تم الاعتراف بمذهبه باتفاق المجمع وعفا قسطنطين عنه وسمح له بمباشرة مهامه فى الكنيسة بمقتضى قرار مؤتمر كنسى، وهو الأمر الذى حاول أثناسيوس أن يمنع حدوثه. وفى عام ٣٣٣، استطاع أثناسيوس أن يحرض القيصر على إدانة أريوس مرة أخرى، وأمر القيصر بحرق مؤلفاته، وكلما نجح أثناسيوس فى تأليب معارضيه على بعضهم البعض تهيأت له فرصة للبقاء، ولما أدرك كل مـن المليتيـانيين والأريانيين أن الأسقف هو عدوهم المشترك بدأ وضعه فى الانهيار، وبزعامـة الأسقف يوسيبيوس من نيكوميـديا Eusebius von Nikomedien تحقـق لهـذا التحالف إسقاط أثناسيوس وبلغوا بذلك هدفهم أخيرًا.

وأمام مؤتمر صُور الكنسى الفاصل بدأ أعداء أثناسيوس فى توجيه عـدة اتهامات إليه، ويمكننا التعرف على هذه الاتهامات من عرائض الـدفاع التـى كتبها الأسقف فيما بعد "ضد الأريانيين" والتى نفى فيها جملةً ما نُسب إليه، ومن الثابت أنه أمام نفيه المستمر تمت إدانته، فعلى سبيل المثال اتُّهم أثناسيوس أنـه فرض على المصريين نوعًا من الضرائب على هيئة منسوجات مسيئًا بـذلك استغلال صلاحياته الحكومية، وبلا جدوى حاول إبعاد هذه التهمة عن نفـسه. وهناك نوع آخر من الاتهامات أثر فى الوجدان مدة طويلة، وألقى الضوء على مدى تأثير الحوارات اللاهوتية فيما سبق على الحياة اليومية.

فقد كلف أثناسيوس القسيس مكاريوس Makarios بوقف القس إيـشيراس Ischyras ـــ قس كنيسة مريوط Mareotis ـــ عن مزاولة أعماله الكنسية لأنه ـــ طبقًا لوجهة النظر البطريركية ـــ لا يصلح لذلك، وبنـاء علـى هـذا قـاطع مكاريوس القس إيشيراس أثناء القداس ـــ بطريقه فجة ـــ ولجـأ أيـضًا إلـى العنف، وهو الأمر الذى تطور إلى تشابك على المذبح، وأثناء العـراك سـقط إيشيراس وتحطمت كأس المناولة نتيجة لذلك. وكان انتشار هذا الفأل الـنحس والحادث المؤسف بين المسيحيين، لا يقل عن انتشار مثـل تلـك المعتقـدات الساذجة بين الوثنيين.

وقد بنى البطريرك سياسته الدفاعية على أن القس إيشيراس ليس قسيسًا شرعيًا وعليه فهو لا يستطيع أن يمسك بيديه كأس المناولة بطريقة صحيحة، وأنه لم يَجْرِ تدنيس للحرمات ولم يكن أبدًا التشابك على المذبح محلاً لأى مناقشة. وهكذا استطاع أثناسيوس إقناع القيصر بما يراه وعاد منتصرًا إلى الإسكندرية، وهنا بدأت معركة انتقامه الأولى الطويلة والتى لم تكن الأخيرة، فالأساقفة الذين رفضوا التحالف معه حتى تم تفنيد الاتهامات تم سجنهم وضربهم أو إقصاؤهم، أما القس إيشيراس فقد أُلقى به فى السجن(٤٤) حتى أرسل كتابًا إلى أثناسيوس واصفًا إياه فيه بـ "الأب المبارك" ومبرِّئًا له فيه من كل ذنب.

وقد اتخذ البطريرك هذا الخطاب فيما بعد ضمن كتاباته فى الدفاع عن نفسه كوثيقة تدل على أن القس اعترف بكل خطاياه عندما تم الضغط عليه، وادعى أثناسيوس أنه قد أُسىء إلى اسمه حتى يلحق به الضرر وأنه لم تُكسر كأس المناولة ولم يقع المذبح؛ ولكن قوى شيطانية أجبرت القس على أن يلقى عليه هذه الاتهامات الظالمة. وهذه الوثيقة تفشى الطريقة والأسلوب الذى مارسه أثناسيوس على إيشيراس، وكذلك كيفية إنكار البطريرك لموضوع كسر كأس المناولة والتعارك على المذبح أمام أعين المصلين، وهى بالتأكيد دليل على الإصرار الأعمى على الإنكار الذى نشره أثناسيوس فيما بعد.

وتوضح الخطوة التالية للمليتيانيين ضد البطريرك بأى الوسائل كانت الصراعات الكنسية الداخلية تتجاوز حدود الإسكندرية إلى خارجها، وكان الاتهام هذه المرة هو القتل، وكان الأسقف المليتيانى أرسينيوس ــ وهو الأسقف المضاد لأثناسيوس ويعيش فى حرب معه منذ رسامته من مجمع نيقيا ــ لا يزال يعيش فى الإسكندرية ويرعى أفراد كنيسته ويحميهم، وفى أحد الأيام احترق منزله وحُبس وتم جلده، وعندما تمكن من الهرب والاختباء أشاع أنصاره أنه قُتل. ووجد المليتيانيون الفرصة سانحة للهجوم على الأسقف المعادى لهم، وتم شكواه مرة أخرى للقيصر بتهمة القتل هذه المرة.

وفى هذا الموقف ظهر إلى أى مدى كانت تلك المجموعات من القساوسة السكندريين منظمين بشكل جيد؛ حتى إنه يمكن وصف دورهم بلا شك بأنه دور

شرطة أمن داخل الكنيسة. وتم تحديد مخبأ أرسينيوس، وأقر أمام محكمة أسقفية بهويته، ووجه قسطنطين من ناحية جواب تهنئة إلى أثناسيوس، ومن ناحية أخرى قبل اعتذار الأساقفة المليتيانيين الذين خضعوا للقيصر، فقد كانت شخصية الحاكم دومًا هى الجهة الفاصلة والمعترف بها رسميًا فى مثل هذه المنازعات، ومن جانبه كان قسطنطين مهتمًا بالوحدة أكثر من اهتمامه بالفصل فى المسائل العقائدية، وإلى جانب ذلك فإن هناك هيئة أخرى لا تملك قوة ولكن تملك سلطة كبيرة وهى هيئة مؤتمر الكنيسة بأكملها أو جزء منها، وأمام هذه الهيئة كان الفصل فى المعركة القادمة مع أثناسيوس.

واستطاع أعداء الأسقف أن يقنعوا قسطنطين بأن محكمة من الأساقفة أثناء المؤتمر الكنسى هى التى تستطيع أن تضع نهاية لهذه المنازعات، ولأن قسطنطين كان قد استفزه هذا الخلاف المذهبى والصراع الدائر أمام مجمع نيقيا بخصوص أريوس وكذلك الاختلافات داخل الكنيسة، وهى أمور هو لا يفهم فيها، فقد استجاب لمطلب أعداء الأسقف لإقامة مثل هذه المحكمة وأمر أن تكون فى مدينة قيصرية عام ٣٣٤، ولكن الأسقف لم يظهر أمام هذه المحكمة، وربما لم يكن من السهل إثبات تلك التهم عليه، وبالتأكيد لم تكن تهمًا ساذجة وباطلة كما كان يريد أن يقنعنا هو، ومن البديهى أن الأسقف بعدم ظهوره هذا وضع نفسه محل اتهام.

وباءت محاولة لتبادل الرأى بين المليتيانيين وأثناسيوس عام ٣٣٥ بالفشل، وفى حوزتنا رسالة يشتكى فيها كالستوس Kalistos وهو مليتيانى من معاملة أسقف مدينة أخميم (Letopolis) الذى التقى مع أثناسيوس فى نيكوبوليس، وهى المنطقة التى كانت تعسكر فيها القوات قديمًا وتُعد فى ذات الوقت أرضًا محايدة، وانتهى تبادل الرأى بمأساة للمليتيانيين: "فقد ضربوهم بعنف حتى سالت دماؤهم وعرَّضوا حياتهم للخطر وألقوا بهم خارج نيكوبوليس"(٤٥).

وقد زاد المليتيانيون ضغوطهم على القيصر عن طريق وسطائهم لإقامة محكمة الأساقفة، وبدوره وجه قسطنطين الدعوة لأثناسيوس بلهجة يبدو فيها التهديد فى حالة عدم امتثاله بالحضور، وبناء على ذلك توجه أثناسيوس إلى

صور كما أمر القيصر فى صيف عام ٣٣٥. وحيث إن الأسقف مدربٌ على سير الإجراءات، ويستطيع تقدير هذا النوع من المجالس، فقد رغب فى تحقيق النجاح هذه المرة أيضًا، ولهذا ذهب مع عدد كبير من الأساقفة المصريين، ولكن ما لبث أن تبين له حين وصل إلى صور أن الأغلبية مع أعدائه.

هذه الأغلبية شكلت لجنة لفحص المظالم فى الإسكندرية نفسها، ولم ينتظر أثناسيوس حتى ظهور النتائج بل هرب إلى القسطنطينية، وفى غيابه أصدر المجلس الكنسى القرار التالى: يُشلَّح أثناسيوس ولا يُسمح له بالعودة إلى الإسكندرية، وكانت حيثيات الحكم عدم حضوره فى قيصرية ومعارضته للإجراءات القضائية فى صور، والأهم من ذلك كله أنه حمل مسئولية كأس المناولة التى تحطمت. وكانت هناك بعض القضايا الأخرى ضده، ولكن لم يُفصل فيها لإصرار قسطنطين على نهاية سريعة للقضية واعتبر أن القضايا قد انتهت من تلقاء نفسها بهروب الأسقف .

ونجح البطريرك المشلوح فى الحصول على مقابلة مع قسطنطين لكنها لم تسفر عن أى نجاح(٤٦)؛ نظرًا لأن أعداءه أدخلوا فى روع القيصر أن أثناسيوس ربما ينفذ تهديده بعدم إرسال الحبوب إلى روما إذا القيصر لم يتوخَّ تطبيق العدالة عليه، حتى ولو كانت المراهنة على تصرفات أثناسيوس أكثر مما يستحق، إلا أنه من المؤكد أن طبيعته تسمح له بفعل أشياء سيئة، وقد أمر قسطنطين بنفيه فورًا إلى مدينة ترير(*) Trier.

ويبدو أن فترة المنفى الأولى هذه كانت قصيرة، وأثناء إقامته فى ترير ــ التى تقع فى "نهاية العالم" كما كتب هو عن مصدر سكندرى ــ ظل الأسقف على اتصال عن طريق الخطابات مع أنصار مذهبه، وفى ٢٢ يوليو عام ٣٣٧ تُوفِّى قسطنطين وظهر على الساحة من بعده أبناؤه الثلاثة كخلفاء له وذلك بعد تعرضهم لسلسلة من الاغتيالات من منافسيهم، وكان هؤلاء الأبناء الثلاثة يمثلون قناعات مذهبية مختلفة: كان قسطنطيوس الثانى Conostantinus II والذى حكم فى الفترة من ٣٦١ إلى ٣٦٧م منتميًا إلى الاتجاه الأريانى، أما قسطنطين والذى حكم فى الفترة من ٣٣٧ إلى ٣٥٠م، فكان متعلقًا بالمذهب

---

(*) مدينة تقع الآن فى ألمانيا. (المراجع).

الأثناسيانى، أما الابن الثالث قسطنطين الثانى.Konstantin II والذى حكم فى الفترة من ٣٣٧ إلى ٣٤٠ م فكان أقرب ما يكون لأبيه ممثلاً بذلك دور الوسيط. وفى السابع عشر من يونيو عام ٣٣٧، أرسل هذا القيصر حاكم الغرب رسالة إلى شعب الكنيسة الكاثوليكية بالإسكندرية وكان نصها: "إننى لا أظن أن فطنتكم المقدسة قد تجاوز علمها أن أثناسيوس بوصفه مفسرًا للميثاق المقدس (الإنجيل)، أُبعد مؤقتًا إلى جاليا(*) Gallin ولأن قسوة أعدائه المتعطشين للدماء والمملوئين بالمرارة هددت حياته، فينبغى إعاقة اتخاذ ما يحول دون تحميله ما لا يُطاق بسبب هؤلاء الناس الأشرار"(٤٧).

وقد أصدر قسطنطين الثانى بعد وفاة والده عفوًا عامًا تم إبلاغ حالات فردية منها إلى شعب المدينة ذات الصلة، تلك الحالات التى لها على ما يبدو أهمية خاصة، وحتى إن كان من غير المستبعد أن يكون أثناسيوس قد اشترك فى كتابة خطاب قيصر، إلا أن طريقة تبرير تحوُّل القيصر أمر معتاد فى هذا العصر، وكان التبرير أن إرسال أثناسيوس الذى اعتُبر عدوًا إلى المنفى، كان لأنه لم يعد آمنًا فى الإسكندرية.

وأدت عودته إلى الإسكندرية إلى تأجيج نار الانقسام فى الكنيسة السكندرية، والتى تصاعدت إلى أن تم اختيار أسقف مضاد ينحدر من الكابادوكيين Kappadokien ويُدعى جريجور Gregor، بدعم من قسطنطينوس الثانى(٤٨) .Conostantinus II زعيم المملكة الشرقية عام ٣٣٩، وكان لزامًا على أثناسيوس Athanasius أن يهرب وهو ما اعتبره أنصاره منفى ثانيًا. ولم يتم تنصيب جريجور إلا بعد معارك دارت رحاها فى الشوارع، وإن تخلت جميع الطوائف المسيحية فى الإسكندرية عن العنف الذى ظل لفترة طويلة أهم وسيلة للتفاهم، ففى عام ٣٣٩ وجد أعداء أثناسيوس دعمًا من الوثنيين وكذلك من الجالية اليهودية التى يبدو أنه قد اشتد عودها مرة أخرى، وبدأنا نسمع من جديد عنها شيئًا بعد أكثر من مائتى عام، وأثناء المصادمات تم تدمير كنيسة تيوناس Theonas ومعموديتها؛ ولكننا لا نعلم ما إذا كانت هناك أضرار أخرى قد لحقت بالمدينة.

---

(*) بلاد الغال، فرنسا. (المراجع).

وذهب أثناسيوس إلى روما التى يدعمه أسقفها، ولكن لم يرغب كلاهما فى فرض إرادتهما على المجمع الكنسى الذى عُقد عام ٣٤٢ بعد سردكا Serdica فى تراقيه Thrakien. ومن وجهة النظر اللاهوتية، زاد عمق الفجوة بين الشرق والغرب، وكانت الكلمة العليا فى مجمع سردكا الكنسى لأساقفة من منطقة نفوذ قسطنطينوس الثانى، الذى يميل إلى العقيدة الأريانية كما ذكرنا سابقًا. ورغم هذه الظروف المتناقضة، استطاع أثناسيوس بعد أعوام قليلة العودة من جديد إلى الإسكندرية، فى تلك الأثناء كان الأسقف جريجور قد تُوفِّى، وتم الاستغناء عن اختيار أسقف تالٍ له. أما من الناحية السياسية، فقد حكم : كونستانس Constans منذ عام ٣٤٠ المملكة الغربية بمفرده ومارس ضغوطًا على أخيه قسطنطينوس الثانى وهدد فى النهاية بحرب أهلية، حتى يتمكن من فرض آرائه اللاهوتية وأيضًا عقيدة أثناسيوس بشكل غير مباشر.

وكمقدمة لهذا الأمر، عاشت العاصمة القسطنطينية Konstantinopel مذبحة لقى فيها أكثر من ٣٥٠٠ شخص مصرعهم فى الصراع على كرسى الأسقف، ودائمًا ما كان الصدع بين المذاهب المسيحية يؤثر على الوحدة السياسية، ووجد قسطنطينوس الثانى نفسه فى السياسة الخارجية فى وضع حرج أمام الفرس واستسلم للضغوط. وفى عام ٣٤٦، رأت الإسكندرية ـ أو الأقلية المسيحية من سكانها المهتمين بالأمر ـ أن يكون أسقفًا "لمسيحييه" مرة أخرى.

وعلى الفور، ظهر أن أثناسيوس بدأ مرة أخرى ينحّى التعليمات جانبًا، مثل مسألة بناء الكنائس التى لم يكن يُسمح بها إلا بموافقة قيصرية. فقد أقام أثناسيوس قداسًا فى إحدى الكنائس التى لا يتوافر لها هذا التصريح. ولأن هذه المخالفة كانت ظاهرة للجميع، فقد اعترف أثناسيوس بذلك دون تردد، وأنه أقام الصلاة فى "كنيسة القيصر"، ولكنه أكد أنه لم يفتتح المبنى لأن عملاً كهذا دون انتظار أوامرك (يا قسطنطينوس الثانى) يُعتبر فى حقيقة الأمر مخالفًا للقانون. ووصف أثناسيوس ذلك بأنه حضر مثل كثير من المسيحيين حتى يحتفل بعيد الفصح، ولم تكن الكنائس الصغيرة لتكفى، ولأن ضيق المبنى فى الصلوات وقت الصيام، بالإضافة إلى الأعداد الكبيرة من المؤمنين (المصلين) المصطحبين لأطفالهم الكثيرين كان يؤدى إلى تكدس عدد ليس بالقليل من

السيدات الشابات وكثير جدًا من السيدات المسنات وأيضًا شباب أشداء، الأمـــر الذى جعله يستسلم، ويسمح بإقامة الصلاة فـــى "كنيـــسة القيـــصر"، وبمـــا أن قسطنطينوس الثانى هو مؤسس هذه الكنيسة كان يجب استئذانه، وقبل كل شيء، باعتباره رئيس القساوسة فهو بهذا يمثل أعلى منصب لكل الشئون الدينية ومنها أيضًا المسيحية .

وكون أن الأسقف قد تجاوز كل هذا (ما سبق)، فإن ذلك أمر يـستدعى الانتباه وينبئ بثقته فى نفسه، وتمادى أثناسيوس وأخذ خطـوة أخـرى: كـان قسطنطينوس الثانى قد أسس هذه الكنيسة من أجل الأسقف المضاد لأثناسيوس، وهو الأسقف الأريانى جريجور من كابادوكيا، وبعد وفاته قوى بوضوح موقف أثناسيوس، الذى سلك مسلكًا خشنًا مع القيصر ليس فقط بأنـه أخـضع مبنـى الكنيسة لمذهبه المسيحى الذى لم يكن مذهب القيصر وحسب، بل إنه أيضًا تلذذ باستعراض مدى كثرة أنصاره (مريديه)، لدرجة أنه لم يخجل من أن يشير إلى أنه كثيرًا ما كان الناس يُدهسون حتى الموت أثناء الصلاة، وهذه الإشارة تفصح أكثر مما قيل فى الهجوم على المنافسين المسيحيين، أن كل وسيلة فى الصراع مشروعة، وقد أوضح سير هذا الحدث أخيرًا أن بناء مثل هذه الكنيسة الكبـرى ليس مبعثه الوحيد الرعاية الدينية. وعلى ما يبدو أن ما خطط له قـسطنطينوس الثانى من أجل الأريانيين حققه أثناسيوس: حيث استخدم التجمعات الجماهيرية لأنصاره أيضًا فى استعراض القوة ضد الجماعات المـسيحية وكـذلك غيـر المسيحية، وهنا ينبغى التفكير فى وضع الوثنيين أو اليهود، وكان على القيصر أيضًا أن يدرك مدى الدعم الذى يتمتع به الأسقف بين طوائف الشعب.

وقد اتضح بعد وفاة كونستانتس عام ٣٥٠ م تأثّر قسطنطينوس الثانى بما حدث تأثرًا شديدًا وعدم اتفاقه مع الأسقف فى آرائه، وأن عودة الأسـقف إلـى الإسكندرية قد أزعجته، خاصة وأن قسطنطينوس الثانى أصـبح هـو الحـاكم الأوحد على المملكة كلها؛ الأمر الذى جعله يسعى إلى أن تتم إدانة أثناسـيوس فى مجمعين كنسيين فى آرلس Arles عام ٣٥٣، وفى ميلانو Mailand عـام ٣٥٥، ولكن تنفيذ الحكم لم يتحقق على أية حال، لأن أنصار الأسقف المـشلوح

قد ساعدوه على الفرار، واختفى لمدة سبع سنوات من مسرح السياسة في أعقاب ذلك.

ولكن الهدوء لم يعم المدينة بحال من الأحوال، ففي عام ٣٥٦، كان المكان مسرحًا لمنازعات دامية على كرسي القيصرية مع كنيسة القيصر الجديدة، فقد دفع الحاكم بثلاث فرق وساعد الأريانيين على النصر، وحتى يفرض الأسقف المفضل لديه ويُدعى جورج قام قسطنطينوس الثاني ــ وهو ما أشاعه فيما بعد أثناسيوس ــ بتقديم تعهُّد لمجلس الوثنيين (غير المسيحيين) بعدم المساس بمقدساتهم في حالة الهجوم على الأثناسيين. وفي عام ٣٥٨، هاجم الأثناسيون جورج في كنيسة ديونيسيوس Dionysius أثناء تأدية الصلاة، وبعد حرب أهلية استمرت شهورًا طويلة اضطُر لمغادرة المدينة مؤقتًا من أجل أن يعود مرة أخرى ليحارب أعداءه.

وأثناء هذه القلاقل اضطر طبيب الطائفة ويُدعى زينون Zenon إلى مغادرة الإسكندرية، وكان ضمن واجباته الوظيفية ــ إلى جانب معالجة الفقراء مجانيًا ــ تعليم أبناء العائلات الفقيرة علم الطب. وطبقًا لتقاليد الطب العريقة، كان وجود زينون في الإسكندرية يعني وجود واحد من أشهر الأطباء في هذه الوظيفة على الإطلاق في ذلك الوقت. لقد كان زينون معلمًا لأوريباسيوس Oribasius، الذي أصبح بدوره الطبيب الخاص والشخص المقرب من القيصر إيوليان Iulian (٣٦١ ــ ٣٦٣ م)، الذي اهتم شخصيًا بعد جلوسه على العرش بعودة زينون إلى الإسكندرية.

وقد لقي جورج نهايته الفظيعة عندما تُوفِّي قسطنطينوس الثاني عام ٣٦١ وكان بمثابة حماية قيصرية له، فقد قام أنصار أثناسيوس بضربه حتى الموت ووضعت جثته على جمل، وطافوا بها في الشارع الذي يُعتبر في ذلك الوقت وسط المدينة وهو ما يُسمى "الشارع العريض" مع جثتين لأحد المسئولين القيصريين، وعقب ذلك تم حرق ثلاثتهم علانية وإلقاؤهم في البحر طبقًا للتقاليد السكندرية.

وقد أصبحت المملكة على وشك الدخول في حرب أهلية بين قسطنطينوس الثاني وإيوليان، والتي لم يمنعها إلا موت الأول (قسطنطينوس) عام ٣٦١ م.

وقد حاول إيوليان تجديد عبادات الوثنيين وتقاليدهم مستعينًا بالعديد من الجديد والمتداول من الأفكار المستقاة من التجارب المسيحية، وعلى هذا الصعيد، أرسل إلى الحاكم العسكرى لمصر خطابًا طلب منه فيه أن "يختار من شعب الإسكندرية مائة صبى من أصول جيدة، وأن يعطى كل واحد منهم إردبين (٧٧ كيلوجرامًا) من القمح إلى جانب الزيت والخمر"[(٤٩)] وإعطاءهم ـ علاوة على ذلك ـ ملابس. وتم تدريب هؤلاء الصبية على "الموسيقى الدينية"؛ حتى يشاركوا فى الكورال فى الاحتفالات الدينية، بعد أن أدرك إيوليان جاذبية موسيقى الكنيسة المسيحية وأراد أن ينافسها بشىء يساويها. ولأسباب شبيهة بذلك، دعم قسطنطينوس الثانى بناء الكنائس للأريانيين ـ فقد حصل معبد سيرابيس على دعم مالى، وروى بعض مسيحيى الإسكندرية أنه عندما سمع السكندريون بموت إيوليان، هُرعوا إلى هذا المعبد، ونادوا "إذا لم تكن تريده فلماذا قبلت تبرعه؟"[(٥٠)].

وقد كان همّ القيصر أيضًا، إضعاف المؤسسات المسيحية، ولتنفيذ ذلك كانت هناك طريقة ناجحة: فقد سمح لجميع الأساقفة ـ أيًا كانت أسباب إبعادهم ـ بالعودة إلى مدنهم؛ الأمر الذى كان كفيلاً بإذكاء المصادمات من جديد بين رؤساء الأقليات المسيحية المتنافسة. وبهذه الطريقة عاد أثناسيوس إلى الإسكندرية، وقد قدر إيوليان بشكل صحيح مدى قوة انفجار هذه العودة، ولكن قوة الثقة بالنفس لدى الأسقف، وعدم قبوله لحلول وسط واستعداده الدائم لاستخدام العنف فاقت توقعات إيوليان، واستنفدت صبره، فقد استطاع أثناسيوس فى أسابيع قليلة أن يخلق جوًا من الإرهاب، جعل إيوليان يسارع بإخراجه مرة أخرى بحجة "أنه لم يسمح له بالعودة إلى الكنيسة، بل بالعودة فقط إلى مسقط رأسه"[(٥١)].

وإلى جانب هذه الأحداث الشائنة، كانت هناك أحداث أخرى باعثة على السعادة بالنسبة للقيصر؛ حتى إنه كتب إلى الإسكندرية ما يلى: "سمعنا أنه يوجد لديكم مسلة من الجرانيت ذات ارتفاع كبير وملحوظ، وأنها ملقاة بإهمال وكأنها قمامة. من أجل هذه المسلة كان قد أمر ملكنا الإله (المُتوفَّى) قسطنطينوس الثانى ببناء سفينة خصيصًا لنقل تلك المسلة إلى مدينة آبائى القسطنطينية، ولكن

بعد أن بدأت السفينة رحلتها المقررة من هنا إلى هناك طبقًا لإرادة الآلهة، تطالبنى المدينة التى هى وطنى بهذا الأثر"، وكبديل لهذه المسلة وعد إيوليان بتمثال ضخم له من البرونز يوضع فى الإسكندرية.

وكان قسطنطينوس الثانى قد أمر فى أواخر أعوام حكمه بنقل مسلة من الكرنك إلى روما لكى تُنصب فى سيرك ماكسيموس Maximus، وهى موجودة الآن أمام قصر اللاتيران Lateranpalast، وفى الوقت نفسه، كان ينوى نقل مسلة ثانية للعاصمة الجديدة القسطنطينية(٥٢)، ولكن هذه الخطة لم تتحقق لأن القيصر تُوفِّى، وقد ألحت السلطات فى العاصمة على إيوليان بتنفيذ خطة القيصر السابق، والذى طالب بدوره السكندريين بإعادة المسلة إلى القسطنطينية. وفى نهاية خطابه، ألمح القيصر إلى أن المسلة سوف يحييها البحارة السكندريون الذين يبحرون إلى القسطنطينية، فى إشارة يُفهم منها أن المسلة سوف يُزين بها ميناء إيوليان الجديد فى القسطنطينية، وقد تسلم السكندريون تمثال القيصر الضخم الذى كان لا يزال منصوبًا حتى سبعينيات القرن الخامس فى وسط المدينة.

وبعد وفاة إيوليان عام ٣٦٣، عاد أثناسيوس مع آخرين كثيرين، من بينهم أعداؤه القدامى المليتيانيون Melitianer مع تولِّى إيوفيان Iovian (٣٦٣ ــ ٣٦٤م) الذى سمح له بالعودة فى عهده إلى الإسكندرية من جديد. ثم قام قيصر المملكة الشرقية فالينز Valens (٣٦٤ــ٣٧٨م) بنفى أثناسيوس مرة أخيرة عام ٣٦٥، ولم ينقذه من يد السلطات سوى هروبه قبل الإعلان الرسمى عن قرار نفيه. وبعد غيابه للمرة الخامس يعود أثناسيوس مرة أخرى فى بداية عام ٣٦٦م، وبشكل رسمى، لكى يقضى بقية حياته دون أن يخشى أية مضايقات أخرى من جانب الدولة.

أما الحملة الشرسة المعتادة للأسقف، فقد كان أول من ذاق وبالها هم الوثنيون، فعلى مدار موجة ملاحقات مسيحية تمت "الإطاحة" بالكثير من أعضاء المجلس المحلى، وهذا الأمر كان له علاقة بإلصاق تهمة حرق كنيسة القيصر بهم فى ٢١ يوليو عام ٣٦٦م(٥٣)، وقد كلف هذا الحادث الحاكم العسكرى منصبه، لأنه لم ينجح فى السيطرة على الجماعات المسيحية المسلحة.

وقد اضطُر أثناسيوس أن ينتظر عامين حتى يحصل على التصريح له بإعادة بنائها وكان ذكيًا أنه التزم بذلك، وبعدها عاد الأسقف من جديد إلى اتخاذ إجراءات ضد الأريانيين، وكان زعيمهم لوتشيوس Lucius (خليفة جورج) أكثر حظًا من سلفه، فقد استطاع أن يغادر المدينة، وهو فى قيد الحياة، وذلك تحت حراسة عسكرية مشددة.

وقد استطاع أثناسيوس استغلال الفترة الطويلة نسبيًا لاستقرار الحكم فى احتواء مشكلة كانت عاملاً مؤرقًا لكثير من الأساقفة، ألا وهى الرهبنة التى كانت مشكلة ملموسة فى الإسكندرية أكثر من غيرها. فمنذ القرن الرابع برزت مظاهر شكلية متعددة للحياة المسيحية، فى البداية كانت حالات منفردة ثم ما لبثت أن أصبحت شكلاً يحظى بالاحترام، وكان الزهد فى الدنيا والهروب من العالم هما الهدفين الأساسيين لهذه الحركة، ثم تطورت فى خلال فترة وجيزة إلى ظاهرة عامة تشبه عوامل الجذب السياحية.

فبعد أن انتشرت المسيحية بشكل واسع، وبعد أن عجزت أساليب اضطهادها، ظهرت أشكال جديدة من الزهد والتعفف كوسيلة شبه مؤكدة للوصول إلى الحياة السرمدية، وفيها يفرض المرء على نفسه بعض الممارسات (طقوس الرهبنة) المعينة، حيث يعتزل أسرته أو مدينته أو الحياة المدنية، ويتجه إلى الوحدة ويصبح متوحدًا ( منعزلاً )، ومثل هذا الإنسان الوحيد أو الإنسان الذى يعيش حياة الوحدة يُعد راهبًا (Movaαos)، وهى كلمة انتقلت من اليونانية إلى اللاتينية. ويعيش هؤلاء الرهبان أيضًا كمجموعة منعزلين عن العالم فى دير.

وتُعد مصر والإسكندرية أهم أماكن الاعتزال فى العصر القديم، وفيهما تأسست هذه الحركة، ويُعتبر القديس أنطونيوس Antonius مثلاً أعلى لجميع الرهبان فى العصر التالى، وقد تُوفِّى عام ٣٦٥ عن عمر يناهز ١٠٥ أعوام، وكان أثناسيوس هو الرجل الذى ساعده أن ينال احترام العالم أجمع. وقد حمل وصف أثناسيوس لحياة أنطونيوس سيرة القديس والحماس لحياة الزهد إلى العالم الغربى اللاتينى، وقد أَوْلَى أثناسيوس اهتمامًا كبيرًا بتدوين قصة حياة القديس، وقام بتأليفها للرهبان، حيث أبرز احترام أنطونيوس للتسلسل الوظيفى

الكنسى داخل الكنيسة: "يا له من نفس صبورة ومتواضعة! لقد كان يحترم التسلسل الكنسى بلا حدود، ويعتبر أن كل قسيس هو رئيسه، ولم يكن يخجل أبدًا من أن يحنى رأسه أمام كل أسقف وقسيس"(٥٤)، ومثل هذه العبارات أظهرت النوايا بوضوح، فالبطل الذى تناولته السيرة الذاتية تم تطويعه بريشة أسقف الإسكندرية إلى نموذج للراهب الطيب المتواضع كما تحب أن تراه السلطة الكنسية. وفى هذا الإطار أيضًا، كان بديهيًا أن يرى أثناسيوس أن الرهبان أعداء ألدّاء للأريانية والمليتيانية، وأنهم يمثلون كذلك حُماة متحمسين لتوجههم المسيحى، وهكذا كان على أنطونيوس أن يأتى شخصيًا إلى الإسكندرية عام ٣٣٨، لكى (يناصر) أثناسيوس(٥٥): "لقد نزل من الجبل وجاء إلى الإسكندرية، ولعن الأريانيين"، وأضاف أثناسيوس أنه رافق أنطونيوس فى نهاية المطاف حتى بوابة المدينة، عندما انسحب مرة أخرى ليواصل عزلته.

ومات الأسقف المثير للجدل فى الثانى من مايو عام ٣٧٣ م، وبلا شك أن كفاحه ساعد على إرساء مفاهيم معينة، إلا أن همه كان دائمًا اكتساب مزيد من السلطة. وقد تحدثت مجلدات عن أن القياصرة من كل مذهب ـ أثناسيين، أريانيين، ووثنيين ـ ناصبوه العداء، وكان موته مؤشرًا لاندلاع العنف فى شوارع الإسكندرية، فقد تنازع بطرس Petrus، الذى اعتبر نفسه خليفة لأثناسيوس مع لوتسيوس Lucius الذى أوفده القيصر، ومن جديد عادت كنيسة تيوناس Theonas لتصبح مسرحًا لمشاجرات عديدة تورط فيها الجنود والوثنيون، واليهود، والأريانيون وكذلك الأثناسيون ـ باعتبارهم أكثر الأطراف المعروفة ـ مكونين تحالفات فيما بينهم. وقد ربطت الفئة التى فرضت نفسها فيما بعد هذه الأحداث بنوادر عن الشهداء، ونادرًا ما كانت هذه الحكايات غير دامية، مثل حكايات آمون Ammon. وكُرْهًا فى هذه الأحداث، غادر الراهب المدينة، التى امتلأت بصخب مصادمات الشوارع مُؤْثرًا الهدوء.

## "يوم الفزع " زلزال عام ٣٦٥

تلعب الكوارث الطبيعية دورًا ذا خصوصية فى خضَمّ ذاكرة البشر، وحتى فى عصرنا الحالى غالبًا ما تملأ التقارير عن موجات الفيضانات أو الزلازل

وسائل الإعلام بشكل دائم، والانطباع المؤثر عن هذه الكوارث كان فى ما مضى أكثر عمقًا؛ حيث لم تكن هناك تفسيرات علمية فى متناول اليد، بل كانت أية ظاهرة طبيعية تخرج عن مسارها الطبيعى، تُفسر على أنها هجوم من الآلهة ـ أو من إله. ورغم أنه على سبيل المثال، كان هناك تفسير علمى للزلازل منذ عصر أرسطو Aristoteles، فإنه فى مدينة مثل الإسكندرية وهى مركز للعلوم الطبيعية ـ وظلت لفترة طويلة هكذا ـ كانت كل التفسيرات العقلانية فى هذا الشأن فى طى النسيان، عندما حدث فيها ما حدث يوم الحادى والعشرين من يوليو عام ٣٦٥.

ونادرًا ما ذُكر حدث طبيعى آخر من هذا النوع كما ذكرت تلك "الكارثة الكونية " فى ذلك الصيف[٥٦]، وقد ذكر المؤرخ المعاصر لهذه الكارثة أميانوس مارشللينوس Ammianus Marcellinus بالتفصيل هذا الحدث العظيم، فقد تعرضت الإسكندرية مرة بعد مرة إلى الزلازل كان ضمنها زلزال عام ٣٢٠ الذى خلّف بعض المنازل المتهدمة والجرحى فى ذاكرة الناس، ولكن ما لحق بالإسكندرية (بوصفها مركزًا حضاريًا مشعًا) فاق كل التصورات كما لم يحدث من قبل. وفيما يلى نتابع معًا تقرير المؤرخين: "فى يوم الحادى والعشرين من يوليو عام ٣٦٥، ذلك العام الذى تولّى فيه فالويتينيان Valeutinian للمرة الأولى هو وأخوه فالينز Valens القنصلية، انتشر فجأة فزع شديد فى جميع أنحاء الأرض، ولم تخبرنا به المصادر القديمة، سواء أكان فى حكايات مروية أم فى مخطوطات موثوق بها"[٥٧].

وقد وصف أميان فيما بعد ذلك الحدث بطريقة درامية مؤثرة كما يلى: "بعد شروق الشمس بقليل، وبعد أن توالى البرق والرعد بشدة، اهتزت الأرض الثابتة وارتجت، ثم ارتد البحر بأمواجه الهادرة وتراجع عن اليابسة، وعندما انفتحت هاوية الأعماق ظهرت الكائنات البحرية على اختلاف ألوانها، وهى تتمرغ فى الوحل، وأصبحت الوديان السحيقة والمرتفعات التى طالما أخفتها الطبيعة تحت الأمواج معرضة لأشعة الشمس".

إن رد فعل هذه الكارثة، يستطيع المرء قراءته على وجوه المثقفين من البشر وكذلك غير المثقفين أيضًا: "لقد بدت الكثير من السفن هنا وكأنها قد

سقطت على اليابسة، والبعض الآخر من هذه السفن راح يتحرك علـى المياه الضحلة التى تشبه المستنقعات، وراح من كانوا فوق هـذه الـسفن الـصغيرة يجمعون الأسماك والحيوانات البحرية بأيديهم، ثم تعود الأمواج الغاضبة بعـد ذلك تتحرك فى الاتجاه المعاكس ضاربة الجزر الـصغيرة والمـدن محطمـة الآلاف من المبانى، مسببة الكثير من الخراب والغرقى ومغيرة وجـه الأرض تمامًا. لقد غرق الكثير من السفن فى هذا المد والجَزْر القاسى، وأصبح طبيعيًـا أن يرى المرء موتى محمولين على ظهور الأحياء، أو آخرين طافية أجسادهم فوق سطح الماء ووجوههم مطمورة إلى أسفل فى المياه".

ولم تضرب أمواج البحر العاتية مدينة الإسكندرية فحسب، بل ضربت مدنًا أخرى واقعة على البحر المتوسط. وقد أخبر المؤرخ أميان بعد هـذه الواقعـة بقوله: "لقد طيّرت الرياح العاتية أكبر السفن حجمًا مسافات تتراوح ما بـين ٢ و٣ كيلومترات، وألقت بها فوق أسطح المنازل". وذكر كذلك أنـه رأى سـفينة لاكونية (من منطقة لاكونيا ببلاد اليونان) قد حطت هنا بفعل الريـاح العاتيـة، وكان قد رآها هى نفسها فى رحلة بالقرب من مدينة موتون عند منطقة البليون الجنوبية.

وهذا الذى أخبرنا به المؤرخ أميان، هو أحد الزلازل المصحوبة بعواصف شديدة، تتبعها فيضانات قوية كانت تضرب مناطق ساحل البحر المتوسط مـن وقت لآخر. وهذه الكوارث نطلق عليها اليوم كلمة "تسونامى"، وهى كلمة يابانية تعنى: أمواج ساحلية. والشىء الخطير والمرعب فى هذا التسونامى أنه يتحرك بسرعة تصل إلى عدة مئات من الكيلومترات فى الساعة الواحدة، من منـاطق أعالى البحار حيث منشؤه حتى يصل إلى الشطآن.

ويعتقد العلماء أن تسونامى عام ٣٦٥ ميلادية يرجع إلى زلـزال مـدمر للغاية بالقرب من شواطئ جزيرة كريت، لدرجة أنه جعل قـاع البحـر عنـد الشواطئ المصرية يرتفع ويتحول إلى أرض زادت عليها طبيعة الدلتا المتغيرة. بعد مائة عام أخرى حدث زلزال آخر أدى إلى تدمير موانى ومدن الإسكندرية والقرى بمنطقة أبى قير. إن هذه الكوارث الطبيعية كانت ـــ حسب المعتقـدات المسيحية والمعتقدات الأخرى ـــ نذرًا وإشارات للبشر عن حدوث ضر كبيـر

قادم. وسواء أكان البشر آنذاك مسيحيين أم غير ذلك من ديانات، فإنهم اتفقوا جميعًا على أنهم مذنبون، وأن ما يحدث من كوارث طبيعية هو انتقام الآلهة منهم والتى تعاقب الآن المذنبين. وعلى أية حال، كان لا بد أن يُطرح التساؤل عمن كان هو السبب فى حدوث تلك الكارثة الرهيبة التى أصابت الإسكندرية، هل هم الوثنيون أم النصارى؟ وإذا كانوا النصارى، فأى فصيل منهم، هل أتباع أريوس أم أتباع أثناسيوس أم أتباع مليتيان؟

ولقد صنع المؤرخون من هذه الكوارث الطبيعية أحداثا عالمية كبرى وبالغوا فى وصفها كل المبالغة، وهنا نرى الراوى والكاتب الوثنى ليبانوس من مدينة أنطاكيا السورية يقول: "إن الأمواج العاتية حطمت مدنًا كثيرة فى فلسطين وفى كل ليبيا وكل مدن صقلية تحولت إلى حطام، كما حطمت الأمواج كل جُزُر اليونان ما عدا جزيرة نيكايا الجميلة، وكذلك مدينة أنطاكيا "[٥٨]. كما تناول راعى الكنيسة هيرونيموس ذلك من وجهة نظر مسيحية، حيث رأى فى كل هذه الكوارث عقابًا إلهيًا للإمبراطور يوليان الذى غير عقيدته وارتد عن المسيحية، كما روى وهو يكتب السيرة الذاتية للراهب هيلاريوس، كيف استطاع ذلك القديس أن يوقف الأمواج الهائجة بمساعدة الرب وصدها عن مدينة إبيدامنوس فى دلماتيا[٥٩].

وظلت أحداث الكوارث الطبيعية التى حفل بها القرن الرابع الميلادى مادة ثرية استغلها رجال الكنيسة لصالح عقيدتهم، وكذلك لتصفية حساباتهم ضد خصومهم فى العقيدة المسيحية من أصحاب المذاهب المسيحية الأخرى. وبالرغم من الخراب والدمار الذى كانت تتسبب فيه هذه الكوارث الطبيعية فإنها كانت ذات فائدة أخرى، حيث إن الفئات المتصارعة فى الإسكندرية بدت وكأنها نسيت صراعاتها أو تناستها على الأقل لفترات مؤقتة.

ولقد أحصى كل من الكُتّاب العرب والإغريق نحو ثمانية زلازل فى مدينة الإسكندرية فى الأعوام ٣٢٠، ٣٦٥، ٥٥١، ٧٩٦، ٩٥١، ٩٥٦، ١٢٠٣، و١٣٠٣ ميلادية[٦٠]. ولكن لم يكن هناك فى كل هذه الزلازل أسوأ ولا أشرس تدميرًا وتخريبًا من زلزال عام ٣٦٥ ميلادية. ويرى المؤرخ المسيحى زوتسومينوس من القرن الخامس الميلادى أن السكندريين بعد زلزال عام

٣٦٥، والذى حدث فى ٢١ يوليو من هذا العام[٦١]، خصصوا هذا اليوم من كل عام للذكرى والتفكر. وقد عثرنا على نص قبطى، يرجع إلى القرن السادس الميلادى يقول ما معناه إن القسيس المسيحى أثناسيوس قد قام بفتح الإنجيل واستقبل به أمواج البحر الهادرة بمدينة الإسكندرية، وبذلك صد هذه الأمواج وردها عن اجتياح المدينة. مثل هذه الأساطير حفظها البشر وتناقلها المسيحيون، وجعلت يوم الرعب هذا يُسجل فى حوليات مدينة الإسكندرية [٦٢].

**الطريق إلى الأغلبية ـ تحطيم السرابيوم**

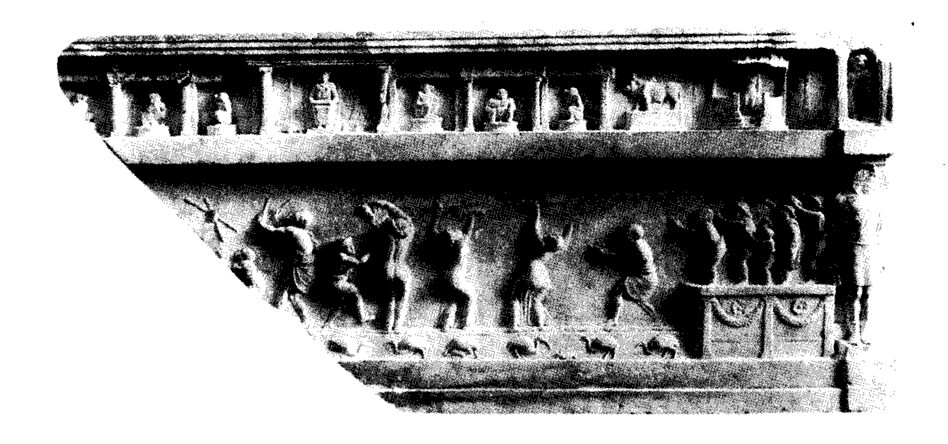
إن التاريخ القبطى يروى لنا أن رأس الكنيسة القبطية فى مصر والمدعو أثناسيوس قام مع سكرتيره الخاص بالتخطيط لتحطيم السرابيوم بالإسكندرية؛ وذلك لأنه كان يعتبر السرابيوم رمزًا من رموز الكفر. هذا السكرتير كان هو المدعو ثيوفيلوس والذى أصبح فيما بعد وبالتحديد فى عام ٣٨٥ ميلادية رئيسًا للكنيسة القبطية فى مصر[٦٣]، وفى عهد هذا الأخير تم تحطيم السرابيوم وحقق بذلك أمنية أثناسيوس القديمة. وقد جاء تنفيذ أمنية أثناسيوس متوافقًا مع سياسة سينجايوس ماتيرنوس (٣٨٤ـ٣٨٨) والذى كان هو الرجل الثانى فى الإمبراطورية الرومانية الشرقية بعد الإمبراطور تيودوسيوس الأول (٣٧٩ ـ ٣٩٥) ميلادية. هذا الرجل ماتيرنوس كان مسيحيًا متعصبًا، ولهذا لم يَدَع فرصة فى إغلاق المعابد، أو التخلص من أى مظهر للديانة الوثنية القديمة.

فى عام ٣٨٤، قام هذا الرجل مع زوجته، التى لم تكن أقل تمسكًا بالعقيدة منه بزيارة مدينة الإسكندرية، وعندما رأى هيكلاً وثنيًا صغيرًا مقدسًا لدى المصريين غير المسيحيين، قام بهدمه ومنع الناس من تقديم القرابين فى هذا المكان. وقد عبرت إدارة الإسكندرية عن تقديرها لتلك الزيارة السامية بعمل تمثال له بزى مدنى تكريمًا وتعظيمًا لشخصه، مع نص تذكارى يذكر عمل التمثال بأمر الإمبراطور ثيودوسيوس وبناء على طلب أعيان الإسكندرية، وعلى أن يوضع بكل التقدير والتكريم فى أشهر ميادين الإسكندرية[٦٤].

بعد أربعة أعوام أخرى، جاء ماتيرنوس إلى الإسكندرية مجددًا مواصلاً إجراءاته فى تعقب كل ما هو وثنى، وبالطبع كان ثيوفيلوس البطريرك الجديد فى مساعدته بكل طواعية. لقد استمرت هذه الأحداث لعشرات السنين تواصل فيها اضطهاد المسيحيين لأصحاب الديانات الأخرى الذين يدينون بغير المسيحية، وتلاشت فكرة التسامح المسيحية التى أعلنها الإمبراطور المسيحى صوريًا تجاه الوثنيين. لقد حدد هذا التحزُّب الدينى طريقة تفكير وسلوك المواطنين فى مدينة الإسكندرية؛ لدرجة أننا وجدنا يهودًا أيضًا قد شاركوا فى إجراءات سينجيوس فى إغلاق المعابد الوثنية.

هؤلاء اليهود لعلهم كانوا من المتزوجين من مسيحيين أو مسيحيات، وأرادوا بذلك إظهار تعاطفهم مع المسيحية. وعلى أية حال، فقد صدر أثناء زيارة ماتيرنوس تلك مرسوم إمبراطورى يلغى مثل هذا النوع من الزواج . وفى تلك الفترة حدث تقارب بين المسيحيين واليهود فى الإسكندرية، حتى بدا هذا التقارب أشبه ما يكون بالاتحاد ضد أصحاب الديانات الأخرى فى المدينة. ولكن من هم الوثنيون فى المدينة؟ إن الوثنيين هم من كانوا يعتقدون فى معتقدات أخرى غير المسيحية واليهودية آنذاك فى القرن الرابع الميلادى. وكان غالبية سكان المدينة هؤلاء قد خضعوا لضغوط الحكومة واضطروا لتعلم لغة وقوانين أعدائهم النصارى، ولم يكن لهم يوم مقدس مثل يوم السبت عند اليهود والأحد عند النصارى.

ولقد كانت هناك مناسبات عديدة، حاول فيها هؤلاء الوثنيون إظهار تقواهم والتعبير عن مشاعرهم المشتركة من خلال الاحتفالات الدينية، مثل الاحتفال الذى قاموا به فى عام ٣٧٠ ميلادية. ويصف أبيفانيوس هذا الاحتفال قائلاً: "لقد بدا هناك حفل كبير فى معبد الكوريوم بالإسكندرية، وهو معبد كبير مخصص لعبادة الربة الإغريقية كورى ابنة الإله اليونانى زيوس، حيث راح الأتباع يغنون الأغانى والأناشيد الدينية للمعبودة على أنغام النايات. وذلك الحفل استمر طوال الليل وهم يتنقلون من مكان لآخر حتى مطلع الفجر، بينما حمل مجموعة من الأتباع تمثالاً خشبيًا للإلهة وحمل الأتباع الآخرون الشموع. هذا التمثال سابق الذكر للإلهة كان عاريًا، وعلى الجبهة صليب خشبى مغطى بالذهب، كما



(شكل ٦٠): الرقص فى السرابيوم.

وجد كذلك صليبان آخران فى اليدين وصليبان آخران على الركبتين. وكان على الأتباع هؤلاء أن يدوروا بالتمثال سبع مرات فى قلب المعبد فى شكل دائرى بصحبة عزف النايات والأناشيد الدينية. بعد ذلك يصيحون قائلين: اليوم، وفى هذه الساعة ولَدت الإلهة كورى، الإلهة البكر البَتُول ابنها المقدس آيون"(٦٥).

هذه الصورة المرسومة آنفًا لهذا الحفل نراها واضحة فى (شكل٦٠). هذه الطقوس حدثت فى الإسكندرية، ولكنها فى الواقع تعود فى أصولها إلى مصر القديمة، حيث إنه لو نظرنا إلى الجزء العلوى من الشكل نستطيع أن نرى بوضوح الإله أبيس فى شكل عجل قوى؛ بالإضافة إلى عدد من الحيوانات المقدسة الأخرى عند المصريين القدماء. أما الجزء السفلى من الصورة، فهو عبارة عن شريط طويل من طيور أبى منجل المقدسة(*) عند المصريين القدماء. ثم نرى فى الوسط المطربين وهم يقومون بالغناء والتصفيق بأيديهم، ثم نرى منصة مزينة بأكاليل الزهور هذه المنصة تقع فى أقصى يمين المنظر. كما نرى الراقصين أيضًا وهم منهمكون فى رقصهم الفريد من نوعه. حيث حاول الفنان

---

(*) طائر أبى منجل أو الإيبس، هو رمز الإله جحوتى (توت)، إله الحكمة والكتابة عند المصريين القدماء. (المراجع).

إظهار حركات الأرداف عند الراقصين، وهنا اختلط الرجال بالنساء والأطفال في الرقص.

وهنا لا بد لنا من العودة إلى الإمبراطور ثيودوسيوس الأول الذى أراد أن يظهر بمظهر الإمبراطور المسيحى المتشدد، حيث إنه اتخذ الكثير من الإجراءات المتعسفة ضد غير المسيحيين، من بين ذلك أنه فى فبراير عام ٣٩١، أصدر قرارًا بمنع تقديم أى قرابين فى أى معبد لأى آلهة أخرى، مما أجبر أصحاب الديانات الأخرى على ممارسة طقوس دياناتهم سرًا وفى منازلهم حتى لا يتعرضوا لعقاب الإمبراطور. وبالتالى منع حكام الإسكندرية من الذهاب إلى المعابد لتقديم القرابين لها كما كان فى السابق. رويدًا رويدًا راحت الكنيسة تقوم بدور المعبد السابق، وتستولى على كل اختصاصاته، كما اتخذت كل الشكل الكنسى المسيحى. ومع تنامى دور الكنيسة تنامى معها دور القساوسة وراحوا يطمحون فى أن يكون لهم دور سياسى أكبر ودور اجتماعى أعمق.

فى عام ٣٩١ ميلادية، حدث صراع بين المسيحيين وغيرهم، وذلك أن القسيس المسيحى ثيوفيلوس حاول الاستفادة من الوضع المسيحى الجيد فى مصر وتحقيق المزيد من المكاسب على حساب غير المسيحيين. ويخبرنا المؤرخ روفينوس بأن سبب الصراع كان السرابيوم، حيث إن بعض العمال راح يرمم كنيسة مجاورة للسرابيوم، وقد وجد العمال المسيحيون جزءًا مقدسًا من معبد قديم يرجع لعصر الإمبراطور قسطنطين الثانى، وفوق هذا المعبد أقام المسيحيون كنيستهم فى عام ٣٦٢ ميلادية، وعندما عثر المسيحيون على المعبد كانت به بعض التماثيل المقدسة لدى اليونانيين بالإسكندرية(٦٦).

عند ذلك أمر البابا المسيحى بالإسكندرية بوضع هذه التماثيل المقدسة لدى اليونانيين على عربة والسير بها فى مدينة الإسكندرية والسخرية بها والتندّر عليها من قِبل مسيحيى الإسكندرية، مما أدى ذلك بدوره إلى ثورة اليونانيين بالإسكندرية ضد المسيحيين، عندئذ قام المسيحيون بضربهم وقتالهم فى الطرقات، وبذلك انتهى هذا الصراع نهاية دموية مأساوية. ويقول الراهب اليونانى هيلاديوس الذى كان راهبًا للإله آمون ـ زيوس بالإسكندرية، إنه

اضطر للدفاع عن نفسه بيديه ضد المسيحيين حتى استطاع النجاة، وفضل بعدها الرحيل إلى القسطنطينية، حيث قـام بالتدريس فيها. ثم قام المسيحيون بعد ذلك بمحاصرة عدد من الوثنيين فى منطقة السرابيوم بالإسكندرية واضطر مسئولو مدينة الإسكندرية إلى اللجوء إلى قيصر روما بعدما وجدوا أن المحاصرين قد حولوا السرابيوم إلى قلعة محصنة قد تكلف المهاجمين خسائر كبيرة. وفى واقع الأمر، كان مصدر هذا الصراع هم القساوسة المسيحيين والرهبان ومسئولى الكنيسة، هؤلاء جميعًا هم الذين أثاروا الشعب المسيحى بالإسكندرية ضد اليونانيين والوثنيين.

ومن الناحية الأخرى، كان للوثنيين أيضًا محدثوهم من ذوى البلاغة والقدرة على الإقناع، حسبما أخبرنا به الكاتب المسيحى رفينوس، ومن بين هؤلاء الكاتب والفيلسوف أولمبيس[٦٧]، والذى كان من أشد أنصار السرابيوم بالإسكندرية. وقد حاول كثيرًا أن ينقذ السرابيوم من أيدى المسيحيين مستخدمًا فى ذلك بلاغته وتلاميذه، ولكن مع كل هذا التأثير الثقافى الوثنى فقد ظلت ثقافته الوثنية مقصورة على دائرة صغيرة من تلاميذه[٦٨].

لقد كان فى مقدرة البابا تجنيد الشعب المسيحى وحشده للقيام بالمظاهرات والثورات، واستمر فوران المسيحيين ضد اليونانيين غير المسيحيين حتى وصل من الإمبراطور الرومانى ثيودوسيوس، والذى كان بدوره مسيحيًا، مكتوبٌ ضمَّنه تحذيرًا لغير المسيحيين بالإسكندرية، يأمرهم فيه بهدم دور عبادتهم لأنها هى السبب فى الاضطرابات التى حدثت حسب رأيه. كما أن الإمبراطور فى خطابه هذا سبّ الآلهة القديمة، مما كان له أثر سيئ فى نفوس غير المسيحيين، لهذا انتابهم الرعب وفروا متفرقين إلى جهات شتى تاركين الساحة بأكملها للمسيحيين، عند ذلك هجم المسيحيون على المعبد وحطموا تمثال سيرابيس بادئين بأيدى وأرجل التمثال، ثم أكملوا تحطيم بقية أجزاء التمثال وأحرقوها ونثروها بعد ذلك فى كل مكان بالمدينة، ثم هجم الرهبان والقساوسة على منطقة السرابيوم وملؤوها بالقاذورات والأوساخ.



(شكل ٦١):
مقياس النيل.

ولم يكن السرابيوم مكانًا للعبادة فقط، بل كان يحتوى على مقياس للنيل أيضًا. وقد كان المقياس هنا رمزًا للحياة عند المصريين فى كل مكان، وقد عُثر فى مدينة صفورية الفلسطينية على فسيفساء من الإسكندرية بها شكلان إلهيان مجنحان وهما يقومان بحفر الأرقام على مقياس النيل (شكل ٦١). وفوق هذا المقياس يستطيع المرء قراءة الأرقام ١٥، ١٦، ١٧، حيث إن مؤسس مدينة الإسكندرية رَاعَى أن يأخذ من الفراعنة هذا النظام القديم وهو مقياس النيل وعمل به فى مدينته الإسكندرية[٦٩]. فى عام ٣٩١ عندما هدم النصارى السرابيوم ومقياس النيل الذى كان يقع به، قام النصارى بوضع مقياس النيل فى الكنيسة ولكن النيل فى هذا العام ارتفعت مياهه وأغرقت الكثير من الأماكن

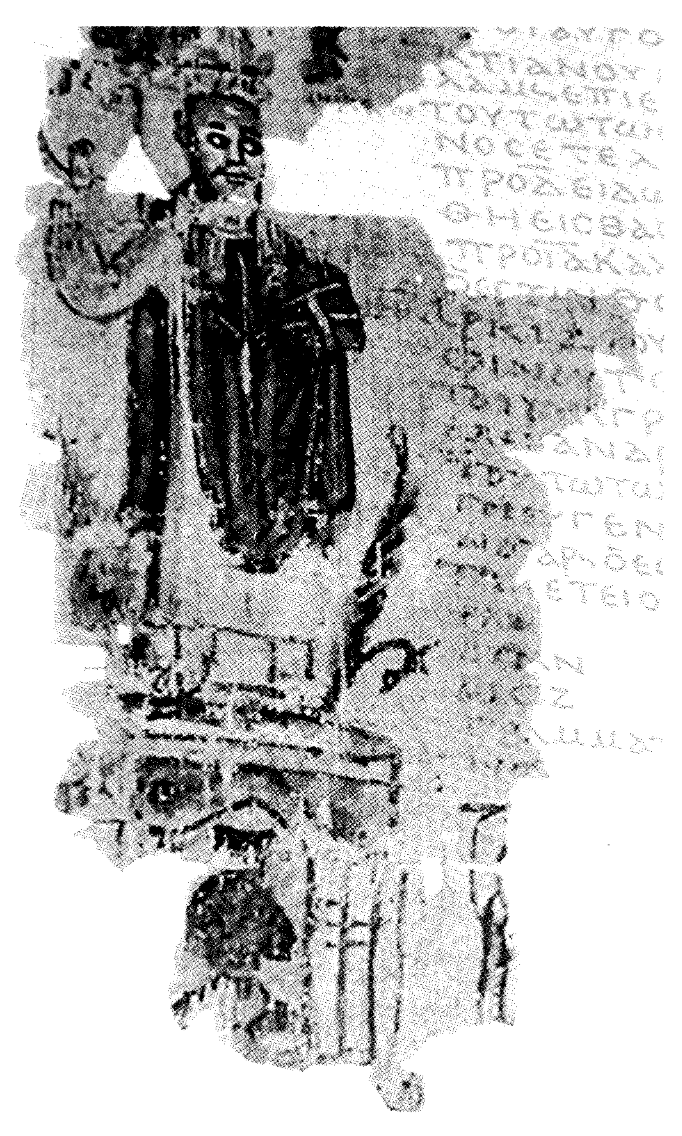
والمناطق حتى كادت مدينة الإسكندرية ذاتها أن تغرق، عند ذلك راح اليونانيون غير المسيحيين يسخرون من النصارى ويتندرون عليهم[٧٠]. ثم إنه فى القرن السادس راحت الكنيسة تقنع المسيحيين بتفسيرات دينية إذا ارتفع منسوب مياه النيل أو انخفض[٧١].

وبالرغم من تحطيم المسيحيين للسرابيوم، فإن اليونانيين عبدوا الإله سيرابيس خفية وأحبوا السرابيوم أيضًا خفية، وإن لم يكن ذلك مرئيًا أو ملحوظًا. وفى هذه الجزئية، يروى المؤرخ أيونابيوس من ساردس فى مؤلفه عن الصوفية من بداية القرن الخامس الميلادى، فى سياق حديثه عن الفيلسوف أنطونيوس الذى تُوفِّى قُبيل تدمير معبد سيرابيس قائلاً: "إن الفيلسوف أنطونيوس قد تنبأ قبل وفاته لأصدقائه بأن معبد السرابيوم سوف يحل به الخراب وسوف ينضوى فى الظلال، وأن ظلامًا لا حدود له سوف يغطى كل الأشياء الجميلة على الأرض".

ويعلق أيونابيوس على كلامه قائلاً: إن الأيام قد أثبتت صدق نبوءة أنطونيوس[٧٢]. وعندما علم ثيودوسيوس بذلك، قام بتقديم الشعر والمديح للمسيح أن مكَّنه من القضاء على الملحدين دون أن تتعرض المدينة لأية أضرار[٧٣]. وقد استغل الإمبراطور هذا الحدث أيضًا بأن قام بإصدار مرسوم للحاكم العسكرى فى مصر وقائد القوات الإقليمى يقول فيه: "لا تسمح لأحد بأن يقدم قربانًا أو يدخل معبدًا أو أن يقدس هيكلاً". ثم يكمل روفينوس سرده مشيرًا إلى حدث آخر وقع بعد عدة أعوام قليلة وهو معركة فريجيدوس Frigidus (حاليًا مدينة ويباخ فى شمال إيطاليا)، والتى انتصر فيها الإمبراطور المسيحى ثيودوسيوس على الإمبراطور الغربى المغتصب أيوجينيوس Eugenius الذى اعتمد فى معركته على تلك الآلهة القديمة.

ونرى هنا صورة على ورقة بردى ترجع إلى القرن الخامس الميلادى، توضح لنا نصر المسيحيين على غير المسيحيين (شكل ٦٢)، حيث نرى من الناحية الشمالية ثيوفيلوس كبير الرهبان يقف فوق السرابيوم فى يده اليسرى يحمل الأناجيل ويرفع يده اليمنى علامة النصر، كما أنه محاط بفرع شجرة نبيلة رمز العلو والتفوق. وعلى النقيض الآخر أظهر المسيحيون أن أيوجينيوس

وهو قائد غير المسيحيين الذى استند على الآلهة القديمة نراه هنا ملقى فى التراب حقيرًا وضيعًا كما صوره المسيحيون. وهنا نرى صورة الجيش المنتصر دائمًا صورة مضيئة ومشرقة، تمامًا كما هى صورة الإمبراطور الرومانى فى قديم الأزمان، وهذا يعطينا فكرة بأن هناك حربًا قد حدثت بين غير المسيحيين والمسيحيين يعاونهم الإمبراطور الرومانى، وتم النصر للمسيحيين والرومان معًا على غير المسيحيين.



(شكل ٦٢):
ثيوفيلوس فوق
السرابيوم.

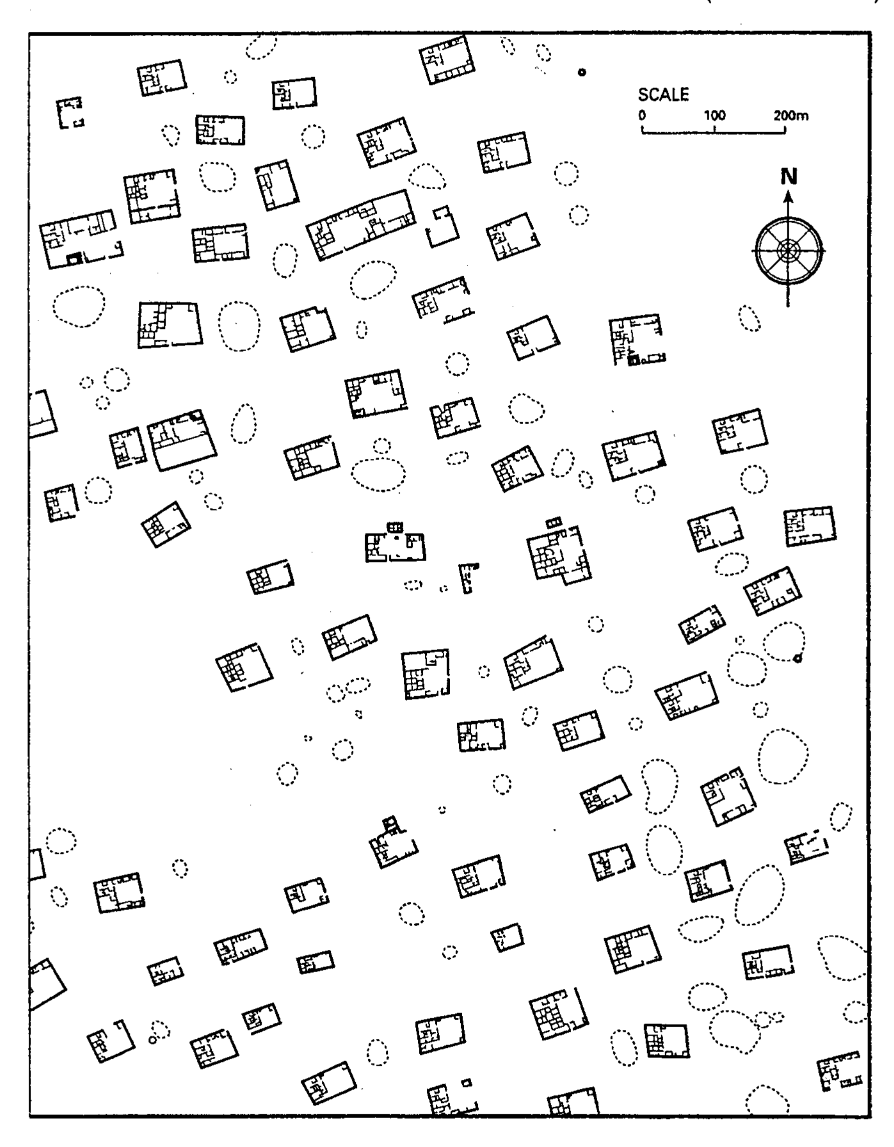
لم يهدم المسيحيون السرابيوم فحسب، بل هدموا معه العديد من المعابد الأخرى[٧٤] مثل معبد تايكة حامية المدينة وجالبة حظها وسعدها. وقد أخبرنا بهذا الكاتب السكندرى بالاداس، والذى أصدر مؤلَّفه حوالى عام ٤٠٠م، وقد تُوفِّى بعد ذلك بثلاثين عامًا، وكانت حياته حافلة بالمعاناة بين زوجة مشاكسة وفشل فى حبه لسيدة تُسمى هيباتيا، إلى جانب حزنه على انهيار الوثنية. ولقد وصل إلينا من أشعاره ١٥٠ قصيدة تتحدث كلها عن هذه المشكلات التى سردناها آنفًا. وقد تعدت شهرة هذا الشاعر حدود مدينة الإسكندرية؛ حتى إننا حصلنا على أشعار له مكتوبة على حوائط مدينة إفيسوس.

لقد وصف بالاداس تحول معبد تايكة جالبة الحظ السعيد إلى حانة يجلس بها السكارى[٧٥]، وقد كان وصفه هذا يقع فى ثلاث قصائد حزينة بالرغم من أن تايكة لم تجلب له أى حظ سعيد؛ بل إنه عاش حياة تعيسة. ويقول الشاعر بالاداس فى إحدى قصائده عن الإلهة تايكة: "أنت أيتها الإلهة جالبة الحظ السعيد لقد صرت الآن ذكرى، لقد صرت الآن سُبَّة، وما عدتِ قادرة على جلب الحظ لنفسك، أنت من كان لك معبد، صرت الآن امرأة تصب الخمر للسكارى، وغدوت الآن خادمة للأنذال[٧٦] ".

لقد كان صعبًا على أتباع الآلهة تايكة تقبُّل هدم معبد إلهتهم، ولكنهم تمكنوا من إنقاذ بعض التماثيل الإلهية من المعبد. ويروى المؤرخ ثيوفيلاكتوس من القرن السابع الميلادى أن تمثال الإلهة تايكة قد نزل من قاعدته ذات ليلة وتنبأ بموت الإمبراطور موريشيوس[٧٧]. فى نهاية القرن الخامس الميلادى وبداية القرن السادس الميلادى، حدث وأن أحرق المسيحيون الكثير من تماثيل الآلهة القديمة أمام معبد الإلهة تايكة، بينما كان تمثال الإلهة تايكة يشاهد ذلك، وهذا يعطينا فكرة عن أن المعبد فى تلك الأثناء كان موجودًا لم تتم إزالته. بعض التماثيل الإلهية الأخرى صهرها المسيحيون مثل تمثال أيروس الذى تحدث عنه الشاعر بالاداس فى شعره[٧٨].

فى فترة ثيوفيلوس ازدهرت الأديرة المسيحية وعلا شأنها؛ حتى إن المؤرخ بالاديوس يقول إن الإسكندرية قد صار بها ٢٠٠٠ راهب وفى منطقة وادى النطرون صار بها ٥٠٠٠ راهب[٧٩]، وإننا نعتقد (أى مؤلف الكتاب) أن

هذه الأرقام صحيحة لأن عدد الأديرة فى هذه الفترة وصل إلى ١٦٠٠ دير[٨٠] (انظر شكل ٦٣).




(شكل ٦٣): منظر توضيحى لدير قليا.

كل دير من هذه الأديرة سابقة الذكر كان يحتـوى علـى جـزعين مـن المبانى؛ جزء مخصص لإقامة الرهبان، وجزء آخر كان مخصصًا لاستقبال

الضيوف، وبه قسم منفصل عبارة عن مطبخ وآخر للصلاة، كما كان فى كل دير بئر محفورة للمياه. كما أن الدير كان يحيط به سور من الخارج، كما كان بداخل كل دير حديقة بها بعض المزروعات وكنيسة صغيرة. وإذا حدث ذات مرة أن دعا كبير الكهنة بالإسكندرية الرهبان من المناطق المجاورة للإسكندرية إلى الحضور، فإن هناك جحافل جرارة من الرهبان كانت تتجه إلى الإسكندرية العاصمة الرئيسية. لقد كان مثل هؤلاء الرهبان هم الذين قاموا بهدم السرابيوم بمنطقة كانوب وبنوا فوق مكانه دير ميتانويا. أما فيما بعد، فاستطاع ثيوفيلوس بطريرك الإسكندرية أن يجعل هؤلاء الرهبان دائمًا جيشًا خاصًا به وبأغراضه.

فى القرن الرابع الميلادى، واجه الراهب الأكبر ثيوفيلوس مشكلة كبرى فى العقيدة المسيحية جاءته من الصحراء. هذه المشكلة هى أن الرهبان الذين كانوا يعيشون فى أديرة تقع فى الصحراء كانوا يعتقدون أن الإله يسوع المسيح[٨١] ما هو إلا بشر مثلهم له أرجل وأيدٍ وأعين وأنف وفم. وفى الخطاب السنوى الذى كان ثيوفيلوس يقوم بإلقائه فى عيد القيامة، هاجم بابا كنيسة الإسكندرية ثيوفيلوس هؤلاء الرهبان الذين كانوا يعتقدون فى طبيعة المسيح البشرية[٨٢]، وكانت توجهاته هو تتفق مع زميله سيتريوس فى مدينة بطلميوس، وتتشابه مع آراء أوريجنس، الذى أنكر أن أجساد الأموات سوف تعود إلى حالها فى الآخرة، وأكد أن الرب لا جسد له.

هذا، وقد استشهد ثيوفيلوس بآراء أوريجنس لكى يؤكد وجهة نظره. ولكن بقية الرهبان فى مصر لم يعجبهم أن يتحد الراهب ثيوفيلوس مع الراهب أوريجنس فى الرأى، وقال الرهبان لثيوفيلوس إنك إن لم تقطع علاقتك بالقس أوريجنس وتحاكمه فسوف نعلن عليك العصيان، وسوف نعتبرك كافرًا وعدوًا للرب[٨٣]. مثل هذا التهديد والوعيد لم يسمعه ثيوفيلوس من أحد من قبل طيلة حياته. ومن شدة خوفه من الرهبان فإنه وافقهم على رأيهم وسب الراهب أوريجنس ولعنه بأبشع الشتائم، قائلاً عنه إنه عجوز أخرق وإن أفكاره ما هى إلا أعمال فلاسفة بالية[٨٤]. وبهذا الوابل من السباب واللعن من ثيوفيلوس ضد أوريجنس يكون قد أنقذ حياته من رهبانه الذين توعدوه بالقتل؛ ولكنه فى الوقت نفسه أغضب أتباع أوريجنس وأثار حفيظتهم. ولم ينتظر ثيوفيلوس وأتباعه من

الكهنة الآخرين طويلاً، بل إنهم هاجموا أديرة وادى النطرون وأعملـوا فيهـا الهدم والتخريب وذلك لأنها كانت معقل أتباع الراهب أوريجنس. وبهذا الصنيع الذى قام به ثيوفيلوس ضد منطقة قِلِّيا ووادى النطرون انقسم الرهبان فى هاتين المنطقتين إلى قسمين متصارعين كل منها يـصارع الآخـر؛ وبـذلك تركـا الإسكندرية وكنيستها فى سلام وتفرغا لصراعهما ضد بعضهما البعض.

إن بابوات الكنيسة بالإسكندرية كانوا يضعون فى حسابهم أنهم سادة البلاد وأنه لا يستطيع أحد أن يمسهم بسوء ولكن فى بعض الأحيان كان يحدث ما لم يكونوا يتوقعونه، حيث إن مدينة الإسكندرية كانت محكومة من قِبَـل مجلـس شيوخ وقد ظل هذا المجلس هو المسئول عن إدارة شئون المدينة. ولكننا لا نعلم إلى أى مدى كان غير المسيحيين ممثلين فيه؟ وهل كانوا يمثلون أغلبية فيـه أم لا؟ ومن الدلائل التى توضح لنا عدم قدرة رجال الدين على السيطرة على كـل شىء كما كانوا يتصورون هو أن بطريرك الكنيسة ثيوفيلوس حاول ذات مـرة لأسباب غير معروفة طرد الخادم الذى كان يقوم على خدمة الفقراء والمرضى من المسيحيين؛ متهمًا إيَّاه بإتيان الفاحشة مع الحيوانات! ولم يقتنع المجلس بهذا السبب واعترض أتباع سيرابيس من غير المسيحيين على ذلك بقـوة مؤيـدين المسيحيين فى ذلك، وفشل البطريرك فى ذلك. وكان على الوثنيين أن يـدفعوا ثمن ذلك فيما بعد، وقد تحقق ذلك على يد خليفة ثيوفيلوس وابن أخته المـدعو كريل، وقد كان هذا الأخير أكثر شراسة من خاله ثيوفيلوس وأشد منـه فتكًـا وأدهى منه مكرًا وتدبيرًا.

**ويستمر الصراع ـ القديس ضد سيرابيس**

إن السمعة التى انطلقت من مدينة كانوب بجوار الإسكندرية ظلت مرافقة لهذه المدينة لمئات الأعوام؛ حتى إن هناك حكاية بهذا الشأن تقـول إن هنـاك امرأة تُسمى ماريا، هذه المرأة كانت تعيش فى الإسكندرية مـن البغـاء، وقـد أمضت بالمدينة ١٧ عامًا ثم أرادت أن تتوب وتحج إلى الكنيسة المقدسـة فـى فلسطين، ونظرًا لأنها لم تكن تملك ثمن الرحلة كى تدفعه للباخرة التى تقلها إلى فلسطين فإنها عرضت على طاقم الباخرة أن تكون تحت تصرفهم كلما رغبـوا

فيها وذلك عوضًا عن المال. وقبل طاقم الباخرة هذا العرض وسافرت معهم عن طريق البحر إلى أورشليم القدس. وهناك عند كنيسة القيامة ببيت المقدس اعترضتها قوة خفية ومنعتها من الدخول، وذلك بسبب تاريخها وماضيها الملوث. وهناك وجدت نفسها أمام صورة للعذراء ـ السيدة مريم والتى سُميت على اسمها ـ فمدحتها وعقدت العزم أمامها على التوبة النَّصوح وألا تعود إلى ما كانت عليه. وعندما عادت مرة أخرى إلى كنيسة القيامة استطاعت الدخول دون عائق، وهناك عند قبر المسيح أعطاها رجل ثلاث قطع من النقود. ومن هذه النقود اشترت ماريا ثلاثة أرغفة من الخبز وذهبت إلى نهر الأردن وغسلت شعرها لإزالة ما كانٍ به من عطر والذى كانت تتصيَّد به الرجال، وقد عاشت بعد ذلك سبعة وأربعين عاما أخرى فقط على هذه الأرغفة الثلاثة لم تحتج إلى أى طعام آخر (٨٥). مثل هذه الأساطير والحكايات حاكها المسيحيون ببراعة وإتقان؛ حتى يزيلوا أى هاجس أو شك عقائدى فى نفوس البشر المقبلين على ديانتهم المسيحية.

قبل مجيء المسيحية، كانت عقيدة سيرابيس سائدة ومنتشرة بالإسكندرية وما حولها، حتى جاء عام ٣٨٩ ميلادية حيث قام المسيحيون بهدم السرابيوم بالإسكندرية وهدم معبد سيرابيس فى كانوب، ومن هنا بدأت المسيحية تغلب وتنتشر. وفى المقابل ضعفت عقيدة سيرابيس واندثرت.

لقد كانت منطقة كانوب منطقة ساحرة خلابة للكبار والصغار فى وقت واحد، ولطالما ركب كل منهم قاربًا واتجه به إلى كانوب سواء للعبادة والصلاة أو المتعة والطرب وقضاء أوقات طيبة. لقد كان سرابيوم مدينة كانوب دائمًا عامرًا بالمصلين والسائحين والمتفرجين على ما به من تماثيل إلهية مقدسة(٨٦). ومن بين الحكماء الوثنيين الذين وصفهم أيونابيوس، كان "أنطونيوس". لقد استقر هذا الحكيم فى كانوب بعد أن كرس نفسه لسرابيس رب هذه المدينة ولمعبده، وعُرف عنه أنه كان متحدثًا بارعًا وكان أيضًا عرافًا، وكذلك أمه سوسيبتارتا. وقد ذاعت شهرته لدرجة أن الحجاج الذين كانوا يأتون من كل حدب وصوب لزيارة المعبد، كانوا بعد أن يقدموا قرابينهم للإله يتدافعون إليه فضولاً لقداسته ومعرفته. بعد وفاة أنطونيوس بوقت قصير، تم هدم سرابيوم

مدينة كانوب هو الآخر. ويقول المؤرخ أيونابيوس وهو يعتصر من الألم والحسرة، إن الجنود قاموا بهدم المعبد حتى الجدار السفلى منه. كما يقول المؤرخ نفسه إن الرهبان فى زيهم الأسود البغيض لم يكونوا يحملون من الإنسانية شيئًا أو شبهًا سوى الشكل الخارجي.

ثم إنه بعد ذلك تقوقع أتباع سيرابيس فى منطقة مينوتيس وبنوا هناك معبدهم، وتجمع حوله أتباع سيرابيس وبدا وكأن ديانتهم سوف تزدهر بعض الشيء، حيث جذبت الوثنيين والنصارى على حد سواء بغرض الشفاء؛ ولكن بطريرك الكنيسة الجديد كريل قام بهدم هذا المعبد الجديد فى مينوتيس فى عام ٤١٤ ميلادية، حيث قال البابا معللاً ذلك بأنه حلم حلمًا مؤداه أن ملاكًا طلب منه فى منامه أن ينقل رفات القديسيْن كيروس ويوحنا من كنيسة مرقص إلى منطقة مينوتيس، تلك المنطقة التى كان بها السرابيوم. وقد نُقل كلاهما بالفعل إلى مينوتيس، والتى عُرفت بعد ذلك باسم "أبو قير" المأخوذ من اسم أبا كيروس أو الأب كيروس(٨٧). بعد ذلك راح البطريرك كريل يخطب فى المسيحيين ويقول لهم: "الآن وضعت لكم رفات أبيكم كيروس فى مينوتيس لكى تكون لكم شفاء وبركة من الرب، شفاء لكم من أمراضكم وأوجاعكم بإذن الرب، شفاء من غير ثمن أو مقابل(٨٨). إن الصحة والعافية والطاقة سيمنحها لكم كيروس والرب. هنا فى مينوتيس الأطباء الربانيون الذين أعطاهم الرب القدرة على الشفاء والعافية، حيث يقول لهم الرب استقبلوا المرضى واشفوهم، خذوا العطية (منى) وأعطوا لهم".



(شكل ٦٤): رأس الإله سيرابيس.

أحد مراكز عبادة سيرابيس الأخرى كان في منطقة هيراكليون بالإسكندرية، حيث عثر الأثريون على بعض القطع الأثرية الغارقة تحت الماء، وهى عبارة عن رأس الإله سيرابيس (شكل ٦٤)، ويبلغ ارتفاعه نحو ٦٠ سم، ويُفترض أن جسم التمثال يكون سبعة أضعاف الرأس(*)، كما وجدت أيضًا سلة مليئة بالفواكه. ورغم الدمار الذى لحق بالسرابيوم، فإن ذكرى ذلك الإله الشافى بقيت مطبوعة فى ذاكرة الناس حتى خارج مصر. وكان الزائرون يأتون للاستشفاء من كل مكان؛ مما كان له عائد اقتصادى كبير. وهكذا سعى النصارى ألا يفقدوا ذلك المصدر، فقاموا بإحلال وسائل العلاج الوثنية بعلاج مسيحى باللجوء للقديسين وكذلك بالعلاج الطبيعى[٩٠]. أما عن طريقة العلاج والمداواة التى ابتكرها المسيحيون فى منطقة مينوتيس، فكان يقوم بها الكهنة وهى تعتمد أصلاً على الأعشاب. وفى الواقع، فإن العلاج بالأعشاب لم يكن ليستطيع المرء أن يعالج به كل الأمراض بل إنها كانت وسيلة ضعيفة وغير ناجعة فى حالات كثيرة. وذات مرة قام طبيب سكندرى كان يعمل أستاذًا للطب بجامعة الإسكندرية التى ما زالت قائمة حتى الآن بزيارة هذا المركز المسيحى الطبى، وأبدى رأيه فى هذا المركز الذى لم يكن ليصلح لعلاج المرضى على الإطلاق، لأن الرهبان ليسوا بأطباء. عند ذلك اجتمع عليه الرهبان وعاقبوه بأن ألبسوه دُمْية تشبه شكل الحمار وقيدوا يديه، وأمروه بأن يدور حول مركزهم العلاجى هذا عشر مرات وهو يصيح قائلاً: "أنا مجنون وفى قمة الغباء"، وذلك عقابًا له على التصريح الذى أدلى به[٩١].

وهناك الكثير من الحكايات حول هذا المركز الطبى المسيحى فى منطقة مينوتيس بالإسكندرية، إحداها تقول بأن هناك امرأة جاءت إلى هذه المنطقة بغرض الاستشفاء، وقد بدأت فى الشفاء بمجرد دخولها بوابة الشمس وعادت متعافية إلى مينوتيس. مثل تلك الروايات، كانت تعكس أيضًا ذلك الصراع بين أتباع الطبيعة المزدوجة والطبيعة الواحدة من المسيحيين، وكان معظم سكان المنطقة حول كانوب من أصحاب الطبيعة المزدوجة، وكانوا يرفضون أصحاب الطبيعة الواحدة. والمعروف أن كيروس الراهب الشافى ورفيقه يوحنا كانا من

---

(*) من ثَم يكون ارتفاع التمثال حوالى ٤,٢٠ متر.

أنصار مذهب الطبيعة المزدوجة، أو المذهب الديفوزيقى(*)؛ هذا المذهب يؤمن بأن المسيح ذو طبيعة بشرية مثله مثل البشر تمامًا إلى جانب الطبيعة الإلهيـة. وقد رُوى أن شابًا غنيًا مـن أتبـاع المـذهب المـسيحى الآخـر والمـسمى المونوفيزيقى؛أى أن أتباع ذلك المذهب يؤمنون بأن المسيح ذو طبيعـة إلهيـة واحدة كما يؤمنون بأن المسيح إله. وقد أراد هذا الشاب أن يُعـالج فـى هـذا المركز ولكن الكهنة رفضوا معالجته حتى يغير مذهبه ويـصير مـن أتبـاع مذهبهم. وعندما فعل الشاب ذلك بغية العلاج، أذاع الرهبان ذلك الخبر واحتفلوا به واعتبروه نصرًا لهم على أتباع المذهب الآخر. أما أتباع الإلـه سـيرابيس فإنهم أيضًا كانت لهم حكاياتهم التى تمجد عقيدتهم وتشد من أزرها، حيث تقول إحدى هذه الحكايات إن شخصًا مرتدًا عن عقيدة سيرابيس زار الكنيسة ولكنـه بعد زيارتها بثلاثة أيام تُوفّى، أى انتقمت منه الآلهة القديمة لدخوله الكنيسة.

نعم، لقد استطاع المسيحيون تحطيم السرابيوم فى الإسـكندرية وكـانوب وهيراكليون؛ ولكنهم لم يستطيعوا إزالة الإله سيرابيس من عقول وقلوب أتباعه الذين كانوا يؤمنون به. وهناك حكاية طريفة ذكرها يوحنا موشوس فى القـرن السابع الميلادى تتعلق بالمسيحية وأتباعها وكذلك أتباع سيرابيس. هذه الحكايـة تقول إن هناك رجلين قد حوكما وحُكم عليهما بالإعدام، أما أحدهما فهو رجـل مسن من أتباع سيرابيس. أما مكان تنفيذ الإعدام فى كلا الرجلين، فكـان فـى منطقة كانت تقع بالقرب من معبد كرونوس القديم والذى تم هدمـه علـى يـد المسيحيين. وعند وقت تنفيذ الإعدام قال الشاب الصغير: أريد أن تقوموا بشنقى ولكن فى لحظة أن تولوا وجهى قِبل المشرق، عند ذلك سـأله الجنـود الـذين يقومون بتنفيذ حكم الإعدام لماذا؟ فأجاب: لأننى قد اعتنقت المسيحية منذ سبعة شهور، عند ذلك تأثر الجنود بذلك وراحو يبكون ويرثونه. أما الرجل العجـوز فقال لهم: بحق سيرابيس أرجو أن توجهـوا وجهـى نحـو كرونـوس (أبـو سيرابيس).

وهنا نلاحظ فكرة الربط بين الرجل العجوز وسيرابيس الذى يُـصور فـى هيئة الأب (شكل ٦٥). ونرى هنا تمثالاً نصفيًا للإله سيرابيس يحمل فوق رأسه

(*) الطبيعة المزدوجة للمسيح، أى الناسوتية واللاهوتية.

سلة بها فاكهة؛ هذه السلة مزينة بأغصان الزيتون. ولقد بدأ الجنود بتنفيذ حكم الإعدام فى هذا الرجل العجوز أولاً، وفى هذا تجسيد لفكرة نهاية العقائد الوثنية القديمة. أما الفتى الذى اعتنق المسيحية، فقد كُتبت له النجاة، عندما ظهر فجأة رسول من قِبل حاكم الإسكندرية ممتطيًا جواده وأخبرهم بأن حاكم الإسكندرية قد عفا عنه وأمرهم بأن يتركوه حرًا طليقًا، فلم يستطع الجنود المسيحيون إخفاء فرحتهم وراحوا يهللون ويتصايحون. وبالطبع لا يخفى المغزى المعنوى للقصة(٩٢).



(شكل ٦٥): تمثال نصفى للإله سيرابيس.

إن حكام مدينة الإسكندرية كانوا كثيرًا ما يخشون الشعب السكندرى وانتقامه، حيث إن من عادات هذا الشعب إذا غضب وضاق صدره بأحد الحكام راحوا يقذفونه بالحجارة والنيران(٩٣). ولم يكن يستطيع المرء أن يصبح حاكمًا لمدينة الإسكندرية بسهولة، بل إن الحكام كان عليهم الصراع من أجل هذه المكانة. نفس الشىء كان يقوم به بابوات الكنيسة الذين كان يتم انتخابهم من قبل مجلس كنسى معروف، وقد كان يتزعم هذا المجلس راعى الكنيسة الأكبر هيرونيمس الذى كان له دائمًا أصابعه الخفية فى اختيار رؤساء وبابوات الكنائس الأخرى. لقد كانت فى الإسكندرية آنذاك فى القرن الرابع الميلادى ثلاث مجموعات كنسية، كل مجموعة تتبع قائدًا بعينه،حيث كانت هناك مجموعات تتبع مذهب أثناسيوس ومجموعات تتبع مذهب أريوس ومجموعات تتبع مذهب مليتيان.

بالإضافة إلى كل هؤلاء، كان هناك عامة الشعب المسيحى الذى كان فى استطاعته أن يحول الحياة فى المدينة إلى جحيم. وعند اختيار المسيحيين لرئيس إحدى الكنائس كان الأتباع والمتشيعون يصيحون بصوت عالٍ منادين باسمه مرددين بقولهم(٩٤): "إنه رجل متدين، وإنه مسيحى زاهد وعابد". ولقد ظل هذا التقليد بأن يعلن العامة تأييدهم عند الاختيار محفورًا فى ذاكرتهم وأنه حق لهم؛ لدرجة أنهم اعتقدوا أن هذه الأمور لا يمكن أن تتم بدونهم. وقد حدث فى عام ٥١٦ ميلادية أن أرسل القيصر مرسومًا قيصريًا نُصّب بموجبه ديوسقورس الثانى رئيسًا للمسيحيين الكاثوليك، وكذلك لرؤساء وأساقفة الكنائس الأخرى المجاورة. ولقد قام الإمبراطور بهذا الإجراء لتجنب الاضطرابات الكثيرة التى كانت تحدث مع الانتخابات العلنية فى الكنيسة. ولكن العامة أصروا على إعادة إجراءات تنصيب رئيس الكنيسة، وأن يكون ذلك بمشاركتهم.

وإذا غضب المسيحيون على رئيس كنيستهم أو أنه كان شخصًا غير مرغوب فيه من قِبلهم، فإنهم يصيحون منادين بأعلى صوتهم بأنه يهوذا الجديد. وقد حدث أنه تم تنصيب لوقا ــ أحد المعارضين لأثناسيوس ــ رئيسًا للكنيسة بالإسكندرية ولم يرغب فيه المسيحيون؛ لذلك راحوا يشتمونه ويصيحون به

قائلين: ألقوا به خارج المدينة وكادوا يفتكون به، لولا أنه خرج من المدينة في حماية قوة عسكرية(٩٥). وقد حدثت هذه الواقعة عام ٣٦٧ ميلادية.

أما البطريرك كريل (٤١٢ـ٤٤٤) فقد كان من البطاركة المحظوظين، إذ جرى انتخابه بلا مشاكل وكان حاكم المدينة أبونداتيس يؤيد منافسًا له، ولكن كريل تمكن من الفوز بعد محاورات ومداولات دامت ثلاثة أيام، وذلك بمساعدة الـ Mobs. ومن ناحية أخرى، فإنه كان ابن أخت البطريك السابق ثيوفيلوس الذى مهد له قبل وفاته، ولكنه لم يعش طويلاً حتى يمكن له تمامًا تولِّى منصبه. وكان على البطريك كريل أن يسير على نفس نهج وسياسة خاله ثيوفيلوس، وبهذا فإن الأمور سارت فى صالحه ولم يواجه أية صعوبات في الحصول على هذا المنصب.

وحتى لا يعيب أحد على الكنيسة آنذاك، تولى ثيوفيلوس وابن أخته كريل كرسى البطريركية(٩٦)، فإن الكنيسة قد روجت لقصة تقول: "إن ثيوفيلوس كان يتيمًا يعيش مع أخته وعبد حبشى تقى. وقد لاحظ ذلك العبد أن بركة الرب تحيط بهما، ومن ثَم قام بتقديمهما للبطريرك أثناسيوس ووضعهما تحت رعايته، فقام أثناسيوس بتعميدهما جاعلاً ثيوفيلوس مرتلاً للأناشيد، وأدخل أخته أحد الأديرة حتى تكبر وتصير صالحة للزواج، ثم تزوجها بعد ذلك وأنجب منها كريل".

وهكذا أعطت تلك الأسطورة الدينية الشرعية لكل من ثيوفيلوس وابن أخته كريل معًا. لقد تم اختيار كريل ليكون بطريرك الكنيسة في الإسكندرية بسرعة وعجالة؛ حتى إنه قد اتخذ الكثير من القرارات المتعجلة نظرًا لعدم إدراكه للكثير من الأمور التى كانت تحدث حوله. كما خصص هيئة كاملة من الكتبة لكى يقوموا بكتابة خطبه ومقالاته ونشرها حتى تصل إلى أبعد مدى بين المسيحيين، كما أنه اتخذ إجراء آخر وهو إعادة هيكلة النظام الكنسى بحيث يصبح القساوسة فى بقية الكنائس الأخرى مرتبطين ومقيدين بالكنيسة الأم بالإسكندرية. بعد ذلك تفرغ كريل للمجموعات المسيحية التى اعتُبر أفرادها تبعًا لقوانين البلاد مرتدِّين عن الديانة المسيحية، والآخرين الذين لم يكونوا يدفعون الضرائب للكنيسة فرض عليهم إجراءات عقابية قاسية، ولم يكن هذا من

اختصاصه كرجل دين بل إنه تخطى اختصاصاته ودخل فى صراع مع حاكم المدينة المدعو أوريستس، وهو ما كان يسعى إليه غالبًا.

ومن أجل أن يحقق كريل أهدافه ويستطيع الصمود أمام مناوئيه، لجأ إلى طريقة قديمة ومعروفة وهى الاتحاد مع أتباعه والانصهار معهم فى رابطة قوية فى مواجهة عدو واحد مشترك، كاليهود مثلاً. لقد كانت العلاقة بين النصارى واليهود بصفة عامة متوترة. بالرغم من ذلك كانت هناك معاملات مشتركة بين اليهود والنصارى وتبادل تجارى، غالبًا ما كان لصالح اليهود، وفى بعض الأحيان كان يدين يهودى مسيحيًا بقدر من المال ولكى لا يدفع المسيحى هذا الدَّيْن كان يلجأ إلى الكنيسة ويختبئ بها؛ لأنه يعلم أن اليهودى لا يجرؤ على دخول الكنيسة[٩٧]. كما أن هناك أيضًا مذنبين يهودًا، أرادوا أن يعتنقوا المسيحية من أجل أن تُرفع عنهم العقوبات.

مثل تلك المعاملات والعلاقات يمكن أن نستخلصها من ذلك القانون الذى أصدره القيصر الرومانى عام ٣٩٧ ميلادية، ويقول فيه: "يُحظر على اليهود الذين عليهم عقوبات أو ديون لأية جهة ويرغبون أن يدخلوا فى المسيحية أن يلجؤوا إلى الكنيسة فرارًا من أصحاب الديون أو المؤمنين إذا قضوا العقوبة أو دفعوا ما عليهم؛ عندئذ يُسمح لهم بالدخول فى المسيحية". كان حاكم الإسكندرية آنذاك يُسمى أوجستالس، ربما كان قد احتال هذا الأخير كى يصدر الإمبراطور هذا القانون نظرًا لازدياد الجالية اليهودية بالإسكندرية آنذاك. ولقد بدا واضحًا أن هناك زيجات مختلطة قد حدثت بين النصارى واليهود، بالرغم من أن الدولة بتوجهها المسيحى المتزايد، كانت تقف ضد تلك الزيجات. وبالرغم من تلك الروابط والعلاقات، فإنه كان يكفى أن ينادى القساوسة للحرب، فكان الشعب يلبى النداء وتنقطع كل العلاقات الطيبة بين الفئتين.

ويُنسب للبطريرك كريل بداية تأجيج الصراع مع اليهود، وقام فى البداية بتغليف دوافعه الحقيقية فى شكل نظرى، مستعينًا فى ذلك بالإشارة إلى مشادة كلامية وقعت قبل نصف قرن فى الإسكندرية بين أثناسيوس ويهودى شهير[٩٨]. ولعب هو على تلك الحادثة، مستخدمًا عنوانها: حوار بين أثناسيوس وزاخايوس". وهناك مقولة شهيرة للبطريك أوجستين من بلدة هيبو فى شمال

أفريقيا تعكس ذلك العداء، يقول فيها: "إن جميع الشعوب التى احتلها الرومان قد انصهرت بعضها فى البعض الآخر وغدا جميعها رومانيًا ما عدا اليهود، فإنهم لم ينصهروا فى أى شعب من الشعوب وظلوا محتفظين بهويتهم تمامًا، مثلهم مثل قابيل(٩٩) قاتل أخيه الذى يعرفه البشر حتى يومنا هذا". لقد كان البطريك المسيحى كريل يعرف تمامًا ما يريد، ووضح هذا من اقتباسه مَقطعًا من أغانى الحِداد اليهودية، يقول: لم يعد هناك مكان تطؤه أقدامنا، اقتربت نهايتنا، اكتملت أيامنا، وجاءت نهايتنا. هكذا تمنى(١٠٠) البطريرك أن يتحقق لهم ذلك.

فى عام ٤١٥، أُقيم حفل ضم المسيحيين واليهود وكذلك حاكم الإسكندرية المدعو أوريستيس وكان مكان الحفل هو مسرح الإسكندرية، فى أثناء هذا الحفل تشاجر المسيحيون واليهود. عند ذلك قال البطريك المسيحى المتعصب أمبروسيوس وهو من مدينة ميلانو بإيطاليا، إن اليهود فى فترة حكم الإمبراطور يوليان (٣٦١ـ٣٦٣) قاموا بهدم كنائس المسيحيين، كما أن مؤرخ الكنيسة سوكراتيس قال إن اليهود كانوا يستفزون المسيحيين فى احتفالاتهم ومراقصهم وبصفة خاصة يوم السبت(١٠١)، وهو يوم الإجازة لدى اليهود، حيث إنهم فى هذا اليوم لا يعملون(١٠٢).

وعندما قام حاكم الإسكندرية سابق الذكر أوريستيس بمطالبة اليهود بتقديم تبرير لسلوكهم خلال تلك الاضطرابات(١٠٣)، أجابوا بأن أحد أتباع البطريك والمسمى هيراكس قد أثارهم واستفزهم، عند ذلك أمر حاكم المدينة بإحضار هيراكس هذا وأمر فى الحال بجلده أمام الحضور. عندئذ قام البطريك المسيحى كريل بتوجيه التهديد لليهود، الذين قاموا على إثر ذلك بعمل مذبحة لبعض المسيحيين، حيث كلفوا عددًا من رجالهم بالخروج إلى الشوارع وهم يصيحون قائلين: أنقذوا كنيسة الإسكندر، أنقذوا كنيسة الإسكندر إنها تحترق. عند ذلك خرج المسيحيون من منازلهم فزعين مهرولين نحو الكنيسة، وعندما اجتمع المسيحيون فى مكان واحد هجم عليهم اليهود هجمة رجل واحد وأعملوا فيهم القتل والذبح. وحتى لا يُضار اليهود المهاجمون، فإنهم وضعوا حول أجسامهم غطاءً غليظًا من لحاء الأشجار حتى يتعرفوا على بعضهم البعض من خلاله. وفى اليوم التالى من هذه الأحداث، قاد البطريك المسيحى كريل بنفسه

المسيحيين وتقدمهم فى الهجوم على منازل اليهود ونهبوها حتى لم يبق بها شىء نافع، ثم اتجه البطريك ومن معه من المسيحيين بعد ذلك إلى معابد اليهود وأوسعوها هدمًا وتخريبًا ونهبًا[١٠٤]. فى النصف الثانى من القرن السابع، أخبرنا البطريك يوحنا من وجهة نظر مسيحية عن هذه الأحداث قائلاً: "إن المسيحيين فى ثورتهم قاموا بالاستيلاء على معابد اليهود وحولوها إلى كنائس".

إن الهجوم المسيحى العنصرى على اليهود فى عام ٤١٥، يُعد نهاية وجود طوائف مختلفة كانت تعيش معًا فى الإسكندرية منذ إنشائها وحتى القرن السابع الميلادى. لقد نجا من هذا الهجوم القليل من اليهود وبصفة خاصة أغنياؤهم، ومن أشهر مَنْ نجوا من تلك الصراعات فيما بعد أدمانتيوس وكان أستاذا للطب فى جامعة الإسكندرية ثم يعقوب وهسيكوس، وهما طبيبان، ثم زينو وهو أستاذ للفلسفة بالجامعة[١٠٥]. هؤلاء الناجون من اليهود كان لا بد لهم من أن يعتنقوا المسيحية حتى يستطيعوا العيش فى سلام بالإسكندرية. ويقول المؤرخ داما يسكوس من القرن الخامس الميلادى، إن الفيلسوف اليهودى زينو كان عليه أن يثبت للنصارى أنه أصبح مسيحيًا بحق؛ لذلك أراد المسيحيون اختبار مدى اعتناقه للمسيحية؛ لهذا أمروه أن يركب حمارًا أبيض ويدور به على أنقاض معبد يهودى.

وبالرغم من هذه المجازر التى حدثت ضد اليهود، يبدو أن عددًا كبيرًا منهم كان لا يزال يعيش فى مدينة الإسكندرية، خلال القرن الخامس عشر حتى إنهم تقدموا بطلب إلى الجهات المسئولة يرجون فيه بالسماح لهم ببناء معبد لهم. وعلى ما يبدو فإن طلبهم هذا قد قوبل بالرفض؛ لأنه حتى بعد مائة عام لم يكن هناك معبد لليهود بالإسكندرية. وعندما فتح العرب مدينة الإسكندرية عام ٦٤١، قاموا بإبرام عقد مع القائد البيزنطى، هذا العقد تناول مصير اليهود بها أيضًا.

والآن نعود إلى الوراء مرة أخرى إلى عام ٤١٥ ميلادية، عام الاضطراب الأكبر بين المسيحيين واليهود، حيث أرسل حاكم الإسكندرية وهو يائس خطابًا إلى القسطنطينية يخبرهم عن الوضع المتردى الذى وصلت إليه حالة مدينة الإسكندرية بين اليهود والنصارى. ثم تعرَّض أوريستس نفسه للأذى عندما انطلق نحو ٥٠٠ من الرهبان إلى المدينة، وقاموا بمهاجمته بالحجارة حتى

جرحوه. عند ذلك اضطر الحاكم إلى مهاجمتهم وقام بالقبض على عدد منهم، وهم الذين قذفوه بالحجارة وحاكمهم وأمر بإعدامهم. أما كريل بطريك المسيحيين آنذاك، فإنه قام بعمل جنازة مهيبة للرهبان الذين أُعدموا ووصفهم بأنهم شهداء. ومنذ تلك اللحظة تخطى البطريرك حدود واجباته الكنسية وانغمس فى الأمور الدنيوية حسب وصف أحد معارضيه. كل هذه الأحداث شتتت الانتباه عن أتباع سيرابيس بالمدينة، وكذلك عن فيلسوفتهم القديرة هيباتيا(١٠٦).

هذه الفيلسوفة قد ولدت عام ٣٧٠ ميلادية(١٠٧) وإننا نعلم اسم أبيها وعمله؛ ولكننا لا نعلم شيئًا عن أمها. ولقد كان أبوها شخصًا يُدعى ثيون، وقد كان هذا الرجل يعمل بالفلسفة ويعلم الرياضيات بالموسيون بالإسكندرية، حيث إنه كتب الكثير عن الرياضى الشهير إقليدس، وكتب عن أشهر أعماله وعن أعمال العالم والفيلسوف بطلميوس. كما كانت لثيون هذا أعماله الخاصة به فى الرياضيات والفلك. كما كانت له كتب خاصة بالتنجيم والعرافة، وكتب عن الطيور وله مؤلفات عن أصوات الغربان. ولم يكن يخشى القساوسة. ولقد أصبح المسيحيون فى حيرة من أمرهم ما بين حاجاتهم إلى تلك العلوم والمعارف، كالتنجيم مثلاً وتحريم الكنيسة لها عليهم، ولنا أن نتصور حالة أحد المسيحيين كان قد رآه قسيس وهو يحمل لوحة بها بعض النجوم وهو ما كانت الكنيسة تمنعه وتعارض فيه المسيحيين، ولما سأله القسيس مستنكرًا ماذا يفعل بلوحة النجوم هذه قال المسيحى: إنها تعيننى على تذكر أسماء آبائنا من القديسين والرهبان. كما أن هناك حالة أخرى لمسيحى مريض وُصف له أن يزور كنيسة الراهبين كيروس ويوحنا للاستشفاء؛ ولكنه يذهب خفية إلى العرافين كى يخبروه عن طالعه!(١٠٨).

واستطاع ثيون التأثير على ابنته هيباتيا من حيث أنه غرس فى قلبها حب الرياضيات والفيزياء؛ حتى إنها قامت بعمل الكثير من المؤلفات والموسوعات التى عُرفت فى العصر البيزنطى ولكن أعمالها جميعًا فُقدت. وقد منحت الكثير من أعمالها للسكندرى ديوفانتوس، والذى كان نابغًا فى الرياضيات (٢٥٠م)، كما ناقشت وعلقت على أعمال أبولونيوس، ثم إنها ناقشت لوحة النجوم التى قام بعملها بطلميوس.

أما العلم الذى نبغت فيه هيباتيا وتفوقت فهو الفلسفة، حيث إن محاضراتها فى الفلسفة جذبت طلاب العلم من شتى بقاع البلدان، وتناولت فى محاضراتها بالشرح والتحليل أفكار أفلاطون وأرسطوطاليس والكثيرين من الفلاسفة الكبار. إن الملفت للنظر آنذاك أن امرأة تعمل بالفلسفة، وهو أمر لم يكن مألوفًا فى وقتها. وسرعان ما أصبحت هيباتيا أستاذة للمدرسة الأفلاطونية بجامعة الإسكندرية؛ تلك الجامعة التى كانت من أهم دُور العلم فى العالم آنذاك قاطبة، وفى الوقت الذى لم تكن تعوزها العقول النابغة.

أما أهم تلاميذها فكان سينيسيوس من مدينة كيرينة (٣٧٠ــ٤١٥ ميلادية) الذى كان مبهورًا بنظرياتها الفلسفية، وبالرغم من أنه غدا فيما بعد رئيسًا للكنيسة المسيحية فإنه ظل وفيًا لأصوله الفلسفية. وجمع بين علوم الدين المسيحى والفلسفة، وقال فى خطاب له إنه لا يرى أى تعارض بين علوم الفلسفة والدين المسيحى بل كل منهما يكمل الآخر[١٠٩]. وظل فى نفس الوقت وفيًا لمعلمته هيباتيا، خصوصًا عندما بدأت تدريجيًا تنغمس فى الصراع المحتدم بين الوثنيين والنصارى. وفى الفترة من ٤٠٢ حتى ٤١٠، ألَّف سينيسيوس الكثير من القصائد الشعرية التى أعطتنا فكرة عن حياة الفيلسوفة هيباتيا.

ومع بداية القرن الثالث الميلادى، أنشأ الفيلسوف أمونيوس ساكاس المدرسة الأفلاطونية الجديدة، كما أن أفلوطين (٢٠٥ــ٢٧٠ م) قد عاونه فى ذلك. وهذا الأخير كان قد أنهى دراسته بالإسكندرية، ثم جاء معهما بوفيريوس (٢٣٤ــ ٣٠٥ م) الذى عاونهم أيضًا فى تأسيس هذا الاتجاه الفكرى. وكانت نظريات أفلاطون مهمة جدًا بحيث إنهم بدءوا بها التدريس وانطلقوا منها، وبلغ التطور الثقافى آنذاك ذروته. وللأسف، لا نعرف كثيرًا عن وجهة النظر الفلسفية التى كانت تقوم بتعليمها؛ ولكن نعلم أنها تمثل المدرسة الأفلاطونية الجديدة، وهى التى كانت تميز مدرسة الإسكندرية عن مدرسة أثينا الفلسفية. أضف إلى ذلك أنه كان هناك كثير من المشاحنات العلمية بين أثينا والإسكندرية؛ هذه المشاحنات كان وراءها الكثير من الأسباب الشخصية والعقائدية، وقد أدت هذه الخلافات إلى أن ضاعت منا الكثير من علوم هذه الفترة الثرية الخصبة. ومن الذين أعطوا الفيلسوفة هيباتيا حقها الفيلسوف

دامايسكوس (٤٦٠ـ٥٤٠م)، الذى درس طويلاً فى جامعة الإسكندرية قبل أن يصبح أستاذًا فى جامعة أثينا باليونان، وقال عنها إنها "جيدة جدًا"[١١٠].

ومن المبادئ المهمة فى مدرسة "الأفلاطونية الجديدة"، أن من يدخل معهم فى نقاش حول موضوعاتهم الفلسفية، فإنه يرتبط بهم فكريًا وتستمر هذه الرابطة إلى مدى الحياة. إن تلاميذ الفيلسوفة هيباتيا قد ارتبطوا بها فكريًا وأُعجبوا بذكائها وعلمها، كما أنهم أُعجبوا بها شكلاً وحُسنًا أيضًا. وهناك الكثير ممن نظموا فيها وفى حسنها شعرًا، أحدهم بالادس الذى نظم يقول:

عندما أراكِ وأسمع كلماتك لا أملك من أمرى سوى الركوع بين يديك،

أنتِ كالنجم الذى يسكن السماء، والنجوم بيتها السماء،

إن ضوء شعاعك لا تستطيع سوى السماء تحمُّله.

يا هيباتيا العظيمة، إن كلماتك هى الجمال والحكمة،

وما الجمال والحكمة سوى نجوم تضىء فى السماء[١١١].

إن هذا الشعر يكاد يكون صلاة لهيباتيا وهو ملىء بالمعانى الروحانية الجميلة.

ولم تَسْلَم مثل هذه العلاقة بين المعلمة وتلميذها من إساءة الظن؛ دل على ذلك تلك العبارة التى علقت بها على شغف تلميذها العاشق لها، والذى أساء لها، قائلة: "هذا الذى يحبه ليس الجمال الحقيقى". لقد ظلت هيباتيا بدون زواج حتى مقتلها، وقد زاد هذا من شعبيتها عند مريديها وجميع الكتب التى كُتبت عنها كانت تقول عنها فقط "هيباتيا ابنة ثيون".

أما الأسباب التى أدت إلى مقتل هيباتيا فهى أسباب عقائدية بحتة، حيث إن مدينة الإسكندرية كانت تضم اليهود وأتباع سيرابيس والمسيحيين، وكثيرًا ما كان يحدث الشقاق بين هؤلاء وأولئك ويتطور هذا الصراع إلى مذابح بشرية بشعة. وبالرغم من أن الكنيسة المسيحية ذاتها لم تكن مجتمعة بل كانت منقسمة على نفسها مذهبيًا، ولكن هذه الأقسام والطوائف كانت تتوحد إذا ما حدث صراع بين المسيحيين واليهود أو بين المسيحيين وأتباع سيرابيس.

وإذا عدنا قليلاً للوراء وبالتحديد عندما حدث هجوم النصارى على اليهود فى الإسكندرية وحدث تحقيق عن أسباب هذا الصراع، ألقى حاكم مدينة الإسكندرية باللوم على بطريك الكنيسة كريل[١١٢]. عندما وقف كريل أمام حاكم الإسكندرية أعطاه الإنجيل اعتقادًا منه بأن احترام العقيدة المسيحية، سوف ينزع الغضب من قلب الحاكم، وكان فى الوقت نفسه يلمح إلى تعميد حاكم الإسكندرية أوريستس فى القسطنطينية على يد أسقفها أتيكوس، الذى كان قد ساعد بدوره سلفه الأسقف يوحنا كريزوستموس. هذا الأخير كان كريل قد تسبب فى نفيه. وعلى ذلك، لو قام كريل بالإعلان عن تعميد أوريستس فى القسطنطينية على النحو السابق لتسبب له فى فضيحة كبيرة لدى قساوسة ورهبان الإسكندرية.

ومن ناحيته، قرر أوريستس أن يمعن فى إذلال كريل واختار هنا شخصية معتدلة فى خطابه، وكانت هى هيباتيا. وقد روى داماسكوس المؤرخ عن ذلك بأن تجمُّع المركبات الحكومية أمام بيتها قد أزعج كريل وجعله يخرج عن شعوره[١١٣]. عند ذلك أرسل كريل مجموعة من خادمى الكنيسة الذين كانوا يقومون على خدمة مرضى المسيحيين وفقرائهم، وقد كانوا دائمًا يشكلون تنظيمًا عصابيًا خاصًا بالكنيسة، وهم يقومون بأعمال البلطجة التى ترى الكنيسة أنها فى صالحهم وأنها فى حاجة لذلك. عندئذ قام هؤلاء الخدام يقودهم كاهن اسمه بطرس بالهجوم على الفيلسوفة هيباتيا أثناء خروجها من محاضرتها فى الموسيون متجهةً إلى بيتها، ثم انتزعها المسيحيون من مركبتها وجروها على الأرض من شعرها حتى كنيسة قيصر بالإسكندرية. هناك أمر الكاهن بطرس بنزع ملابسها عنها وأمر المسيحيين بقذفها بالحجارة حتى ماتت، ثم قام المسيحيون بتقطيع جسدها والتمثيل به مستخدمين فى ذلك قطع الفَخَّار الحادة. بعد ذلك قاموا بحرق ما تبقى من جسدها وذروا الرماد فى أنحاء متفرقة من المدينة، وعلل المسيحيون ذلك بأنهم قتلوا رمز الكفر ورمز الديانات القديمة التى تخالف المسيحية.

أما سقراط مؤرخ الكنيسة، فإنه قال: "إن قتل الكنيسة لهيباتيا أثار الكثير من النقد ضد كريل وضد كنيسة الإسكندرية بصفة عامة"[١١٤]. إن هذا العمل الوحشى الهمجى من بطريك الكنيسة قد خلق جوًا إرهابيًا حول صورة الكنيسة

التى راحت تعادى كل من خالف المسيحية، سواء كانوا يهودًا أو أتباع سيرابيس أو حتى لو كانوا مسيحيين من أتباع مذهب مختلف؛ إنها لم تعادهم فحسب بل كانت تعمل على قتلهم. إن قتل كريل لهيباتيا الفيلسوفة العظيمة أثار حفيظة حاكم الإسكندرية وأثار السخط فى جميع أوساط المثقفين والمتعلمين والسياسيين.

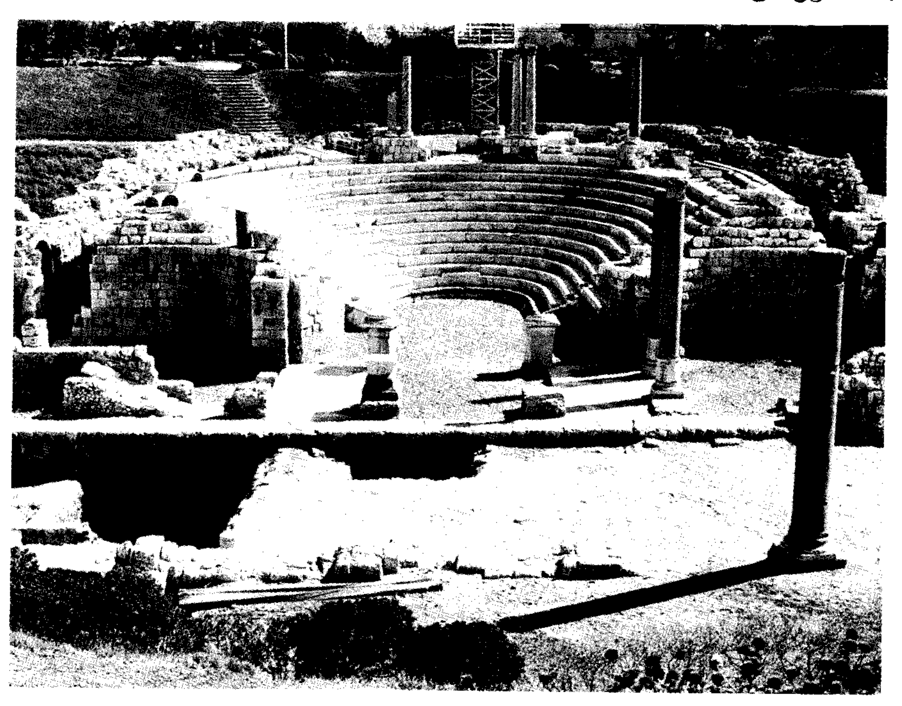
إن الفيلسوفة العظيمة هيباتيا لم تكن فى حاجة إلى شهرة ولكن قتل الكنيسة لها بهذه البشاعة جعلها شخصية أسطورية وضحية لجميع المعانى النبيلة؛ حتى إنها غدت رمزًا أسطوريًا لمدينة الإسكندرية. ويُقال إن كل الصفات الجميلة التى كانت تتحلى بها هيباتيا أخذها المسيحيون فيما بعد ووصفوا بها القديسة العذراء كاترينا. كل ما عُرفت به هيباتيا من جمال فى الشكل وعلم غزير فى الفلسفة وفى الرياضيات وفى الطبيعة وفى الكيمياء والبلاغة فى الحديث وتبحُّر فى علم الفلك والعفاف وجمال الأخلاق، كل هذه الصفات خلعها المسيحيون لاحقًا على القديسة المسيحية كاترينا. وفى القرن الرابع عشر، اتخذها البيزنطيون رمزًا لأية سيدة متعلمة ومتفوقة فى مجال عملها. أما فى عصر النهضة فى أوروبا، فقد لجأت الكنيسة الكاثوليكية إلى مؤلفاتها وكتبها لفهم الكثير من المسائل التى تفتحت أمامهم فى عصر الإصلاح. وبمرور الوقت غدا اسم هيباتيا رمزًا فى أفواه الساسة والعظماء حتى عصرنا الحالى. وفى عام ١٩٨٦، تم تأسيس مجلة للفلسفة النسائية وسُميت على اسم فيلسوفة الإسكندرية هيباتيا.

### الحيوانات المتوحشة ــ خُدَّام المرضى بالإسكندرية

إن قَتَلة هيباتيا من مجرمى الكنيسة لم يُعاقَبوا، بعد أن تم إغلاق ملف القضية التى رُفعت فى القسطنطينية ضدهم؛ وذلك لأن القاضى الذى تولى القضية قد تمت رشوته. كما نادى جميع القساوسة والرهبان فى الكنائس والأديرة ألا يُعاقب من يقتل يهوديًا أو شخصًا على ديانة أخرى غير المسيحية. أما الفترة التى كانت ما بين القرنين الرابع والخامس الميلاديين، فقد حاول فيها قيصر أن يجرم مثل هذه الأعمال البشعة وأن يصدر تشريعًا ضدها. وأول ما

أصدره من تشريعات هو أن منع الرهبان من أن يكون لهم دور فـى الحيـاة السياسية، كما أنه فى التشريع ذاته أضاف فقرة تمنع خدام المرضى والكنيـسة من المشاركة فى أى محفل من المحافل السياسية.

فى عام ٤١٦م، أرسل مجلس مدينة الإسكندرية طلبًا إلى القيصر يسألونه عن الموقف مع أشخاص دفعوا رُشًا لموظفى الدولة كى يـتم إعفـاؤهم مـن الضرائب؟ أجاب القيصر بمكتوب، هؤلاء الذين دفعوا الرُّشـا لا بـد مـن أن يحصلوا على أموالهم التى دفعوها كرُشًا ويقوموا بتسديد ما عليهم من الضرائب للدولة. ثم إن المكتوب الذى أرسله القيصر كان يحتوى على أمر آخر، وهو أنه فى كل مرة يرغب مجلس مدينة الإسكندرية فى إرسال بعثـه مـن مـواطنى الإسكندرية إلى القيصر، فلا بد وأن يجتمع أعضاؤه جميعًا ــ إلا مَـنْ منعـه المرض أو أى عذر مُبرَّر ــ وذلك فى مقر المجلس، وأن يصدقوا على قرارهم بتوقيعاتهم ثم يبلغوها إلى حاكم مصر، والذى يرسله بدوره إلى القائد الأعلـى مستشار القيصر، فيطَّلع عليه ويقرر بعدها ما إذا كـان يـسمح لتلـك البعثـة بالحضور من عدمه(١١٥).



(شكل ٦٦): مكان للاجتماعات.

ولقد كان فى الإسكندرية مبنى كبير لمجلس المدينة يجتمعون فيه، كالذى نراه مصورًا (شكل ٦٦)، ونادرًا ما كان مجلس المدينة هذا يقرر السفر إلى القيصر دون طلب الإذن بذلك. ولقد اتخذ القياصرة دائمًا إجراءات مشددة تحدُّ من زيارة أعضاء تلك المجالس بدون ترتيب إلى مقر القيصر، كما كان يُشترط أن يعلم مسبقًا وكتابة عن سبب الزيارة وأسماء الزائرين.

ولكن بعد أحداث الإسكندرية الأخيرة والتى قُتلت فيها الفيلسوفة هيباتيا، قرر القيصر أن يدرس مشاكل السكندريين بدقة وعناية. عند ذلك اتخذ ما يلى من قرارات: إننى علمت أن البطريك السكندرى منع بعض السكندريين الذين لا يروقون له من السفر إلى القيصر وعدم السماح لهم بمغادرة الإسكندرية، وذلك نتيجة لحوادث الإرهاب التى تسبب فيها هؤلاء ممَّن يُطلق عليهم خدام المرضى. كما أعجب عظمتنا أن جاء فى رسالة البطريك أن الرهبان والقساوسة لا علاقة لهم بالشئون العامة وبأى شىء يخص مجلس المدينة، وبناء على ما تقدم فإننا نأمر بأن لا يكون هناك فى المدينة أكثر من ٥٠٠ من هؤلاء الذين يدعون خدام المرضى، هؤلاء الخدام لا بد من اختيارهم من طبقات الشعب العاملة الفقيرة وليس الغنية. هؤلاء الخدام لا بد من إبلاغ أسمائهم إلى المبجل حاكم مصر، كما أننا نأمر بأن لا يكون هناك تجمهر أو اجتماع. وإننا نحظر على هؤلاء الخدام أن يذهبوا إلى مجلس المدينة أو إلى المحكمة، إلا إذا دعا القاضى أحدهم للمثول بين يديه لكى يسأله عن شىء بصفة شخصية. وإذا خالف أحد الخدام هذه اللوائح، فإنه سوف يُطرد من الخدمة ولن يُسمح له بالرجوع إليها مرة أخرى. أما الذين يموتون من هؤلاء الخدام، فإننا نعطى الحق لحاكم مصر المبجل أن يأتى بعوَض عنهم" (١١٦).

لقد كان فى المدينة وما حولها من الأقاليم الكثير من الأجانب؛ كانوا تحت تصرف بطريرك الإسكندرية، هؤلاء كان من بينهم فى الغالب رهبان وادى النطرون الذين اعتبرهم مؤرخ الكنيسة سقراط السبب فى اضطرابات مدينة الإسكندرية، وقال إنهم من قام بحوادث القتل والإرهاب. وقد مكَّن البطريك كريل لهم التواجد فى الإسكندرية، حيث إنه سجلهم جميعًا على أنهم "خدام المرضى"، وبهذا مكن لهم فعلتهم هذه التى فعلوها بالإسكندرية. ومن ضمن

القواعد التى اشترطها كريل ووضعها بنفسه لهؤلاء الخدام أن يكونوا أقوياء شديدى البنية؛ وذلك لأنهم فى حاجة لحمل المرضى الذين لا يستطيعون الحركة[١١٧]. ولكن البطريك أراد فى الواقع أن يكونوا أقوياء شديدى البنية؛ فقط لكى يستطيعوا الضرب والبطش بمن يعارض سياسته.

يُلاحظ فى أمر القيصر المذكور آنفًا تحديده بأن يكون خدام المرضى هؤلاء من بين الفقراء، وهذا جاء بعد أن لوحظ أن كريل كان يجامل الأغنياء ويسجل أسماءهم فى قائمة الخدام حتى يتهرب هؤلاء الأغنياء من دفع الضرائب. عند ذلك قام القيصر بطرد جميع الخدام الذين عيَّنهم كريل، وأمر باختيار أعضاء جُدُد وتجنيدهم من رابطة المدينة فى حالة أنها احتاجت إلى خدام فعليين يقومون حقيقة بخدمة المرضى. كما أن القيصر ثيودوسيوس الثانى أمر أيضًا بمنع هؤلاء الخدام من حضور أى احتفال علنى أو اجتماع عام، حيث إنهم فى الماضى كانوا يقومون بابتزاز الحاضرين وطلب المال منهم بالقوة، كما أن هؤلاء الخدام قاموا قديمًا باقتحام المحكمة أثناء محاكمة الراهب الذى هاجم أوريستس حاكم المدينة كى يعطلوا محاكمته. إن كل ذلك أدى إلى سوء سمعة كريل وتردِّى وضعه عند القيصر، حتى إن القيصر حرَّم عليه اختيار هؤلاء الخدام وجعل اختيارهم من صلاحيات حاكم المدينة.

إن إصلاحات عام ٤١٦م جعلت زمام الأمور فى يد حاكم المدينة وليس فى يد البطريك، ولكن بحلول عام ٤١٨م، تحايل كريل على قرارات الإمبراطور ثيودوسيوس وطالب بزيادة عدد الخدام هؤلاء إلى ٦٠٠ خادم، كما استطاع الحصول على إذن من الإمبراطور بأن يكون هؤلاء المائة الإضافيون من بين من تم الاستغناء عنهم من قبل، كما أن له الحق فى أن يحل من يراه مكان من يموت من بينهم[١١٨].

وبهذا القرار الذى أصدره الإمبراطور مجددًا عام ٤١٨م، رجعت للبطريك كريل صلاحياته من جديد وأصبح يمارس ألاعيبه القديمة مرة أخرى، وبهذا عاد يختار هؤلاء الخدام بطريقته الخاصة كما كان يفعل قديمًا. لقد غدا هؤلاء الخدام الستمائة مرة أخرى يد البطريك كريل الباطشة ضد من يخالفه الرأى، وضد من يخالف مذهبه الكنسى أيضًا. وبعودة الصلاحيات مرة أخرى إلى

كريل سقط مقتل هيباتيا فى طى النسيان وزاد كريل فى طغيانه أكثر وأكثـــر. على أى الأحوال، فإن الكنيسة كان لها فى كل مكان من قاموا بأعمال البلطجة لصالحها ولكنهم كانوا تحت أسماء وشعارات وهمية، حيث إنهم فى الإسكندرية تستروا تحت اسم "خدام المرضى"، وفى كنيسة أنطاكيا باليونان كانوا يتسترون تحت اسم "حَمَلَة النعش" وفى روما كانوا يتسترون تحت اسم "دافنى الموتى".

ولا ننسى أن القواعد التى سَنَّها الرومان كانت دائمًا فى صالح الرهبـــان والبطاركة المسيحيين؛ حتى إنهم غدوا الحكام الفعليين لمدينة الإسكندرية. ثـــم جاء على رأس كنيسة الإسكندرية البطريك ديوسكورس خلفًا للبطريك كريـــل. إن هذا البطريك الجديد لم يتورع ولم يستح من أن يرسل هؤلاء الخدام إلى أحد اجتماعات الكنيسة بمدينة إفيسوس باليونان، والذى أعفى فيه فلافيان بطريـــرك القسنطنطينية من منصبه. والمعروف أن فلافيان قد لقى حتفه وإن كنا لا نعلـــم ما إذا كان قد قُتل على يد أفراد عصابة البطريرك الـــسكندريين أثنـــاء انعقـــاد المجمع، أم أنه مات بسبب جراحه وهو فى طريق عودته.

فى عام ٤٥١م، كان هناك اجتماع كنسى موسع شارك فيه أعضاء مـــن جميع الكنائس على مستوى العالم فى منطقة خلقدونيا، وهناك حدث جدل عنـــد مناقشة آراء البطريرك ديوسكورس انتهت بالطبع إلى استخدام العنـــف. وقـــد حدث فى ذلك الاجتماع أن قام راهب من الإسكندرية يُدعى إشيريون بـــشكوى بطريك الإسكندرية، قائلاً إن البطريك ديوسكورس أرسل عصابة مـــن الخـــدام هؤلاء لكى يقوموا بقتله. ولقد نجا هذا الراهب، ولكنـــه ظـــل فـــى مستـــشفى المعوقين عدة أيام، وحتى فى المستشفى لم يلق عناية أو اهتمامًا بل عومل هناك معاملة سيئة. بل إنه (أى ديوسكورس) أرسل من يقتلنى داخـــل المستـــشفى أيضًا[١١٩]. ولم يتركنى ديوسكورس فى شأنى حتى وعدته بأننى سأغادر مدينة الإسكندرية. لقد كانت العادات آنذاك أن المستشفيات كانت تقبل وتعالج فقط من كان مسيحيًا، ولا بد وأن يكون أيضًا تابعا لمذهب هذا المستشفى الكنسى.

إن فترة القرنين: الثالث والرابع الميلاديين، قد غيـــرت صـــورة مدينـــة الإسكندرية تمامًا. بعد أن طرد المسيحيون اليهود واضطهدوهم حتى لـــم يعـــد المرء يسمع لهم صوتًا[١٢٠]، اتخذ النصارى من أتباع ســـيرابيس عـــدوًا لهـــم

ووضعوهم نُصْب أعينهم، ثم إنه عندما جاء الفيلسوف إيزادور إلى الإسكندرية لاحظ أن هناك جوًا من الخوف والفزع يسيطر على أجواء المدينة، فلم يشعر بالطمأنينة والارتياح لأنه لم يكن مسيحيًا ويعيش فى مدينة مسيحية متعصبة. ويصف الفيلسوف أولمبيودوروس من القرن السادس الميلادى هذا الموقف بقوله: "إنك كالأحمق الذى يعيش فى مكان ملىء بالحيوانات المتوحشة، ثم يحاول أن يداعبها"(١٢١).

## الصراع من أجل إيزيس ــ الوثنية فى القرن الخامس الميلادى

لم ينجح هدم السرابيوم، وكذلك التخلص من الفيلسوفة الوثنية هيباتيا وكل الضغوط الإرهابية الأخرى التى نظمها النصارى فى الإسكندرية فى القضاء كلية على الوثنية. فى المقابل، اضطر الوثنيون إلى الابتعاد عن مدينة الإسكندرية إلى الأقاليم المحيطة بها، ويستطيع المرء أن يرى بعض مناطق ظلت بها مظاهر الديانات الوثنية حتى نهاية القرن الخامس الميلادى، ومن تلك المناطق منطقة مينوتيس. ثم إن البطريك كريل قام بنشر ردود شاملة فى عشرة كتب ردًا على كتاب للقيصر يوليان فى فترة حكمه (٣٦١ ــ ٣٦٣م)، بعنوان: "ضد الجاليين"(*) وكانوا من المسيحيين. تلك الكتب نشرها كريل بعد وفاة هذا الإمبراطور المذكور بثمانين عامًا.

بعد الاجتماع الكنسى الذى حدث فى إفيسوس،أرسل يوحنا بطريك أنطاكيا خطابًا إلى أخيه بطريك كنيسة القسطنطينية عام ٤٣١م، يخبره فيه عن سبب معارضته لبطريرك الإسكندرية البطريك كريل، كما أخبره بأن كنيسة الإسكندرية تعمل على إضعاف موقف كنيسته نتيجة للأفكار المتضاربة التى يتبناها كريل. وكالعادة، استطاع كريل أن يجد مخرَجًا من هذا المأزق، حيث قال إنه يصدّر تلك الآراء والأفكار إلى الأماكن التى يكثر بها الوثنيون، مثل فينيقيا وفلسطين والجزيرة العربية(١٢٣).

---

(*) الجاليون هم سكان شبه جزيرة أيبيريا.

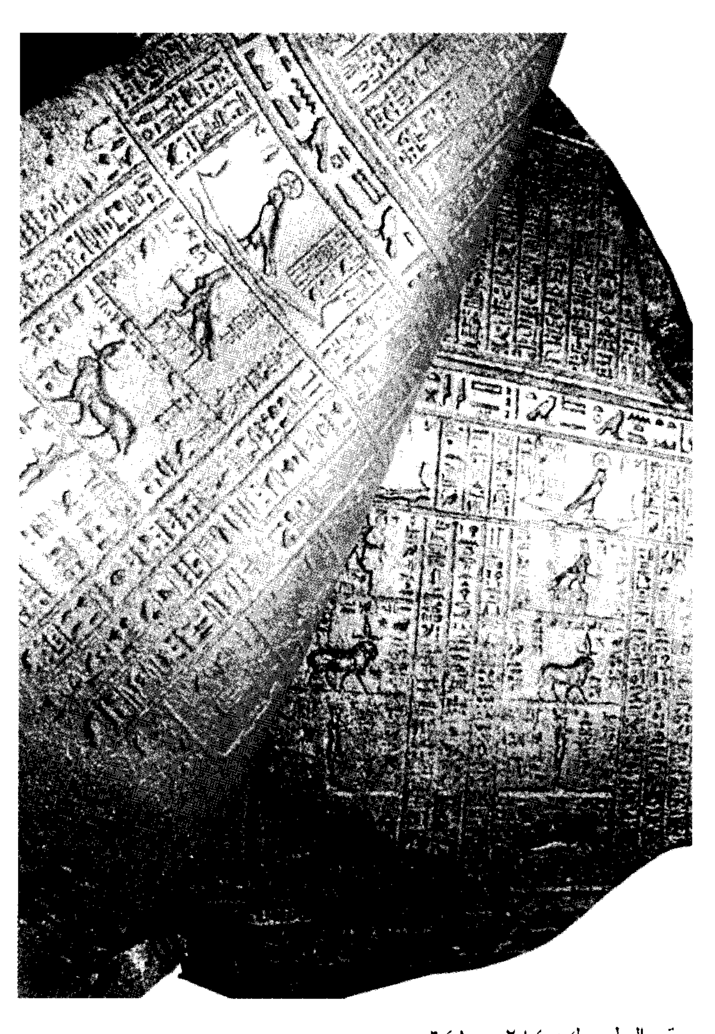
فى عصر ثيودوسيوس الثانى، كانت هناك الكثير من القرارات التى أصدرها وكلها ضد الوثنيين لإرغامهم على الدخول فى المسيحية(١٢٤). تلك القرارات ظلت معمولاً بها حتى منتصف القرن الخامس الميلادى، كما أخبر الفيلسوف إيزادور، الذى درس الفلسفة فى الإسكندرية قبل أن يصبح قسيسًا، قائلاً: "لقد اختفت الوثنية من الأرض" (١٢٥). تلك التقديرات وأمثالها زادت من روح التعصب لدى النصارى، وانطلقوا يخربون المعابد والمبانى الوثنية فى كل مكان، بل إن البطاركة وعلى رأسهم أمبروسيوس كانوا دومًا ما يخطبون فى الكنائس، قائلين إن القوانين والتشريعات لا تصلح إلا للمسيحيين فقط وهى لصالحهم دائمًا(١٢٦). على سبيل المثال، إذا أحرق مسيحى معبدًا يهوديًا فلن يُحاكم المسيحى فى عهد ثيودوسيوس الأول. ومن ثَم، فقد أزعج الدوائر المسيحية كثيرًا ذلك المرسوم الذى صدر فى نهاية القرن الرابع، والذى أرسل تحذيرًا إلى المسيحيين بأن لا يستغلوا الصلاحيات المتاحة لهم فى أن يخرجوا على القانون وأن لا يثيروا القلاقل والاضطرابات. بل إن الإمبراطور أوجستين، لم يكل من تحذير المسيحيين من القيام بنهب وسلب دور العبادة الوثنية عند هدمها، وذلك حتى لا يرتبط التحمس للمسيحية بالسلب والنهب(١٢٧).

أما منطقة كانوب فقد تحولت إلى نقطة مشتعلة؛ لأنها كانت تحتوى على الكثير من المعابد الوثنية التى هاجمها المسيحيون بضراوة، كما أنهم قاموا ببناء الكثير من الكنائس بدلاً من هذه المعابد الوثنية وعلى أنقاضها. بالرغم من كل هذا، فإن كانوب ظلت آخر المعاقل التى كان الوثنيون يستطيعون بها التقاط أنفاسهم وممارسة طقوس عقيدتهم وتقديم القرابين لآلهتهم وأمور العلاج، وجاء الوثنيون إليها من جميع أنحاء مصر حتى منف بغية الحماية والأمان من المسيحيين.

ذات مرة عُثر على مقصورة من قطعة واحدة من البازلت ترجع إلى عصر الفرعون نكتانبو الأول(*) (٣٨٠ ـ ٣٦٢ ق.م.)، كان الفرعون أمر بإنشائها ووضعها ف منطقة ى قريبة من الدلتا تُسمى صفط، وقد عُثر عليها

(*) أحد ملوك الأسرة الثلاثين، آخر الأسرات الفرعونية قبل غزو الإسكندر المقدونى لمصر. (المراجع).

بطريقة مثيرة بالصدفة البحتة فى أجزاء، حيث إنه فى عام ١٩٤٠م، اصطدمت أقدام اثنين من الغواصين بقطعتين من تلك المقصورة (الظهر والقاعدة) فى منطقة أبى قير بالإسكندرية. وبعد ١٥ عامًا اكتشف الباحثون قمة تلك المقصورة وكانت على شكل هرم، وقد عُثر عليها منذ عام ١٧٧٧ أيضًا فى منطقة أبى قير. وفى عام ٢٠٠٠، استطاع الغواصون استخراج جانبين كاملين من منطقة أبى قير؛ هذان الجانبان كانا من تلك المقصورة أيضًا (انظر شكل ٦٧) فى الناحية اليمنى نرى جزءًا من الحجر الأصلى وعليه أشكال آلهة مصرية قديمة، والجهة اليسرى نرى عليها تأثير المياه وعوامل البحر.



(شكل ٦٧): مقصورة توضح النظام العشرى العام.

لقد قسم المصريون العام إلى ٣٦٠ يومًا، تتكون من ٣٦ فتــرة زمنيــة، وكل فترة عبارة عن مدة عشرة أيام. هذه الأيام العشرة، أطلق عليها المصريون القدماء النظام العشرى، وقد ربطوا كل مدة من تلك المدد بظهور نجم معين فى السماء يُشار إليه بالبرج. هذه الفترات الـ ٣٦ تطورت وأصبحت ٣٦ معبــودًا توجه الكون وتخبر عن الغيب. وحتى يومنا هذا، فإن رموز الأبراج الــسماوية الاثنا عشر مأخوذة من أشكال الـ ٣٦ إلهًا. فى العصور الرومانية، تم نقل هذه المقصورة ذات النظام العشرى من صفط إلى معبد فى منطقة كانوب، وذلــك نظرًا لقدسيته. وقد ظلت هذه المقصورة فى كانوب موضع تقديس حتــى جــاء العصر المسيحى الحانق وسقطت هذه المقصورة ضــحية لأعمــال التخريــب المسيحى، ولقد حطم النصارى تلك المقصورة وألقوا بحطامها فى أجزاء متفرقة من المدينة، لذلك فإننا عثرنا على هذه المقصورة محطمة إلى أجزاء، كما أشرنا من قبل.

وبالرغم من كل هذه الاضطرابات بمدينة الإسكندرية، فإنها ظلت مقصدًا للكثير من نابغى مشاهير العالم من الوثنيين. من أمثال هؤلاء تــاجر الفــضة الشهير أجابيوس والفلاسفة هيرايسكوس وهيراكوليس أحــد أتبــاع المدرســة الأفلاطونية الجديدة. ونعرف عن هيرايسكوس أنه كان أحد أفراد عائلة شهيرة من الفلاسفة استقرت فى الإسكندرية، وكانت ابنته متزوجــة مــن الفيلــسوف هورابلون. وهناك الكثير من الحكايات الغريبة عن هيرايسكوس، فقد قيل إنــه ولد واضعًا إصبعه فى فمه كعادة الأطفال المصريين، وقبل كل ذلك فهذه هيئة الإله المصرى القديم حورس(*). وقد حكى أخوه المدعو أسكليبادس الذى كــان يعمل أيضًا بالفلسفة وكان متخصصًا فى عالم الآلهة المصرية القديمة، أنه قــد رأى أخاه فى الحلم فى شكل الإله باخوس إله الخمر عند اليونانيين وقد ولد من

(*) الإله حورس، بهذه الهيئة هو الإله حورس الطفل ابن إيزيس، الذى يُعرف فى المصرية القديمــة باسم حرباخرد، والذى تحول فى اليونانية إلى هاربوكراتيس، ويُصور دائمًا على هيئة طفل واضعًا إصبعه فى فمه، وكانت له معرفة بالسحر كأمه إيزيس وكان مسئولاً عن حماية البشر والأطفــال؛ خاصة من أخطار الحيوانات والزواحف الضارة، مثل العقارب والأفاعى، إلخ . (المراجع).

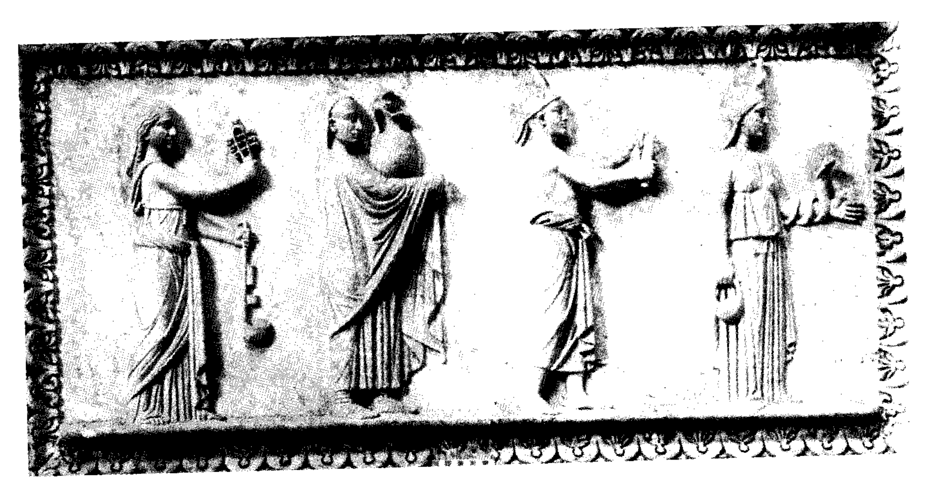
جديد. وعندما تُوفى هيرايسكوس، قيل إن ضوءًا ساطعًا غمر المكان وعلامة غامضة أحاطت بكفنه(١٢٨)، وهو ما أوحى بأن الآلهة كانت حاضرة عند دفنه. وبالطبع، لنا أن نتوقع ارتباط ذلك بشعائر وطقوس الدفن التى كان المصريون يمارسونها من مئات السنين. ومن الملفت هنا أن فيلسوفنا كان عالمًا بالآلهة المصرية وبالطقوس المختلفة من حرق بخور وإقامة الصلوات للآلهة مثل أنوبيس وأوزير، بينما أخوه لم يعد يستطيع قراءة الهيروغليفية.

أما هورابلون، وهو زوج ابنة هيرايسكوس والذى كان يعمل فى الجامعة معلمًا للفلسفة واللغة، فقد فاقت شهرته شهرة صهره، وقد اضطهده المسيحيون وأقالوه من عمله مع حلول العام الثمانين من القرن الخامس الميلادى. واضطر فى نهاية حياته أن يعتنق المسيحية مكرهًا حتى يتخلص من مطاردة المسيحيين له. هذا الرجل هورابلون ــ وكان المسيحيون قد أسموه بسيشابولون ــ هو مؤلف كتاب (قصة تاريخ الإسكندرية) وعنوان هذا الكتاب مازال معروفًا لدينا حتى الآن. هذا الكتاب كان مكتوبًا بالقبطية والهيروغليفية ثم تُرجم إلى اليونانية. مع بداية القرن الخامس عشر، اكتشف الباحثون هذا الكتاب وأعادوا نشره مرة أخرى فى أوروبا، مما أثار ثورة كبيرة وحمى هيروغليفية عارمة؛ حتى إن الكثيرين فى أوروبا راحوا يبدون إعجابهم بالهيروغليفية. وبالرغم من أن الأوروبيين لم يفهموا شيئًا من الهيروغليفية، فإنهم كانوا معجبين بها وشغوفين بها.

فى عام ٤٧٠ ميلادية، اتجه الفيلسوف الرومانى والوثنى المخلص سيفيروس إلى الإسكندرية لكى يدرس الفلسفة بجامعتها. بعد فترة وجيزة عاد إلى أوروبا فى عصر الإمبراطور أنتيميوس وحصل منه على الإذن لأن يصبح قنصلاً بالإسكندرية وحاكمًا بها. وكان هذا الفيلسوف وثنيًا، وحاول بمساعدة هذا القيصر إرجاع الديانة الوثنية فى مدينة الإسكندرية إلى سابق عهدها من مجد وازدهار. ولكنه لم يجد آذانًا صاغية؛ لذلك قضى بقية حياته على النيل يتعلم ويعلم حتى مات ودُفن على ضفاف النيل. لقد كان سيفيروس متواضعًا قليل المتطلبات فلم يقم بزيارة الحمامات العامة كما لم يقم بزيارة المسارح، وإذا عاد من عمله ظل فى بيته لم يبرحه حتى اليوم التالى(١٢٩). ولم يكن ليغادر منزله

إلا للضرورات وكان زواره الوحيدون هم بعض أتباع مذهب البراهما الهندى الذين كان يتحاور معهم فى أمور الفلسفة، ويأتون إلى منزله من أجل ذلك وللاطلاع على مكتبته.

كما كان هناك طالب علم آخر درس فى الإسكندرية يُسمى زخارى مايتلين عاش فى الثمانينيات من القرن الخامس الميلادى، فى كانوب وغيرها من المدن، أعطانا فكرة عن الهجمات التى كان يشنها النصارى على الوثنيين. ويقول زميل آخر له يُدعى باراليوس، إنه شارك فى معركة ضد المسيحيين دفاعًا عن شرف إلهته إيزيس ( شكل ٦٨).



(شكل ٦٨): موكب الإلهة إيزيس.

ولقد عثرنا على نقوش بارزة فى أحد المعابد المخصصة لعبادة إيزيس تصور كاهنات الإلهة إيزيس؛ أولاهن تحمل زهرة اللوتس على رأسها وفى يدها اليسرى حية الكوبرا واليد اليمنى بها إناء قرابين. وخلفها يسير أحد الكتبة حافى القدمين إلا من نقبة تغطى الجزء السفلى من جسمه، هذا الكاتب حمل فى يده لفة بردى يقرأ منها نصًا دينيًا مقدسًا. هذا الكاتب كان حليق الرأس إلا من ريشة مثبتة فى رأسه، ثم نرى شخصًا ثالثًا عجوزًا يرتدى مئزرًا واسعًا وهو حليق الرأس ويضع غطاء رأس على رأسه، ثم نرى كاهنًا يحمل فى إحدى يديه إناء له مقابض على هيئة حية الكوبرا، وفى نهاية هذا الموكب نرى فتاة ترتدى

ثوبًا معقودًا عند أسفل الصدر كاشفًا عنه، وفى يدها اليسرى تحمل مغرفة وفى اليمنى تحمل آلة السيستروم(*)، التى كانت دائمًا تُستخدم فى التعبُّد للإلهة إيزيس. ولقد احتفظ كهنة الإلهة إيزيس بهذه الآلات الموسيقية والأدوات الأخرى التى كانت تُستخدم فى طقوس عبادة الإلهة إيزيس ولكنها سقطت جميعًا فى أيدى المسيحيين.

هذا الشخص باراليوس سابق الذكر، كان من كارينا وكان أحد أربعة إخوة كانوا جميعًا وثنيين ما عدا الرابع منهم والذى كان يُسمى أثناسيوس والذى اعتنق المسيحية، وأصبح راهبًا فى مدينة الإسكندرية. وقد أفلح أثناسيوس فى إقناع أخيه باراليوس أن يترك الوثنية ويعتنق المسيحية، وقد فعل باراليوس ذلك وأصبح مسيحيًا، بعد أن ثبت له عدم صدق ما يدعيه أتباع إيزيس من معجزات، ومن ذلك أكذوبة حمل زوجته وإنجابها لطفل تبين بعد ذلك أنها أخذته من إحدى كاهنات إيزيس.

لقد اتجه النصارى إلى بطرس بطريرك الإسكندرية وطلبوا منه المساعدة ضد الوثنيين، وعند ذلك رأى البطريك بطرس فى ذلك فرصة سانحة له لكى يتخلص من الوثنيين، عند ذلك تحدث مع حاكم مصر فى ذلك الشأن حتى يعطى له هذا الأخير الضوء الأخضر كى يقوم بدوره بالانقضاض على الوثنيين ولكن حاكم مصر لم يجبه إلى طلبه، لأن هذا الحاكم كان من أتباع الوثنية. عند ذلك قام بطرس بإقناع المسيحيين من المذهب الآخر المونوفستيين (الطبيعة الواحدة) بالانضمام إليه ومساعدته فى الهجوم على الوثنيين، حيث إنهم خطر على المسيحية بجميع مذاهبها. وبذلك قام المسيحيون بهجوم جديد على الوثنيين بالإسكندرية يقودهم باراليوس المذكور آنفًا، ودخلوا معبد الإلهة إيزيس فى كانوب ونهبوا محتويات المعبد وحطموا تماثيل الإلهة إيزيس.

فى اليوم التالى، أعاد المسيحيون الكَرَّة وأحرقوا ما تبقى من أجزاء ومحتويات معبد إيزيس فى كانوب. ويخبرنا زخارى عن ذلك قائلاً: "إننا أحضرنا كهنتهم وأحضرنا تماثيل إلهتهم التى كانت كثيرة ولم نستطع حملها

(*) هى آلة موسيقية طقوسية تُعرف بالصلاصل وتصدر صوتًا، وهى تقابل الشخشيخة حاليًا، وكانت تُستخدم فى حضرة الإلهتين: حتحور وإيزيس. (المراجع).

سوى على ظهور ٢٠ من الجمال، بالرغم من أننا أحرقنا جـزءًا منهـا فـي مينوتيس، أما البقية الباقية فقـد أمرنـا البطريـك بطـرس أن نحملهـا إلـى الإسكندرية. وهناك فى الشارع الكبير، وضعت كل التماثيل ومحتويات المعبـد فوق الأرض على شكل كومة كبيرة وراح البطريك بطرس يحقق مع كهنـتهم، وفى حضرة حاكم المدينة وقائد القوات وأعيان المدينة وأثريائها. وبعد التحقيق أُشعلت نار عظيمة وراح المسيحيون يلقون تماثيل آلهة الـوثنيين بهـا، بينمـا يتصايح النصارى كلما ألقى تمثال من تماثيل الآلهة فـى النـار. فهـذا الإلـه ديوينسيوس، الهيرما أفروديت، وذلك كرونس الذى كان يكره الأطفال. وهـذا زيوس زير النساء عاشق الصبية، وهذه الربة أثينا مُحبة الحروب، وهذه الربة أرتميس محبة الصيد وعدوة الأجانب، وهذا أريس الشيطان الذى جلب الحرب، وأبوللو الذى أفسد أخلاق الكثيرين. أفروديتى قائدة البغايا يا ديونيسيوس حامى السكارى، وهذه هى أجاثوديمون الحية الخائنة. وهذه هـى القِـرَدة والكـلاب وعائلات القطط، كل هذه التماثيل للآلهة تم حرقها(١٣٠).

بعد ذلك راح المسيحيون يعلمون المسيحية ويدرسونها فى كل مكانٍ حتى تحل محل الوثنية، وكان على البقية الباقية من الوثنيين أن يعتنقوا المـسيحية، ومنهم من اتجه هربًا إلى مينوتيس، حتى إذا جاء عام ٥٦٥ ميلادية وفقط بقيت جامعة الإسكندرية جامعة وثنية وظلت كذلك؛ فتحولت إلى المسيحية عندما تولى إدارتها أحد المسيحيين.

### جلود النعام لمعتنقى المسيحية ــ قرار خلقدونيا

لقد كان بطريك مدينة الإسكندرية دائمًا مشاركًا فى أى نـزاع عقائـدى يخص الكنائس الشرقية. وكان البطريك السكندرى كريل هو الرجل الذى كـان يجمع كل خيوط اللعب فى يديه؛ بخاصة أنه كان يتحكم فى شعب الإسـكندرية المسيحى الذى كان شديد المراس ومن الصعب السيطرة عليه. ولم يكن كريـل هذا سهلاً بل إنه كما سبق الوصف شرسًا ومنتقمًا، وكانت المشاعر الإنـسانية لا تعرف إلى قلبه طريقًا. وكما أخبرنا سابقًا، فإنه هو من أرسل خدام الكنيـسة الذين قتلوا الفيلسوفة هيباتيا.

فى أثناء ذلك اتخذ كريل من رئيس الكنيسة الشرقية بالقسطنطينية صاحبة المذهب المخالف عدوًا له، وذلك بعد أن حصل بطريرك القسطنطينية المدعو تيموثيوس الأول فى مَجْمَع القسطنطينية عام ٣٨١م، على مرتبة لكنيسته تلى مرتبة بطريرك روما، وتسبق مرتبة بطريرك الإسكندرية، وهذا كان ضد رغبة كريل الذى كان يريد الحصول عليه للإسكندرية. ومن قبل كانت كلتا الكنيستين تتقاسمان تلك المكانة بينهما. فى أبريل من عام ٤٢٨م، تم اختيار بطريك جديد لكنيسة القسطنطينية، يُسمى نسطورس، وقد واجه هذا الأخير صعوبات كثيرة فى توضيح فكرة الثالوث المقدس للكنيسة المسيحية وشعبها آنذاك، حيث إن نسطورس هذا اختلف مع المسيحيين ومنهم أخت القيصر بولكيريا فى وجهة النظر عن المسيح وأمه، معتبرين أن ماريا هى أم الإله وقدسوها، بينما كان نسطورس يرى بأنها فقط المستقبلة للإله، لأن الإله لا يولد.

ونعود الآن إلى الصراع السياسى بين بطريك كنيسة الإسكندرية والآخر بطريك كنيسة القسطنطينية. وفى الواقع أن بطريرك كنيسة القسطنطينية حينما كان يعلن رأيه فى روما، فسرعان ما كان يخالفه فيه بطريك كنيسة الإسكندرية. وفى الحال كان كريل بطريك الإسكندرية يقوم بإرسال مكتوب إلى أخت الإمبراطور بولكيريا يؤيد رأيها ضد رأى نسطورس، ثم يرسل نفس المكتوب إلى الإمبراطور ثيودوسيوس يخبره برأيه ــ المعارض بالطبع لرأى نسطورس ــ عن طبيعة المسيح وأمه ماريا، ثم يرسل خطابًا ثالثًا إلى زوجة الإمبراطور أثينايس أيضًا بنفس المعنى سابق الذكر.

فى عام ٤٣١، قام الإمبراطور بدعوة جميع البطاركة المسيحيين من جميع المذاهب إلى مجمع فى إفيسوس؛ لكى يقوموا بتوضيح هذه النقطة الخلافية عن طبيعة المسيح وأمه. وذهب كل بطريك إلى إفيسوس ومعه حاشيته وبطانته. وفى الواقع هم الإرهابيون الذين يخيفون ويرهبون أتباع المذاهب المسيحية الأخرى ورؤساء الكنائس الأخرى. ولم يكن اجتماع إفيسوس هذا سوى فوضى واستعراض للقوى والعضلات بين أتباع كل مذهب؛ ولكن ذلك كان طبيعيًا عندما كان يحدث اجتماع كنسى كبير، وليس فقط فى القرن الخامس الذى ساد فيه كريل وفرض عليه سيطرته. قبل أن يدخل معارضوه فى هذا الاجتماع،

استطاع كريل أن يتسبب فى محاكمة نسطورس متهمًا إياه بأنه يهوذا الجديد. ثم جاء يوحنا بطريرك كنيسة أنطاكيا وطالب بعزل كريل عن منصبه وكذلك هؤلاء الذين أيدوا عزل نسطورس، وساد الهرج والمرج فى هذا الاجتماع، ووضعوا جميع من تسبب فى الشغب تحت التحفظ حتى يأتى أمر آخر من الإمبراطور.

بعد هذا الاجتماع المُشين، بدأت سلسلة من المراسلات الخفية هنا وهناك والرُّشَا المتبادلة، وكذلك راحت المؤامرات تُحاك فى القصر الإمبراطورى. ولكن يظهر هنا شخص واحد على ما يبدو فإن عجلة الأمور تُدار لصالحه، وهو بطريك الإسكندرية كريل. لقد استطاع كريل أن يغمر كل من كان له صلة من قريب أو بعيد بقصر الإمبراطور بالهدايا والعطايا؛ حتى يقوم من لهم اتصال مباشر بالإمبراطور بالحديث معه لصالح كريل ومصالحه.

ولقد ورد إلينا بخصوص هذا الشأن ما يلى: لقد أرسل كريل سرًا مجموعة من الهدايا إلى خَصِىّ كان يعمل فى قصر الإمبراطور؛ هذه الهدايا كانت عبارة عن أربع سجاجيد ذات وبر سميك، ثم اثنتين من السجاجيد ذات وبر خفيف، أربع مخدات، أربعة أغطية موائد، ٦ لوحات حائطية كبيرة، وست لوحات متوسطة الحجم، ٦ كراسى، ١٢ ستارة، سجادتَىْ حائط للزينة، أربعة كراسى بمساند من سن الفيل، مقعدين من سن الفيل دون مسند ظهر، ٢ من المناضد الصغيرة، وقطعتين من جلد النعام[١٣١]. كما أرسل كريل مبالغ مالية كبيرة لأشخاص آخرين فى قصر الإمبراطور، حيث أرسل ٢٠٠ جنيه ذهبًا لرئيس القصر الإمبراطورى كريسورس، أما زميله فأرسل كريل إليه ٥٠ جنيهًا ذهبًا. وأما زوجة الإمبراطور المسماة بولكيريا فقد كانت لها وصيفتان مقربتان إليها، قام كريل بإرسال ٥٠ جنيهًا ذهبًا لكل واحدة منهما، كما كان لبولكيريا ثلاثة من الخصيان الخدم، قام كريل بإرسال ١٠٠ جنيه ذهبًا لكل منهم، ثم أرسل ٥٠ جنيهًا و٣٠ جنيهًا لآخرين. ثم أرسل ٥٠ جنيهًا لموظف كبير آخر، كما أرسل ١٠٠ جنيه ذهبًا إلى زوجة قائد حرس الإمبراطور الشخصى ومساعديه.

إن هذا الصراع الكنسى كلف كنيسة الإسكندرية نصف طن من الذهب؛ حتى إن كنيسة الإسكندرية كان عليها أن تتخذ إجراءات تقشفية بعد ذلك. كما أن كريل كان عليه أن يستدين حتى يسدد نفقات كل هذا الصراع المذهبى سابق الذكر. وكان التبرير: "حتى يساند هو أو هى مصلحتنا". لقد خرج كريل من هذا الصراع منتصرًا وجاءت نتيجة الرُشا التى قام بتوزيعها هنا وهناك بسخاء كالتالى: عزل نسطورس بابا كنيسة القسطنطينية من منصبه ونفيه إلى الواحات فى مصر. أما أخت الإمبراطور بولكيريا فقد فرحت بذلك القرار واعتبرته نصرًا لها ولآرائها، وراح مَنْ خَلَفه فى الكنيسة يقول مروجًا إن العذراء المقدسة قد عاقبت نسطورس وطردته من الكنيسة إلى واحات مصر كى يموت وحيدًا بها؛ فلتحى بولكيريا، فلتحى الإمبراطورة الأرثوذكسية(١٣٢).

لقد ساد السلام بعد ذلك فى مدينة الإسكندرية؛ حيث إن الأغلبية بها أصبحت مسيحية لا منازع لها، وظل كريل بطريك الكنيسة حتى وفاته عام ٤٤٤م، ثم جاء خلفًا له ديوسكورس (٤٤٤ـ٤٥١م)؛ هذا الأخير لم يكن من نفس عائلة كريل فاحشة الثراء، لهذا عمل منذ تولِّيه البطريركية بالإسكندرية على طرد باقى أفراد عائلة كريل من الإسكندرية، كما أنه حاول الحصول منهم على كل ممتلكاتهم وإعطاءها للكنيسة على أنها أموال عامة. لقد كان كريل يمتلك الكثير من المبانى التى يؤجرها للسكان ويحصل منهم على أموال الإيجار. كما كان يمتلك العديد من مزارع الفاكهة، والكثير من مخزون الذهب، والمئات من العبيد الذين كانوا يعملون لديه.

وعن طريق كل هذه الأموال التى أخذها ديوسكورس من أسرة كريل، استطاع هذا الأخير أن يوفر بعض المال لخزينة الكنيسة التى كان كريل قد نهبها لأطماعه الشخصية. لذلك قدمت أسرة كريل شكوى ضد ديوسكورس فى كنيسة القسطنطينية وكالوا له التهم، ثم حدث وأن انعقد اجتماع فى خلقدونية أكثر ما يُطلق عليه هو اجتماع الأشرار، حيث اجتمع البطاركة وعلى رأسهم بطريك كنيسة القسطنطينية وبطريك كنيسة روما عام ٤٤٩ وزعموا أنهم سوف يناقشون قضية طبيعة المسيح فى إفيسوس؛ ولكنهم فى الواقع كانوا يدبرون لتنحية ديوسكورس. وقاموا بذلك فى عام ٤٥١م.

لقد لُفقت التهم لديوسكورس وشهد ضده شهود، ومنهم قسيس سكندرى من أتباع المذهب الديوفيزيقى ويُدعى أثناسيوس. فى منتصف القرن الخامس الميلادى، كانت الخلافات المذهبية بين المذاهب المسيحية شيئًا معتادًا وبشكل يومى بمدينة الإسكندرية، وتراجعت أمامها الواجبات الكنسية المهمة الأخرى، مثل علاج المرضى والعمل اليومى فى الكنائس والأديرة ومساعدة المحتاجين والتعليم. إن ديوسكورس كان يتبع مذهب الطبيعة الواحدة للسيد المسيح وبذلك قام بمطاردة أثناسيوس هذا، الذى اضطر إلى الهرب والاختباء فى كانوب. وهناك قال أثناسيوس: "إننى أتيت هنا إلى دير الراحة والهدوء فى رحاب بيت الرب". فى هذا الدير كان هناك حمام كبير للاستحمام، حيث نزل به أثناسيوس وأتباعه علّهم يداوون جراحهم من عناء الاضطهاد. إن ديوسكورس نسى كل تعليمات المسيح واضطهد أتباع أثناسيوس وكأنهم وثنيون. لقد منعنا ديوسكورس أن نمكث فى الدير(١٣٣)، ومنعنا من تناول الطعام ومنعنا من أن نشترى شيئًا نقتات به، إنه أراد أن نموت جوعًا وعطشًا أمام عينيه.

إن اجتماع خلقدونيا والذى اجتمع له ٥٥٠ بطريك من جميع أنحاء العالم المسيحى قد أنهى الكثير من النقاشات المتعلقة بطبيعة المسيح، على الأقل مؤقتًا ولمدة طويلة. فى الخامس والعشرين من أكتوبر عام ٤٥١م وبحضور القيصر مارسيان وزوجته بولكيريا، تم إعلان توحيد المذاهب المسيحية بعضها مع البعض الآخر، كما اتفق المجتمعون على نظرية ما زالت قائمة ومعمولاً بها حتى وقتنا الحالى. هذه النظرية تقول: "إن المسيح ذو طبيعتين، طبيعة إلهية كاملة، وطبيعة بشرية كاملة، فهو إله وفى الوقت نفسه بشر، ولا تتنافى إحدى الطبيعتين مع الطبيعة الأخرى، ولا تختلط إحدى الطبيعتين بالأخرى، كما لا تتحول إحدى الطبيعتين إلى الأخرى، كما لا تنقسم إحداهما إلى الأخرى، كما لا يمكن فصل إحداهما عن الأخرى، كما لا يمكن أن تغطى طبيعة على الأخرى فتمحوها، وستبقى كل طبيعة بصفاتها وذاتها وستبقى الطبيعتان إلى ما لا نهاية فى شخص وجسد واحد"(١٣٤).

لقد كان هذا اليوم، يومًا كبيرًا وعظيمًا فى حياة بولكيريا التى تسببت فى هذا الإجماع وهذا الاتفاق، فهى باعتبارها (أوجستا) أخت الإمبراطور

ثيودوسيوس الثانى وزوجة مارسيان كانت الشخصية البارزة فى سياسة الدولة وفى الصراع الكنسى الداخلى وبفضلها فرضت الأغلبية كلمتها على الجميع، وتم على يدها تخطى تلك الفجوة الكبيرة بين المذاهب المختلفة؛ إلا أنها وسعت الشرخ الكبير بين أتباع المذهبين، ونتيجة لذلك نتج انشقاق فى الكنيسة وأصبح هناك ما يُسمى بالكنيسة الغربية والكنيسة الشرقية، ودام هذا الانشقاق بين الكنيستين حتى يومنا هذا.

### المدينة المُحبَّة للمسيح؛ ولكن أىّ مسيح؟

إن المؤرخين الكنسيين أمثال سوفرونيوس أو ليونتيوس يمدحون مدينة الإسكندرية ويعطونها لقب (المحبة للمسيح)[١٣٥]، ولكن أى مسيح يقصدون هنا؟ إنهم بعد اجتماع خلقدونيا المذكور هذا فى عام ٤٥١ وعزلهم ديوسكورس اندلعت نتيجة لذلك الثورات التى تشبه الحرب الأهلية فى منطقة الإسكندرية، وعندئذ أرسلت كنيسة القسطنطينية قوات عسكرية إلى الإسكندرية لكى تسيطر على الأجواء بها، ولكى يتم لهم ذلك قام حاكم مصر المدعو فلورس بمنع الناس من التجمهر، كما أغلق الحمامات العامة، كما أنه أغلق منافذ توزيع الخبز فى كل مكان، حيث كانت مدينة الإسكندرية تستهلك ٣٠٠ ألف كيلة من الدقيق فى العام. ولكن على المدى الطويل أظهرت قلاقل عام ٤٥١ عن تغلغل المذهب المونوفيزيقى (أتباع الطبيعة الواحدة) فى مدينة الإسكندرية والارتداد المستمر عن سلطة القيصر.

ومنذ ذلك الوقت، أصبح المسيحيون أتباع الطبيعة الواحدة لا يعرفون التسامح[١٣٦]. وفى عام ٤٥٧، قام مسيحيو الإسكندرية بقتل بروتيريوس البطريك الذى أرسله قيصر كى يكون رئيسًا لكنيسة الإسكندرية وسحبوا جثته فى شوارع الإسكندرية العريضة وكان من أتباع الطبيعة المزدوجة.

لقد كانت الإسكندرية دائمًا معقل الخلافات المذهبية وذلك منذ عهد أريوس وأثناسيوس. واستمرت هذه الخلافات المذهبية أيضًا فى القرنين الخامس والسادس. فى خلال ذلك انقسمت الكنيسة الشرقية على نفسها إلى فريقين متصارعين، حيث غدت الإسكندرية مركزًا لمذهب أصحاب الطبيعة الواحدة،

بينما كانت كانوب معقلاً لأصحاب مذهب الطبيعتين. لقد زادت أهمية منطقة كانوب مع بداية القرن الخامس، بعد أن تم نقل رُفات الراهبين كيروس ويوحنا إلى هناك، بل تفاخرت كانوب بأن أصبح لها، ولو لفترة قصيرة بطريرك خاص بها منفصلة عن الإسكندرية.

وفى الإسكندرية، زادت الأمور تعقيدًا عندما قام أتباع البطريك بروتيريوس الديوفيزيقى، والذى كان أهل الإسكندرية قد قتلوه بعد أن فرضه القيصر عليهم، باختيار بطريرك جديد كان راهبًا ديوفيزيقيًا من كانوب اسمه تيموثيوس، وأطلقوا عليه اسم "سالوفاكياس" بمعنى "ذو الرأس المتأرجح"؛ لعدم ثبات طاقية البطريرك على رأسه، وذلك بدلاً من البطريرك المونوفيزيقى المدعو تيموثيوس(*) أيضًا، والذى نُعت بالبخيل لكثرة صيامه.

ولتحقيق ذلك، قام القيصر ليو الأول (٤٥٧ـ٤٧٤م) فى عام ٤٥٩ بنفى بطريك الإسكندرية المدعو تيموثيوس البخيل وكثير من أتباعه، ومن بين أتباع البطريك المنفى كان الراهب بطرس الذى كان من المفروض أن يصبح بطريك الإسكندرية فيما بعد. لقد حاول الراهب ذو الرأس المتأرجح أن يضمن ولاء أتباع البطريك المنفى ولكن دون جدوى(١٣٧)، كما لم يكن محبوبًا من شعب الإسكندرية، ولم يكن يجرؤ على الخروج من الكنيسة إلا محاطًا بحرسه الشخصى خوفًا من القتل. ولا بد هنا أن نشير إلى أنه كان بخيلاً ولم يكن يوزع الهدايا والعطايا مثل سابقيه من البطاركة،أمثال تيموثيوس مثلاً.

بعد مقتل القيصر ليو حدث تغيير كبير فى الكنيسة المسيحية بالإسكندرية، وتولى العرش بعده القيصر زينو، وكان من أتباع الطبيعة المزدوجة ثم اغتصب العرش منه القيصر بازليكوس، والذى كان من أتباع مذهب الطبيعة الواحدة للسيد المسيح، ولكنه لم يبق فى الحكم سوى ٢٠ شهرًا فقد قُتل واسترد القيصر زينو عرشه ثانية (٤٧٤ـ٤٧٦ـ٤٩١م). وقد حاول كل من هذين القيصرين أن يجلب العديد من الرهبان الذين هم على مذهبه، وبهذه الطريقة

---

(*) هو البطريرك تيموثيوس على ما يبدو، وقد نصَّبه المسيحيون السكندريون بطريركًا على الإسكندرية، وذلك بعد قتلهم البطريرك بروتيروس الذى عينه القيصر وكان من أتباع الطبيعتين وهو ما لم يوضحه المؤلف. (المراجع).

عاد الراهب تيموثيوس البخيل من منفاه مرة أخرى إلى الإسكندرية (خلال حكم بازليكوس)، إلا أنه تُوفِّى بعد ذلك بقليل. وبعد ذلك اختير بطـرس خلفًا لـه، ونظرًا لأن بطرس هذا كان مخالفًا للقيصر زينو فى المذهب فإن القيصر عزله وأعاد ثانية الراهب تيموثيوس سالوفاكياس (ذا الرأس المتأرجح) الـذى كـان بازليكوس قد نفاه إلى كانوب، واضطر بطرس إلى الاختفاء فى أحد المنـازل بالإسكندرية ولم يستطع أحد الإمساك به نظرًا لشعبيته بين أتباع الطبيعة الواحدة الأكثرية فى الإسكندرية.

ثم بقى ثيموتيوس سالوفاكياس فى كرسى البطريكية فترة طويلة مـدعمًا بحماية القيصر، بالرغم من الثورات التى كانـت تحـدث ضـده فـى مدينـة الإسكندرية. فى عام ٤٨١، مرض سالوفاكياس مرضًا عُـضالاً، لـذلك بـادر أتباعه الرهبان فى الدير بإرسال بعثة إلى روما ترجو القيصر بتعيين بطريـك جديد من أتباع المذهب المزدوج، فى الوقت نفسه انطلقت بعثـة أخـرى مـن الإسكندرية ترجو القيصر بتعيين بطريك من أتباع مذهب الطبيعـة الواحـدة، وحددوا بطرس فى طلبهم هذا. عند ذلك اتخذ القيصر زينـو قـراره بتعيـين بطرس بطريكًا بالإسكندرية، ولكن قبل أن يتم تعيينه كـان عليـه أن يعتـرف بالمذهب الآخر ذى الطبيعتين.

وأخيرًا تحقق التحالف والتصالح بين المذهبين المـسيحيين المتحـاربين والمتصارعين بالإسكندرية، على يد كل من البطريك بطرس وحـاكم المدينـة آنذاك المدعو برجاميوس، كما أن البطريك بطرس قام بالاحتفال بهذه المناسبة وأرسل رسالة إلى القيصر يخبره باتحاد المذهبين مع بعضهما الـبعض، كمـا استطاع بطرس تفسير كلمة أرثوذكسى التى جاءت فى مجمع خلقدونيا على أنها كلمة تصلح لكلا المذهبين. وقال هى كلمة تعنى " العقيدة الحقة "، وهى كلمـة صالحة لكلا الطرفين، فى حين أن بطرس قام فى الواقـع بتفـسيرها لنفـسه ولأتباع مذهبه فقط. وبهذه الحيلة الذكية اتحدت كنيسة الإسكندرية رسميًا مـع كنيسة القسطنطينية، بعد صراع دام نصف قرن من الزمان.

ولكن لم يمض وقت طويل حتى بدأت المعارضة تتجدد بين أتباع مـذهب الطبيعة الواحدة، حين بدأ بعضهم يتشكك فى صيغة التصالح الـدينى الجديـدة،

واتهموا بطرس بخيانة البطريرك السابق ديوسكورس. ومكان ثورتهم كان غرب مدينة الإسكندرية، تلك الأديرة كان يُطلق عليها بيميثون وإيناتون وأكتوكاديكتاون؛ لأنها كانت تبعد خمسة أميال، وتسعة أميال، وثمانية عشر ميلاً غرب الإسكندرية (انظر شكل ١١).

وبدلاً من أن يحاول البطريك بطرس فض هذه الثورة والقضاء عليها، فإنه عاد إلى مذهبه القديم ولم يعد يهتم باتحاده مع كنيسة القسطنطينية، وقد كان ذلك عام ٤٨٤م. وبدأ اضطهاد أتباع مذهب بطرس في الإسكندرية يتجدد والصراعات تتكرر مجددًا، والبلبلة الفكرية العقائدية تزداد[١٣٨].

فى عام ٥٣٥ م، حدث انشقاق جديد ولكن هذه المرة انشق أتباع مذهب الطبيعة الواحدة على أنفسهم، وذلك أنه بعد وفاة البطريك تيموثيوس الثالث أصبح سكرتيره ثيودوسيوس بطريكًا مكانه، وقد كان هذا الأخير من أتباع مذهب الطبيعة الواحدة، وبالرغم من هذا فقد حظى بمساندة الإمبراطورة ثيودورا. لقد جلب هذا الحقد والكراهية من الكهنة الآخرين على ثيودوسيوس، وهنا قام عدد من القساوسة بإقناع مرشح آخر هو جايانوس بقبول هذا المنصب، وقام أحد القساوسة ــ وكان ثريًا ــ برشوة حاكم المدينة وقادة الجيش حتى أمر الحاكم بطرد ثيودوسيوس وعزله من البطريكية. وبذلك غدا جايانوس هو البطريك بالإسكندرية، ولكن لم يستمر فى هذا المنصب سوى ثلاثة شهور، وهى المدة التى استغرقتها قوات القيصر جوستنيان (٥٢٧ ــ ٥٦٥م) فى الوصول إلى الإسكندرية.

عندما وصلت قوات القيصر إلى الإسكندرية أعادت ثيودوسيوس إلى مكانه السابق كبطريك بالمدينة. ولقد كان هناك تقليد خاص بتولِّى البطريرك الجديد، وهو أن يقوم البطريرك المرشح لتولِّى المنصب برفع يد سلفه البطريرك المُتوفَّى ووضعها على رأسه، وبعد ذلك يتم نزع أحزمة رداء البطريركية عن المتوفى. هذا التقليد يُفترض أنه يرجع إلى أيام القديس مرقص[١٣٩]، وإن كان هناك شك فى احتمال تطبيق هذا التقليد فى الواقع. وعلى أية حال، فقد قل هذا التواصل الذى تذكره الروايات بشكل واضح فى التاريخ

الكنسى السكندرى التالى (شكل ٦٩)، حيث نرى فوق البطريك ثيوفيلوس (٣٨٥ـ ٤١٢ م) بقايا رفات سلفه تيموثيوس الأول (٣٨٠ـ٣٨٥م).



(شكل ٦٩): مومياء تيموثيوس الأول فوق مومياء ثيوفيلوس.

إن قائد الجيش الرومانى المدعو نارزس ـ وكان خَصِيًا وموظفًا بالقصر الإمبراطورى ـ جاء إلى مصر على رأس قوة قوامها ٦٠٠٠ جندى رومانى؛ وذلك لإرجاع ثيودوسيوس إلى مكانه كبطريك بالإسكندرية، وقد حقق ذلك بعد أن عزل جايلوس. ويبقى لغز محير فى هذا الأمر، وهو أن كنيسة روما أرسلت بطريكًا يؤمن بمذهب الطبيعة الواحدة وليس بمذهب الطبيعتين، وهذا مخالف

للعرف والتقليد المتبع بالقسطنطينية. بعد أن أنهى القائد الرومانى نارزس مهمته ظل فى الإسكندرية بجوار ثيودوسيوس عامًا ونصف العام، ولا ندرى ما الدافع وراء بقائه هذه الفترة الطويلة بالإسكندرية. فى شتاء عام ٥٦٣م، طلب القيصر ثيودوسيوس من بطريك الإسكندرية أن يتخلى عن مذهبه ذى الطبيعة الواحدة ويعتنق المذهب الآخر ذا الطبيعتين. أما نارزس الذى كان قد رُقِّى إلى مرتبة القائد العسكرى لروما الشرقية فى إيطاليا لما حققه من إنجازات، فقد استُدعى إلى القسطنطينية وعُيِّن رئيسًا للخصيان. وجاءت النجاة لبطريك الإسكندرية من خلال أمر الإمبراطور ثيودوسيوس بأن يتخلى عن مذهبه ويعتنق المذهب الآخر على يد العرب.

فى عام ٥٣٩م، راح الإمبراطور جوستنيان يضطهد مسيحيِّى الإسكندرية ويتخذ ضدهم إجراءات متعسفة، وذلك بعد أن فشل فى إقناع مسيحييها بترك مذهبهم واعتناق مذهب كنيسة روما. من هذه الإجراءات أنه أمر بإغلاق أبواب الكنائس وعدم السماح للمسيحيين بدخولها. وبذلك حرم المسيحيين من الذهاب للكنيسة كى يغفر لهم المسيح ذنوبهم وحرمانهم من كرسى الاعتراف، وبهذا ــ حسبما اعتقد قيصر ــ سوف يجبرهم على تغيير رأيهم وبالتالى مذهبهم. ثم جاء رد البطريك السكندرى على إجراءات الإمبراطور بأن قام ببناء كنيستين جديدتين بدون إذنه. لذلك قام الإمبراطور جوستنيان بالأمر بإعادة فتح جميع الكنائس المسيحية بالإسكندرية مرة أخرى والسماح للمسيحيين بدخولها مجددًا، ولكن بعد أن عين فيها قساوسة من أتباع الطبيعة المزدوجة، وكان العثور على أمثالهم فى الإسكندرية وما حولها أمرًا يسيرًا[١٤٠]. وقد حقق هذا الإجراء مفعوله، وكان حزن ثيودوسيوس مرجعه أن يتخلى السكندريون عن اتباعهم للمذهب المونوفيزيقى. فى الواقع أن دور العبادة المفتوحة، حتى وإن كانت تتبع مذهب الطبيعة المزدوجة، هى أفضل من دور عبادة مغلقة.

فى القرن السابع، قام يوحنا كليماكوس (٥٧٩ــ٦٤٩) بزيارة الإسكندرية وكانوب. هذا الرجل أُطلق عليه لقب (الصاعد إلى السماء) والمأخوذ عن عمل أدبى له، وقد أُعجب بكهنة الإسكندرية وكذلك كهنة الأديرة خارج مدينة الإسكندرية، ووصفهم بأنهم أشخاص يقومون بتقليد ملائكة السماء فى كمالهم،

وأنهم مرتبطون برابطة المسيح المقدس، كما أبدى إعجابه بالدقة والنظام اللذين كانوا يتمتعون بهما. كما أعجبه تواضع الرهبان وتقشفهم وعدم تكالبهم على متع الحياة وميلهم إلى الابتعاد عن الكلام المبتذل، وصور اللهو التى لا طائل من ورائها. وتُعتبر هذه هى آخر شهادة وصلت إلينا عن مدينة كانوب[١٤١]، حيث إنه بعد أن سقطت المدينة فى أيدى العرب لم يهتم الباحثون بكانوب بل اهتموا فقط بالإسكندرية.

## لقد فتحتُ مدينة النور ومعقل المسيحية

"لقد فتحتُ مدينة النور ومعقل المسيحية"، هكذا كتب عمرو بن العاص إلى الخليفة عمر بعد أن رفع علم محمد فوق أسوار الإسكندرية. ويكمل عمرو ابن العاص فى كتابه قائلاً: "إنه يصعب علىَّ أن أحصى جمالها وروعتها ومشاهدها، ولكننى أحصيت فى عجالة أن بها ٤٠٠٠ قصر، ٤٠٠٠ حمام عام، ٤٠٠ مسرح عام، وبها ١٢ ألف محل لبيع الفاكهة. لقد فتحنا المدينة بالقوة ودون مفاوضات. إن المسلمين كانوا توَّاقين إلى أن يجنوا ثمار نصرهم هذا"[١]. هكذا وجد عمرو بن العاص مدينة الإسكندرية عند فتحها، وإن كان هناك شك فى هذه الإحصائيات التى وردت فى خطابه. وإننى أرى أن فتح العرب لمدينة الإسكندرية عام ٦٤١م، بعد أن حاصروها لمدة ١٤ شهرًا نهاية لهذا الكتاب. وهو التاريخ الذى يمثل، من وجهة نظر الأوضاع السياسية، نهاية الحقبة التاريخية الكلاسيكية (القديمة).

أما الحياة فى مدينة الإسكندرية، فقد استمرت، كما أن المسيحية فى مدينة الإسكندرية قد عاشت واستمرت هى الأخرى، كذلك التجارة بالإسكندرية قد استمرت ولكن الإدارة تغيرت حيث حل العرب محل البيزنطيين. فى عام ٦٤٦م، اندلعت ثورة فى الإسكندرية قادها أتباع البيزنطيين بالمدينة، وقام عمر ابن الخطاب بإرسال من أخمدها وسيطر عليها، وفى غضون تلك الأحداث تهدَّم جزء كبير من سور المدينة القديم. وحتى لا يعاود اليونانيون احتلال المدينة، أرسل عمر بن الخطاب ١٢ ألف جندى إلى المدينة كى يبقوا بها ولا يغادروها، وهكذا غدت المدينة مجددًا مدينة تضم الحاميات العسكرية، كما استمرت

الإسكندرية حتى فى عصر العرب مدينة مثيرة وقبلة للسائحين من كل مكان ومحطة مهمة للمسافرين المتجهين للأرض المقدسة، ولم يغير وجود العرب بها من إقبال السائحين إليها.

وفى الواقع، أنه قبل مجيء العرب إلى المدينة كانت تعج بالصراعات والخلافات، حيث إنه فى عام ٦١٩م، قام الملك الفارسى كسرى الثانى باحتلال الإسكندرية بعد حصار طويل. وقام الفرس آنذاك بمعاملة المسيحيين معاملة سيئة وهدموا الكنائس والأديرة ونهبوا محتوياتها، وبعد عشرة أعوام من هذا الاحتلال الفارسى استطاع الإمبراطور الرومانى هرقل طرد الفرس من الإسكندرية وإرجاعها إلى حظيرة الإمبراطورية الرومانية الشرقية مرة أخرى.



(شكل ٧٠): مرقص المقدس فى طريقه إلى الإسكندرية.

وإلى جانب التغيرات السياسية، حدثت هناك أيضًا تغيرات طبيعية، وعن ذلك يقول المؤرخ الدمشقى المدعو سوفرونيوس إن النيل تسبب فى هدم بعض الأماكن فى كانوب والتى كانت موجودة حتى بداية القرن السابع الميلادى.

ويرى المؤرخ سوفرونيوس أن مدينتَىْ هيراكليون ومينـــوتيس وكـــذلك مينـــاء الإسكندرية القديم قد اختفت جميعًا تحت الماء نتيجة لكوارث طبيعيـــة حـــدثت بالقرن السابع الميلادى. وقد كشفت أبحاث حديثة فى هذه المنطقة عن أن قـــاع البحر فى هذه المنطقة يوجد به شروخ؛ نتجت عن زلازل فى أرضـــية البحـــر ذاتها.

وهناك مؤرخون عرب يتحدثون عن زيادة منسوب المياه فى النيل زيـــادة قوية فى العامين ٧٤١، ٧٤٢م؛ مما أدى إلى تحطم الكثير من أجزاء المدينـــة، كما أن هناك مناطق كبيرة طمرتها المياه بارتفاع ٦، ٧ أمتار[٢]، على ما يبدو نتيجة لفيضانات عالية. وعلى مدار القرنين: الثامن والتاسع الميلاديين، جـــف فرع النيل الكانوبى ولم يعد به مياه.

فى عام ٨٢٣ ميلادية، استطاع تجار إيطاليون من مدينة فينيسيا ســـرقة رفات القديس مرقص من الإسكندرية ونقلها إلى المدينـــة الإيطاليـــة فينيـــسيا، واليوم غدت هذه المدينة تُعرف باسم مدينة القديس مرقص. وفى كنيسة ســـان ماركو بفينيسيا توجد لوحة من الفسيفساء توضح وصول هذا القديس إليها عـــن طريق البحر، فوق ظهر سفينة (شكل ٧٠) شراعها مفرود من شـــدة الريـــاح، وهى تقترب من الفنار، رمز مدينة الإسكندرية .

تمت الترجمة بحمد الله.

# قائمة المراجع

## Einleitung

[1] Diodor 17, 52, 5.
[2] J. Hengstl, Griechische Papyri aus Ägypten als Zeugnisse des öffentlichen und privaten Lebens. Griechisch-deutsch, München 1978, Nr. 82.
[3] Umfassende Darstellungen der Geschichte der Stadt Alexandria im Altertum liegen bisher nicht vor. Am besten ist die hellenistische Epoche behandelt, vor allem in der umfangreichen Studie von P. M. Fraser, Ptolemaic Alexandria, 3 Bände, Oxford 1972; zu dieser Epoche vgl. ferner A. Bernand, Alexandrie la Grande, Paris ²1998; K. Hamma (Hrsg.), Alexandria and Alexandrianism, Malibu 1996.

## Die Hauptstadt des Ptolemäerreiches: 331–30 v. Chr.

[1] Arrian, *Anabasis* 2, 17, 4.
[2] Homer, *Odyssee* 4, 354–356.
[3] Plutarch, *Leben Alexanders* 26, 4–7.
[4] A. Nibbi, Rakotis on the shore of the Great Green of the Haunebut, Giornale di Metafisica 69, 1983, 69–80.
[5] Tacitus, *Historien* 4, 83, 1.
[6] Scriptores Historiae Augustae, *Pescennius Niger* 7, 7.
[7] M. de Saint-Genis, Description des antiquités d'Alexandrie et de ses environs, in: ders., Antiquités, description, Band 2, Paris 1818, 85–86.
[8] Sylloge Inscriptionum Graecarum, hrsg.v. W. Dittenberger, 4 Bände, Berlin ³1915–1924, Band 1, Nr. 283.
[9] The Tebtunis Papyri, 4 Bände, London 1902–1976, Band 3,2, Nr. 879.
[10] Diodor 17, 52, 6.
[11] Dazu J.-Y. Empereur, Alexandrie redécouverte, Paris 1998, 195.
[12] C. Haas, Alexandria in late antiquity. Topography and social conflict, Baltimore/London 1997, 46–47.
[13] Strabo 17, 1, 6–10 (791–796).
[14] S. K. Harmarneh, The ancient monuments of Alexandria according to accounts by medieval Arab authors (IX–XV century), Folia Orientalia 13, 1971, 79; vgl. J.-L. Arnaud, Nouvelles données sur la topographie d'Alexandrie antique, Bulletin de Correspondance Hellénique 121, 1977, 721–737.
[15] Polybius 15, 25–34.

[16] Ptolemaios VIII. = F. Jacoby, Die Fragmente der griechischen Historiker [= FGrH], Berlin 1929–1940, 234 f 2.

[17] Wir wissen dies durch die in jüngster Zeit unternommenen Untersuchungen auf Antirhodos, die Konstruktionen aus Ulmenholz des 5./4. Jahrhundert v. Chr. galten: A. Bernand/E. Bernand/F. Goddio, L'Épigraphie sous-marine dans le port oriental d'Alexandrie, Zeitschrift für Papyrologie und Epigraphik 121, 1998, 131–143.

[18] Caesar, *Bürgerkrieg* 3, 112.

[19] Tebtunis Papyri (S. 330, Anm. 9) Band 1, Nr. 5.

[20] Plinius d. Ä., *Naturgeschichte* 36, 148 und 67–69.

[21] Der Eunostos-Hafen interessiert Strabo offenbar nicht; auch der jüdische Geschichtsschreiber Flavius Josephus, dem wir manches Detail über Alexandria verdanken, erwähnt ihn nicht. Die Bedeutung des Namens Eunostos bleibt für uns im dunkeln; die gelegentlich zu lesende Deutung als »Hafen der guten Rückkehr« ist eine Fabel heutiger Fremdenführer unter den Althistorikern.

[22] Caesar, *Bürgerkrieg* 3, 112, 3.

[23] Theokrit, *Idyllen* 15, 6. 44. 72.

[24] Polybius 14, 11.

[25] B. Schweitzer, Ein Nymphäum des frühen Hellenismus, Festgabe zur Winckelmannfeier des Archäologischen Seminars der Universität, Leipzig 1938.

[26] Lucan, *Bürgerkrieg* 8, 697.

[27] R. Pagenstecher, Nekropolis. Untersuchungen über Gestalt und Entwicklung der alexandrinischen Grabanlagen und ihrer Malereien, Leipzig 1919; B. Tkaczow, La topographie des nécropoles occidentales d'Alexandrie, Eos 70, 1982, 343–348.

[28] Aphthonios = Rhetores Graeci, hrsg. v. L. Spengel, Leipzig 1854, 2, 48; Ammianus Marcellinus 22, 16, 12.

[29] Strabo 13, 1, 54 (609).

[30] Libanius, *Descriptiones* 25, 8; Hipparch bei Ptolemaios, *Syntaxis mathematica* 3, 1.

[31] Strabo 17, 1, 18 (801–802).

[32] Pseudo-Kallisthenes 1, 31.

[33] Achilles Tatius, *Leukippe und Kleitophon* 5, 1–2.

[34] Strabo 17, 1, 16–18 (800–801).

[35] Seneca, *Quaestiones naturales* 4, 2, 13.

[36] Man vergleiche die literarische Beschreibung bei Egmont Colerus, Archimedes in Alexandria, Wien 1950.

[37] Properz, *Elegien* 3, 11, 39.

[38] Ammianus Marcellinus 22, 16, 14.

[39] The Oxyrhynchus Papyri, London 1898 ff., Band 8, Nr. 1160; vgl. Anm. 172.

[40] Sueton, *Caesar* 47.

[41] Herodot 2, 113–115.

[42] M. Malaise, L'étymologie égyptienne du toponyme ›Canope‹, Chronique d'Égypte 74, 1999, 224–230.

[43] Hekataios bei Aristoteles 2, 359.

[44] Aischylos, *Prometheus* 847.

[45] Poseidippos bei Athenaios, *Gelehrtenmahl* 7, 318 d.

[46] Ptolemaios, *Geographica* 4, 5, 16.
[47] Vgl. S. 331, Anm. 33.
[48] Tacitus, *Annalen* 2, 60.
[49] Flavius Josephus, *Jüdischer Krieg* 4, 11.
[50] G. Roeder, Die ägyptische Götterwelt, Zürich/Stuttgart 1959, 92 und 94.
[51] Orientis Graeci Inscriptiones Selectae [= OGIS], hrsg. v. W. Dittenberger, 2 Bände, Leipzig 1903–1905, Band 2, Nr. 706.
[52] Epiphanius, *Ancoratus* 12 (Die griechischen christlichen Schriftsteller der ersten Jahrhunderte 25 [= GCS]).
[53] Prokop, *Bauten* 6, 1, 1–4.
[54] Theophanes, *Chronographie* 1, 115, 6.
[55] Palladius, *Historia Lausiaca* 7, 1.
[56] Socrates, *Kirchengeschichte* 1, 27.
[57] G. Hölbl, Geschichte des Ptolemäerreiches. Politik, Ideologie und religiöse Kultur von Alexander dem Großen bis zur römischen Eroberung, Darmstadt 1994.
[58] G. Le Rider, Cléomène de Naucratis, Bulletin de Correspondance Hellénique 121, 1997, 71–93.
[59] Athenaios, *Gelehrtenmahl* 14, 621 a.
[60] Theokrit, *Idyllen* 17, 128–130.
[61] Polybius 5, 34.
[62] O. Zwierlein, Weihe und Entrückung der Locke der Berenike, Rheinisches Museum für Philologie 130, 1987, 274–290.
[63] Zenobius, *Proverbia* 3, Nr. 94.
[64] Die Numerierung der ägyptischen Herrscher ist modernen Ursprungs und weist Abweichungen auf. Nachdem in der Forschung Ptolemaios Neos Philopator, »der jüngere, der den Vater liebt«, (145–144 v. Chr.) als Mitregent seines Vaters Ptolemaios VI. (180–145 v. Chr.) erkannt worden war und er somit als Ptolemaios VII. geführt wurde, hat sich die Numerierung der Ptolemäer weitgehend standardisiert; neuerdings wird allerdings die Existenz dieses Ptolemaios VII. wieder in Frage gestellt, was leider bereits bei einigen Autoren zu einer erneuten Umnumerierung der Ptolemäer geführt hat. Ähnliche Unterschiede finden sich bei der Zählung der Herrscherinnen.
[65] Livius 42, 12, 5.
[66] OGIS (S. 332, Anm. 51) Band 1, Nr. 135.
[67] Seine offiziellen Regierungsjahre zählte Ptolemaios VIII. ab 170 v. Chr.
[68] F. Hoffmann, Ägypten. Kultur und Lebenswelt in griechisch-römischer Zeit. Eine Darstellung nach den demotischen Quellen, Berlin 2000, 80.
[69] M. Clauss, Das Alte Ägypten, Berlin 2001, 109–111 sowie 199–202.
[70] Roeder (S. 332, Anm. 50) 115.
[71] OGIS (S. 332, Anm. 51) Band 1, Nr. 90.
[72] Philo, *Gegen Flaccus* 163.
[73] Polybius 34, 14, 6 = Strabo 17, 1, 12 (797).
[74] Athenaios, *Gelehrtenmahl* 9, 393 b.
[75] Vgl. S. 332, Anm. 73.
[76] Menekles von Barka = FGrH (S. 331, Anm. 16) 270 f 9.

[77] R. A. Todd, Popular violence and internal security in Hellenistic Alexandria, Ann Arbor 1963.

[78] Polybius 15, 33.

[79] Diodor 1, 83, 8.

[80] W.D. Barry, Popular violence and the stability of Roman Alexandria 30 BC-AD 215, Bulletin de la société archéologique d'Alexandrie 45, 1993, 19–33.

[81] OGIS (S. 332, Anm. 51) Band 1, Nr. 19.

[82] Galen, *De differentia pulsuum* 4, 8.

[83] 3 Makkabäer 2, 29.

[84] Flavius Josephus, *Gegen Apion* 2, 53–56.

[85] 1 Makkabäer 8.

[86] Philo, *Das Leben des Moses* 2, 41.

[87] Philo, *Die Verwirrung der Sprachen* 129.

[88] Eusebius, *Praeparatio evangelica* 9, 27, 4 (Sources Chrétiennes 369).

[89] Musa Tragica. Die griechische Tragödie von Thespis bis Ezechiel. Ausgewählte Zeugnisse und Fragmente griechisch und deutsch, Göttingen 1991, 219 Text und Übersetzung.

[90] Exodus 15, 21.

[91] Philo, *Gesandtschaft* 166.

[92] Flavius Josephus, *Gegen Apion* 2, 80; dazu P. Schäfer, Judeophobia. Attitutes toward the Jews in the ancient world, Cambridge/Mass. 1997, 61.

[93] Flavius Josephus, *Gegen Apion* 2, 91–96.

[94] Flavius Josephus, *Gegen Apion* 1, 289–292.

[95] Theokrit, *Idyllen* 17, 95.

[96] Eine gute Einführung bietet J. Bingen, Le Papyrus Revenue Laws – Tradition grecque et adaption hellénistique, Opladen 1978.

[97] Plutarch, *Leben des Demetrius* 27, 1.

[98] Papyrus Tebtunis (S. 330, Anm. 9) Band 3,1, Nr. 703, Zeile 230–232.

[99] Papyrus Lansing. Eine ägyptische Schulhandschrift der 20. Dynastie, hrsg. v. A. Erman, Kopenhagen 1925, 7.

[100] Papyrus Tebtunis (S. 330, Anm. 9) Band 3,1, Nr. 703, Zeile 174–177.

[101] M. Rostovtzeff, Gesellschafts- und Wirtschaftsgeschichte der hellenistischen Welt, 3 Bände, Darmstadt 1955/56 (Nachdruck 1984), Band 1, 287.

[102] Athenaios, *Gelehrtenmahl* 196 a–201 f.

[103] A. Adriani, Le temple et la tour de Taposiris, Annuaire du Musée gréco-romain 3, 1940–50, Alexandria 1952, 133–139.

[104] Die ausführlichste Beschreibung des Leuchtturms stammt aus dem Jahr 1166; O. Tousson, Bulletin de la société archéologique d'Alexandrie 30, 1936, 49–53.

[105] F. Hiller v. Gaertringen, Historische griechische Epigramme, Bonn 1926, Nr. 92.

[106] Plinius d. Ä., *Naturgeschichte* 36, 83.

[107] Beda Venerabilis = Patrologia 174 Latina [= PL] Band 90, 961–962.

[108] Athenaios, *Gelehrtenmahl* 15, 675 f–676 a.

[109] F. Goddio u. a., Alexandrie. Les quartiers royaux submergés, Paris/London 1998.

[110] Plinius, *Naturgeschichte* 2, 38.

[111] Flavius Josephus, *Jüdischer Krieg* 4, 612–615.

[112] Lucan, *Bürgerkrieg* 10, 57.
[113] Athenaios, *Gelehrtenmahl* 209 c–e.
[114] Haas (S. 330, Anm. 12) 42, der von 58 kg pro Sack sowie einer Schiffsladung von 340 Tonnen ausgeht.
[115] Eusebius, *Kirchengeschichte* 7, 21, 4.
[116] H. Engelmann, Die Inschriften von Kyme = Inschriften griechischer Städte Kleinasiens Band 5, Bonn 1976, Nr. 41.
[117] Plutarch, *De Iside et Osiride* 28 (361 b); zu den Ursprüngen des Kults: P. M. Fraser, Current problems concerning the early history of the cult of Sarapis, Opuscula Atheniensia 7, 1965, 23–45.
[118] Die ganze Palette der Identifikationen findet sich bei J. E. Stambaugh, Sarapis under the early Ptolemies, Leiden 1972, 3–7.
[119] Tacitus, *Historien* 4, 83–84.
[120] Hoffmann (S. 332, Anm. 68) 186–194.
[121] M. Sabottka, Das Sarapeum in Alexandria. Untersuchungen zur Architektur und Baugeschichte des Heiligtums von der frühen prolemäischen Zeit bis zur Zerstörung 391 n. Chr., Berlin 1985.
[122] Strabo 17, 1, 10 (795).
[123] Rufinus, *Kirchengeschichte* 11, 23.
[124] Vgl. S. 330, Anm. 28
[125] I. D. Rozanskij, Geschichte der antiken Wissenschaft, München 1984.
[126] B. Seidensticker, Alexandria. Die Bibliothek der Könige und die Wissenschaften, in: A. Demandt (Hrsg.), Stätten des Geistes. Große Universitäten Europas von der Antike bis zur Gegenwart, Köln/Weimar/Wien 1999, 15–37, sowie ausführlich Fraser (Anm. 3) 305–793.
[127] Athenaios, *Gelehrtenmahl* 11, 84–86, 493 a–494 b.
[128] Papyrus Oxyrhynchos (S. 331, Anm. 39) Band 18, Nr. 2190.
[129] Tzetzes = Comicorum Graecorum Fragmenta, hrsg. v. G. Kaibel, Berlin 1958, 19, Pb 1, 20.
[130] Eusebius, *Kirchengeschichte* 5, 8, 11.
[131] Epiphanius, *Liber de mensuris et ponderibus* 9 = Patrologia Graeca [= PG] Band 43, 167 a.
[132] Galen, *Commentarium 2, 4 in Hippocratem, epidemiai* 3.
[133] L. Canfora, Die verschwundene Bibliothek. Das Wissen der Welt und der Brand von Alexandria, Hamburg 1998.
[134] W. Huß, Ägypten in hellenistischer Zeit. 332–30 v. Chr., München 2001, 233. Zum Umfeld der Ptolemäerherrscher vgl. G. Weber, Dichtung und höfische Gesellschaft. Die Rezeption von Zeitgeschichte am Hof der ersten drei Ptolemäer, Stuttgart 1993.
[135] Strabo 1, 4, 6 (65).
[136] Seneca, *Naturales quaestiones,* Vorwort.
[137] J. Mau, Eukleides 3, Der Kleine Pauly 2, 1967, 416.
[138] Stobaios 2, 228, 30 w.
[139] Athenaios, *Gelehrtenmahl* 1, 22 d.
[140] H. Diels, Fragmente der Vorsokratiker, Band 2, [12]1966, 131.
[141] Vitruv 10, 9, 1–4.

[142] F. Kudlien, Herophilos und der Beginn der medizinischen Skepsis, in: H. Flashar (Hrsg.), Antike Medizin, Darmstadt 1971, 280–295.
[143] Fraser (S. 330, Anm. 3) 348.
[144] R. Cribore, Writing teachers and students in Greco-Roman Egypt, Atlanta 1997, Nr. 234.
[145] L. Robert, Les inscriptions, in: P. Bernard und andere, Fouilles d'Aï Khanoum I (Campagnes 1965, 1966, 1967, 1968). Texte et figures, Paris 1973, 213.
[146] Cribore (S. 335, Anm. 144) Nr. 233.
[147] E. Ziebarth, Aus der griechischen Schule. Sammlung griechischer Texte auf Papyrus, Hoftafeln, Ostraka, Bonn [2]1913, Nr. 46.
[148] Corpus Inscriptionum Graecarum, 4 Bände, Berlin 1828–1895, Band 2, Nr. 3088.
[149] H. Diels, Laterculi Alexandrini aus einem Papyrus ptolemäischer Zeit, Berlin 1904.
[150] Schweitzer (S. 331, Anm. 25).
[151] H. C. Baldry, The unity of mankind in Greek thought, Cambridge 1965.
[152] M. Clauss, Kleopatra, München [3]2003.
[153] R. Mond/O. H. Myers, The Bucheum, London 1934, Band 2, Nr. 13.
[154] Lucan, *Bürgerkrieg* 475–535.
[155] Plutarch, *Leben des Pompeius* 77.
[156] Cassius Dio 42, 34, 3–4.
[157] Sueton, *Caesar* 35.
[158] G. Lefebvre, Le dernier décret des Lagides, Mélanges Holleaux, Paris 1913, 103–108.
[159] Properz, *Elegien* 3, 11, 33.

## Die Provinzhauptstadt 30 v. Chr.–284 n. Chr.

[1] Einen Überblick der Entwicklung der Stadt im 1. Jahrhundert bietet E. G. Huzar, Alexandria ad Aegyptum in the Julio-Claudian age, in: Aufstieg und Niedergang der römischen Welt (= ANRW), Band 2, 10,1, Berlin 1988, 619–668.
[2] Hoffmann (S. 332, Anm. 68) 101.
[3] Cassius Dio 51, 17, 7.
[4] Corpus Papyrorum Judaicarum [= CPJ], 2 Bände, Cambridge/Mass. 1957–1960, Band 2, Nr. 151.
[5] Papyrus Oxyrhynchus (S. 331, Anm. 39) Band 42, Nr. 3020.
[6] Cassius Dio 51, 17.
[7] A. K. Bowman, The town councils of Roman Egypt, Toronto 1971, 15–18.
[8] Digesten 1, 17, 1 (Ulpian).
[9] R. Haensch, Zur Konventsordnung in Aegyptus und den übrigen Provinzen des römischen Reiches, in: Akten des 21. internationalen Papyrologenkongresses, Stuttgart 1997, 320–391.
[10] Papyrus Oxyrhynchus (S. 331, Anm. 39) Band 107 8, Nr. 1160; vgl. S. 331, Anm. 39.
[11] Tacitus, *Historien* 1, 11.
[12] Année Épigraphique 1912, Nr. 211.
[13] Dion von Prusa, *Rede an die Alexandriner* 32, 36.

[14] J. M. Modrzejewski, Ägypten, in: C. Leppeley, Rom und das Reich in der hohen Kaiserzeit. 44 v. Chr.–260 n. Chr., Band 2: Die Regionen des Reiches, München 2001, 457–518.

[15] H. Braunert, Die Binnenwanderung. Studien zur Sozialgeschichte Ägyptens in der Ptolemäer- und Kaiserzeit, Bonn 1964, 194–213.

[16] Papyrus Oxyrhynchus (S. 331, Anm. 39) Band 2, Nr. 294.

[17] G. Argoud (Hrsg.), Science et vie intellectuelle à Alexandrie (I[er]–III[e] siècle après J. C.), Saint Etienne 1994.

[18] W. M. Calder, Colonia Caesareia Antiocheia, Journal of Roman Studies 2, 1912, 96.

[19] Papyrus Oxyrhynchus (S. 331, Anm. 39) Band 27, Nr. 2471.

[20] D. Delia, Alexandrian citizenship during the Roman principate, Atlanta 1991.

[21] Plinius d. J., *Briefe* 10, 5–7.

[22] CPJ (S. 335, Anm. 4) Band 2, Nr. 150.

[23] CPJ (S. 335, Anm. 4) Band 2, Nr. 151.

[24] CPJ (S. 335, Anm. 4) Band 2, Nr. 153.

[25] Flavius Josephus, *Gegen Apion* 2, 63.

[26] Tacitus, *Annalen* 2, 59, 3.

[27] J. Vogt, Alexandrinische Münze, Stuttgart 1924, Band 1.

[28] E. Leider, Der Handel von Alexandria, Hamburg 1934.

[29] Plinius, *Naturgeschichte* 12, 59.

[30] Papyrus Oxyrhynchus (S. 335, Anm. 4) Band 4, Nr. 744.

[31] H. Devijver, The Roman army in Egypt (with special reference to the militiae equestres, in: ANRW (S. 335, Anm. 1) Band 2,1, Berlin 1974, 452–492.

[32] Corpus Inscriptionum Latinarum [= CIL], Berlin 1863 ff., Band 2, Nr. 4136 = H. Dessau, Inscriptiones Latinae Selectae (= Dessau), Berlin 1892–1916 (Nachdruck 1954–1962), Nr. 1399.

[33] E. Alföldi-Rosenbaum, Alexandriaca. Studies on Roman game counters, Chiron 6, 1976, 205–239.

[34] CIL (S. 336, Anm. 32) Band 11, Nr. 5693.

[35] Iuvenal, *Satiren* 16, 1–12.

[36] Michigan Papyri, 13 Bände, Ann Arbor 1931–1977, Band 8, Nr. 465.

[37] Année Épigraphique 1980, Nr. 895. Der Text lautet mit Übersetzung: *Aurelia Iulia Epictesis origine Cilicissa quae/vixit ann(os) XXXVI item M(arcus) Aurelius Paullus/filius eius q(ui) v(ixit) ann(nos) XII Aur(elius) Timocrates mil(es) leg(ionis) II Tr(aianae) Fort(is) / coniugi et filio* – »Aurelia Iulia Epictesis, von Hause aus Kilikierin, die 36 Jahre lebte, sowie Marcus Aurelius Paullus, deren Sohn, der 12 Jahre lebte, [sind hier bestattet]; Aurelius Timocrates, Soldat der Legio II Traiana, der Starken, [hat dieses Grabmal] für die Gattin und den Sohn [errichtet].«

[38] Année Épigraphique 1980, Nr. 894. Der Text lautet mit Übersetzung: *D(is) M(anibus) s(acrum) / M(arcus) Valerius Omuncio eq(ues) Valerini fili(i) / fecit monimentum Valerini fili(i) / qui vixit menses VII* – »Marcus Valerius Omuncio, der Reiter, (Vater) des Valerinus, des Sohnes, hat das Grabmal des Valerinus, des Sohnes, errichtet, der 7 Monate lebte.«

[39] Hirtius, *Der Alexandrinische Krieg* 24, 2.

[40] CIL (S. 336, Anm. 32) Band 6, Nr. 8582 = Dessau (S. 336, Anm. 32) Nr. 1576.

[41] P.M. Fraser, The ΔΙΟΛΚΟΣ of Alexandria, Journal of Egyptian Archaeology, 47, 1961, 134–138.
[42] Philo, *Gesandtschaft* 151.
[43] Plinius d. Ä., *Naturgeschichte* 36, 69.
[44] OGIS (S. 332, Anm. 51) Band 2, Nr. 656.
[45] CIL (S. 336, Anm. 32) Band 3, Nr. 12046 = Dessau (S. 336, Anm. 32) Nr. 5797.
[46] E. Breccia, Catalogue général des antiquités Égyptiennes du musée d'Alexandrie. Iscrizioni greche e latine, Leipzig 1911, Nr. 49 = Dessau (S. 336, Anm. 32) Nr. 9370.
[47] Plinius d. Ä., *Naturgeschichte* 6, 102.
[48] G. Thür, Hypotheken-Urkunde eines Seedarlehens für eine Reise nach Muziris und Apographe für die Tetarte in Alexandria (zu P. Vindob. G. 40822*), Tyche 2, 1987, 229–245.
[49] A. Birley, Mark Aurel. Kaiser und Philosoph, München 1968, 262.
[50] J. Faivre, Canope, Ménouthis, Aboukir, Paris 1917, 35.
[51] P. J. Sijpesteijn, Der ποταμὸς Τραιανός, Aegyptus 43, 1963, 70–83.
[52] Plinius d. J., *Panegyricus* 31.
[53] Vgl. Anm. 134; dazu A. Ausfeld, Neapolis und Brucheion in Alexandria, Philologus 63, 1904, 481–497.
[54] D. Fishwick, The temple of Caesar at Alexandria, American Journal of Ancient History 9, 1984, 131–134.
[55] Sueton, *Augustus* 98, 2.
[56] M. Clauss, Kaiser und Gott. Herrscherkult im römischen Reich, Stuttgart 1999 (ND München 2001), 237–245.
[57] A. S. Hunt/C. C. Edgar, Select Papyri, London 1932 (Nachdruck 1970), Band 2, Nr. 211.
[58] D. G. Weingärtner, Die Ägyptenreise des Germanicus, Bonn 1969.
[59] Sueton, *Vitellius* 2, 5.
[60] Philo, *Gesandtschaft* 39.
[61] Philo, *Gesandtschaft* 75, 166.
[62] CPJ (S. 335, Anm. 4) Band 2, Nr. 153.
[63] Papyrus Oxyrhynchus (S. 331, Anm. 39) Band 27, Nr. 2476.
[64] Papyrus Oxyrhynchus (S. 331, Anm. 39) Band 7, Nr. 1021.
[65] Zu den Namen im einzelnen sowie zu den dynastischen, allgemeinen und speziell auf Ägypten bezogenen Elementen vgl. O. Montevecchi, L'ascesa al trono di Nerone e la tribu alessandrine, in: M. Sordi (Hrsg.), I canali della propaganda nel mondo antico, Mailand 1976, 200–219.
[66] Sueton, *Nero* 20, 3.
[67] Vgl. dazu Haas (S. 330, Anm. 12) 91–127.
[68] B. A. Pearson, Christians and Jews in first century Alexandria, Harvard Theological Review 79, 1986, 206–216.
[69] Babylonischer Talmud, Gittin 56 a.
[70] U. Wilcken, Berenike 15, Realencyclopädie der classischen Altertumswissenschaft 3,1, 1897, 288.
[71] A. Barzanò, Tiberio Giulio Alessandro, prefetto d'Egitto (66/70), in: ANRW (S. 335, Anm. 1) Band 2, 10,1, Berlin 1988, 518–580.

[72] G. Chalon, L'édit de Tiberius Iulius Alexander. Etude historique et exégétique, Lausanne 1964.
[73] Tacitus, *Historien* 4, 4, 1.
[74] Flavius Josephus, *Jüdischer Krieg* 2, 488.
[75] Zu den Ereignissen vgl. Schäfer (S. 333, Anm. 92) 136–160.
[76] Philo, *Gesandtschaft* 201.
[77] Select Papyri (S. 337, Anm. 57) Band 2, Nr. 212.
[78] E. Starobinski-Safran, La communauté juive d'Alexandrie à l'époque de Philon, in: ΑΛΕΞΑΝΔΡΙΝΑ. Hellénisme, judaïsme et christianisme à Alexandrie. Mélanges offerts au P. Claude Mondésert, Paris 1987, 45–75.
[79] Eusebius, *Kirchengeschichte* 4, 2, 1–2.
[80] Cassius Dio 68, 32, 1.
[81] Orosius, *Kirchengeschichte* 7, 12, 7.
[82] CPJ (S. 335, Anm. 4) Band 2, Nr. 435.
[83] Appian, *Arabike* frg. 19.
[84] CPJ (S. 335, Anm. 4) Band 2, Nr. 437.
[85] Appian, *Bürgerkrieg* 2, 90.
[86] Flavius Josephus, *Jüdischer Krieg* 4, 11, 5.
[87] Sueton, *Vespasian* 7.
[88] F. Preisigke/F. Bilabel, Sammelbuch griechischer Urkunden aus Ägypten, Wiesbaden 1915ff., Band 6, Nr. 9528; vgl. O. Montevecchi, Vespasiano acclamato dagli Alessandrini, in: Atti del congresso internazionale di studi Vespasianei, Rieti 1981, Band 2, 483–496.
[89] H. Musurillo, The acts of the pagan martyrs. Acta Alexandrinorum, Oxford 1954, 31; der Text ist an dieser Stelle wohl ΣΑΡ[ΑΠΙ] zu ergänzen.
[90] M. F. Laming MacAdam, The temple of Kawa 1: The inscriptions, London 1949, Nr. 9; dazu P. Derchain, La visite de Vespasian au Sérapéum d'Alexandrie, Chronique d'Égypte 56, 1953, 261–279.
[91] Cassius Dio 65, 8, 1.
[92] Philostrat, *Leben des Apollonius* 5, 28.
[93] S. Dow/F. S. Upson, The foot of Sarapis, Hesperia 13, 1944, 58–77.
[94] Tacitus, *Historien* 4, 82.
[95] Cassius Dio 65, 8, 4.
[96] Flavius Josephus, *Bellum Iudaicum* 7, 72.
[97] Philostrat, *Leben des Apollonius* 5, 35.
[98] Papyrus Oxyrhynchus (S. 331, Anm. 39) Band 42, Nr. 3022.
[99] Zu den einzelnen Stationen des Ägyptenaufenthalts vgl. P. J. Sijpesteijn, A new document concerning Hadrian's visit to Egypt, Historia 18, 1969, 109–118.
[100] Preisigke/Bilabel (S. 338, Anm. 88) Band 6, Nr. 9617.
[101] H. Halfmann, Itinera principum. Geschichte und Typologie der Kaiserreisen im römischen Reich, Stuttgart 1986, 84 und 110.
[102] Anthologia Graeca 9, 402.
[103] K. J. Rigsby, On the high priest of Egypt, Bulletin of the American Society of Papyrologists 22, 1985, 279–289.
[104] E. Heitsch, Die griechischen Dichterfragmente der römischen Kaiserzeit, Göttin-

gen 1961, 52–54; dazu A. Gutsfeld, Hadrian als Jäger. Jagd als Mittel kaiserlicher Selbstdarstellung, in: W. Martini (Hrsg.), Die Jagd der Eliten in den Erinnerungskulturen von der Antike bis in die Frühe Neuzeit, Göttingen 2000, 79–99.

[105] Athenaios, *Gelehrtenmahl* 15, 677 d-e.

[106] Phlegon, *Buch der Wunder und der Langlebigkeit* Nr. 26 und 28.

[107] Hieronymus, *Chronik* 197.

[108] Scriptores Historiae Augustae, *Hadrian* 20, 2.

[109] H. Kähler, Hadrian und seine Villa bei Tivoli, Berlin 1950, 137–139.

[110] F. W. v. Bissing, Apis imperator, Archiv für Orientforschung 3, 1926, 119–120.

[111] CIL (S. 336, Anm. 32) Band 8, Nr. 2532 = Nr. 18042 = Dessau (S. 336, Anm. 32) Nr. 9134.

[112] J. H. Oliver, Greek constitutions of early Roman emperors from inscriptions and papyri, Philadelphia 1989, 220–226.

[113] Censorinus, *Der Geburtstag* 18, 10.

[114] Censorinus, *Der Geburtstag* 21, 10.

[115] Scriptores Historiae Augustae, *Marcus Aurelius* 13, 3.

[116] A. und E. Bernand, Un procurateur des effigies impériales à Alexandria, Zeitschrift für Papyrologie und Epigraphik 122, 1998, 97–101; hier finden sich auch Hinweise auf die Götterattribute der Faustina.

[117] Herodot 2, 17.

[118] Heliodor, *Aithiopika* 1, 5, 2–6, 2.

[119] J.-M. Bertrand, Les boucôloi ou le monde à l'envers, Revue des Études anciennes 90, 1988, 139–149.

[120] Cassius Dio 72, 4.

[121] CIL (S. 336, Anm. 32) Band 3, Nr. 6578 = Dessau (S. 336, Anm. 32) Nr. 373.

[122] Scriptores Historiae Augustae, *Marcus Aurelius* 26, 3.

[123] Scriptores Historiae Augustae, *Septimius Severus* 3, 7.

[124] Scriptores Historiae Augustae, *Septimius Severus* 17, 2–4.

[125] K. A. Neugebauer, Die Familie des Septimius Severus, Die Antike 12, 1936, 155–172.

[126] Achilles Tatius, *Leukippe und Kleitophon* 5, 2.

[127] Scriptores Historiae Augustae, *Septimius Severus* 17, 4.

[128] Oliver (S. 339, Anm. 112) 246.

[129] A. Bernand/E. Bernand/F. Goddio (S. 331, Anm. 17) 135.

[130] Herodian 4, 8, 7–9.

[131] M. Clauss, Sparta. Eine Einführung in seine Geschichte und Zivilisation, München 1983, 94.

[132] Hengstl (S. 330, Anm. 39) Nr. 11.

[133] Papyrus Oxyrhynchus (S. 331, Anm. 39) Band, 43, Nr. 3091.

[134] L. Mitteis/U. Wilcken, Grundzüge und Chrestomathie der Papyruskunde, Leipzig 1912, Band 1,2, Nr. 245.

[135] Cassius Dio 78, 22, 2–23, 2.

[136] E. Benoit/J. Schwartz, Caracalla et les troubles d'Alexandrie en 215, Études de papyrologie 7, 1945, 17–33.

[137] Cassius Dio 78, 23, 3.

[138] Select Papyri (S. 337, Anm. 57) Band 2, Nr. 215; vgl. K. Buraselis, Zu Caracallas Strafmaßnahmen in Alexandrien (215/6). Die Frage der Leinenweber in P.GISS. 40 II und der syssitia in Cass. Dio 77(78), 23.3, Zeitschrift für Papyrologie und Epigraphik 108, 1995, 166–188.

[139] Preisigke/Bilabel (S. 338, Anm. 88) Band 1, Nr. 4275.

[140] Eine andere Lokalisierung schlägt A. Martin, Alexandrie à l'époque romaine tardive: l'impact du christianisme sur la topographie et les institutions, in: Alexandrie médievale 1, hrsg.v. C. Décobert/J.-Y. Empereur, Kairo 1998, 9–21, vor.

[141] Apostelgeschichte 18, 24.

[142] A. v. Harnack, Die Mission und Ausbreitung des Christentums in den ersten drei Jahrhunderten, Leipzig [4]1924, Band 2, 706.

[143] Mitteis/Wilcken (S. 339, Anm. 134) Band 1,2, Nr. 124.

[144] Eusebius, *Kirchengeschichte* 6, 41, 5.

[145] Zur schwierigen und umstrittenen Chronologie der Osterfestbriefe des Dionysius vgl. W. A. Bienert, Dionysius von Alexandrien. Zur Frage des Origenismus im dritten Jahrhundert, Berlin/New York 1978, sowie C. Andresen, »Siegreiche Kirche« im Aufstieg des Christentums. Untersuchungen zu Eusebius von Caesarea und Dionysios von Alexandrien, in: ANRW (S. 335, Anm. 1) Band 2, 23,1, Berlin 1979, 387–459.

[146] Eusebius, *Kirchengeschichte* 7, 23, 2.

[147] C. Andresen, Der Erlaß des Gallienus an die Bischöfe Ägyptens (Euseb, HE VII, 13), Studia Patristica 12, 1975, 385–398.

[148] Eusebius, *Kirchengeschichte* 7, 21, 4.

[149] Ebda. 7, 13.

[150] Ammianus Marcellinus 22, 16, 15.

[151] Hieronymus, *Vita S. Hilarionis eremitae* 40 = 178 PL (S. 333, Anm. 107) Band 23, 36 c.

[152] C. H. Roberts, An army doctor in Alexandria, in: S. Morenz (Hrsg.), Aus Antike und Orient, Festschrift W. Schubart, Leipzig 1950, 112–115; ferner Hengstl (S. 330, Anm. 2) Nr. 161.

[153] Das L stammt aus der demotischen Sprache und bedeutet Jahr.

[154] Hieronymus, *Chronik* zum Jahr 274.

[155] Scriptores Historiae Augustae, *Firmus*; dazu G. Marasco, Un lapsus nella *Historia Augusta* e la biografia di Firmo, Rheinisches Museum 140, 1997, 400–411.

[156] Scriptores Historiae Augustae, *Quadriga tyrannorum* 8, 6.

[157] Scriptores Historiae Augustae, *Firmus* 5, 4.

## Der Sitz des Patriarchen: 284–641 n. Chr.

[1] Socrates, *Kirchengeschichte* 7, 7.

[2] Expositio totius mundi 37, 6.

[3] Zum Text und seiner Interpretation P. M. Fraser, A Syriac *Notitia urbis Alexandrinae*, Journal of Egyptian Archaeology 37, 1951, 103–108.

[4] Zu den Belegen vgl. Fraser (S. 330, Anm. 3) 35.

[5] Eusebius, *Kirchengeschichte* 7, 21.
[6] Athanasius, *Historia Arianorum* 54 = PG (S. 334, Anm. 131) Band 25, 298 a.
[7] Ammianus Marcellinus 22, 16, 7–8 und 12.
[8] Ebda. 17–18.
[9] Athanasius, *Historia Arianorum* 58 = PG (S. 334, Anm. 131) Band 25, 299 a–b.
[10] Adamnanus, *De locis sanctis* 2, 30 (Corpus Scriptorum Ecclesiasticorum Latinorum [= CSEL] 39).
[11] Itinerarium Antonini Placentini 45 (Corpus Christianorum Series Latina [= CCSL] 175).
[12] Leontius von Neapel, *Vita Joannis Eleemosynarii* 24.
[13] A. Ausfeld, Neapolis und Brucheion in Alexandria, Philologus 63, 1904, 481–497.
[14] Palladius, *Historia Lausiaca* 26, 4.
[15] Ebda. 35, 14.
[16] Malalas 17, 12 (417).
[17] Sozomenos, *Kirchengeschichte* 3,5.
[18] A. Martin, Alexandreia christiana: un nouveau rôle historique pour la capitale de l'Égypte en Orient, Mélanges d'archéologie et d'histoire de l'école française d'Athènes 108, 1996, 159–173.
[19] Digesten 3, 4, 1 (Gaius).
[20] Codex Theodosianus 13, 5, 32.
[21] Synesius, *Briefe* 5 (A. Garzya, Synesii Cyrensis epistulae, Rom 1979).
[22] Mitteis/Wilcken (S. 339, Anm. 134) Band 1,2, Nr. 434.
[23] Gregor, *Briefe* 10, 21 (CCSL [S. 341, Anm. 11] 140 a).
[24] Johannes von Ephesus, *Commentarii* (W. van Douwen – J. P. N. Land, Ioannis Ephesini commentarii, Amsterdam 1889) 249.
[25] Plinius, *Naturgeschichte* 12, 84.
[26] Johannes von Ephesus, *Kirchengeschichte* 3, 1, 33 (Corpus Scriptorum Christianorum Orientalium 105).
[27] Oracula Sibyllina 13, 74; zum Aufstand: A. C. Johnson, Lucius Domitius Domitianus Augustus, Classical Philology 45, 1950, 13–21; W. Kuhoff, Diokletian und die Epoche der Tetrarchie. Das römische Reich zwischen Krisenbewältigung und Neuaufbau (284–313 n. Chr.), Frankfurt/Main 2001, 184–197.
[28] Dessau (S. 336, Anm. 32) Nr. 8930 und 8931.
[29] OGIS (S. 332, Anm. 51) Band 2, Nr. 718.
[30] H.-C. Noeske, Bemerkungen zum Münzumlauf vom 5. bis zum 7. Jahrhundert n. Chr. in Ägypten und Syrien, XII. Internationaler numismatischer Kongreß Berlin 1997, Akten 2, Berlin 2000, 812–819.
[31] Fontes Iuris Romani Anteiustiniani, Band 2, 580.
[32] J. Schwartz, Die Rolle Alexandrias bei der Verbreitung orientalischen Gedankenguts (Handelsstraßen und Wege geistiger Kommunikation), Zeitschrift für Papyrologie und Epigraphik 1, 1967, 197–217.
[33] H. Musurillo, The acts of the Christian martyrs, Oxford 1972, 320–353.
[34] Acta Conciliorum Oecumenicorum 2, 1, 2, 51; dazu G. R. Monks, The church of Alexandria and the city's economic life in the sixth century, Speculum 28, 1953, 349–362.

[35] Leontius von Neapel, *Vita Ioannis Eleemosynarii* 42.

[36] F. R. Trombley, Hellenic religion and christianization c. 370–529, Leiden/Köln 1995, Band 1, 1–51.

[37] Johannes von Nikiu, *Chronikon* 120, 14–16.

[38] E. A. Wallis Budge, Coptic Martyrdoms in the dialect of upper Egypt, London 1914, 143.

[39] F. H. Kettler, Der melitianische Streit, Zeitschrift für die neutestamentliche Wissenschaft 35, 1936, 155–193.

[40] Socrates, *Kirchengeschichte* 1, 37.

[41] I. Ortiz de Urbina, Nizäa und Konstantinopel, Mainz 1964, 278.

[42] Gregor von Nyssa, *Rede über die Göttlichkeit des Sohnes und des heiligen Geistes* = PG (S. 334, Anm. 131) Band 46, 557.

[43] M. Tetz, Athanasiana. Zu Leben und Lehre des Athanasius, Berlin – New York 1995.

[44] Athanasius, *Apologia ad Constantium* 64, 1–2.

[45] Greek Papyri in the British Museum, Band 6, London 1924, Nr. 1914.

[46] M. J. Hollerich, The Alexandrian bishops and the grain trade: Ecclesiastical commerce in late Roman Egypt, Journal of the economic and social history of the Orient 25, 1982, 187–207.

[47] Athanasius, *Apologia contra Arianos* 87, 4–7.

[48] Athanasius, *Apologia ad Constantium* 14; dazu H. Heinen, Überfüllte Kirchen. Bischof Athanasius über den Kirchenbau in Alexandrien, Trier und Aquileia, Trierer Theologische Zeitschrift 111, 2002, 194–211.

[49] Iulian, *Briefe* 42.

[50] Apophthegmata patrum (alph. Serie) Epiphanius 1 = PG (S. 334, Anm. 131) 65, 164.

[51] Iulian, *Briefe* 60.

[52] Iulian, *Briefe* 52.

[53] Histoire »Acéphale« et index syriaque des lettres festales d'Athanase d'Alexandrie 268–269 (Sources Chrétiennes 319).

[54] Athanasius, *Leben des Antonius* 67.

[55] Ebda. 69.

[56] F. Jacques/B. Bousquet, Le raz de marée du 21 juillet 365, Mélanges d'archéologie et d'histoire de l'école française de Rome 96, 1984, 423–461.

[57] Ammianus Marcellinus 26, 10, 15–19.

[58] Libanius, *Reden* 18, 292.

[59] Vgl. S. 340, Anm. 151.

[60] M. Anouar Taher, Les séismes à Alexandrie et la destruction du phare, in: Alexandrie (S. 340, Anm. 140) 51–64.

[61] Sozomenos, *Kirchengeschichte* 6, 2.

[62] H. Brakmann, Σύναξις καθολική in Alexandria. Zur Verbreitung des christlichen Stationsgottesdienstes, Jahrbuch für Antike und Christentum 30, 1987, 74–89.

[63] B. T. Evetts, History of the Patriarchs of the Coptic church of Alexandria, Paris 1948, 419.

[64] CIL (S. 336, Anm. 32) Band 3, Nr. 19 = Nr. 6587 = Dessau (S. 336, Anm. 32) Nr. 1273.

[65] Epiphanius, *Panarion omnium haeresium* 51, 22, 9–10 (GCS [S. 332, Anm. 52] 31.

66 M. Clauss, Cultores Mithrae. Die Anhängerschaft des Mithras-Kultes, Stuttgart 1992, 243.
67 Rufinus, *Kirchengeschichte* 9, 175 22 (GCS [S. 332, Anm. 52] Band 9,2).
68 Damascius, *Epitoma Photiana* 48 (C. Zintzen, Damascii vitae Isidori reliquiae, Hildesheim 1967).
69 D. Bonneau, La crue du Nil. Divinité égyptienne à travers mille ans d'histoire (332 av.–641 ap. J. C.) d'après les auteurs grecs et latins, et les documents des époques ptolémaique, romaine et byzantine, Paris 1964.
70 Rufinus, *Kirchengeschichte* 9, 30 (GCS [S. 332, Anm. 52] Band 9,2).
71 Papyrus Oxyrhynchus (S. 331, Anm. 39) Band 16, Nr. 1830.
72 Eunapius, *Vitae sophistarum* 6, 9, 17.
73 Vgl. S. 343, Anm. 67.
74 Codex Theodosianus 16, 10, 11.
75 Anthologia Graeca 10, 87.
76 Ebda. 9, 183.
77 Theophylactus Simocattes, *Historia* 7, 13, 10.
78 Anthologia Graeca 9, 773.
79 Palladius, *Historia Lausiaca* 7.
80 P. Bridel, Le site monastique copte de Kellia. Sources historiques et explorations archéologiques, Genf 1986.
81 Socrates, *Kirchengeschichte* 6, 7, 2 (GCS [S. 332, Anm. 52] Neue Folge Band 1).
82 Synesius, *Briefe* 105 (S. 341, Anm. 21).
83 Socrates, *Kirchengeschichte* 6, 7, 8 (GCS [S. 332, Anm. 52] Neue Folge Band 1).
84 Theophilus in: Hieronymus, *Contra Johannem Hierosolymitanum* 1, 7 = PL (S. 333, Anm. 107) Band 23, 413 c.
85 Legenda aurea Kap. 56 (54), 247–249 (hrsg. v. T. Graesse).
86 Eunapius, *Leben der Philosophen* 471.
87 Sophronius, *Alia vita acephala sanctorum martyrum 176 Cyri et Joannis* = PG (S. 334, Anm. 131) Band 87,3, 3694.
88 S. Takács, The magic of Isis replaced, or Cyril of Alexandria's attempt at redirecting religious devotion, Poikila Byzantina 13, 1994, 489–507.
89 Kyrill, *Homilien* 18 = PG (S. 334, Anm. 131) Band 77, 422 a.
90 Vgl. S. 343, Anm. 87.
91 Sophronius, *Miracula sanctorum Cyri et Joannis* 30 = PG (S. 334, Anm. 131) Band 87,3, 3518.
92 Johannes Moschus, *Pratum Spirituale* 72 (Sources Chrétiennes 12).
93 Expositio totius mundi 37 (Sources Chrétiennes 124); vgl. M. Maehler, Trouble in Alexandria in a letter of the sixth century, Greek, Roman and Byzantine studies 17, 1976, 197–203.
94 Evetts (S. 342, Anm. 63) 456.
95 Athanasius, *Historia Arianorum* 5, 13 = PG (S. 334, Anm. 131) Band 25, 751.
96 Johannes von Nikiu, *Chronikon* 79, 1–10.
97 Codex Theodosianus 9, 45, 2.
98 Kyrill, *Fragmenta dogmatica* 1 = PG (S. 334, Anm. 131) Band 76, 1421–1424.
99 Augustinus, *Enarrationes in psalmos* 54, 1, 21 (CCSL [S. 341, Anm. 11] Band 39).

[100] Klagelieder 4, 18.
[101] Ambrosius, *Briefe* 40 (CSEL [S. 341, Anm. 10] Band 82,3).
[102] Socrates, *Kirchengeschichte* 7, 13, 4 (GCS [S. 332, Anm. 52] Neue Folge Band 1).
[103] Dio Chrysostomus, *Rede* 32, 32.
[104] Johannes von Nikiu, *Chronikon* 84, 98.
[105] Damascius, *Vita Isidori* frg. 239 (Zintzen [S. 343, Anm. 68]).
[106] Socrates, *Kirchengeschichte* 7, 7 (GCS [S. 332, Anm. 52] Neue Folge Band 1).
[107] R. J. Denella, When was Hypatia born?, Historia 33, 1984, 126–128.
[108] Sophronius, *Miracula sanctorum Cyri et Joannis* 28, 8 = PG (S. 334, Anm. 131) Band 87,3, 3504.
[109] Synesius, *Briefe* 124 (S. 341, Anm. 21).
[110] Photinus, *Bibliotheca* P 346 b = PG (S. 334, Anm. 131) Band 103, 1285.
[111] Anthologia Graeca 9, 400.
[112] Socrates, *Kirchengeschichte* 7, 13.
[113] Damascius, *Vita Isidori* frg. 102 (S. 343, Anm. 68).
[114] Socrates, *Kirchengeschichte* 7, 15.
[115] Codex Theodosianus 12, 12, 15 = Codex Iustinianus 10, 65, 6.
[116] Codex Theodosianus 16, 2, 42 = Codex Iustinianus 1, 3, 17; dazu J. Rougé, Les débuts de l'épiscopat de Cyrill d'Alexandrie et le code Théodosien, in ΑΛΕΞΑΝΔΡΙΝΑ (S. 338, Anm. 78), 339–349.
[117] Codex Theodosianus 16, 2, 43 = Codex Iustinianus 1, 3, 18.
[118] Ebd.
[119] Acta Conciliorum Oecumenicorum Band 2, 1, 2, 176.
[120] Damascius, *Vita Isidori* frg. 276 (S. 343, Anm. 68).
[121] Olympiodorus, *In Gorgiam* 485, d5 (W. Norvin, Olympiodori philosophi in Platonis Gorgiam commentaria, Leipzig 1936).
[122] Trombley (S. 342, Anm. 36) Band 2, 219–225.
[123] Acta Conciliorum Oecumenicorum Band 1, 4, 210.
[124] Codex Theodosianus 16, 19, 22.
[125] Isidor von Pelusium, *Briefe* 1, 270 = PG (S. 334, Anm. 131) Band 78, 74 a.
[126] Codex Theodosianus 16, 8, 9.
[127] Augustinus, *Briefe* 47, 3.
[128] Damascius, *Epitoma Photiana* frg. 174 (S. 343, Anm. 68).
[129] Damascius, *Epitoma Photiana* frg. 67 (S. 343, Anm. 68).
[130] Zacharias von Mytilene, *Vita Severi* 27–35 (Patrologia Orientalis 2).
[131] Acta Conciliorum Oecumenicorum, Band 1, 4, 2, 224–225.
[132] Acta Conciliorum Oecumenicorum, Band 1, 1, 3, 14.
[133] J. D. Mansi, Sacrorum conciliorum nova et amplissima collatio (Nachdruck Graz 1960), Band 6, 1025.
[134] Acta Conciliorum Oecumenicorum, Band 2, 1, 2, 129.
[135] Die Belege bei A. Calderini, Dizionario dei nomi geografici e topografici dell'Egitto greco-romano, Mailand 1935, Band 1, 61–62.
[136] Zacharias von Mytilene, *Kirchengeschichte* 4, 3.
[137] Ebda. 4, 10.
[138] Mansi (S. 344, Anm. 133) Band 7, 1066.

[139] Liberatus, *Breviarium* = PL (S. 333, Anm. 107) Band 68, 1036.
[140] Evetts (S. 342, Anm. 63) 466–467.
[141] Johannes, *Himmelsleiter* 4 = PG (S. 334, Anm. 131) Band 88, 78 a.

## Epilog

[1] H. Torrey, The history of the conquest of Egypt, north Africa and Spain, known as the Futûh Mi.sr of Ibn 'Abd al-Hakam, New Haven 1922, 82.
[2] D. J. Stanley/A. G. Warne, The Nile delta in its destruction phase, Journal of Coastal Research, 14, 1998, 794–825; D. J. Stanley et al., Nile flooding sank two ancient cities, Nature 412, 2001, 293–294.

## قيمة العملة

فى سياق الحديث عن تاريخ مدينة الإسكندرية ذكرت مبالغ كبيرة من العملات النقدية لا نعلم عن القيمة النسبية التى تربط بينها؛ ولهذا سوف أعيد حساب قيمة تلك المبالغ بمعادلتها بقيمة الكيلة "Scheffel" والتى تعادل ١٠,٥ لتر (للسوائل) و٨,٧ كيلوجرامًا (للحبوب وأمثالها)، مع الأخذ فى الاعتبار أن أسعار القمح قديمًا كانت تختلف اختلافًا بيّنًا من منطقة لأخرى. كما أن الأسعار كانت تتحدد أيضًا تبعًا لمقدار المحصول إذا كان وفيرًا أم قليلاً. ويلى ذلك حساب تلك المقادير مقارنة بقيمة استهلاك الفرد البالغ الذى يُفترض أنه يعادل ٤ كيلات (Scheffel moclü) فى الشهر، أى ٤٨ كيلة فى السنة تعادل ٤١٨ كيلوجرامًا.

وفيما يلى ما ورد ذكره من مبالغ

- **٨٠٠٠ تالنتة:**

إن الرجل البالغ في عصر الإسكندر كان يحتاج فى معيشته إلى ٢ أوبولا يوميًا تقريبًا، أى٧٥٠ في العام، كما أن ٨٠٠٠ تالنتة من الفضة تساوى ٤٨ مليون دراخمة(١ تالنت =٦٠٠٠ دراخمة)، أى ما يعادل ٢٨٨ مليون أوبولين، أى أن دراخمة واحدة = ٦ أوبولين، أى أن مبلغ ٨٠٠٠ تالنتة كان كافيًا لأن يعيش منه ٣٨٥ ألف شخص لمدة عام كامل.

**٤٠ مليون سيسترزن:**

إنه في العصر الإمبراطوري كان ٨,٧ كيلوجرامًا من القمح يساوي ٣ سيسترزن. وإن الفرد كان يحصل على ما قيمته ٤٨(كيلة، أو شيفل) مؤنة العام بالكامل فقط، أي ما يعادل ١٤٤ سيسترزن. وهذا المبلغ المذكور أعلاه كان كافيًا لإطعام ٢٧٥ ألف فرد لمدة عام بالكامل.

**١٣ مليون كيلة (Scheffel):**

هذه الكمية المذكورة والتي تعادل ١١٣١٠٠ طن، كانت كافية لإطعام ٢٧٠ ألف فرد لمدة عام. أما الكمية ٣٦ مليون شيفل فهي تعادل ٣١٣٢٠٠ طن، وكانت كافية لإطعام ٧٥٠ ألفًا لمدة عام.

**١٨ مليون سيسترزن:**

إن ٣٠٠٠ تالنتة فضة تساوي ٣٠٠٠×٦٠٠٠ دراخمة، حيث إن الدراخمة كانت تساوي سيسترزن. وبناء على الأسعار التي كانت سائدة في العصر الإمبراطوري/ القيصري، فإن هذا المبلغ المذكور كان يكفي لإطعام ١٢٤ ألف شخص لمدة عام.

**٧ ملايين سيسترزن:**

هذا المبلغ كان كافيًا لإطعام ٤٨ ألف شخص لمدة عام في العصر الإمبراطوري.

**أرباح أصحاب السفن:**

في العصر الإمبراطوري المتأخر، كانت تتفاوت أسعار القمح كما ورد في:

A.H.M.Jones, The later Roman empire, exford 1973, 445f, Bans 1

وهنا سوف أتحدث عن أسعار القمح في مصر إبان تلك الفترة، حيث إن أسعار القمح فى مصر كانت الأرخص عالميًا، حيث كانت مصر آنذاك المُصدّر الأكبر للقمح. فعلى سبيل المثال ٣٨,٤ (كيلة)، أى ٣٣٤ كيلوجرامًا قمحًا كانت تعادل سوليدوس واحدًا. وكان أصحاب السفن يحصّلون، إضافة إلى رسوم الشحن، ما يعادل ٩٠٠٠ طن قمح وهى تساوى ٢٧ ألف سوليدوس. وبهذا كانت الأجور السنوية لأصحاب السفن تعادل ٦٢ ألف سوليدوس تقريبًا. هذا المبلغ ٦٢٠٠٠ (سوليدوس) × ٣٣٤ كيلوجرامًا قمحًا (كيلة)، يعادل ٢٠٧٠٨٠٠٠ كيلوجرام قمح. هذه الكمية من القمح كانت كافية لإطعام ٤٩٥٠٠ شخص فى العام.

**مبلغ ١٠٠,٠٠٠,٠٠٠ (مائة مليون) سيسترزن:**

هذا المبلغ يرجع إلى العصر القيصرى، لقد كان سعر المودى (الكيلة) من القمح آنذاك ٣ سيسترزن. وبهذا يمكن للمرء أن يشترى بالمبلغ الذى ذكره بلينيوس ما يعادل ٣٣٣٣٣٣٣٣ كليوجرامًا، من القمح، وهى كمية كانت كافية لإعاشة ٧٩٧٠٠ فرد لمدة عام.

**رسوم النقل:**

إن قيمة الدينار الذى ورد ذكره فى المرسوم القيصرى(Gdilet) ما زال مختلفًا عليها من قِبَل الباحثين؛ ومن ثَم فإننى سأستند إلى النسبة التالية: كيلة واحدة (مودى / شيفل) عسكرى=٢١ لترًا سائلاً أو ١٧,٥ كيلوجرام غلال. وهذا قيمته نحو ١٠٠ دينار، وهذه الكمية نفسها كانت تساوى ٦ سيسترزن فى العصر القيصرى. وهكذا، فإن مصاريف الشحن كانت تُقدر بالدينار بقسمتها على ١٦ حتى يمكن معادلتها بالمصاريف المحددة فى العصر القيصرى. وقياسًا على ذلك، فإن قيمة شحن ١٧,٥ كيلوجرام من القمح من الإسكندرية إلى روما كانت تعادل سسترز واحدًا.

**مبلغ رشوة:**

ما ذُكر من مبالغ فى ذلك السياق معادلة بالجنيه الذهب الرومانى والـذى يساوى ٧٢ سوليدى.

إن ٥٠ جنيهًا من الذهب ، كانت تعادل ٣٦٠٠ سوليدى. بهذا المبلغ كـان بإمكان المرء شراء ١٢٣٨٤٠٠ كيلوجرام قمح، حيث إن سوليدى واحدًا = ٣٣٤ كيلوجرامًا قمحًا. وهذا المبلغ من المال كان كافيًا لإطعام ٢٩٠٠ فرد لمدة عام.

# كلمة شكر

في النهاية أود توجيه شكرى فى المقام الأول للسيد/ بيرنهـارد كلـوكنر نظرًا لمجهوداته القيّمة فى إخراج الكتاب، كما أوجه شـكرى للـسادة/ مارتـا والدكتور مارتين كلاوس والدكتورة كرستين جروس، كذلك الدكتور دوروتيـه هوبه، كذلك أشكر صديقى وزميل العمل الدكتور جريم فى جامعة ترير والذى ساعدنى فى الكثير من اللوحات التوضيحية. ومن جامعة فرنكفـورت أشـكر الدكتور/ شوبرت تسالريشه والذى منحنى لوحات من العملات القديمـة. كمـا أشكر السيد/ كريستوف زيللر الذى لاحظ العمل فى دار النشر وتابعـه. وفـى النهاية أشكر السادة فرانك جوديـو، ديتـر.أ. أريـون والـسيد جـورج .ف. روزنبور، حيث إنهم أثاروا اهتمامى وإعجابى بساحرة ولؤلؤة العـالم مدينـة الإسكندرية.

## المؤلف

**أ.د. مانفريد كلاوس**

- وُلد فى كلونيا بألمانيا عام ١٩٤٥.
- يعمل أستاذًا للتاريخ القديم بجامعة جوته بمدينة فرانكفورت الألمانية ــ يُعد من كُتّاب التاريخ البارزين بألمانيا.
- له العديد من المؤلفات، منها على سبيل المثال لا الحصر:

ــ رسالة الماچستير التى أعدها فى آثار العصور المتأخرة.

ــ النظم الإدارية وتأثيرها على سياسة قيصر (١٩٨١).

ــ مقدمة عن تاريخ إسبرطه وحضارتها (١٩٨٣).

ــ تاريخ إسرائيل منذ البداية وحتى سقوط بيت المقدس (١٩٨٦).

ــ ميثراس.. ديانة وأساطير (١٩٩٠).

ــ مقدمة فى التاريخ القديم.

## المترجم

**أشرف نادى أحمد**

- حاصل على ليسانس الآثار المصرية.
- حاصل على دبلوم تاريخ الفنون من كلية الآثار ــ جامعة القاهرة.
- حاصل على دبلوم الأدب الألمانى من جامعة ماكسمليان ــ ميونخ بألمانيا.
- يعمل مترجمًا بوزارة الصحة والسكان.

• قام بأعمال الترجمة الألمانية لمؤتمر السكان العالمى بالقاهرة عام ١٩٩٥.
• له العديد من الكتب المترجمة.
• كتب العديد من الكتب فى أدب الطفل.

## المراجع

**د. محمد صلاح محمد الخولى**

• ولد فى سوهاج عام ١٩٤٩.
• ليسانس الآداب ـ تخصص الآثار المصرية القديمة ـ كلية الآداب جامعة القاهرة قسم الآثار المصرية.
• ماجستير فى الآثار المصرية فى موضوع "المكاييل والموازين فى مصر القديمة" ـ قسم الآثار المصرية بكلية الآثار.
• أجرى دراسات فى اللغات: الأكادية، السريانية، الفينيقية، العربية والجنوبية فى جامعة بون بألمانيا.
• دكتوراه الفلسفة فى المصريات فى موضوع "خطابات عصر الرعامسة" من جامعة ڤيينا، ١٩٩٢.
• يعمل أستاذ مساعد بقسم الآثار المصرية بكلية الآثار ـ جامعة القاهرة.